NURUOSMANİYE KÜTÜPHANESİ
Kısmı Nuruosmaniye
Yeni Kayıt No 2919
Eski Kayıt No. 3424
Tasnif No.

المقدمة في فضل علم التاريخ ٥ — الكتاب الاول في طبيعة العمران ١٨

في العمران البشري على الجملة ٢١ — في قسط العمران من الارض ٢٢ — فرات ودجلة وجيحون ٢٤

صورة جغرافيا ٢٦ — الاقليم الاول ٢٨ — الاقليم الثاني ٣٠ — الاقليم الثالث ٣١ — الاقليم الرابع ٣٤

الاقليم الخامس ٣٧ — الاقليم السادس ٤٠ — الاقليم السابع ٤١

المقدمة الثالثة المعتدل من الاقاليم وتأثير الهوا في الوان البشر ٤٢ — في اثر الهوا في اخلاق البشر ٤٣

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع ٤٤ — اصناف المدركين للغيب من البشر ٤٦

تفسير حقيقة النبوة ٤٨ — سوال هرقل ٤٧ — الانسلاخ والوحي ٤٩

الحالومة ٤٩ — الرؤيا ٥١ — المجانين ٤٣ — الرياضة السحرية ٤٤

النجوم والرمل ٥٥ — الاسماء الطيبة ٥٦ — الزايرجة ٥٨ — اجيال البدو طبيعية ٦٠

جيل العرب في الخلقة طبيعي ٦٠ — اهل البدو اقرب الى الخير والشجاعة ٦٣ — معاناة اهل الحضر للاحكام ٦٠

اختلاط الانساب كيف يقع ٦٤ — ان البيت والشرف بالاصالة ٦٣ — ان الشرف للموالي ٦٢

الحسب في العقب اربعة آباء ٦٦ — الامم الوحشية اقدر على التغلب ٦٥ — حصول المذلة للقبيل ٦٥

منتهى الحسب ٦٨ — من علامات الملك التنافس ٦٧ — ملك امة وحشية اوسع ٦٧ ٦٩ ٧٠

تتابع الدول — المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب — الامة اذا غلبت اسرع اليها الفناء

العرب لا يحصل لهم الملك ٧١ — العرب ابعد الامم عن سياسة الملك ٧١ — لكل البوادي مغلوبون لاهل الامصار ٧٢

الفصل الثالث في الدول والملك والخلافة والمراتب ٧٣ ٧٤ — ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة ٧٣ ٧٤

الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم ٧٦ — عظم الدولة على نسب القايمين بها — من طبيعة الملك الانفراد بالمجد ٧٦

اذا استحكمت طبيعة الملك اقبلت الدولة على الهرم ٧٦ — للدولة اعمار طبيعية كالاشخاص ٧٨ ٧٩

انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة ٨٠ — ان الترف يزيد الدولة في اطوار الدولة ٨١ — كيف يختلف احوالها

اثار الدولة على نسبة قوتها ٨٢ — استظهار صاحب الدولة على قومه ٨٣ — فيما يعرض في الدول من حجر السلطان

حقيقة الملك واصنافه ٨٦ — فصل في معنى الخلافة والامامة ٨٧ — وفيه فساد الملك وصلاحه ٨٨

اختلاف الامة في حكم الخلافة وشروطها ٨٩ — مذاهب الشيعة في الامامة ٩٠ — وقعة علي ومعاوية ٩٨

انقلاب الخلافة الى الملك ٩١ — فصل في معنى البيعة وولاية العهد ٩٤ — الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة ١٠٢

الخطط الدينية الخلافية ٩٦ — القضاء ٩٩ ١٠٥ — العدالة والحسبة والسكة

اللقب بامير المومنين من سمات الخلافة ١٠٤ — العلماء ورثة الانبياء الحديث وفيه تحقيق الورثة ١٠٧ ١٠٦

في شرح اسم البابا والبطرك فيه الانجيل وكتابهم ١٠٨ — مراتب السلطان والملك والقابها ١١٠ ١١٢

الوزارة ١١٣ — الحجابة ١١٤ — ديوان الاعمال والجبايات ١١٦ — ديوان الرسل والكتابة ١١٧

الشرطة   مراتب السيف والقلم فی الدولة   شارات الملک والسلطان الخاصة
١٢٠   ١٢٣   ١٢٣
الدرهم والمثقال   اول من احدث الختم علی الکتب والشقة   الفساطیط
١٢٥   ١٢٧   ١٢٨
المقصورة فی الصلوة والدعا للخطبة   فی الحروب ومذاهب الامم فیها
١٢٨   ١٢٩
الهرم اذا نزل بالدولة لا ترتفع   طروق الخلل فی الدول   الخلل التی یطرق من جهة المال
١٤٠   ١٤٠   ١٤١
حدوث الدول وتجددها کیف یقع   فی وفور العمران آخر الدولة
١٤٢   ١٤٣   کتاب الحرمی
١٤٤
فی العمران البشری   فی امر الفاطمی والمهدی   کلام ابن العربی فی عنقاء مغرب
١٤٤   ١٤٨   ١٤٤
امر قسطنطینیه ونزول عیسی علیه السلام   فی حدثان الامم والدول   فی احوال علم الجفر والنجوم
١٤٥   ١٥٧   ١٥٩
المولد النبوی   عند قران العلویین   خراب العالم بالنار والماء   ودولة السلجوقیة
١٦٠   ١٦٠
فی البلدان والامصار ولکن   مزاج الشمس   فیما یجب مراعاته فی اوضاع المدن
١٦٤   ١٦٥   ١٦٦
فی المساجد والبیوت المعظمة فی العالم   فی مبادی الخراب فی الامصار
١٦٧   ١٧٢
فی اسعار المدن   فی حاجة المتمولین الی الجاه   الحضارة غایة للعمران
١٧٣   ١٧٥   ١٧٧
من مفاسد الحضارة   اختصاص الامصار ببعض الصنایع   فی لغات اهل الامصار
١٧٨   ١٧٩   ١٨٠
فی المعاش ووجوه من الکسب   الخدمة لیست من المعاش   ابتغاء الاموال من الدفاین
١٨١   ١٨٢   ١٨٣
الجاه مفید للمال   ان القایمین بامور الدین من القضاء والفتیا   فی معنی التجارة
١٨٥   ١٨٧   ١٨٧

2

رخص الاسعار   الاحتکار   رسوخ الصنایع فی الامصار
١٨٧   ١٨٨   ١٩٠
الامصار اذا قاربت الخراب   امهات الصنایع   احوال القابلة
١٩١   ١٩٢   ١٩٥
صناعة الطب   الخط والکتابة   صناعة الغناء   فصل فی الفکر الانسانی
١٩٦   ١٩٧   ٢٠٠   ٢٠٤
علوم الانبیاء   العلوم تکثر حیث یکثر العمران   علوم القرآن   علوم الحدیث
٢٠٦   ٢٠٩   ٢١٠   ١١٢
علم الفقه   علم الفرایض   علم اصول الفقه   علم الکلام   علم التصوف
١١٤   ١١٨   ١١٨   ١٢١   ١٢٩
کشف الغطاء عن المتشابه   المقامات   علم تعبیر الرؤیا   العلوم العقلیة
١٢٥   ٢٣٧   ١٣٤   ١٣٥
الفرس والروم   علم الحساب   علم الهندسة والهیئة   الازیاج والمنطق
٢٣٧   ٢٣٧   ٢٣٩   ٢٤٠
علم الفلاحة   علم الالهیات   علوم السحر والطلسمات   علم اسرار الحروف
٢٤٤   ٢٤٤   ٢٤٥   ٢٤٩
علم السیمیاء   استخراج زایرجه   علم الکیمیاء   صناعة النجوم وفساد غایتها
٢٤٩   ٢٥٤   ٢٦١   ٢٦٨
ثمرة الکیمیاء   وجه الصواب فی تعلیم العلوم   فی تعلیم الولدان ٥
٢٧١   ٢٧٦   ٢٧٧
الشدة علی المتعلمین مضرة بهم   العلماء بین البشر ابعد عن السیاسة   حملة العلم فی الاسلام
٢٧٨   ٢٧٩   ٢٨٠
علوم اللسان العربی   علم اللغة   علم البیان   علم الادب   لغة العرب متفقة
٢٨٢   ٢٨٣   ٢٨٤   ٢٨٥   ٢٨٦
تعلیم اللسان المضری   تفسیر لفظ الذوق   اهل الامصار قاصرون فی تحصیل هذه الملکة
٢٨٩   ٢٩٠
انقسام الکلام الی النظم والنثر   فی صناعة الشعر   صناعة النظم والنثر فی الالفاظ   المطبوع من الکلام والمصنوع   فی اشعار العرب

NURUOSMANIYE KÜTÜPHANESİ
Kısmı: Nuruosmaniye
Yeni Kayıt No. 2919
Eski Kayıt No. 3424
Tasnif No.

٣٤٢٤

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله
عثمان

وقف اكرم السلاطين من طبقات الملوك وابهى الخواقين بحسن السيرة والسلوك السلطان
ابن السلطان ابن السلطان ابو المواهب عثمان خان ابن السلطان مصطفى خان ادام الله الملك العلام
دولته وادام بصفحة تواريخ حسنته وانا الداعي الفقير
الحاج ابراهيم حنيف المفتش باوقاف
الحرمين المحترمين غفر له

فهرست ما تضمنه سفر هذه المقدمة من الابواب والفصول

الخطبة وفيها تقسيم الكتاب الى مقدمة وثلثة كتب **المقدمة** فى فضل علم التاريخ
والكتاب الاول فى العمران وما يعرض فيه من الملك والمعاش والصنايع والعلوم
وهذا الكتاب الاول ذهب باسم المقدمة حتى صار علماً عليها وهو الذى تضمنه هذا
السفر والكتاب الثانى فى اخبار العرب منذ بدا الخليقة ولهذا العهد فى اربع
طبقات العاربة والمستعربة والتابعة للعرب والمستعجمة المتاخرة
ودول المعاصرين لهم فى كل طبقة من النبط والسريانيين والمعربين وبنى اسرائيل
والنبط ويونان والروم ثم فى الدولة الاسلامية دول الكرد والترك
والتركمان والفرنج والكتاب الثالث فى احوال البربر وزناتة بديار المغرب
المقدمة فى فضل التاريخ وشى من اغلاط المورخين **الكتاب الاول** فى طبيعة
العمران وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والمعاش والعلوم
والصنايع وعلل ذلك واسبابه وانحصر الكلام فى ذلك فى ستة فصول
الاول فى العمران البدوى البشرى على الجملة واصنافه وقسطه من الارض
الثانى فى العمران البدوى والامم المتوحشة الثالث فى الدول واطلاقه
والملك ومراتبها الرابع فى العمران الحضرى والبلدان والامصار الخامس
فى الصنايع والمعاش والكسب السادس فى العلوم واكتسابها **الفصل الاول**
فى العمران البشرى على الجملة وفيه مقدمات الاول فى ان الاجتماع للبشر ضرورى
الثانية فى قسط العمران من الارض وفيها شرح الجغرافيا الثالثة فى
المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتاثير الهواء فى الوان البشر واحوالهم الرابعة
فى تاثير الهواء فى اخلاقهم الخامسة فى اختلاف احوال العمران فى الخصب
والجوع وتاثير ذلك فى ابدان البشر واخلاقهم السادسة فى اصناف المدركين
الغيب من البشر وفيه الكلام فى النبوة وحقيقتها والكهانة والرويا والكلام فى
العرافين والناظرين فى الاجسام الشفافة وفى قلوب الحيوان وعظامها واهل الزجر
واهل الطرق بالحصا والحبوب وحال الادراك عند التباس اليقظة بالنوم
وحال الكشف والرياضة السحرية وآثارها ومدارك البهاليل من المتصوفة
ومدارك المجانين واصحاب خط الرمل واصحاب حساب النيم والكلام فى زايرجة

العالم

العالم والكشف عن حقيقتها **الفصل الثانى** فى العمران البدوى وفيه فصول فى
ان اجيال البدو والحضر طبيعية فى ان اهل البدو اقرب من اهل الحضر فى ان
معاناة اهل الحضر للاحكام مذهبة للبأس منهم فى ان سكنى البدو انما يكون للقبايل
اهل العصبية فى ان العصبية انما يكون من الالتحام بنسب او ولاء فى ان صريح النسب
انما يوجد فى المتوحشين فى البدو من العرب والترك ومن فى معناهم فى كيف
يختلط الانساب فى ان الرياسة على اهل العصبية لا يكون فى غير نسبهم فى ان
البيت والشرف بالاصالة لاهل العصبية وبالمجاز والشبه لغيرهم فى ان
البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انما هو لمواليهم لا لآبائهم فى ان
نهاية الحسب فى العقب الواحد اربعة آباء فى ان الامم الوحشية اقرب الى
التغلب من سواها فى ان الغاية التى تجرى اليها العصبية هى الملك فى ان
من عوايق الملك حصول الترف والنعيم للقبيلة فى ان من عوايق الملك حصول
المذلة لهم والانقياد لغيرهم وفرض المغارم عليهم فى ان من علامات الملك
التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس فى ان الامة الوحشية يكون ملكها اوسع
فى ان الملك اذا ذهب من امة فقد يعود فى شعب آخر منها ان بقى ويكونون
اولى به بذلك الترتيب فى ان المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب فى شعاره
وزيه وساير نحله وعوايده فى ان الامة اذا غلبت وصارت فى ملكة غيرها اسرع
اليها الفناء فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسايط فى ان العرب اذا تغلبوا
على الاوطان اسرع اليها الخراب فى ان العرب لا يحصل لهم الملك الا
بصبغة دينية من نبوة او ولاية او فى معنى الدين فى ان العرب ابعد الامم
عن سياسة الملك فى ان البادية من القبايل والعصايب مغلوبون لاهل الامصار
الفصل الثالث فى الدول والخلافة والملك ومراتبها فى ان الملك والدول
العامة انما تحصل بالعصبية والشوكة فى ان الدولة اذا استقرت وتمهدت قد تستغنى
عن العصبية فى انه قد يحدث لاهل النصاب الملكى دولة بغير عصبية وتستغنى عنهم
فى ان الدولة العامة البعيدة الاستيلاء اصلها الدين ودعوة الحق فى ان الدعوة
الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصبية التى لها فى الاصل فى ان الدعوة
من غير عصبية لا تتم فى ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها
فى ان عظم الدول على نسبة العاملين بها فى عددهم فى ان الاوطان الكثيرة

القبايل لا يستحكم فيها دولة على النسبة العاملين بها في عدوهم في ان من طبيعة الملك
الدعة والسكون في انه اذا استحكمت طبيعة الملك من هذه اقبلت الدولة على الهرم
في ان الدول لها اعمار طبيعية كما للاشخاص في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة
في ان الترف يزيد الدولة قوة في اطوار الدولة من البداوة وما بعدها في ان
آثار الدولة على نسبة قوتها في الاصل في استظهار صاحب الدولة بالموالي
والمصطنعين على قومه في احوال الموالي والمصطنعين في الدول في ما يعرض في
الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه
في اللقب الخاص بالملك في حقيقة الملك واصنافه في ان ارهاف الحد مضر
بالملك مفسد له في معنى الخلافة والامامة في اختلاف الامة في حكم هذا
المنصب وشروطه في مذاهب الشيعة في الامامة في انقلاب الخلافة
الى الملك في معنى البيعة في ولاية العهد وفيها الكلام في شان يزيد
ووصية النبي صلى الله عليه وسلم لعلي وايضاح الحق في الحروب الاسلامية
وتنزيه الصحابة والتابعين عما يظن بهم فيها في الخطط الدينية الخلافية من
الامامة والفتيا والقضاء والعدالة والحسبة والسكة في اللقب بامير المومنين
في شرح اسم البابا والبترك عند النصارى والكوهن عند اليهود في مراتب الملك
والسلطان والقابها من الوزارة والحجابة والجباية والكتابة والشرطة وقيادة
الاساطيل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم وشارات الملك المختصة
من الآلة والسرير والسكة والخاتم والطراز والفساطيط والسياج و
المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة في الحروب ومذاهبها عند الامم
في الجباية وسبب وفورها ونقصها في ضرب المكوس اواخر الدول في ان التجارة
للسلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية في ان ثروة السلطان وحاشيته
انما تكون وسط الدولة في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية
في ان الظلم موذن بخراب العمران في الحجاب كيف يقع في الدول وانه يعظم
عند الهرم في انقسام الدولة بدولتين في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع
في كيفية طروق الخلل للدولة في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة
بالمطاولة لا بالمناجزة في وفور العمران اواخر الدول وكثرة الموتان والمجاعات
في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره في امر الفاطمي واختلاف

الناس في شانه في حدثان الدول والملاحم والجفر **الفصل الرابع في العمران**
الحضري من البلدان والامصار والمدن في ان الدول اقدم من الامصار
في ان الملك يدعو الى الامصار في ان المدن العظيمة والهياكل انما يشيدها
الملك الكبير في ان الهياكل العظيمة والمباني لا تستقل الدولة الواحدة بها
فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن في المساجد والبيوت المعظمة في العالم
في ان الامصار والمدن بافريقية والمغرب قليلة في ان المباني والمصانع
في الملة قليلة بالنسبة الى من قبلها في ان المباني التي تختطها العرب يسرع اليها
الخراب في مبادي الخراب في الامصار في ان تفاضل الامصار في الرفه بتفاضل
العمران في الغلاء والرخص في اسعار المدن في قصور اهل البدو عن سكنى
الامصار في ان الاقطار تختلف في الرفه كالامصار في تاثل العقار في الامصار
ولمو قيمته في حاجة المتمولين من اهل الامصار الى الجاه في ان الحضارة
في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصالها في ان الحضارة غاية للعمران
ونهاية لعمره وموذنة بفساده في ان الامصار التي هي كراسي الملك
تخرب بخراب الدولة في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنايع في وجود
العصبية لاهل الامصار في لغات اهل الامصار **الفصل الخامس في المعاش**
ووجوهه من الكسب والصنايع في حقيقة الرزق والكسب وان الكسب
هو قيمة الاعمال البشرية في وجوه المعاش واصنافه في ان الخدمة للناس ليست
من المعاش الطبيعي في ان ابتغاء الاموال من الدفاين والكنوز ليس بمعاش
طبيعي في ان الجاه مفيد للمال في ان السعادة والكسب لاهل الخضوع والملق وانها
من اسباب السعادة في ان القايمين بوظايف الدين لا ثروة لهم في ان الفلاحة
من معاش المستضعفين واهل الخير في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها في اي
اصناف الناس ينتفع بالتجارة وايهم ينبغي له تركها في ان خلق التجارة نازلة
عن خلق الاشراف في نقل التاجر للسلع في الاحتكار في ان رخص الاسعار مضر
بالمحترفين بالرخيص في ان الصنايع لا بد لها من المعلم في ان الصنايع انما تكمل في
العمران الحضري في رسوخ الصنايع في الامصار برسوخ الحضارة وقدمها في ان
الصنايع انما تستجاد وتكثر بكثرة طالبها في ان الامصار اذا قاربت الخراب
انتقصت منها الصنايع في ان العرب ابعد الناس عن الصنايع في ان من حصلت له

ملكة في صناعة فلا تجد ملكة اخرى في امهات الصنايع البنا التجارة الحياكة
الخياطة التوليد صناعة الطب وانها ضرورية في الامصار دون البدو في ان
الخط والكتاب من عداد الصنايع صناعة الوراقة صناعة الغنا في ان الصنايع
تكسب صاحبها عقلاً وخصوصا الكتابة والحساب الفصل السادس في العلوم
واصنافها والتعليم وطرقه في ان العلم والتعليم طبيعي للبشر في ان تعليم العلم
من جملة الصنايع في ان العلوم انما تكثر حيث تكثر العمران والحضارة في اصناف
العلوم الواقعة في العمران علوم القرآت الرسم التفسير علوم الحديث
الفقه وما يتبعه من الفرايض اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات
علم الكلام علم التصوف علم التعبير العلوم العقلية علوم العدد صناعة الحساب
الجبر والمقابلة المعاملات الفرايض الحسابية علوم الهندسة اوقليدس
المخروطات المساحة المناظر علم الهيئة الازياج علم المنطق الطبيعيات
الطب الفلاحة علم الالهيات علوم السحر والطلسمات علم اسرار الحروف والكلام
على زايرجة العالم للسبتي علم الكيميا في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها
في انكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها والمفاسد الناشية عنها في ان كثرة
عايقة عن التحصيل في العلوم في كثرة الاختصارات في العلوم مخلة بالتعليم
في وجه تعليم العلوم وافادته في ان العلوم الآلية لا توسع فيها المسائل
والانظار في تعليم الولدان واختلاف طرقه في الامصار في ان الشدة على
المتعلمين مضرة بهم في ان الرحلة ولقاء المشيخة مفيدة في التعليم في ان
العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم
العجم في ان العجمة اذا سبقت الى اللسان قصرت بصاحبها تحصيل العلوم
عن اللسان في علوم اللسان العربي النحو اللغة البيان الادب في ان اللغة
ملكة صناعية في ان لغة العرب لهذا العهد لغة بنفسها مغايرة للغة
مُضَر وحِمير في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة بنفسها كذلك في تعلم
اللسان المضري في ان ملكة المضري غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعلم
في تفسير لفظة الذوق عند اهل البيان وانه لا يحصل لمن سبقت له عجمة في
ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل الملكة اللسانية المستفادة
بالتعلم في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر في انه لا يتفق الاجادة في النظم

والنثر في الالفاظ لا للمعاني في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ و
جودتها بجودة المحفوظ في ان الكلام المطبوع اوثق مبنىً واعلى رتبة
في البلاغة في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر في اشعار العرب
واهل الامصار لهذا العهد شعر الجيل العربي الموشحات
والازجال للاندلسيين عروض البلد للمغاربة
المواليا ودوبيت لاهل المشرق
والله اعلم

في صناعة الشعر ووجه تعلمه في الاقليلا
صناعة النظم والنثر في الالفاظ
لا في المعاني صح

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله

الحمد لله الذي له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت وله الاسماء الحسنى والنعوت العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى او يخفيه السكوت القادر فلا يعجزه شيء في السموات والارض ولا يفوت انشانا من الارض نسما واستعمرنا فيها اجيالا واُمما ويسر لنا منها ارزاقا وقسما تكنفنا الارحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الايام والوقوت وتعتورنا الآجال التي خط علينا كتابه الموقوت وله البقاء والثبوت وهو الحي الذي لا يموت والصلوة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في التورية والانجيل المنعوت الذي تمخض لفصاله الكون قبل ان تتعاقب الآحاد والسبوت ويتباين زحل والبهموت وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت وعلى آله واصحابه الذين لهم في محبته واتباعه الاثر البعيد والصيت والشمل الجميع في مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت صلى الله عليه وعليهم ما اتصل للاسلام جده المبخوت وانقطع بالكفر حبله المبتوت وسلم كثيرا

اما بعد فان فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال وتتساوى في فهمه العلماء والجهال اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول تنمو لها الاقوال وتتصرف فيها الامثال وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال واتسع للدول النطاق فيها والمجال وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق وجدير بان يعد في علومها وخليق وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام

وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها او ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض طويل ومرعى الجهل بين الانام وبيل والحق لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل انما هو يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل هذا وقد دون الناس في الاخبار واكثروا وجمعوا تواريخ الامم والدول في العالم وسطروا وان الذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة فهم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل ولا حركات العوامل مثل ابن اسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وان كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ومشهور بين الحفظة الثقات الا ان الكافة اختصوهم بقبول اخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم فللعمران طبائع في احواله ترجع اليها الاخبار وتحمل عليها الروايات والآثار ثم ان اكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك لعموم الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتارك ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والامم والامر العمم كالمسعودي ومن نحا منحاه وجاء بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف في العموم والاحاطة عن الشأو البعيد فقيد شوارد عصره واستوعب اخبار افقه وقطره واقتصر على احاديث دولته ومصره كما فعل ابن حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرقيق مؤرخ افريقية والدولة التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل او متبلد

ينسج على ذلك المنوال ويحتذي منه بالمثال ويذهل عما احالته الايام من الاحوال
واستبدلت به عوائد الامم والاجيال فيجلبون الاخبار عن الدول وحكايات
الوقايع في العصور الاول صوراً قد تجردت عن موادها وصفاحاً انتضيت
من اغمادها ومعارف تستنكر للجهل طارفها وتلادها انما هي حوادث لم تعلم
اصولها وانواع لم تعتبر اجناسها ولا تحققت فصولها يكررون في موضوعاتها
الاخبار المتداولة باعيانها اتباعاً لمن عني من المتقدمين بشانها ويغفلون امر الاجيال
الناشية في ديوانها بما اعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم صحفهم عن بيانها
ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا اخبارها نسقاً محافظين على نقلها وهماً او صدقاً
لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها واظهر
من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعاً بعد الى مبادي
الاحوال ومراتبها مفتشاً عن اسباب تزاحمها او تعاقبها باحثاً عن المقنع
في تباينها او تناسبها حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب ثم جاء
آخرون بافراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء باسماء الملوك والاقتصار
مقطوعة عن الانساب والاخبار موضوعة عليها اعداد ايامهم بحروف
الغبار كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل وليس
يعتبر لهؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما اذهبوا بالفوائد واخلوا
بالمذاهب المعروفة للمورخين والعوائد ولما طالعت كتب القوم وسبرت
غور الامس واليوم نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم وسمت
التصنيف من نفسي وانا المفلس احسن السوم فانشات في التاريخ كتاباً
رفعت فيه عن احوال الناشية من الاجيال حجاباً وفصلته في الاخبار والاعتبار
باباً باباً وابديت فيه لاولية الدول والعمران عللاً واسباباً وبنيته على اخبار
الجيلين الذين عمروا المغرب في هذه الاعصار وملأوا اكناف الضواحي منه
والامصار وما كان لهم من الدول الطوال والقصار ومن سلف لهم من الملوك
والانصار وهما العرب والبربر اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب ماويهما
وطال فيه على الاحقاب مثواهما حتى لا يكاد يتصور عنه منتواهما ولا يعرف
اهله من اجيال الآدميين سواهما فهذبت مناحيه تهذيباً وقربته لافهام العلماء
والخاصة تقريباً وسلكت في تبويبه وترتيبه مسلكاً غريباً واخترعته من بين

المناحي مذهباً عجيباً وطريقةً مبتدعةً واسلوباً وشرحت فيه من احوال
العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك
بعلل الكوائن واسبابها ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى
تنزع من التقليد يدك وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال
وما بعدك ورتبته على مقدمة وثلثة كتب المقدمة في علم التاريخ
وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المورخين الكتاب الاول في العمران وذكر
ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش
والصنايع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب الكتاب الثاني
في اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدا الخليقة الى هذا العهد وفيه
الالمام ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين
والفرس وبني اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك الكتاب الثالث
في اخبار البربر ومن اليهم من زناتة وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار المغرب
خاصةً من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره
وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على آثاره في دواوينه
واسفاره فافدت ما نقصني من اخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول
الترك فيما ملكوه من الاقطار واتبعت بها ما كتبته في تلك الاسطار وادرجتها
في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من امم النواحي وملوك الامصار منهم والضواحي
سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص مقتدياً بالمرام السهل من العويص داخلاً
من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب اخبار الخليقة
استيعاباً واذلل من الحكم النافرة صعاباً واعطى لحوادث الدول عللاً واسباباً
واصبح للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً ولما كان مشتملاً على اخبار العرب والبربر
من اهل المدر والوبر والالمام بمن عاصرهم من الدول الكبر وافصح بالذكرى
والعبر في مبادي الاحوال وما بعدها من الخبر سميته كتاب العبر وديوان المبتدا
والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر
ولم اترك شيئاً في اولية الاجيال والدول وتعاصر الامم الاول واسباب
التصرف والحول في القرون الخالية والملل وما يعرض في العمران من دولة
وملة ومدينة وحلة وعزة وذلة وعلم وصناعة وكسب واضاعة واحوال

منقلبة مشاعة وبدو وحضر وواقع ومنتظر الا واستوعبت جمله
واوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذاً لما ضمنته من العلوم
الغريبة والحكم المحجوبة القريبة وانا من بعدها موقن بالقصور بين اهل
العصور معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء في النظر بين الانتقاد
لابين الارتضاء والتمهد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضاء
فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى من
الاخوان مرتجاة والله اسال ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه وهو حسبي ونعم الوكيل

المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بما يعرض للمؤرخين

من المغالط والاوهام وذكر شيء من اسبابها اعلم ان فن التاريخ فن عزيز
المذهب جم الفائدة شريف الغاية اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم
في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم
فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا فهو محتاج
الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما
الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتمد فيها مجرد
النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال
في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما
لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيراً ما
وقع للمؤلفين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم
فيها على مجرد النقل غثاً او سميناً لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها
ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر
والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط
سيما في احصاء الاعداد والاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات
اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها
على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المورخين في جيوش بني اسرائيل
وان موسى عليه السلم احصاهم في التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة
من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف او يزيدون ويذهل في ذلك
عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش فلكل مملكة من الممالك

حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك
العوائد المعروفة والاحوال المالوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى
هذا العدد يبعد ان يقع بينها زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها
وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين وثلاثاً او ازيد فكيف يقتتل
هذان الفريقان او تكون غلبة احد الصفين وشيء من جوانبه لا تشعر بالجانب الاخر
والحاضر يشهد لذلك فالماضي اشبه بالآتي من الماء بالماء ولقد كان ملك
ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان
من غلب بخت نصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على امرهم وتخريب بيت المقدس
قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان
الغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب
اوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك فلم تبلغ جيوش الفرس قط
مثل هذا العدد ولا قريبا منه واعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة و
عشرين الفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في اتباعهم اكثر من مائتي الف
وعن عائشة والزهري ان جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية انما
كانوا ستين الفاً كلهم متبوع وايضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق
ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية
والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب
الاول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب
وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وايضا فالذي بين موسى واسرائيل انما هو
ثلاثة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن قاهث بفتح الهاء وكسرها [بفتح الواو]
ابن لاوي بكسر اللام وفتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسبه في التوراة
والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط
واولادهم حين اتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا
مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة يتداولهم ملوك القبط من
الفراعنة ويبعد ان يتشعب النسل في اربعة اجيال الى مثل ذلك العدد
وان زعموا ان عدد تلك الجيوش انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد
ايضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا احد عشر اباً فانه سليمان بن داود

ابن انى بن عويذ ويقال عوفذ بن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون
ابن عمينا ذاب ويقال حميناذب بن رام بن حصرون ويقال حسرون بن بارص
ويقال بيرص بن يهودا بن يعقوب ولا يتشعب النسل فى احد عشر من الولد
الى مثل هذا العدد الذى زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون واما
ان يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك فى الحاضر
الشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً والذى ثبت
فى الاسرائيليات ان جنود سليمان كانت اثنى عشر الفاً خاصة وان مقرباته
كانت الفاً واربعماية فرس مرتبطة على ابوابه هذا هو الصحيح من اخبارهم
ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم وفى ايام سليمان عليه السلام كان عنفوان
دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من اهل العصر اذا افاضوا فى
الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم او قريبا منه وتفاوضوا فى الاخبار
عن جيوش المسلمين او النصارى او اخذوا فى احصاء اموال الجبايات وخرج
السلطان ونفقات المترفين وبضايع الاغنياء الموسرين توغلوا فى العدد
وتجاوزوا حدود العوايد وطاوعوا وساوس الاغراب فاذا استكشف
اصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت احوال اهل الثروة فى بضايعهم و
فوايدهم واستجليت عوايد المترفين فى نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه
وما ذلك الا لولوع النفس بالغرابة وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة
عن المعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطاء ولا عمد ولا يطالبها فى
الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى البحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم
فى مراتع الكذب لسانه ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الحق وحسبك بها
صفقة خاسرة وقد يقال ان العوايد انما تمنع من نمو الذرية الى مثل هذا العدد
فى غير بنى اسرائيل لان ذلك انما وقع معجزة لاباءهم الانبياء فقد نقل انه اوحى
الى ابراهيم واسحق ويعقوب صلوات الله عليهم ان الله يكثر ذريتهم حتى تكاثر
نجوم السماء وحصى الارض وانجز الله لهم هذا الوعد كرامة لهم ومعجزة خارقة
للعادة فى حقهم فلا يعارضه العوايد ولا تطعن فيه وان عارض احد بالطعن
على الخبر بعد بنى اسرائيل فى التيه وانه انما ورد فى التورية واليهود قد بدلوها
على ما هو معروف فالتبديل الذى ورد فى ذلك ليس على ظاهره عند المحققين

وانما هو التحريف والتاويل على ما ذكره البخارى فى صحيحه لان العادة تمنع من
اعتماد اهل الاديان ذلك فى صحفهم الالهية فيكون هذا النمو الكثير فى بنى اسرائيل
معجزة خارقة للعادة وتبقى العادة مانعة من ذلك فى غيرهم على اصل ولا انها
واما استبعاد الزحف بينهم فصحيح لكنه لم يقع ولم تدع اليه حاجة واما اختصاص
كل مملكة بعدد ما من الحامية فصحيح لكنه لم يقع ولم تدع اليه حاجة ولم تكن لهم
دولة وانما نموا هذا النمو ليستولوا على ارض كنعان التى وعدهم الله بها وطهر لهم
بقعتها ومن ذلك الاستيلاء جاء الملك ولكن هذه معجزات والله الهادى
الى الحق ومن الاخبار الواهية للمورخين ما ينقلونه كافة فى اخبار التبابعة
ملوك اليمن وجزيرة العرب انهم كانوا يغزون من قرارهم باليمن الى افريقية
والبربر من بلاد المغرب وان افريقش بن قيس بن صيفى من اعاظم ملوكهم الاول
وكان لعهد موسى عليه السلام او قبله بقليل غزا افريقية واثخن فى البربر وانه الذى
سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فاخذ هذا الاسم عنه
ودعوا به يومئذ وانه لما انصرف عن المغرب حجز هنالك قبايل من حمير فاقاموا بها
واختلطوا باهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى
والمسعودى وابن الكلبى والبيهقى الى ان صنهاجة وكتامة من حمير ويأباه نسابة
البربر وهو الصحيح وذكر المسعودى ايضا ان ذا الاذعار من ملوكهم بعد افريقش
وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله
عن ياسر ابنه من بعده وانه بلغ وادى الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً
لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون فى تبع آخر وهو اسعد ابو كرب وكان على
عهد يستاسب من ملوك الفرس الكيانية انه ملك الموصل وآذربيجان ولقى الترك
فهزمهم واثخن فيهم ثم غزاهم ثانيا وثالثة كذلك وانه بعد ذلك اغزى ثلثة من بنيه
الى بلاد فارس والى بلاد الصغد من امم الترك وراء النهر والى بلاد الروم
فملك الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الصين فوجد اخاه الثانى
الذى غزا الى الصغد قد سبقه اليها فاثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعاً
بالغنايم وتركوا ببلاد التبت قبايل من حمير فهم بها لهذا العهد وبلغ الثالث
الى قسطنطينية فحاصرها ودوخ بلاد الروم ورجع وهذه الاخبار كلها بعيدة
من الصحة عريقة فى الوهم والغلط واشبه باحاديث القصاص الموضوعة

وذلك ان ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم
بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهات فبحر الهند
من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من الشرق وبحر السويس
الهابط منه ايضا الى السويس من اعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في المصور
الجغرافيا فلا يجد السالك من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك
هنالك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد
ان يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير ان تصير من اعماله
هذا ممتنع في العادة وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط
بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو اسرائيل الشام ولم ينقل قط ان التبابعة
حاربوا احدا من هؤلاء الامم ولا ملكوا شيئا من هذه الاعمال وايضا فالشقة
من اليمن الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا
ساروا في غير اعمالهم احتاجوا الى انتساف الزروع والنعم وانتهاب البلاد
فيما يمرون عليه ولا يكفي ذلك للازودة والعلوفة وان نقلوا كفايتهم
من ذلك من اعمالهم فلا يفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وان يمروا في طريقهم
كلها باعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر
تمر بهؤلاء الامم من غير ان تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك ابعد وابعد
واشد امتناعا فدل على ان هذه الاخبار واهية او موضوعة واما وادي
الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص
طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة
مما يتوفر الدواعي الى نقله واما غزوهم بلاد الشرق وارض الترك وان كان
طريقه اوسع من مسالك السويس الا ان الشقة هنا ابعد وامم فارس
والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط ان التبابعة ملكوا بلاد
فارس ولا بلاد الروم وانما كانوا يحاربون فارس على حدود ارض العراق
وبلاد العرب ما بين البحرين والحيرة المتاخمة بينهما في الاعمال وقد وقع ذلك
بين ذي الاذعار منهم وكيقاوس من ملوك الكينية وبين تبع الاصغر ابو كرب
ويستاسب منهم ايضا ومع ملوك الطوائف بعد الكينية والساسانية من بعدهم
بمجاوزة التبابعة ارض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت ممتنع عادة

من اجل الامم المعترضة دونهم والحاجة الى الازودة والعلوفات مع بعد
الشقة كما مر فالاخبار بذلك واهية مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل
لكان ذلك قادحا فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق
في خبر يثرب والاوس والخزرج ان تبعا الآخر سار الى المشرق محمول على العراق
وبلاد فارس واما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه بما تقرر
فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتامل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة
يقع لك تمحيصها باحسن وجه والله الهادي الى الصواب فصل وابعد
من ذلك واعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر عند قوله تعالى
الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد فيجعلون لفظة ارم اسما لمدينة
وصفت بانها ذات العماد اي الاساطين وينقلون انه كان لعاد
ابن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص
الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لابنين مثلها
فبنى مدينة ارم في صحاري عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة
وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة واساطينها من الزبرجد
والياقوت وفيها اصناف الشجر والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار
اليها باهل مملكته حتى اذا كانوا منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم
صيحة من السماء فهلكوا ذكر ذلك الطبري والثعلبي والزمخشري وغيرهم من
المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة انه خرج في طلب ابل له
فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معوية فاحضره وقص عليه
فبعث عن كعب الاحبار وساله عن ذلك فقال هي ارم ذات العماد وسيدخلها
رجل من المسلمين في زمانك احمر اشقر قصير على حاجبه خال وفي عنقه خال
يخرج في طلب ابل له ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل
انتهى وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض وصحاري
عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانها متعاقبا
والادلاء تقص طرقها من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة
خبر ولا ذكرها احد من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انها درست فيما درس
من الآثار لكان اشبه الا ان ظاهر كلامهم انها موجودة وبعضهم يقول انها

دمشق بناءً على ان قوم عاد ملكوها وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غائبة
عن الحس وانما يعثر عليها اهل الرياضة والسحرة مزاعم كلها اشبهه
بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب
في لفظة ذات العماد من انها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين فتعين
ان يكون بناءً ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عادُ ارم على الاضافة
من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي اشبه بالاقاصيص
الموضوعة واقرب لتقاسير سيعقوبه المنقولة في عداد المضحكات والا
فالعماد هي عماد الخيام وان اريد بها الاساطين فلا بدع في وصفهم بانهم
اهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا انه بناء خاص في مدينة معينة
او غيرها وان اضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى اضافة الفصيلة الى القبيلة
كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار من غير ضرورة الى هذا المحمل
البعيد الذي يجلب لتوجيهه امثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله
عن مثلها لبعدها عن الصحة **ومن الحكايات المدخولة** للمؤرخين ما ينقلونه
كافةً في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر
ابن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر
اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصًا على اجتماعهما في مجلسه
وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها
زعموا في حالة سكر فحملت فوشي بذلك للرشيد فاستغضب وهيهات
ذلك من منصب العباسة في دينها وابوتها وجلالها وانها بنت عبد الله
ابن عباس ليس بينها وبينه الا اربعة رجال هم اشراف الدين وعظماء
الملة من بعده العباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله ابن ابي جعفر
المنصور بن محمد السجاد بن علي ابي الخلفا ابن عبد الله ترجمان القران
ابن العباس عم النبي عليه السلام بنت خليفة اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز
والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحي
ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة
الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فاين يطلب الصون
والعفاف اذا ذهب عنها واين توجد الطهارة والزكاء اذا فقد من بيتها

وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم
تملك جده من الفرس او تولاه جدها من عمومة الرسول واشراف قريش
قريش وغايته ان جذبت دولتهم بضبعه وضبع ابيه واستخلصتهم ورقتهم الى
منازل التشريف وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم على
بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة
بابنة ملك من اعاظم ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي
دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه واين قدر العباسة
والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة
واحتجانهم اموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه
فغلبوه على امره وشركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه فعظمت
آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم
وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة
وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون
رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها اهل الدولة بالمناكب
ودفعوهم عنها بالراح لمكان ابيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهده وخليفة
حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلبه على امره وكان يدعوه يا ابت
فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم
وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الامال
وتخطت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وتسربت الى خزائنهم
في سبيل التزلف والاستمالة اموال الجباية وافاضوا في رجال الشيعة وعظماء
القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا
العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم واسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات
واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى اسفوا
البطانة واحقدوا الخاصة واغصوا اهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة
والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كانت
بنو قحطبة اخوال جعفر من اعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم
من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم اواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم

نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكامن الحقود التي بعثتها
منهم صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة كقصتهم في
يحيى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب اخي محمد المهدي الملقب
بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل ابن يحيى
من بلاد الديلم على امان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه الف الف درهم على ما ذكره
الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه
مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرماً لدماء اهل البيت
بزعمه ودالة على السلطان بحكمه وسأله الرشيد عنه لما وشي به اليه ففطن
وقال اطلقته فابدى له وجه الاستحسان واسرها في نفسه فاوجد السبيل بذلك
على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم والكفئت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم
وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين ايامهم ومن تأمل اخبارهم
واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الاثر ممهد الاسباب
وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شان
نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في محاورة الاصمعي
للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم انه انما قتلهم الغيرة والمنافسة
في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به اعداؤهم من البطانة فيما
دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هنداً انجزتنا ما تعد • وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة • انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لما سمعها قال اي والله عاجز حتى بعثوا بامثال هذه كامن غيرته
وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال واما
ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان
فحاش لله ما علمنا عليه من سوء واين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب
لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء
ومحاورته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان و
بكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة
على اوقات الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها حكى الطبري وغيره انه كان يصلي

كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن ابي مريم
مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلوة لما سمعه يقرأ وما لي لا اعبد
الذي فطرني قال والله لا ادري لم فما تمالك الرشيد ان ضحك ثم التفت
اليه مغضباً وقال يا ابن ابي مريم في الصلوة ايضاً اياك والقرآن والدين
ولك ما شئت بعدهما وايضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب
عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده ابي جعفر بعيد
زمن انما خلفه غلاماً وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل
الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين اشار اليه بتاليف الموطأ يا ابا عبد الله
انه لم يبق على وجه الارض اعلم مني ومنك واني قد شغلتني الخلافة فضع
انت للناس كتاباً ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر
ووطئه للناس توطئة قال مالك فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ
ولقد ادركه ابنه المهدي ابو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد
لعياله من بيت المال ودخل عليه يوماً وهو بمجلسه يباشر الخياطين
في ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك وقال
يا امير المومنين علي كسوة هذا العيال عامنا هذا من عطائي فقال لك ذلك
ولم يصده عنه ولا سمح بالانفاق من اموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد
على قرب العهد من هذه الخليفة وابوته وما ربي عليه من امثال هذه السير
في اهل بيته والتخلق بها ان يعاقر الخمر او يجاهر بها وقد كانت حال الاشراف
من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها
مذمة عند الكثير منهم والرشيد واباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات
دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد واوصاف الكمال ونزعات العرب وانظر
ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك
في مائدته فحماه عنه ثم امر صاحب المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد
وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله فاعد ابن بختيشوع للاعتذار
ثلث قطع من السمك في ثلثة اقداح خلط احدها باللحم المعالج بالتوابل والبقول
والبوارد والحلواء وصب على الثانية ماء مثلجاً وعلى الثالثة خمراً صرفاً
وقال في الاول والثاني هذا طعام امير المومنين ان خلط السمك بغيره او لم يخلطه

وقال في الثالث هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتى
اذا انتبه الرشيد واخذ للتوبيخ احضر الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط
واماع وتفتت ووجد الاخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما فكانت له
في ذلك معذرة وتبين من ذلك ان حال الرشيد في اجتناب الخمر
كانت معروفة عند بطانته واهل مائدته ولقد ثبت انه عهد بحبس ابي نواس
لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب واقلع وانما كان الرشيد يشرب
نبيذ التمر على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيها معروفة واما الخمر الصرف
فلا سبيل الى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع
محرما من اكبر الكبائر عند اهل الملة ولقد كان اولئك القوم كلهم بمنجاة
من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه
من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج
عن الاباحة الى الحظر وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المورخون الطبري
والمسعودي وغيرهم على ان جميع من سلف من خلفاء بني امية وبني العباس
انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم
والسروج وان اول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل
ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم ايضا في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم
ويتبين ذلك باتم من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة في اولها من البداوة
والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الاول ان شاء الله تعالى **وبباب هذا**
او قريبا منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن اكثم قاضي المامون وصاحبه انه كان
يعاقر المامون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى افاق

يا سيدي وامير الناس كلهم ... قد جار في حكمه من كان يسقيني

اني غفلت عن الساقي فصيرني ... كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن اكثم والمامون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ
ولم يكن محظورا عندهم واما السكر فليس من شانهم وصحابته للمامون انما كانت
خلة في الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المامون
وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة فقام يتجسس ويلتمس الاناء مخافة ان يوقظ
يحيى بن اكثم وثبت انهما كانا يصليان الصبح جميعا فاين هذا من المعاقرة

وايضا فيحيى بن اكثم كان من اهل الحديث وقد اثنى عليه ابن حنبل واسمعيل
وخرج عنه الترمذي وذكر الحافظ المزني ان البخاري روى عنه في غير الجامع
فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ينبزه المجان بالميل الى الغلمان بهتانا
على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى اخبار القصاص الواهية
التي لعلها من افتراء اعدائه فانه كان محسدا في كماله وخلته
للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزها عن ذلك ولقد ذكر
لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله من يقول هذا
وانكر ذلك انكارا شديدا واثنى عليه اسمعيل بما كان يقال فيه فقال معاذ الله
ان تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد وقال كان يحيى بن اكثم
ابرا الى الله من ان يكون فيه شي مما كان يرمى به من امر الغلمان ولقد
كنت اقف على سرائره فاجده شديد الخوف لله لكنه كانت فيه دعابة
وحسن خلق فرمي بما رمي وذكره ابن حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما يحكى عنه
لان اكثرها لا يصح عنه **ومن امثال** هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب
العقد من حديث الزنبيل في سبب اصهار المامون الى الحسن بن سهل
في بنته بوران وانه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد بزنبيل
مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاعتقده
وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صعدا الى مجلس شانه كذا ووصف
من زينة فرشه وتنضيد آنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك
النفس وان امراة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائعة
الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر
حتى الصباح ورجع الى اصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه
على الاصهار الى ابيها واين هذا كله من حال المامون المعروفة في دينه وعلمه
واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه واخذه بسير الخلفاء الاربعة
اركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله في صلواته واحكامه
فكيف يصح عنه احوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل
وغشيان السمر سبيل عشاق الاعراب واين ذلك من منصب بنت الحسن بن سهل
وشرفها وما كان بدار ابيها من الصون والعفاف وامثال هذه الحكايات

كثيرة وكتب المورخين معروفة وانما يبعث على وضعها والحديث بها
الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المروات ويتعللون بالقوم
فيما ياتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون باشباه هذه الاخبار
وينقرون عنها عند تصفحهم لاوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا
من احوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون
ولقد عذلت يوما بعض الامراء من ابناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه
بالاوتار وقلت له ليس هذا من شانك ولا يليق بمنصبك فقال افلا ترى
الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين
في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تاسيت بابيه او اخيه او ما رايت كيف
قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي واعرض ومن الاخبار
الواهية ما يذهب اليه الكثير من المورخين في العبيديين خلفاء الشيعة
بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن اهل البيت صلوات الله عليهم والطعن
في نسبهم الى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على احاديث
لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم
وتفننا في الشمات بعدوهم حسب ما نذكر بعض هذه الاحاديث في اخبارهم
ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وادلة الاحوال التي اقتضت
خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم
عن مبدا دولة الشيعة ان ابا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى
من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه ابي القاسم
خشيا على انفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وانهما خرجا
من الاسكندرية في زي التجار ونمى خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر
والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى اذا ادركا خفي حالهما على تابعهما
بما لبسوا به من الشارة والزي فافلتوا الى المغرب وان المعتضد
اوعز الى الاغالبة امراء افريقية بالقيروان وبني مدرار امراء سجلماسة
باخذ الافاق عليهما واذكاء العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة
من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل
ان يظهر الشيعة على الاغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور

دعوتهم بافريقية والمغرب ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز
وقاسموا بني العباس في ممالك الاسلام شق الابلمة وكادوا يلجون
عليهم مواطنهم ويديلون من امرهم ولقد اظهر دعوتهم ببغداد وعراقها
الامير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة
جرت بينه وبين امراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كريتا وما زال بنوا
العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني امية وراء البحر ينادون
بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال
الامر واعتبر حال القرمطي اذ كان دعيا في انتسابه كيف تلاشت دعوته
وتفرق اتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا
وبال امرهم ولو كان امر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

فمهما تكن عند امرئ من خليقة • وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم ومصلاه
وموطن الرسول ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض امرهم
وشيعتهم في ذلك كله على اتم ما كانوا عليه من الطاعة اليهم والحب فيهم
واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا
بعد ذهاب الدولة ودروس اثرها داعين الى بدعتهم هاتفين باسماء صبيان
من اعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم بالوصية
ممن سلف قبلهم من الائمة ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا اعناق الاخطار
في الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس في امره ولا يشبه في بدعته
ولا يكذب نفسه فيما ينتحله والعجب من القاضي ابي بكر الباقلاني شيخ النظار
من المتكلمين يجنح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الراي الضعيف
فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد في الدين والتعمق في الرافضية
فليس ذلك بدافع في صحة نسبهم وليس اثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم
من الله شيئا في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شان ابنه انه ليس
من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم
لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا ومتى عرف
امرؤ قضية او استيقن امرا وجب عليه ان يصدع به والله يقول الحق

وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال الظنون الدول بهم وتحت رقبة
من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة
بعد اخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل
فلو تسأل الايام ما اسمي ما درت • واين مكاني ما عرفن مكانيا •
حتى لقد سمي محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك
شيعتهم لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة
آل عباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي
الفائل الى المستضعفين من خلفائهم واعجب به اولياؤهم وامراء دولتهم المتولون
لحروبهم مع الاعداء يدفعون به عن انفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة
والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة
العبيديين واهل دعوتهم حتى لقد اسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا
النسب وشهد بذلك من اعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي واخوه
المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء ابو حامد الاسفرايني والقدوري والصيمري
وابن الاكفاني والابيوردي وابو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من
اعلام الائمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ثنتين واربعمائة في ايام
القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس
ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون
كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد
في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة اصدق
شاهد واوضح دليل على نسبهم فالمعتضد اقعد بنسب اهل البيت من كل احد
والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلتمس فيه
ضوال الحكم وتحدى اليه ركائب الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند
عند الكافة فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت
النهج الامم ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الابريز الخالص واللجين
المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل
نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه
ومثل هذا وابعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن

عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم وصلاته
وسلامه الامام بعد ابيه بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظنن
في الحمل المخلف عن ادريس الاكبر انه لراشد مولاهم قبحهم الله وابعدهم
ما اجهلهم اما يعلمون ان ادريس الاكبر كان اصهاره في البربر وانه منذ دخل
المغرب الى ان توفاه الله عز وجل عريق في البدو وان حال البادية في كل
ذلك غير خافية اذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب واحوال حرمهم
اجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن
البناء وعدم الفواصل من المساكن وكان راشد يتولى خدمة الحرم اجمع من
بعد مولاه بمشهد من اوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة
المغرب الاقصى عامة على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه
على بيعة ادريس الاصغر من بعد ابيه واتوه طاعتهم عن رضى واصفاق وبايعوه
وغزواته ولو حدثوا انفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت اسماعهم ولو من عدو
كاشح او منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت
هذه الكلمات من بني العباس اقتالهم ومن بني الاغلب عمالهم كانوا بافريقية
وولاتهم وذلك انه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب من وقعة فخ اوعز
الهادي الى الاغالبة ان يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا
به وخلص الى المغرب فتم امره وظهرت دعوته وظهر الرشيد بعد ذلك على
ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية
وادهانه في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي ابيه للتحيل
على قتل ادريس فاظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه
ادريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به ووقع خبر مهلكه
من بني العباس احسن المواقع لما رجوه من قطع اسباب الدعوة العلوية بالمغرب
واقتلاع جرثومتها ولما تأدى اليهم خبر الحمل المخلف لادريس فلم يكن الا كلا ولا
واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس
تجددت فكان ذلك عليهم انكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزل
بدولة العرب عن ان يسموا الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد التحيل على
ادريس الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه الا اهلاكه بالسموم
فعند ذلك فزعوا الى اوليائهم من الاغالبة في سد تلك الفرجة من ناحيتهم

وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل ان تشيع
منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الاغالبة عن برابرة
المغرب الاقصى اعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم احوج لما طرق الخلافة من انتزاء
المماليك على سدتها واستطالتهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم احكامها
طوع اغراضهم في رجالها وجباياتها واهل خططها وسائر نقضها وابرامها كما قال شاعرهم
خليفة في قفص بين وصيف وبغا • يقول ما قالا له كما تقول الببغا •
فخشي هؤلاء الامراء الاغالبة بوادر السعايات وتلووا بالمعاذير فطورا باحتقار
المغرب واهله وطورا بالارهاب بشان ادريس الخارج به ومن قام مقامه
من اعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون سكته في تحفهم
وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعرضا باستفحاله وتهويلا باشتداد شوكته
وتعظيما لما دفعوا اليه من مطالبه ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة ان
الجئوا اليه وطورا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا
لشانه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وافن عقول من خلف
من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق
ولم يزل هذا دابهم حتى انقضى امر الاغالبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء
اسماع الغوغاء ووقر عليها بعض الطاعنين اذنه واعتدها ذريعة الى النيل
من خلفهم عند المنافسة وما لهم قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض
فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش ابيه والولد للفراش
على ان تنزيه اهل البيت عن مثل هذا من عقائد الايمان فالله سبحانه قد اذهب
عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن
الرجس بحكم القران ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء باثمه وولج الكفر من بابه
وانما اطنبت في هذا الرد سدا لابواب الريب ودفعا لصدر الحاسد لما سمعته
اذناي من قائله المعتدي عليهم بالقدح في نسبهم بفريته وينقله بزعمه عن بعض
مؤرخي المغرب ممن انحرف عن اهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والا
فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكني جادلت
عنهم في الحياة الدنيا وارجو ان يجادلوا عني يوم القيمة ولتعلم ان اكثر الطاعنين
في نسبهم انما هم الحسدة لاعقاب ادريس هذا من منتم الى اهل البيت او دخيل فيهم

فان ادعاء هذا النسب دعوى شرف عريض على الامم والاجيال من اهل الافاق
فتعرض التهمة فيه ولما كان نسب بني ادريس هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر
ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع احد في دركه
اذ هو نقل الامة والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدهم
ادريس مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلتهم ودروبهم
وسيفه منتضى براس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره
التي جاوزت اخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر
غيرهم من اهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من امثالها وما عضد شرفهم النبوي
من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن انه بمعزل عن ذلك وانه
لا يبلغ مد احدهم ولا نصيفه وان غاية امر المنتمين الى البيت الكريم ممن لم يحصل له
امثال هذه الشواهد ان يسلم لهم حالهم لان الناس مصدقون في انسابهم وبون
ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص بريقه
وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعا حسدا من عند
انفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن الفائل
والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال
وهيهات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من اهل هذا البيت الكريم من
يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ اعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم
لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم
ابن ادريس بن ادريس وهم نقباء اهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدهم
ادريس ولهم السيادة على اهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة
ان شاء الله وهم بنو عمران بن محمد بن الحسن بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن علي بن محمد
ابن يحيى بن ابرهيم بن يحيى الجوطي والنقيب لهذا العهد منهم محمد بن حمد بن محمد
ابن عمران ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة
الراي من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين
ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على
اهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون
في نفوسهم من حسده على شانه فانهم لما راوا من انفسهم مناهضته في العلم

اتباعه من انتسابه في اهل البيت وانما حمل
الفقهاء على تكذيبه ما كمن صح

والقبايل في الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بانه متبوع الراى مسموع القول موطا
العقب نقموا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لدعوته
وايضا فكانوا يونسون من ملوك لمتونة اعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم
لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان
من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فاصبحوا
بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب
عليهم والمناصبة لهم تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم
وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على الدولة ما نقم وخالف اجتهاده
فقهاؤهم فنادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من اصولها
وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت قوة واشد شوكة واعز انصارا وحامية
وتساقطت من ذلك من اتباعه نفوس لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت
ووقوه بانفسهم من الهلكة وتقربوا الى الله باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة
والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم وادالت بالعدوتين من الدول
وهو بحاله من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله
وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد الذي ربما تجنح اليه النفوس
وتخادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله
وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح
لما تم امره وانفسحت دعوته سنة الله في عباده واما انكارهم نسبه
في اهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع انه ان ثبت انه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل
يقوم على بطلانه لان الناس مصدقون في انسابهم وان قالوا ان الرياسة
لا تكون على قوم في غير اهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما ياتي في الفصل الاول
من هذا الكتاب والرجل قد راس ساير المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد اليه
والى عصابته من هرغة حتى تم امر الله في دعوته فاعلم ان هذا النسب الفاطمي
لم يكن امر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وانما كان اتباعهم له
بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك
النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه
بينهم فيكون النسب الاول كانه انسلخ منه ولبس جلدة هولاء وظهر فيها

انفسخت خ

فلا يضره الانتساب الاول في عصبيته اذ هو مجهول عند اهل العصابة ومثل هذا
واقع كثيرا اذا كان النسب الاول خفيا فانظر قصة عرفجة وجرير في رياسة
بجيلة وكيف كان عرفجة من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير
رياستهم عند عمر رضي الله عنه كما هو مذكور تتفهم منه وجه الحق والله الهادي
للصواب وقد كدنا ان نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط
فقد زلت اقدام كثير من الاثبات والمورخين الحفاظ في مثل هذه الاحاديث
والآراء وعلقت بافكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن
القياس وتلقوها هم ايضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم
حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعد من مناحي العامة
فاذن يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبايع الموجودات
واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوايد والنحل
والمذاهب وساير الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين
الغايب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف
والقيام على اصول الدول والملل ومبادي ظهورها واسباب حدوثها ودواعي
كونها واحوال القايمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث
واقفا على اصل كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد
والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه
وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن اسحق
من قبلهما وامثالهم من علماء الامة وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار
انتحاله مجهلة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله
والخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعى بالهمل واللباب بالقشر والصادق
بالكاذب والى الله عاقبة الامور ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن
تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء
دوي وشديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد
من اهل الخليقة وذلك ان احوال العالم والامم وعوايدهم ونحلهم لا تدوم
على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال
من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك

يقع في الافاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده
وقد كانت في العالم امم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة
وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على احوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم
وصنايعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وساير مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعتمارهم
للعالم تشهد بها اثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب
فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوايد الى ما يجانسها او يشابهها والى ما يباينها
ويباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة
اخرى وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ياخذه الخلف عن السلف
ثم درست دولة العرب وايامهم وذهب الاسلاف الذين شيدوا عزهم
ومهدوا ملكهم وصار الامر في ايدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق
والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم امم وانقلبت احوال وعوايد
نسي شانها واغفل امرها والسبب الشايع في تبدل الاحوال والعوايد
ان عوايد كل جيل تابعة لعوايد سلطانه كما يقال في الامثال الحكمية الناس
على دين الملك واهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد
وان ينزعوا الى عوايد من قبلهم وياخذون الكثير منها ولا يغفلون عوايد جيلهم
مع ذلك فيقع في عوايد الدولة بعض المخالفة لعوايد الجيل الاول فاذا جاءت
دولة اخرى من بعدهم ومزجت من عوايدهم وعوايدها خالفت ايضا بعض
الشي وكانت للاولى اشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى
المباينة بالجملة فما دامت الامم والاجيال تتعاقب في الملك والسلطان
لا تزال المخالفة في العوايد والاحوال واقعة والقياس والمحاكات للانسان
طبيعية معروفة من الغلط غير مامونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده
وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع فيجريها لاول وهلة على ما عرف ويقيسها
بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط فمن هذا الباب ما ينقله
المورخون من احوال الحجاج وان اباه كان من المعلمين مع ان التعليم لهذا العهد
من جملة الصنايع المعاشية البعيدة عن اعتزاز اهل العصبية والمعلم مستضعف
مسكين منقطع الجذم فيتشوف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنايع المعاشية
الى نيل الرتب التي ليسوا لها باهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم

وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من ايديهم فسقطوا في مهواة الهلكة
والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم وانهم اهل حرف وصنايع للمعاش
وان التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة
صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة
البلاغ فكان اهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون
كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي
اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه
وقتلوا واختصوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون على تعليم ذلك وتفهيمه للامة
لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبي
صلى الله عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام
وما جاء به من شرايع الدين بعث في ذلك من اصحابه العشرة فمن بعدهم
فلما استقر الاسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من
ايدي اهلها واستحالت بمرور الايام احوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية
من النصوص لتعدد الوقايع وتلاحقها فاحتاج ذلك الى قانون يحفظه من الخطا
وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فاصبح من جملة الصنايع والحرف كما ياتي ذكره
في فصل العلم والتعليم واشتغل اهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان
فدفع للعلم من قام به من سواهم واصبح حرفة للمعاش فشمخت انوف المترفين
واهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله
محتقرا عند اهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان ابوه من سادات
ثقيف واشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف
ما علمت ولم يكن تعليمه للقران على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش
وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول في الاسلام ومن هذا الباب ما يتوهمه
المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا احوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة
في الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون
ان الشان في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بابن ابي عامر
حاجب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوايف باشبيلية اذا سمعوا
ان اباءهم كانوا قضاة انهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة

من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الاول وابن ابي عامر وابن عباد
كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الاموية بالاندلس واهل عصبيتها وكان
مكانهم فيها معلوماً ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء
كما هي لهذا العهد بل انما كان القضاء في الامر القديم لاهل العصبيات من قبيل الدولة
ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الصوائف
وتقليدهم عظائم الامور التي لا تقلد الا لمن له الغناء فيها بالعصبية فيغلط السامع
في ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هي واكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر
من اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ اعصار بعيدة
لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة اهل العصبية من البربر فبقيت
انسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر مفقودة
بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا للمذلة
يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون بها الغلب والتحكم فتجد
اهل الحرف منهم والصنائع متصدين لذلك ساعين في نيله فاما من باشر
احوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة المغربية وكيف يكون التغلب
بين الامم والعشائر فقل ما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره ومن هذا الباب
ايضا ما يسلكه المورخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه
وامه واباه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك
تقليد لمورخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمورخون لذلك العهد
كانوا يضعون تواريخهم لاهل الدولة وابناؤها متشوفون الى سير سلفهم و
ومعرفة احوالهم ليقتفوا اثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال
من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لابناء صنائعهم وذويهم والقضاة
ايضا كانوا من اهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون
الى ذكر ذلك كله واما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف
الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض
في قوتها وغلبها ومن كان يناهضها من الامم او يقصر عنها فما الفائدة
للمصنف لهذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي
والوزير والحاجب من دولة قديمة لا نعرف فيها اصولهم ولا انسابهم ولا

ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المولفين الاقدمين
والذهول عن تحري الاغراض من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين
عظمت اثارهم وعفت على الملوك اخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة
وبني سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدي وابن ابي عامر وامثالهم
فغير نكير الالماع باباءهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم في عداد الملوك
ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي ان التاريخ انما هو ذكر
الاخبار الخاصة بعصر او جيل فاما ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال
والاعصار فهو اس للمورخ تنبني عليه اكثر مقاصده وتتبين به اخباره وقد كان
الناس يفردونه بالتاليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه
احوال الامم والافاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم
وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق
شعوب العرب والعجم فصار اماماً للمورخين يرجعون اليه واصلاً يعولون في
تحقيق الكثير من اخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك
والممالك خاصة دون غيرها من الاحوال لان الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها
كبير انتقال ولا عظيم تغير واما لهذا العهد وهو اخر المائة الثامنة فقد انقلبت
احوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر
اهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من اجيال العرب بما كسروهم
وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم
هذا الى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من
الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيراً من
محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها
فقلص من ظلالها وفل من حدها واوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي
والاضمحلال احوالها وانتقض عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار
والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول
والقبائل وتبدل الساكن وكانما بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب
لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكانما نادى لسان الكون في العالم بالخمول
والانقباض فبادر الى الاجابة والله وارث الارض ومن عليها واذا تبدلت

الاحوال جملة فكانما تبدل الخلق من اصله وتحول العالم باسره وكانه خلق جديد
ونشاة مستانفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون احوال الخليقة والآفاق
واجيالها والعوايد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره
ليكون اصلا يقتدي به من ياتي من المورخين من بعده وانا ذاكر في كتابي هذا
ما امكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا او مندرجا في اخباره وتلويحا لاختصاص
مقصدي في التاليف بالمغرب واحوال اجياله واممه وذكر ممالكه ودوله دون
ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على احوال المشرق وامه وان الاخبار المتناقلة
لا توفي كنه ما اريده منه والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه
في البلاد كما ذكر في كتابه مع انه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء احواله وفوق
كل ذي علم عليم ومرد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين
واجب ومن كان الله في عونه تيسرت عليه المذاهب وانجحت له المساعي والمطالب
ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من اغراض التاليف والله المسدد والمعين
وعليه التكلان وقد بقي علينا ان نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف
التي ليست من لغة العرب اذا عرضت في كتابنا هذا واعلم ان الحروف في النطق
كما ياتي شرحه بعد هي كيفيات للاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من
تقطيع الصوت بقرع اللهات واطراف اللسان مع الحلق او الحنك
او الاضراس او بقرع الشفتين ايضا فتتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك
القرع وتجي الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في
الضماير وليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لامة من
الحروف ما ليس لامة اخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية
وعشرون حرفا كما علمت ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا وفي لغتنا ايضا
حروفا ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هولاء من العجم
ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة باوضاع
حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع الف وبا وجيم وراء وطاء الى آخر الثمانية
والعشرين فاذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن الدلالة
الكتابية مغفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه
من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من اصله

ولما كان كتابنا مشتملا على احوال البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم
او بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا
الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه
فاصطلحت في كتابي هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه
ليتوسط القاري بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تاديته وانما اقتبست
ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف فان النطق
بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في
داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت
انا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر
بين الكاف الصريحة عندنا والجيم او القاف مثل اسم بلكين فاضعها كافا
وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او
ثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم او القاف وهذا
الحرف اكثر ما يجي في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف
المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القاري انه متوسط فينطق به
كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعنا برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا
قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر

والتغلب والكسب والمعاش والعلوم والصنايع ونحوها وما لذلك من العلل
والاسباب اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني
الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش
والتانس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشا
عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم
من الكسب والمعاش والعلوم والصنايع وساير ما يحدث في ذلك العمران
بطبيعته من الاحوال ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله اسباب
تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال
الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه

من كذبه واذا خامرها تشيع لراي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة
وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع
في قبول الكذب ونقله ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة
بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح ومنها الذهول عن المقاصد
فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه
فيقع في الكذب ومنها توهم الصدق وهو كثير وانما يجي في الاكثر من جهة
الثقة بالناقلين ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس
والتصنع فينقلها المخبر كما راها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه ومنها
تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال
واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة
بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا
في الاكثر براغبين في الفضايل ولا متنافسين في اهلها ومن الاسباب المقتضية له
ايضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبايع الاحوال في العمران فان كل
حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته
وفيما يعرض له من احواله فاذا كان السامع عارفا بطبايع الحوادث والاحوال
في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب
وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار
المستحيلة وينقلونها وتوثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته
دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق
الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي
راها وعمل تماثيلها من اجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب
حين خرجت وعاينتها وتم بناؤه في حكاية طويلة من احاديث خرافة مستحيلة من
قبل اتخاذه التابوت الزجاج ومصادمة البحر وامواجه بجرمه ومن قبل ان
الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة
وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيرها وفي ذلك اتلافه لا ينتظرون به
رجوعه من غرره ذلك طرفة عين ومن قبل ان الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل
تختص بها انما هي قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة

البشاعة والتهويل لا انه حقيقة وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية والقادح
المحيل لها من طريق الوجود ابين من هذا كله ان المنغمس في الماء ولو كان في
الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته
فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرية والروح القلبي فيهلك
مكانه وهذا هو السبب في هلاك اهل الحمامات اذا اطبقت عليهم عن الهواء
البارد والمتدلين في الابار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها
بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلي فيها يهلك لحينه وبهذا السبب
يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل ريته اذ هو حار
بافراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج اليه حار فيستولي الحار على
روحه الحيواني فيهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وامثال ذلك ومن
الاخبار المستحيلة ما نقله المسعودي ايضا في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع
اليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم
وانظر ما ابعد هذا عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت ومنها ما نقله البكري
في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط باكثر من ثلثين مرحلة وتشتمل
على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما ياتي
خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي
ايضا في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كلها من نحاس بصحراء سجلماسة
ظفر بها موسى بن نصير في غزاته الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان
الصاعد اليها من اسوارها اذا اشرف على الحايط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع
آخر الدهر في حديث مستحيل من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد
نفضها الركاب والادلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال
التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها
وان المعادن غاية الموجود منها ان يصرف في الآنية والخرثي واما تشييد
مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وامثال ذلك كثير وتمحيصه انما
هو بمعرفة طبايع العمران وهو احسن الوجوه واوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز
صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل
الرواة حتى يعلم هل ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع واما اذا كان مستحيلا فلا فائدة

للنظر في التعديل او التجريح ولقد عد اهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة
مدلول اللفظ او تاويله ان تؤول الى ما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح
هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع
العمل بها متى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة للعدالة
والضبط واما الاخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة
فلذلك وجب ان ينظر في امكان وقوعه وصار ذلك فيها اهم من التعديل
ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج
بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار
بالامكان والاستحالة ان ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه
من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن
ان يعرض له واذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار
والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن
شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان لنا
ذلك معيارا صحيحا يتحرى به المورخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه
وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تاليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فانه
فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي
بيان ما يلحقه من الاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا شان كل علم من العلوم
وضعيا كان او عقليا واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب
النزعة عزيز الفائدة اعثر عليه البحث وادى اليه الغوص وليس من علم الخطابة
الذي هو احد الكتب المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة
في استمالة الجمهور الى راي او صدهم عنه ولا هو ايضا من علم السياسة المدنية
اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل والمدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل
الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين
الفنين اللذين ربما يشبهانه وكانه علم مستنبط النشاة ولعمري لم اقف
على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة ما ادري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم
او لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا فالعلوم كثيرة والحكماء في
امم النوع الانساني متعددون وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل فاين

علوم الفرس التي امر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح واين علوم الكلدانيين
والسريانيين واهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها واين علوم القبط
من قبلهم وانما وصل الينا علوم امة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المامون
باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم نقف
على شيء من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعقلة طبيعية يصلح ان يبحث
عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب ان يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة
علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلهم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا
انما ثمرته كما رايت في الاخبار فقط وان كان مسائله في ذاتها وباختصاصها شريفة
لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه والله اعلم وما اوتيتم من العلم
الا قليلا وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لاهل
العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والمطلب مثل ما يذكره
الحكماء في اثبات النبوة من ان البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم
والوازع ومثل ما يذكر في اصول الفقه في باب اثبات اللغات ان الناس محتاجون
للعبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات اخف ومثل
ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد ان الزنا مخلط للانساب مفسد
للنوع وان القتل ايضا مفسد للنوع وان الظلم موذن بخراب العمران المفضي
لفساد النوع وغير ذلك من ساير المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على
المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه
المسائل الممثلة وكذلك ايضا يقع الينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة
لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام الموبذان لبهرام بن بهرام في حكاية البوم
التي نقلها المسعودي ايها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام
لله بطاعته والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك
الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل الى
العمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له
قيما وهو الملك ومن كلام انوشروان في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند
بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال
واصلاح العمال باستقامة الوزراء وراس الكل بافتقاد الملك رعيته بنفسه

واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه. وفي الكتاب المنسوب لارسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه الا انه غير مستوفى ولا معط حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد اشار في ذلك الكتاب الى هذه الكليات التي نقلناها عن الموبذان وانوشروان وجعلها في الدايرة الغريبة التي اعظم القول فيها وهي قوله. العالم بستان. سياجه الدولة. الدولة سلطان تحيا به السنة. السنة سياسة يسوسها الملك. الملك نظام يعضده الجند. الجند اعوان يكفلهم المال. المال رزق يجمعه الرعية. الرعية عبيد يكفلهم العدل. العدل مالوف وبه قوام العالم. العالم بستان. ثم يرجع الى اول الكلام.

فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت اعجازها على صدورها واتصلت في دايرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوايدها وانت اذا تأملت كلامنا في فصل الملك والدول واعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في اثنائه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفى مبينا باوعب بيان واوضح دليل وبرهان اطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة الموبذان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثيرة من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه انما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في اسلوب الترسيل

وبلاغة الكلام وكذلك حوم القاضي ابو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على ابواب تقرب من ابواب كتابنا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا اصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا اوضح الادلة انما يبوب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والماثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من اكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ وكانه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما واعثرنا على علم جعلنا سن بكره وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن ساير الصنايع انظاره وانحاءه فتوفيق من الله وهداية فان فاتني شيء في احصائه او اشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لاني نهجت له السبيل واوضحت الطريق والله يهدي بنوره من يشاء. ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من احوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنايع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتندفع بها الاوهام وترتفع الشكوك ونقول لما كان الانسان متميزا عن ساير الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنايع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامي لا بفكر وروية ومنها السعي في المعاش والاعمال في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر او حلة للانس بالعشرة واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار واطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالامصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الاحوال امور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول الاول في العمران

البشرى على الجملة واصنافه وقسطه من الارض الثاني فى العمران البدوى
وذكر القبايل والامم الوحشية الثالث فى الدول والخلافه والملك وذكر
المراتب السلطانية الرابع فى العمران الحضرى والبلدان والامصار
الخامس فى الصنايع والمعاش والكسب ووجوهه السادس فى العلوم واكتسابها
وتعلمها وقدمت العمران البدوى لانه سابق على جميعها كما يتبين لك بعد
وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار واما تقديم المعاش فلان المعاش
ضرورى طبيعى وتعلم العلم كمال او حاجى والطبيعى اقدم من الكمالى وجعلت
الصنايع مع الكسب لانها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما يتبين بعد
والله الموفق والمعين الفصل الاول من الكتاب الاول فى العمران البشرى
على الجملة وفيه مقدمات الاولى فى ان الاجتماع للانسان ضرورى ويعبر
الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدنى بالطبع اى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية
فى اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه
على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته
وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة
عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه
اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن
والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات
لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفخارى هب انه ياكله حبا من غير
علاج فهو ايضا يحتاج فى تحصيله حبا الى اعمال اخرى اكثر من هذه من الزراعة
والحصاد والدرس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه
الى الات متعددة وصنايع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان توفى بذلك
كله او ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه
ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة اكثر منهم
باضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا فى الدفاع عن نفسه الى الاستعانة
بابناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع الحيوانية كلها وقسم القدر بينها جعل
حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس مثلا
اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد

والفيل اضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل لكل
واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضا
من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنايع بخدمة الفكر والصنايع تحصل له
الالآت التى تنوب له عن الجوارح المعدة فى ساير الحيوانات للدفاع مثل الرماح التى
تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة
عن البشرات الجاسية الى غير ذلك وغيره مما ذكر جالينوس فى كتاب منافع الاعضاء
فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة
فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفى قدرته ايضا باستعمال الالات
المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنايع والمواعين المعدة لها فلابد فى ذلك
كله من التعاون عليه بابناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت
ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له
ايضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك
عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح
للمدافعة وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضرورى
للنوع الانسانى والا لم يكمل وجودهم وما اراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه
اياهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم وفى هذا الكلام نوع
اثبات للموضوع فى فنه الذى هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن
لما تقرر فى الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع فى ذلك
العلم فليس ايضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق
بفضله ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم
فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم
وليست السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم بكافية فى دفع العدوان
بينهم لانها موجودة لجميعهم فلابد من شئ آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون
من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا
منهم تكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان
وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان طبيعية لابد لهم منها
وقد توجد فى بعض الحيوانات العجم على ما ذكر الحكماء كما فى النحل والجراد لما استقوى

فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنهم في خلقه
وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى
الفكرة والسياسة اعطى كل خلقه ثم هدى ويزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث
يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وانها خاصة طبيعية للانسان فيقررون
هذا البرهان الى غايته وانه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك
الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر يكون متميزاً عنهم
بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم
فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه
اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبية
التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء
قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل العالم ومع ذلك
فقد كان لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في
الاقاليم المنحرفة الى الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع البتة
فانه ممتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وانه ليس بعقلي وانما مدركه
الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من البحار والانهار
والاقاليم انه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في احوال العالم ان شكل الارض كري
وانها محفوفة بعنصر الماء كانها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها
لما اراده الله تعالى من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة
على سائرها وقد يتوهم من ذلك ان الماء تحت الارض وليس بصحيح وانما التحت
الطبيعي قلب الارض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل
والماء المحيط بها فهو فوق وان قيل في شيء منها انه تحت فبالاضافة الى جهة اخرى عنه
وهذا الذي انحسر عنه الماء من الارض هو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة
احاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحراً يسمى البحر المحيط ويسمى ايضاً لبلاية
بتفخيم اللام الثانية ويسمى اوقيانوس اسماء عجمية ويقال له البحر الاخضر والاسود
ثم ان هذا المنكشف من الارض للعمران فيه القفار والخلاء اكثر من عمرانه
والخالي من جهة الجنوب منه اكثر من جهة الشمال وانما المعمور منه قطعة اميل الى جانب
الشمال على شكل سطح كري ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة
الشمال الى خط كري ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري التي بينها
سد ياجوج وماجوج وهذه الجبال مائلة الى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب
الى عنصر الماء ايضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الارض
قالوا هو مقدار النصف من الكرة او اقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم
بالاقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو
طول الارض واكبر خط في كرتها كما ان منطقة البروج ودائرة معدل النهار اكبر خط
في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة
الارض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر الف ذراع في ثلثة اميال لان الميل
اربعة آلاف ذراع والذراع اربعة وعشرون اصبعاً والاصبع ست حبات
شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهراً لبطن وبين دائرة معدل النهار التي
تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد
من القطبين تسعون درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء اربعة
وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة
الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم ان المخبرين
عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الامصار والمدن والجبال والانهار
والقفار والرمال مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب رجار من بعده
قسموا هذا المعمور بسبعة اقسام يسمونها الاقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق
والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالاقليم الاول اطول مما بعده وكذا الثاني
الى آخرها فيكون السابع اقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن
كرة الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة اجزاء من المغرب الى المشرق
على التوالي وفي كل جزء الخبر عن احواله واحوال عمرانه وذكروا ان البحر المحيط يخرج منه
من جهة المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضايق في عرض
اثني عشر ميلاً او نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسح
الى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على الف فرسخ
ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه هناك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب
سواحل المغرب اولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال

سواحل القسطنطينية ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف
عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة
كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية قالوا ويخرج منه
في جهة الشمال بحران آخران من خليجين احدهما مسامت للقسطنطينية يبدا
من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويمر ثلثة بحار فيتصل بالقسطنطينية
ثم ينفسح في عرض اربعة اميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية
ثم يخرج من فوهة عرضها ستة اميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك
في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بارض هريقلية وينتهي الى بلاد الخزرية على الف
وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين امم من الروم والترك وبرجان والروس
والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج في بلاد الروم على سمت
الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت الغرب الى بلاد البنادقة وينتهي
الى بلاد انكلايه على الف ومائة ميل من مبدائه وعلى ضفتيه من البنادقة والروم وغيرهم
امم ويسمى خليج البنادقة قالوا وينساح من هذا البحر المحيط ايضا من الشرق على ثلث
عشر درجة في الشمال من خط الاستوا بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهي
الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغربا الى ان ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة
والزنج والى باب المندب منه على اربعة الاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدائه
ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد
بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره ~~شعر~~ وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب
ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وارض الواق واق وامم اخرى ليس بعدهم الا القفار
والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدائه ثم الهند ثم السند ثم سواحل
سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم
البجة قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران يخرج احدهما من نهايته
عند باب المندب فيبدا متضايقا ثم يمر مستبحرا الى ناحية الشمال ومغربا قليلاً
الى ان ينتهي الى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على الف واربعمائة
ميل من مبدائه وهو بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك
ثلثة مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وايلة وفاران
عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزالغ ثم بلاد البجة

عند مبدائه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست
مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك
والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف
من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغربا قليلاً الى ان ينتهي الى الابلة من سواحل
البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على اربعمائة فرسخ واربعين فرسخاً من
مبدائه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان
وفارس والابلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان
والشحر والاحقاف عند مبدائه وفيما بين بحر فارس والقلزم هي جزيرة العرب
كانها دخلة من البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر
فارس من الشرق وتفضي الى العراق فيما بين الشام والبصرة على الف وخمسمائة ميل
بينهما وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وايوان كسرى والحيرة ووراء ذلك
امم الاعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة
الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة
الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي قالوا وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع عن سائر
البحار في ناحية الشمال وبارض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول الف
ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه اذربيجان والديلم وفي شرقيه ارض الترك
وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه ارض الخزر واللان هذه جملة البحار
المشهورة التي ذكرها اهل الجغرافيا قالوا وفي هذا الجزء المعمور انهار كثيرة
اعظمها اربعة انهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون فاما
النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة وعلى سمت
الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الارض جبل اعلى منه
تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هنالك وبعض في اخرى ثم تخرج انهار
من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء وعلى عشر مراحل من
الجبل ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب احدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر
ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل منها
خليجا وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد
من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعطفاً الى الغرب ثم يمر على سمته

الى ان يصب في البحر المحيط وهو نيل السودان وامهم كلهم على ضفتيه واما الفرات فمبدؤه من بلاد ارمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوبا في ارض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة الى ان ينتهي الى البطحاء التي بين البصرة وواسط ومن هنالك يصب في البحر الحبشي وتنجلب اليه في طريقه انهار كثيرة ويخرج منها انهار اخرى تصب في دجلة واما دجلة فمبدؤها عين ببلاد خلاط من ارمينية ايضا ويمر على سمت الجنوب بالموصل واذربيجان وبغداد الى واسط فيتفرق في خلجان تنصب كلها في بحيرة البصرة وتفضي الى بحر فارس وهو في الشرق عن نهر الفرات وتنجلب اليه انهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من اوله هي جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة اذربيجان من عدوتي دجلة واما نهر جيحون فمبدؤه من بلخ في الجزء الثامن من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتنجلب اليها انهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ويخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي باسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مثله واليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارا والترمذ وسمرقند ومن هنالك الى ما وراء بلاد الترك وفرغانة والخزلجية وامم الاعاجم وقد ذكر كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب رجار وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والاودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولان عنايتنا في الاكثر انما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالاوطان التي للعرب من المشرق والله واهب المعونة

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

نحن نرى بالمشاهدة والاخبار المتواترة ان الاول والثاني من اقاليم المعمور اقل عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما والامم من هذين الاقليمين واناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وامصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار منها قليلة والرمال كذلك ومعدومة وامهما واناسيها بحر زاخر من الكثرة وامصارها ومدنها تجاوز الحد عددا والعمران فيها متدرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء ان ذلك لافراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤس فلنوضح ذلك ببرهانه ونبين منه كثرة العمران فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع فنقول ان قطبي الفلك الجنوبي والشمالي اذا كانا على الافق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي اعظم الدوائر المارة من المغرب الى المشرق وتسمى دائرة معدل النهار وقد تبين في موضعه من الهيئة ان الفلك الاعلى متحرك من المشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الافلاك التي في جوفه قسرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبين ان للكواكب في افلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب الى المشرق وتختلف آمادها باختلاف حركات الكواكب (في افلاكها) توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجا وهي على ما تبين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما اول الحمل واول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار الى الشمال وهو من اول الحمل الى آخر السنبلة ونصف مائل عنه الى الجنوب وهو من اول الميزان الى آخر الحوت واذا وقع القطبان على الافق في جميع نواحي الارض كان على سطح الارض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الاقليم الاول من الاقاليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي يرتفع على آفاق هذا المعمور بالتدريج الى ان ينتهي ارتفاعه الى اربع وستين درجة وهنالك ينقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع واذا ارتفع على الافق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤس وصارت دائرة معدل النهار على الافق وبقيت ستة من البروج فوق الافق وهي الشمالية وستة تحت الافق وهي الجنوبية والعمارة بين الاربعة والستين الى التسعين ممتنعة لان الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل تكوين فاذن الشمس تسامت الرؤس على خط الاستواء في راس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة الى راس السرطان والى راس الجدي ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار اربعا وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالي عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه

في السرعة والبطوء وممرات هذه الكواكب صح

وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلثة وهو المسمى عند اهل
المواقيت عرض البلد واذا مالت دايرة معدل النهار عن سمت الروس علت
علت عليها البروج الشمالية متدرجة في مقدار علوها الى راس السرطان وانخفضت
البروج الجنوبية عن الافق كذلك الى راس الجدي لانحرافها الى الجانبين في افق
الاستوا كما قلناه فلا يزال الافق الشمالي يرتفع حتى يصير ابعد الشمالية وهو راس
السرطان في سمت الروس وذلك حيث يكون عرض البلد اربعا وعشرين في
الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي مال راس السرطان عن معدل النهار في افق الاستوا
ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتاً فاذا ارتفع القطب اربعا وستين
ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الافق
مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم ان
الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قايمة
وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة
قايمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند
المسامتة وما قرب منها اكثر منه فيما بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين ثم ان
المسامتة في خط الاستوا تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان واذا
مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل لشيء اذ ميلها عند راس السرطان والجدي
الا وقد صعدت الى المسامتة فتبقى الاشعة القايمة الزوايا تلح
على ذلك الافق ويطول مكثها او يدوم فيشتعل الهوا حرارة ويفرط
في شدتها وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستوآ
الى عرض اربعة وعشرين فان الاشعة ملحة على الافق في ذلك
الافق بقريب من الحاحها في خط الاستوا وافراط الحر يجعل في الهوآ
تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لانه اذا افرط الحر جفت المياه والرطوبات
وفسد التكوين في المعدن والنبات والحيوان اذ التكوين لا يكون
الا بالرطوبة ثم اذا مال راس السرطان عن سمت الروس في عرض
خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر الى
الى الاعتدال او يميل عنه قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى
الى ان يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا

فينقص التكوين ويفسد الا ان فساد التكوين من جهة شدة الحر اعظم منه
من جهة شدة البرد لان الحر اسرع تاثيرا في التجفيف من تاثير البرد
في الجمد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني قليلا وفي
الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء
وفي السادس والسابع كثيراً لنقصان الحر اذ لا تجفيف فيها الا عند
الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران
في الربع الشمالي اكثر واوفر والله اعلم ومن هنا اخذ الحكماء خلاء
خط الاستوآ وما وراه واورد عليهم انه معمور بالمشاهدة والاخبار
المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر انهم لم يريدوا ٥
امتناع العمران فيه بالكلية انما اداهم البرهان الى ان فساد
التكوين فيه قوي بافراط الحر فالعمران فيه اما ممتنع او ممكن اقلي
وهو كذلك فان خط الاستوا والذي وراه وان كان فيه عمران
كما نقل فهو قليل جدًا وقد زعم ابن رشد ان خط الاستوا معتدل
وان ما وراه في الجنوب بمثابة ما وراه في الشمال فيعمر منه ما عمر
من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع
فيما ورا خط الاستوا في الجنوب من جهة ان العنصر المائي غمر
وجه الارض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً
للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الما تبعه ما سواه لان العمران
متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع
واما القول بامتناعه في خط الاستوآ فيرده النقل المتواتر والله
اعلم ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب
رجار ثم ناخذ في تفصيل الكلام عليها الى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

وهو على نوعين مفصل ومجمل فالمفصل هو الكلام فى بلدان هذا المعمور وجباله وبحاره وانهاره واحدًا واحدًا وسياتى فى الفصل بعد هذا واما المجمل فالكلام فى انقسام المعمور بالاقاليم السبعة وذكر عروضها وساعاتها وهو الذى تضمنه هذا الفصل فلناخذ فى بيانه وقد تقدم لنا ان الارض طافية على الماء العنصرى كالعنبة فانكشف لذلك بعضها بحكمة الله فى العمران والتكوين العنصرى فيقال ان هذا المنكشف هو النصف من سطح الارض فالمعمور منه ربعه والربع خراب وقيل المعمور سدسه فقط فالخلاء من هذا المنكشف فى جهتى الجنوب والشمال والعمران بينهما متصل من المغرب الى المشرق وليس بينه وبين البحر من الجهتين خلاء قالوا وفيه خط وهمى يمر من المغرب الى المشرق مسامتا لدائرة معدل النهار حيث يكون قطبا الفلك على الافق وهو اول العمران الى ما بعده من الشمال وقال بطلميوس بل بعده فى جهة الجنوب عمران وقدره بعرض البلد كما ياتى وعند اسحق بن الحسن الخازنى ان وراء الاقليم السابع عمرانا آخر وقدره بعرض بلده كما نذكر وهو من ائمة الصناعة ثم ان الحكماء قديما قسموا هذا المعمور فى جهة الشمال بالاقاليم السبعة بخطوط وهمية آخذة من الغرب الى الشرق وعروضها مختلفة عندهم كما ياتى تفصيله فالاقليم الاول منها ما تحت خط الاستواء من جهة شماليه وليس فى جنوبه الا تلك العمارة التى اشار اليها بطلميوس وبعدها القفار والرمال الى دائرة الماء المسماة بالبحر المحيط ويليه من جهة شماليه الاقليم الثانى كذلك ثم الثالث ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران فى جهة الشمال وليس وراءه الا الخلاء والقفار الى البحر المحيط ايضا الا ان الخلاء فى جهة الجنوب اكثر منه فى جهة الشمال بكثير واما عروض هذه الاقاليم وساعات نهارها فاعلم ان قطبى الفلك يكونان فى خط الاستواء على الافق من غربه الى شرقه والشمس تسامت رؤس اهله فاذا بعد العمران الى جهة الشمال ارتفع القطب الشمالى قليلا وانخفض الجنوبى مثله وبعدت الشمس عن دائرة معدل النهار الى سمته بمثل ذلك وصارت هذه الابعاد الثلثة متساوية يسمى كل واحد منها عرض البلد كما هو معروف عند اهل المواقيت وقد اختلف الناس فى مقدار هذه العروض ومقدارها فى الاقاليم فالذى عند بطلميوس ان عرض المعمور كله سبع وسبعون درجة ونصف درجة فعرض المعمور خلف خط الاستواء الى الجنوب منها

احدى عشرة درجة ونصف هى عرض الاقاليم الشمالية الى اخرها فعرض الاقليم الاول منها عنده ست عشرة درجة والثانى عشرون والثالث سبع وعشرون والرابع ثلث وثلثون والخامس ثمان وثلاثون والسادس ثلث واربعون والسابع ثمان واربعون ثم قدر الدرجة فى الفلك بستة وستين ميلًا وثلثى ميل من مسافة الارض فتكون اميال الاقليم الاول ما بين الجنوب والشمال الف ميل وسبعة وستون ميلًا واميال الاقليم الثانى معه الف ميل وثلثمائة ميل وثلاثة وثلثين ميلًا واميال الثالث معها الف ميل وسبعمائة وتسعين والرابع معها الفين ومائة وخمسة وثمانين والخامس الفين وخمسمائة وعشرين والسادس الفين وثمانمائة واربعين والسابع ثلثة الاف ومائة وخمسين ثم ان ازمنة الليل والنهار تتفاوت فى هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالى عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهى اطول الليل والنهار فى آخر الاقليم الاول عند حلول الشمس براس الجدى لليل وبراس السرطان للنهار كل واحد منهما عند بطلميوس الى ثلثى عشر ساعة ونصف وينتهيان فى آخر الاقليم الثانى الى عشرة ساعة وفى آخر الاقليم الثالث الى ثلاث عشرة ساعة ونصف وفى آخر الرابع الى اربع عشرة ساعة وفى آخر الخامس بزيادة نصف ساعة ويبقى للاقصر من النهار والليل ما يبقى بعد هذه الاعداد من جملة اربعة وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة فيكون تفاوت هذه الاقاليم فى الاطول ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم تتزيد من اوله فى ناحية الجنوب الى آخره فى ناحية الشمال موزعة على اجزاء هذا البعد وعند اسحاق ابن الحسن الخازنى ان عرض العمران الذى وراء خط الاستواء ست عشرة درجة وخمس وعشرون دقيقة واطول ليله ونهاره ثلاث عشرة ساعة وعرض الاقليم الاول وساعاته مثل الذى وراء خط الاستواء وعرض الاقليم الثانى اربع وعشرون درجة وساعاته عند اخره ثلث عشرة ساعة ونصف وعرض الثالث ثلثون درجة وساعاته اربع عشرة ساعة وعرض الرابع ست وثلثون درجة وساعاته اربع عشرة ساعة ونصف وعرض الخامس احدى واربعون درجة وساعاته خمس عشرة ساعة ونصف وعرض السابع ثمان واربعون درجة ونصف وساعاته ست عشرة ساعة ثم ينتهى عرض العمران وراء السابع من عند آخره الى ثلث وستين درجة وساعاته

الى عشرين ساعة وعند ابى اسحق الخازنى من ائمة هذا الشان ان عرض الذى ورآء
خط الاستواء ست عشرة درجة وسبع وعشرون دقيقة وعرض الاقليم الاول
عشرون درجة وخمس عشرة دقيقة والثانى سبع وعشرون درجة وثلث عشرة دقيقة
والثالث ثلاث وثلثون درجة وعشرون دقيقة والرابع ثمان وثلثون درجة
ونصف درجة والخامس ثلث واربعون درجة والسادس سبع واربعون درجة
والسادس سبع واربعون درجة وثلث وخمسون دقيقة وقيل فيه ست واربعون
درجة وخمسون دقيقة والسابع احدى وخمسون درجة وثلث وخمسون دقيقة
والعمران ورآء السابع سبع وسبعون درجة وعند ابى جعفر الخازنى من المنجم ايضا
ان عرض الاقليم الاول من درجة الى عشرين وثلاث عشرة دقيقة والثانى الى سبع
وعشرين وثلاث عشرة دقيقة والثالث الى ثلث وثلثين وتسع وثلثين دقيقة
والرابع الى ثمان وثلثين وثلاث وعشرين دقيقة والخامس الى ثنتين واربعين
وثمان وخمسين دقيقة والسادس الى سبع واربعين وو دقيقتين والسابع الى خمسين
وخمس واربعين دقيقة هذا ما حضرنى من اختلافهم فى العروض والساعات
والاميال لهذه الاقاليم والله خلق كل شى فقدره تقديرا **فصل** والمتكلمون
على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة فى طوله من المغرب الى
الى المشرق بعشرة اجزآء متساوية ويذكر ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان
والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها فى المسالك ونحن الآن نوجز
القول فى ذلك باختصار ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار فى كل جزء
منها ونحاذى بذلك ما وقع فى كتاب نزهة المشتاق الذى الفه العلوى الادريسى
الحمودى لملك صقلية من الافرنج وهو رجار بن رجار عند ما كان نازلا عليه
بصقلية بعد خروج سلفه من امارة مالقة وكان تاليفه للكتاب فى منتصف
المائة السادسة وجمع له كتبا جمة للمسعودى وابن خرداذبه والحوقلى والعذرى واسحق
المنجم وبطليموس وغيرهم وبندأ منها بالاقليم الاول الى آخرها **الاقليم الاول**
وفيه من جهة غربية الجزاير الخالدات التى منها بدا بطليموس باخذ اطوال البلاد
وليست فى بسيط الاقليم وانما هى فى البحر المحيط جزر متكثرة اكبرها واشهرها ثلثة
ويقال انها معمورة وقد بلغنا ان سفاين من الفرنج مرت بها فى اواسط هذه
المائة فقاتلوهم وغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض اسراهم بسواحل المغرب الاقصى

وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربى اخبروا عن حال جزيرتهم وانهم
يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير
وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يلوحونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس
اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزاير
الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن فى البحر انما هو بالرياح ومعرفة
جهات مهابها والى اين توصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التى فى ممر
ذلك المهب واذا اختلف المهب وعلم حيث توصل على الاستقامة حوذى به القلع
محاذاة تحمل السفينة بها على قوانين فى ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين
هم رؤساء السفن فى البحر والبلاد التى حفافى البحر الرومى وفى عدوتيه مكتوبة
كلها فى صحيفة على شكل ما هى عليه فى الوجود وفى وضعها فى سواحل البحر على ترتيبها
ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها فى تلك الصحيفة ويسمونها
الكنباص وعليها يعتمدون فى اسفارهم وهذا كله مفقود فى البحر المحيط فلذلك
لا تلج فيه السفن لانها غابت عن مرأى السواحل فقل ان تهتدى الى الرجوع اليها
مع ما ينعقد فى جو هذا البحر وعلى صفح مائه من الابخرة الممانعة للسفن فى سيرها
وهى لبعدها لا تدركها اضوآء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك
عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها واما الجزء الاول من هذا الاقليم
ففيه مصب النيل الآتى من مبدائه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان
ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليل وعلى هذا النيل مدينة
سلى وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد فى مملكة اهل مالى من امم السودان والى
بلادهم يسافر تجار مغرب الاقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وساير
طوايف الملثمين مفاوز يجولون فيها وفى جنوبى هذا النيل قوم من السودان
يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون فى وجوههم واصداغهم واهل غانة والتكرور
يغزون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب ومنهم عامة رقيقهم
وليس وراءهم فى الجنوب عمران يعتبر الا اناسى اقرب الى الحيوان العجم من
الناطق يسكنون الغياض والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة وربما
يأكل بعضهم بعضا وليسوا فى عداد البشر وفواكه بلاد السودان كلها من قصور
صحراء المغرب مثل توات وتيكورارين وواركلان وكان فى غانة فيما يقال ملك ودولة

لقوم من العلوية يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب رجار انه صالح بن عبد الله
ابن الحسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة
لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذه البلاد في الجزء الثالث من
هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء
الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي واصبحت في مملكته
وخربت لهذا العهد من اجل فتنة وقعت هنالك نذكرها عند ذكر دولة اهل مالي
في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلاد كوكو بلاد كانم من امم السودان وبعدهم
ونكارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونقارة وكانم بلاد زغاي وتاجرة
المتصلة بارض النوبة في الجزء الرابع من هذا الاقليم وفيها يمر نيل مصر ذاهبا من مبدائه
عند خط الاستواء الى البحر الرومي في الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي
فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فبعضهم يفتح
القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك
لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من اهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد
فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة اميال ويخرج
من كل واحدة من البحيرتين ثلثة انهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في اسفلها
جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي
منه الى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبا الى
الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في اعلى ارض مصر فيصب ثلاثة
من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في
بحيرة ملحة قبل ان يتصل بالبحر وفي وسط هذا الاقليم الاول وعلى هذا النيل
بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى اسوان وحاضرة بلاد النوبة
مدينة دنقلة وهي غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدها جبل الجنادل
على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة
النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا مهولا فلا تمكن ان تسلكه المراكب
بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد اسوان قاعدة الصعيد وكذلك يحمل وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل واسوان اثنتي
عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار
العمارة القديمة وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد ياتي

من وراء خط الاستواء ويمر قبالة مقدشو التي في جنوب البحر الهندي
ذاهبا الى ارض النوبة فيصب هنالك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه
كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا
وذكر انه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم في هذا الجزء الخامس ينتهي بحر
الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس
فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى الف
جزيرة او فيما على سواحله الجنوبية وهو آخر المعمور في الجنوب او فيما على سواحله
من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الاول الا طرف من بلاد الصين في جهة
الشرق وبلاد اليمن في الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا
البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر القلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب
وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز
واليمامة وما اليهما كما نذكر في الاقليم الثاني وما بعده فاما الذي على ساحل هذا البحر
من غربيه فبلد زالع من اطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة
ما بين جبل العلاقي الذي في اعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي
الى ارض مصر وتحت بلد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق
البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب الماثل في وسط البحر الهندي ممتدا
مع ساحل اليمن الغربي من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر
بسبب ذلك الى ان يصير في عرض ثلثة اميال او نحوها ويسمى باب المندب وعليه
تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن
ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من امم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه تهايم
اليمن على ساحله ومنها بلد علي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل
هذا البحر من غربيه قرى بربرا يتلو بعضها بعضا وتنعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء
السادس وتليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج وبعدها مدينة مقدشو وهي
مدينة مستبحرة العمارة بدوية الاحوال كثير التجار على ساحل البحر الهندي من جنوبه
ثم تليها شرقا بلاد سفالة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم وعند مدخل
هذا البحر من البحر المحيط واما جزائر هذا البحر فكثيرة ومن اعظمها سرنديب مدورة
الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس في الارض اعلى منه وهي قبالة سفالة

ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدا من قبالة ارض سفالة وتذهب
الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى ان تقرب من سواحل الصين وتحتف بها
في هذا البحر من جنوبها جزاير الواق واق ومن شرقيها جزاير السيلا الى جزاير
اخرى في هذا البحر كثيرة العدد وفيها انواع الطيوب والافاوه وفيها يقال
معادن الذهب والزمرد وعامة اهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون
وبهذه الجزاير من احوال العمران عجايب ذكرها اهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية
من هذا البحر وفي الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم
بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الائمة الزيدية وهي
بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها
صنعاء وبعدهما الى الشرق ارض الاحقاف وظفار وبعدها ارض حضرموت
ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هي
التي انكشف عنها البحر من اجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل
من التاسع واكثر منه من العاشر فيه اعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة مدينة
وقبالتها من جهة الشرق جزاير السيلا وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم
الاول **الاقليم الثاني** وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة الغرب منه
في البحر المحيط جزيرتان من الجزاير الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الاول والثاني
منه في الجانب الاعلى منهما ارض قمنورية وبعدها في جهة الشرق اعالي ارض غانة
ثم مجالات زغاي من السودان وفي الجانب الاسفل منهما صحراء نيسر متصلة
من الغرب الى الشرق ذات مفاوز يسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد
السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كدالة
ولمتونة ومسوفة ولمطة ووتريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا ارض فزان
ثم مجالات ازكار من قبايل البربر ذاهبة الى اعالي الجزء الثالث على سمتها
في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من امم السودان ثم قطعة من ارض
التاجوين وفي اسافل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية ارض
ودان وعلى سمتها شرقا ارض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء
الرابع من اعلاه بقية ارض التاجوين ثم تعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد
حافتي النيل الذاهب من مبدائه في الاقليم الاول الى مصبه في البحر فيمر في

في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم
من شرقيه وعليه من اعلاه بلد اسنا وارمنت وتتصل كذلك حافتيه
الى اسيوط وقوص ثم الى صول ويفترق النيل هنالك على شعبتين ينتهي الايمن
منهما في هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما اعالي ديار
مصر وفي الشرق من جبل المقطم صحاري عيذاب وذاهبة في الجزء الخامس
الى ان ينتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب
الى جهة الشمال وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء ارض الحجاز من جبل يلملم
الى بلد يثرب وفي وسط الحجاز بلد مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل
بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد
اعلاها في الجنوب جرش وتبالة الى عكاظ من الشمال وتحت بلاد نجد من هذا الجزء
بقية ارض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها ارض اليمامة
وعلى سمت نجران في الشرق ارض سبا ومارب ثم ارض الشحر وتنتهي الى بحر فارس
وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر ويذهب في هذا الجزء بانحراف
الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من اعلاه مدينة قلهات وهي
ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء
وفي الجزء السابع ثم في الاعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الاخرى
في السادس ويغمر بحر الهند جانبه الاعلى كله وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران ومنه
وتقابلها بلاد الطوبران وهي من السند ايضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من
هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين ارض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند
ويصب في البحر الهندي في الجنوب واول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها
شرقا بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلد الصنم العظيم عندهم ثم اسفل من الهند اعالي بلاد
سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد
القندهار ثم بلاد منيبار في الجانب الاعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب
الاسفل ارض كابل وبعدها شرقا الى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير
الخارجة عند آخر الاقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند
الاقصى وتتصل فيه الى الجانب الشرقي فتتصل من اعلاه الى العاشر وتبقى في اسفل
ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة خيفون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر

كله الى البحر المحيط **الاقليم الثالث** هو متصل بالثانى من جهة الشمال ففى الجزء الاول
وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط
الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البرابر امم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما ياتى ذكره
وفى القطعة التى بين هذا الجبل والاقليم الثانى وعلى البحر المحيط منها رباط
ماسة وتتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة
ثم قطعة من صحراء صنهاجة المفازة التى ذكرناها فى الاقليم الثانى وهذا الجبل مطل
على هذه البلاد كلها فى هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك فى هذه الناحية
الغربية الى ان يسامت وادى ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى ان ينتهى وفى هذه
الناحية منه امم المصامدة فهسكورة عند البحر المحيط ثم هنتاتة ثم تينملل ثم كدميوة
ثم مسكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل زناكة وهم صنهاجة ثم فى آخر
هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس
وهو جبل كتامة وبعد ذلك امم اخرى من البرابرة نذكرهم فى اماكنهم ثم ان جبل
درن هذا من جهة غربية مطل على بلاد المغرب الاقصى وهى فى جوفيه ففى الناحية
الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط اسفى ومدينة
سلا وفى الشرق عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه
هى التى تسمى المغرب الاقصى فى عرف اهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلد
ازصيلا والعرايش وفى سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها
تلمسان وفى سواحلها على البحر الرومى بلد هنين ووهران والجزاير لان هذا البحر
الرومى يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة فى الناحية الغربية من الجزء الرابع ويذهب
مشرقا فينتهى الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا
وشمالا فدخل فى الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم
الثالث الكثير من بلاده تبتدى من طنجة الى القصر الصغير ثم سبتة ثم بادس
ثم غساسة ثم يتصل ببلد الجزاير من شرقها بلد بجاية فى ساحل البحر ثم قسنطينة
فى الشرق عنها وفى آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر وفى جنوبى هذه البلاد
ومرتفعا الى جنوب المغرب الاوسط بلد اشير بجبل تيطرى ثم بلد المسيلة ثم الزاب
وقاعدته بسكرة تحت جبل اوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء
من جهة الشرق والجزء الثانى من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول يمر جبل درن

على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر
الرومى مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كلها مفاوز
وفى الشرق منها بلد غدامس وفى سمتها شرقا ارض ودان التى بقيتها فى الاقليم
الثانى كما مر والقطعة الجنوبية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومى فى الغرب
منها جبل اوراس وتبسة والاربس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم فى سمت هذه
البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية
وفى جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفزاوة وفيما
بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه
البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومى وبازائها فى الجنوب جبال دمر ونفوسة
من قبائل هوارة متصلة بجبل درن وفى مقابلة غدامس التى ذكرناها فى اخر القطعة
الجنوبية وآخر هذا الجزء فى الشرق سويقة ابن مثكود على البحر وفى جنوبها مجالات
العرب فى ارض ودان والجزء الثالث من هذا الاقليم يمر فيه ايضا جبل درن الا انه
ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمته الى ان يدخل فى البحر الرومى ويسمى هناك
طرف اوثان والبحر الرومى من شماليه يغمر طائفة منه الى ان يضايق ما بينه وبين جبل
درن فالذى وراء الجبل فى الجنوب وفى الغرب منه بقية ارض ودان ومجالات
العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء فى الشرق وفيما بين
الجبل والبحر فى الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم
اجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلميثة على البحر هنالك ثم فى شرق المنعطف
من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفى الجزء الرابع من هذا الاقليم
وفى الاعلى من غربه صحارى برنيق واسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر
الرومى فى هذا الجزء فيغمر طائفة منه ذاهبا الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى
ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم
وهى على مصب احد الشعبين من النيل الذى يمر على اللاهون من بلد الصعيد فى الجزء
الرابع من الاقليم الثانى ويصب فى بحيرة الفيوم وعلى سمته شرقا ارض مصر ومدينتها
الشهيرة على الشعب الثانى الذى يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثانى
ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف
وزفتة وينقسم الايمن منها من قرموط بشعبين آخرين ويصب جميعها فى البحر الرومى

فعلى مصب الغربي من هذه الشعب بلد اسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد
وعلى مصب الشرقي بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية
اسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وفلحا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم
بلاد الشام واكثرها على ما اصف وذلك ان بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي
الغرب منه عند السويس لانه في ممره من البحر الهندي الى الشمال ينعطف اخذا الى
جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة ينتهي في الطرف الغربي منه
الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس جبال فاران ثم جبل الطور ثم ايلة بلد
مدين ثم الحوراء في آخره ومن هنالك ينعطف ساحله الى الجنوب في ارض الحجاز
كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة
من البحر الرومي غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها
بلد القلزم فيتضايق ما بينهما من هنالك وبقي شبه الباب مفضيا الى ارض الشام
وفي غربي هذا الباب فحص التيه ارض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني اسرائيل
بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام اربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه
القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم
الرابع كما نذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد
العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم تنحط هذه
القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وعرقة وهنالك
منتهى البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه القطعة اكثر سواحل الشام ففي شرقي
عسقلان وما انحرف بيسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور
ثم صيدا ثم عرقة ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد
الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر
القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى ان يجاوز هذا الجزء ويسمى
جبل اللكام وكانه حاجز بين ارض مصر والشام ففي طرفه عند ايلة العقبة التي يمر
عليها الحاج من مصر الى مكة ثم بعدها من ناحية الشمال مدفن الخليل عليه السلام
عند جبل الشراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت
الشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل
وهي اسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها وفيما بين

قيسارية من اقليم الثالث في ساحل الشام من اعمال فلسطين
كان في الاول بلدة عظيمة والان خراب منها الى بلدة عكا
ست وثلاثين ميلا والى رملة اثنين وثلثين ميلا
وقيصرية من الاقليم الخامس اربعة مراحل الى اقسراي
منسوبة الى قيصر كذا في وضع
المسالك
٢

جبل الشراة وبحر القلزم صحراء تبوك وفي شمال جبل الشراة مدينة القدس
عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفي شرقها بلاد الغور الى اذرعات وحوران
وعلى سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز وعند منعطف جبل
اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من
القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينهما وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق
مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء وعند منقطع جبل اللكام
وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفي
الجزء السادس من اعلاه مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين
جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر على بحر فارس وفي اسافل هذا الجزء تحت المجالات
بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات وما بعدها شرقا مدينة البصرة وفي هذا الجزء
ينتهي بحر فارس عند عبادان والابلة في اسافل الجزء من شماله وينصب فيه عند عبادان
نهر دجلة بعد ان ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول اخرى من الفرات ثم تجتمع كلها
عند عبادان وتنصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة في اعلاه متضايقة
في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منها وعلى عدوتها الغربية
اسافل البحرين وهجر والاحساء وفي غربيها الخط والصمان وبقية ارض اليمامة
وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من اعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق
على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقا ووراءه الى الجنوب في هذا الجزء جبال
القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر
وفي شرقيه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودارابجرد ونسا
واصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال
عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتستر وجندي سابور والسوس
ورامهرمز وارجان وهي حد فارس وخوزستان وفي شرقي بلاد خوزستان
جبال الاكراد متصلة الى نواحي اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها
في ارض فارس وتسمى الزموم وفي الجزء السابع ثم في الاعلى منه من الغرب بقية
جبال القفص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها
الرودان والشيرجان وجيرفت ويردشير والفهرج وتحت ارض كرمان
الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان في طرف

هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم في الشرق عن ارض كرمان وبلاد فارس ارض
سجستان في الجنوب وارض كوهستان في الشمال عنها وتتوسط بين كرمان
وفارس وبين سجستان وكوهستان في وسط هذا الجزء المفازة العظيمة
القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق واما
كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان
آخر الجزء وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخلج من امم الترك متصلة
بارض سجستان من غربها وبارض كابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن
هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند وفي آخر
الغور من الشمال بلد استراباذ ثم في الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة
اوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان
وجوزجان وتنتهي خراسان هناك الى نهر جيحون وعلى هذا النهر من بلاد خراسان
في غربيه مدينة بلخ وفي شرقيه مدينة الترمذ ومدينة بلخ كانت كرسي ملك
الترك وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وخان في حدود بدخشان مما يلي
الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب
مغربا الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرباب ثم ينعطف الى الشمال
حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته الى ان يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم
الخامس كما نذكره ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة
انهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وانهار اخرى من جبال البتم من شرقيه
ايضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ومن هذه الانهار الخمسة
الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من
هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال الى ان يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شماله
هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول
بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه الا مسلك واحد في وسط الشرق من
هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبنى له بابا كسد ياجوج فاذا خرج نهر
وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فينفذ تحته في مدى بعيد الى ان يمر
ببلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمر هابطا الى الترمذ في
الشمال الى بلاد الجوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينه وبين نهر جيحون

بلاد الباميان من خراسان وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد
الختل واكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج
من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى ان يتصل طرفها بالجبل
العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل
به عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وانهار اخرى تصب فيه
منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ
يخرج من جبال البتم من مبدائه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر
من غربيه بلد آمل من خراسان وفي شرقي النهر هنالك ارض الصغد واسروسنة
من بلاد الترك وفي شرقها ارض فرغانة ايضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد
الترك هذه تحوزها جبال البتم الى شماليها وفي الجزء التاسع في غربيه ارض
التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين الى
آخر الجزء وفي اسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من الترك
الى آخر الجزء شمالا ويتصل بها من غربها ارض فرغانة ومن شرقها ارض
التغزغز من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفي الجزء العاشر في الجنوب
منه جميعا بقية الصين واسافله وفي الشمال بقية بلاد التغزغز ثم شرقا عنهم
بلاد خرخير من الترك ايضا الى آخر الجزء شرقا وفي الشمال من ارض خرخير بلاد
كيماك من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل
مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك والصعود الى اعلاه من خارجه صعب
في الغاية وبالجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثير فيحتال اهل
تلك الناحية في استخراجه بما يلهمهم الله اليه وهذه البلاد في هذا الجزء التاسع
والعاشر فيما وراء خراسان والجبل كلها مجالات للترك امم لا تحصى وهم
ظواعن رحالة اهل ابل وشاء وبقر وخيل للنتاج والركوب والاكل وطوائفهم
كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون يغزون الكفار
منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان
والهند والعراق **الاقليم الرابع** يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الاول
منه في غربيه قطعة مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب
مدينة طنجة ويخرج من هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط البحر الرومي

في خليج متضايق بمقدار اثنى عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا
وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى ان ينتهي الى وسط الجزء الخامس
من هذا الاقليم وينفسح في ذهابه بتدريج الى ان يغمر الاربعة الاجزاء واكثر
الخامس ويغمر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما نذكره ويسمى هذا
البحر البحر الشامي ايضا وفيه جزاير كثيرة اعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ميورقة
ثم منرقة ثم سردانية ثم صقلية وهي اعظمها ثم بلبونس ثم قرص كما نذكرها كلها
في اجزائها التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند اخر الجزء الثالث
منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال
ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفه ويمر مغربا الى ان ينتهي في الجزء الثاني
من الخامس ويخرج منه ايضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج
القسطنطينية يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم الى اخر الاقليم ثم يفضي
الى الجزء الرابع منها لاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطش ذاهبا الى المشرق في
الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما ذلك في اماكنه وعند
ما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث
وتبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع
البحرين وبعدها سبتة على البحر الرومي ثم تيطاوين ثم بادس ثم يغمر البحر بقية
هذا الجزء شرقا ويخرج الى الثالث واكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج
منه وهي كلها بلاد الاندلس فالغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي
اولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق عنها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء
ثم مالقة ثم المنكب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مغربة منه
شريش ولبلة وقبالتهما فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية
ثم استجة وقرطبة ومرتلة ثم غرناطة وجيان وابدة ثم وادي اش وبسطة وتحت
هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنهما بطليوس ومارده ويابرة
ثم غافق وترجالة ثم قلعة رباح وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر
تاجه وفي الشرق عنها شنترين وقورية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف وتسامت
اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من الغرب هنالك ويذهب مشرقا
مع آخر الجزء من شماليه فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا

الجبل طلبيرة في الشرق عن قورية ثم طليطلة ثم مدينة سالم ثم وادي الحجارة ثم
مدينة سالم وعند اول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية هذه غرب الاندلس
الجبل طلبيرة في الشرق عن قورية ثم طليطلة ثم وادي الحجارة ثم مدينة
واما شرق الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها من بعد المرية قرطاجنة
ثم لقنت ثم دانية ثم بلنسية الى طركونة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا لورقة
وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم
شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة تحت طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه
شمالا ايضا جنجالة وبزه متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقا
تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة ايوب ثم
سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر
الماء جميعه الا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرتات ومعناه جبل
الثنايا والمسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف
المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب بانحراف
الى المشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني
فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها الى البر المتصل ويسمى ارض غشكونية وفيه مدينة
جرنده وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة
ثم اربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزاير كثيرة والكثير منها غير مسكون
لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار
يقال ان في دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم
وطرابنة ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل ارض افريقية وفيما بينهما جزيرتا
غودش ومالطة والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر الا ثلاث قطع
من ناحية الشمال الغربية منها من ارض قلورية والوسطى من ارض انكبردة
والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر كما مر
وجزايره كثيرة واكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلبونس في
الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين
الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين
الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى اخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها

الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر
الشمال منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها اسافل
الشام ويمر في وسطها جبل اللكام الى ان ينتهي الى آخر الشام في الشمال
فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل
السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد
الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة الغرب جبال متصل
بعضها ببعض الى ان ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخر الى آخر
الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد
الارمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فاما الجهة
الجنوبية التي قدمنا ان فيها اسافل الشام وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر
الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد انطرسوس
في اول الجزء من الجنوب متاخمة لعرقة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث
وفي شمال انطرسوس جبلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا
بلاد الروم اما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء فيكتنفه من بلاد الشام
من اعلى الجزء جنوبا حصن الخوابي من غربيه وهو للحشيشية الاسماعيلية ويعرفون
لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن مصيات وهو قبالة انطرسوس
شرقا ويقابل هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حمص وفي
الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها في شرق الجبل
المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال انطاكية المصيصة ثم اذنة ثم طرسوس
آخر الشام ويحاذيها من غربي الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق
الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام واما الدروب فعن يمينها
ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن
عثمان وفي ساحل البحر الرومي منها بلد انطاليه والعلايا واما بلاد الارمن
التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة
الى آخر الجزء شمالا ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان
في شرقه فيمر نهر جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة
ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية

ويمر نهر سيحان موازيا لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال
الدروب الى ارض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف
الى الشمال ومغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها واما بلاد الجزيرة التي
يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبيها بلد الرافقة والرقة
ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة
وآخر الجزء من شماله وهو ايضا آخر الجزء من شرقه ويمر في وسط هذه القطعة
نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد الارمن جنوبا
الى ان يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات في غربي سميساط وسروج
ثم ينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافقة والرقة ويخرج الى الجزء السادس ويمر
دجلة في شرق آمد وينعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس
وفي الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق عنها بلاد
العراق متصلة بها تنتهي في الشرق الى قرب آخر الجزء ويعترض آخر العراق
هنالك جبل اصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى
وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغربا الى ان يخرج من الجزء السادس ويتصل
على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربيه
وشرقيه ففي الغربية من جنوبها مخرج الفرات من الخامس وفي شماليها مخرج دجلة
منه اما الفرات فاول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج منه هناك جدول
الى الشمال ينساب في ارض الجزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قرقيسيا
غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابور الى غرب الرحبة ويخرج منه
جدول من هنالك يمر جنوبا وتبقى صفين في غربيه ثم ينعطف شرقا وينقسم
بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعض بقصر ابن هبيرة وبالجامعين ويخرج جميعها
في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية
ويمر الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها ثم الى الزاب
والانبار من جنوبها ثم يصب في دجلة عند بغداد واما نهر دجلة فاذا دخل
من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقا على سمته ومحاذيا للجبل السلسلة المتصل
بجزيرة ابن عمر من شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت وينتهي الى الحديثة
فينعطف جنوبا ويبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك

ويمر على سمته جنوباً وفي غرب القادسية الى ان ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوباً على غرب جرجرايا الى ان يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتتكثر هنالك شعوبه وجداوله ثم تجتمع وتصب هنالك في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيره ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته بغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية عنه وينتهي الى بلد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جلولا وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة واما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الاعاجم مشرقاً الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور فيقسمها بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان في الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه القطعة بلاد البهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غرباً عند ملتقى الجبلين والدينور شرقاً عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد ارمينيه قاعدتها المراغه والذي يقابلها من جبل العراق يسمى جبل بارما وهو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد اذربيجان ومنها تبريز والبيلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطيعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربيه وجنوبه معظم بلاد البهلوس وفيها همدان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربيها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وانه محيط ببلاد البهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد البهلوس من شرقيها وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنحرفاً الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل عند منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً الى آخر الجزء ومن جنوبه هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً الى الشرق والشمال

الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان يدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربيه الى شرقيه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقاً وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربيه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراباد وحفافيه في هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرق جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بعيداً بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزء بين الشمال والشرق مفاوز معطلة وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب الى الشمال ففي عدوته الغربية زم وآمل من بلاد خراسان والطاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباد المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج من هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارا ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد اشروسنه ومنها خجندة آخر الجزء شرقاً وفي الشمال عن سمرقند واشروسنه ارض يلاق ثم في الشمال عن يلاق ارض الشاش الى آخر الجزء شرقاً وتأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية ارض فرغانه ويخرج من هذه القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن الى ان يصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في ارض يلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع من الاقليم الثالث نهر فرغانه وعلى سمت نهر الشاش جبل جراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف مشرقاً ومنحرفاً الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطاً بارض الشاش ثم ينعطف في الجزء

في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك الى جنوبه فيدخل في الاقليم
الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب
وبينه وبين ارض بخارا وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء
بين الشمال والشرق خجنده وفيها بلد اسبيجاب وطراز وفي الجزء التاسع
من هذا الاقليم في غربيه بعد فرغانة والشاش ارض الخزلجية في الجنوب
وارض الخلخية في الشمال وفي شرق الجزء كله الى آخره ارض الكيماكية وتتصل في
الجزء العاشر كله الى جبل قوقايا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هناك
وهو جبل ياجوج وماجوج وهذه الامم كلها من شعوب الترك الاقليم
الخامس الجزء الاول منه اكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لان البحر
المحيط من هذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع
عن الدائرة المحيطة بالاقاليم فاما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل المثلث
متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كانهما
ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس منت ميور
على البحر عند اول الجزء من الجنوب والغرب وشلمنكة شرقاً عنها وفي جوفها
سمورة وفي الشرق عن شلمنكة ابلة آخر الجنوب وارض قشتالة شرقاً عنها
وفيها مدينة شقوبيه وفي شمالها ارض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال ارض
جليقيه الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد
شنتياقوب ومعناه يعقوب وفيها من بلاد شرق الاندلس مدينة تطيلة عند آخر
الجزء في الجنوب وشرقاً عن قشتالة وفي شمالها وشرقها وشقة ثم بنبلونة على سمتها
شرقاً وشمالاً وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجرة فيما بينها وبين برغشت ويعترض
وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذياً للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب
ويتصل به وبطرف البحر من عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل انه
يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجراً على الاندلس من جهة
الشرق وثناياه ابواب لها تفضي الى بلاد غشكونيه من امم الفرنج فمنها في الاقليم
الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومي وجرندة وقرقشونة وراءها
في الشمال ومنها في الاقليم الخامس طلوشة شمالاً عن جرندة واما المنكشف في هذا الجزء
من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرتات شرقاً

وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي بها يتصل جبل البرتات بلد بيونه وفي
آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء ارض بيطو من الفرنج الى آخر
الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه ارض غشكونيه وفي شمالها ارض بيطو
وبرغش وقد ذكرناهما وفي شرق بلاد غشكونيه قطعة من البحر الرومي دخلت
في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونيه في غربها
داخلة في جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالاً بلاد جنوه الخارج من البحر الرومي
طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه نيش وفي شرقيه
مدينة رومة العظمى كرسي ملك الافرنجة ومسكن البابا بتركهم الاعظم
وفيها من المباني الضخمة والهياكل المهولة والكنائس العادية ما هو معروف
الاخبار ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش
قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها
وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد ابرنصيه الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر
الذي في جنوبه رومة بلد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلاد قلورية من
بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء
الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه
كثير من بلاد البنادقة من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلايه
في الاقليم السادس وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلوريه بين خليج
البنادقة والبحر الرومي يدخل من جانب برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي
في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرق بلاد
قلورية الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة
من البحر الرومي ذاهباً الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذياً لآخر
الجزء الشمالي ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه
في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى ان ينتهي قبالة الخليج في شماله من
بلاد انكلايه من امم اللمانيين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما
ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى الغرب فبينهما بلاد جرواسيا
ثم بلاد اللمانيين عند طرف الخليج وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر
الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر تخرج منها الى الشمال

وبين كل ضرسين منها طرف من البر في الجون بينهما وفي آخر الجزء مشرقا
خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال
الى ان يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى
بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم
السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرق هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال
وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة
ما كثرت عنه الاحاديث والقطعة التي بين الرومي وخليج القسطنطينية من هذا
الجزء فيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي
هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة بارض باطوس واظنها لهذا العهد مجالات للتركمان
وبها ملك ابن عثمان وقاعدته برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبتهم عليها
الامم الى ان صارت للتركمان وفي الجزء من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه
ارض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرق عمورية نهر
الذي يمد الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات
قبل حصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم الرابع وهنالك في غربية آخر الجزء
مبدا نهر سيحان ثم نهر جيحان غربه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما وفي شرقه
هنالك مبدا دجله الذاهب على سمته وموازاته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية
التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدا منه نهر دجلة بلد
ميافارقين ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احدهما غربية
جنوبية وفيها ارض باطوس كما قلناه واسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي
يبدا منه قباقب ارض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شمالية شرقية جنوبية
على الثلث ففي الجنوب منها مبدا الدجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان
متصلة بارض عمورية وراء جبل قباقب وهي عريضة وفي آخرها عند مبدا الفرات
بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطيعة من بحر نيطش الذي يمده
خليج القسطنطينية وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد ارمينية
متصلة الى ان تتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلد ارزن في الجنوب
والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل وفي شرقي ارزن مدينة خلاط ثم بردعة وفي
جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية ومن هنالك تخرج بلاد ارمينية

الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة في شرق جبل الاكراد المسمى بارما
وقد مر ذكره في الجزء السادس ويتاخم بلاد ارمينية في هذا الجزء وفي الاقليم
الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد آذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا
بلد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من هذا الجزء
من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد
خزر وهم التركمان ويبدا من عند هذه القطيعة البحرية في الشمال جبال متصل
بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس وتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد
ميافارقين وتخرج الى الاقليم الرابع عند آمد وتتصل بجبل السلسلة في اسافل
الشام ومن هنالك تتصل بجبل اللكام كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا
الجزء ثنايا كالابواب تفضي من الجانبين ففي جنوبها بلاد الابواب متصلة
في الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الابواب
وتتصل بلاد الابواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلد ارمينية وبينها في الشرق
وبين بلاد آذربيجان الجنوبية بلاد الران متصلة الى بحر طبرستان وفي شمال
هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير وفي الزاوية الغربية
الشمالية منها وهي زاوية الجزء كله قطيعة ايضا من بحر نيطش الذي يمده
خليج القسطنطينية وقد مر ذكره وتحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير
وعليها منها اطرابزنده وتتصل بلاد السرير بين جبال الابواب
والجهة الشمالية من الجزء الى ان ينتهي مشرقا الى جبل حاجز بينها وبين
ارض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من
ارض الخزر تنتهي الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء بين بحر
طبرستان وخرج من جنوبه والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر
طبرستان وخرج من جنوبه في الاقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك ان عليها
في الجزء السادس من الاقليم الرابع وتتصل بها من شمالها القطعة التي في
الجزء السادس من الاقليم الرابع وتنكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته
الشمالية الغربية يصب فيها نهر اتل في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية
الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من امم الترك ويقال لهم
الكتغز كانه عرب وصارت خاذه غنيا وشدت الراي ونحيط بهذه القطعة

متصلة بها القطيعة التي في الجزء السادس

جبل من جهة الجنوب داخل من الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى ما دون وسطه فينعطف الى الشمال الى ان يلاقي بحر طبرستان فيحيف به ذاهبا معه الى بقيته في الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل شياه ويذهب مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين ارض السرير وارض الخزر واتصلت ارض الخزر في الجزء السادس والسابع حفافي هذا الجبل المسمى جبل شياه كما ياتي والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من امم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلثمائة ميل وتصب فيها انهار كثيرة من ارض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة غرغون دورها اربعمائة ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل باخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة غرغون جبل من الحجر الصلد لا ينبت فيها شيئا يسمى غرغون وبه سميت البحيرة وتنجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة انهار لا ينحصر عددها فتنصب فيها من الجانبين وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد ادكش من امم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية ويحفه من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقايا المحيط بها ياجوج وماجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حين ينعطف اول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون نصفه واحاط من اوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت في جنوبه قطعة من هذا الجزء مستطيلة الى الغرب فيها اخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما نذكر فبقيت منه القطعة التي احاط بها جبل قوقايا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد ياجوج وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم ارض ياجوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا من شرقيه من جنوبه الى شماله

والا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقايا حين مر فيه وما سوى ذلك فكله ارض ياجوج **الاقليم السادس** فالجزء الاول منه غمر البحر الاكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من الارض في هذا الجزء داخلة بين طرفيه من البحر المحيط كالجون فيه وتفسح طولا وعرضا وهي كلها ارض برطانيه وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزء بلاد صايس متصلة ببلاد بيطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه من قطعة مستطيلة اكثر من نصفه الشمالي من شرق ارض برطانيه في الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هناك قطعة من جزيرة انكلترة وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد برمنديه وبلاد افلاندش متصلين بها ثم بلاد افرنسيه جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونيه شرقا عنها وكلها لامم الافرنجة وبلاد اللمانيين في النصف الشرقي من الجزء بلاد انكلايه ثم بلاد برغونيه شمالا ثم ارض لهركه وشصونيه وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية ارض افريذه وكلها لامم اللمانيين وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد نوابيه وبلاد بلونيه في الشمال بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف الى الشمال الى ان يقف في بلاد شصونيه اخر النصف الغربي وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوبية ارض جثوليه وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من اول الجزء غربا الى ان يقف في النصف الشرقي وفي شرق ارض جثوليه بلاد جرمانيه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية ارض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش فتقع قطيعة من بحر نيطش في اعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسناة وفي الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية منه بحر نيطش يتصل من الخليج آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته شرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول الف وثلثمائة ميل

في مبدائه في عرض ستمائة ميل ويبقى ورآء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء من
من غربها الى شرقها برسطيل في غربه هرقليه على ساحل نيطش متصلة بارض البيلقان
من الاقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانيه وقاعدتها سنوبل على ساحل نيطش
في هذا الجزء غربا ارض برجان وشرقا بلاد الروسيه وكلها على ساحل هذا البحر
وبلاد الروسيه محيطة ببلاد برجان من شرقها في هذا الجزء وفي شمالها في الجزء
الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء من هذا الاقليم وفي الجزء السادس
من غربه بقية بحر نيطش وينحرف قليلا الى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين
آخر الجزء شمالاً بلاد قمانيه وفي جنوبه ومنفسح الى الشمال بما انحرف هو كذلك
بقية بلاد اللانيه التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية
من هذا الجزء متصل ارض الخزر وفي شرقها ارض برطاس وفي الزاوية الشرقية
الشمالية ارض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية ارض بلنجر تجوزها هنالك
قطعة من جبل شباه كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ويذهب
بعد مفارقته مغربا فيجوز هذه القطعة ويدخل الى الجزء السادس من الاقليم
الخامس فيتصل هنالك بجبال الابواب وعليه من ناحية بلاد الخزر وفي الجزء
السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل شباه بعد مفارقته
بحر طبرستان وهو قطعة من ارض الخزر الى آخر الجزء غربا وفي شرقها القطعة
من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها وورآء جبل شباه في
الناحية الغربية الشمالية ارض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء ارض
بسجرت وبجناك من امم الترك وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها ارض
الخولج من الترك وفي الناحية الشمالية غربا الارض المنتنة وشرقا الارض
التي يقال ان ياجوج وماجوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الارض المنتنة
مبدا نهر اتل من اعظم انهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان
في الاقليم الخامس وفي الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل الارض المنتنة
من ثلثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب الى آخر السابع من هذا
الاقليم فينعطف شمالاً الى الجزء السابع من الاقليم السابع ويذهب مغربا غير بعيد
ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من السادس ويخرج منه جدول
يذهب مغربا ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق

في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب
وينفذ في جبل شباه ويمر في بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس في الجزء السابع
فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية
الغربية الجنوبية وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد
خفشاخ من الترك وهم قفجق وبلاد التركش منهم ايضا وفي الشرق منه بلاد ماجوج
يفصل بينهما جبل قوقايا المحيط وقد مر ذكره يبدا من البحر المحيط في شرق
الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم في الشمال ويفارقه مغربا بانحراف
الى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمته الاول
في الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من جنوبه الى شماله وبانحراف الى الغرب
وفي وسطه ههنا السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته الى الاقليم السابع
وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه من الجنوب الى ان يلقى البحر المحيط في شماله ثم
ينعطف معه من هنالك مغربا في الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتصل
هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي
بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبيد الله بن خرداذبه
في كتابه في الجغرافيا ان الواثق راى في منامه كان السد انفتح فانتبه فزعاً
وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست
من مقاصد هذا الكتاب وفي الجزء من هذا الاقليم بلاد ماجوج متصلة فيه الى آخره
على قطعة هنالك من البحر المحيط احاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال
وعريضة بعض الشيء في الشرق **الاقليم السابع** والبحر المحيط قد غمر عامته من
جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقايا المحيط بياجوج
وماجوج فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطره
التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال و
بقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس
وهي مذكورة هناك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً
وورآء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب
الى الشرق والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور اكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة
في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هناك متصل ارض فلونيه التي مر ذكرها في الثالث

في الثالث من الاقليم السادس وانها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر
هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من بابـ
من جنوبها يفضي الى بلاد فلونيه وفي شمالها جزيرة برقاغه مستطيلة مع الشمال
من الغرب الى الشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط
من الغرب الى الشرق وجنوبه منكشف ففي غربه ارض فنياذك من الترك وفي شرقها
بلاد طبست ثم ارض رسلانده الى اخر الجزء شرقا وهي دايمة الثلوج وعمرانها
قليل وتتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه وفي
الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وتنتهي في الشمال
الى قطعة البحر المحيط التي تتصل بها جبل قوقايا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية
الشرقية منه متصل ارض قمانيه التي على قطعة بحر نيطش في الجزء السادس من الاقليم
السادس وتنتهي الى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة وتجلب اليها انهار كثيرة
من الجبال عن الجنوب والشمال وفي الشمال الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض التتارية
من الترك الى آخره وفي الجزء السادس في الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيه
وفي وسط الناحية بحيرة عنون عذبة تجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي
الشرقية وهي جامدة دايما لشدة البرد الا قليلا في زمن المصيف وفي شرق بلاد القمانيه
بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية
من الجزء الخامس منه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية ارض بلغار
التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه
وفي وسط هذه القطعة من ارض بلغار منعطف نهر اتل العطفة الاولى الى الجنوب
كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقايا متصل من غربه الى شرقه
وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية ارض بجناك من امم الترك وكان
مبدؤها في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية
الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس فوقه وفي الناحية الشرقية بقية ارض
بسجرت ثم بقية الارض المنتنة الى اخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال
جبل قوقايا المحيط متصلا من غربه الى شرقه وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية
الغربية منه متصل الارض المنتنة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجايب
خرق فسيح في الارض فسيح الاقطار بعيد المهوى ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه

بالدخان في النهار والنيران بالليل تضيء وتخفى وربما رُئي فيها نهر يشقها من الجنوب
الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفي
اخر الشمال منه جبل قوقايا متصلا من الغرب الى الشرق وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم
في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يجوزها جبل قوقايا حين ينعطف من شماله
عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء
التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد ياجوج وماجوج
وقد ذكرناه وفي الوجه الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض ياجوج وراء جبل قوقايا
على البحر قليلة العرض مستطيلة احاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمره البحر
جميعه هذا اخر الكلام على الجغرافيا واقاليمها السبعة وفي خلق السموات والارض
واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين **المقدمة الثالثة** في المعتدل من الاقاليم
والمنحرف وتاثير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالهم قد بينا ان المعمور من هذ
المنكشف من الارض انما هو وسطه الى الجانب الشمال لافراط الحر في الجنوب منه
والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الجنوب والشمال متضادين في البرد والحر
وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع اعدل العمران
والذي حفافيه من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال والذي يليهما السادس
والثاني بعيدان من الاعتدال والاول والسابع ابعد بكثير فلهذا كانت العلوم
والصنايع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون
في هذه الاقاليم الثلثه المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر اعدل اجساما
والوانا واخلاقا واحوالا فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم واقواتهم
وصنايعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون في
استجادة الآلات والمواعين يذهبون في ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن
الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير
ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف في عامة
احوالهم وهولآء اهل المغرب والشام والعراقين والسند والصين وكذلك الاندلس
ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة ومن كان مع هولآء او قريبا منهم من هذه
الاقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام اعدل هذه كلها لانها وسط من
جميع الجهات واما الاقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الاول والثاني والسادس والسابع

فاهلها ابعد من الاعتدال في جميع احوالهم فبناؤهم بالطين والقصب
واقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من اوراق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود
واكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وادمها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف
ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس او حديد او جلود يقدرونها للمعاملات
واخلاقهم مع ذلك قريب من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير من السودان
اهل الاقليم الاول انهم يسكنون في الكهوف والغياض وياكلون العشب وانهم
متوحشون غير مستانسين يقتل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسبب في ذلك
انهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض امزجتهم واخلاقهم من عرض الحيوانات العجم
ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذا احوالهم في الديانة ايضا فلا يعرفون
نبوة ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الاقل
النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده
لهذا العهد ومثل اهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لارض المغرب الدائنين
بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية
من امم الصقالبة والافرنجة والترك في الشمال ومن سوى هؤلاء من اهل تلك الاقاليم
المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع احوالهم
بعيدة من احوال الاناسي قريبة من احوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على
هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما اليها
من جزيرة العرب في الاقليم الاول والثاني فان جزيرة العرب كلها احاطت بها
البحار من الجهات الثلث كما ذكرناه فكان لرطوبتها اثر في رطوبة هوائها فنقص
ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال برطوبة
البحر وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ان السودان
هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت من ابيه ظهر اثرها في لونه
وفيما جعل الله من الرق في عقبه ودعاء نوح على ابنه حام وقد وقع في التورية
وليس فيه ذكر السواد وانما دعا عليه بان يكون ولده عبيدا لولد اخوته لا غير
وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما
يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني
من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين
في كل سنة قريبة احديهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء

لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم فتسود جلودهم لافراط الحر ونظير هذين الاقليمين
فيما يليها من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانها ايضا البياض من
مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرأى العين
او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد
البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها وينتهي الى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه
مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما
الاقاليم الثلثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو
مزاج المتوسط حظ وافر والرابع ابلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما
قدمناه فكان لاهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج اهويتهم
وتبعه عن جانبيه الخامس والثالث وان لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا الى
الجنوب الحار وهذا قليلا الى الشمال البارد الا انهما لم ينتهيا الى الانحراف وكانت
الاقاليم الاربعة منحرفة واهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالاول والثاني للحر والسواد
والسادس والسابع للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الاول
والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان اسماء مترادفة على الامة المتغيرة
بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن
تجاه بحر الهند وليست هذه الاسماء لهم من جهة انتسابهم الى ادمي اسود
لا حام ولا غيره وقد تجد من السودان اهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل
او السابع المنحرف الى البياض فتبيض الوان اعقابهم على التدريج مع الايام
وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع بالجنوب فتسود الوان اعقابهم
وفي ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في ارجوزته
في الطب • بالزنج حر غير الاجسادا • حتى كسى جلودها سوادا •
• والصقلب اكتسبت البياضا • حتى غدت جلودها بضاضا •
واما اهل الشمال فلم يسموا باعتبار الوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة
الواضعة للاسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده
ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغز والخزر واللان والكثير من الافرنجة
وياجوج وماجوج اسماء متفرقة واجيالا متعددة مسمين باسماء متنوعة واما اهل
الاقاليم المتوسطة اهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية

للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنايع والعلوم والرياسات والملك فكانت
فيهم النبوآت والملل والدول والشرايع والعلوم والبلدان والامصار والمباني
والفراسة والصنايع الفايقة وساير الاحوال المعتدلة واهل هذه الاقاليم الذين
وقفنا على اخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونانيين واهل
السند والصين ولما راى النسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعايرها حسبوا
ذلك لاجل الانساب فجعلوا اهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في
الوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا اهل الشمال كلهم او اكثرهم
من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة وهم اهل الوسط المنتحلون للعلوم والصنايع
والملل والشرايع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف
الحق في انتساب هولاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لا ان
تسمية اهل الجنوب بالسودان والحبشان من اجل انتسابهم الى حام الاسود
وما اداهم الى هذا الغلط الا اعتقادهم ان التمييز بين الامم انما يقع بالانتساب
فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل او الامة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب
وبني اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشان والصقالبة
والسودان ويكون بالعوايد والشعاير مع النسب كما للعرب ويكون بغير ذلك
من احوال الامم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول في اهل جهة معينة من جنوب
او شمال بانهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من لون او نحلة او سمة وجدت
لذلك الاب انما هو من الاغاليط التي اوقع فيها الغفلة عن طبايع الاكوان
والجهات وان هذه كلها تتبدل في الاعقاب ولا يجب استمرارها في عباده ولن
تجد لسنة الله تبديلا **المقدمة الرابعة** في اثر الهوآء في اخلاق البشر قد راينا
من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين
بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك
انه تقرر في موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح
الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهي انقباضه وتكاثفه وتقرر
ان الحرارة مفشية للهوآء والبخار مخلخلة له زايدة في كميته ولهذا يجد المنتشي
من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة
الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجي طبيعة

الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوايها واتصلت
حرارة الهوآء بارواحهم فتسخنت لذلك حدثت لهم فرح وربما انبعث
الكثير منهم بالغناء الناشي عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقليم
الحار واستولى الحر على امزجتهم وفي اصل تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة
على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح اهل الاقليم
الرابع اشد حرا فتكون اسرع فرحا وسرورا واكثر انبساطا ويجي الطيش
على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف
الحرارة بما ينعكس عليه من اضواء بسيط البحر واشعته كانت حصتهم من
توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة
وقد نجد يسيرا من ذلك في اهل البلاد الجريدية من الاقليم الثالث لتوفر
الحرارة فيها وفي هوايها لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول
واعتبر ذلك ايضا باهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجريدية وقريبا منها
كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرون اقوات
سنتهم ولا شهرهم وعامة ماكلهم من اسواقهم ولما كانت فاس من بلاد المغرب
بالعكس منها بالتوغل في التلول الباردة كيف ترى اهلها مطرقين اطراق
الحزن وكيف افرطوا في نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر اقوات سنين
من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة ان يرزا شيئا من مدخره
وتتبع ذلك في الاقاليم والبلدان تجد في الاخلاق اثرا من كيفيات الهوآء والله
الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان
وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يات فيه بشي اكثر من انه نقل
عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي ان ذلك لضعف ادمغتهم وما نشا
عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء
المقدمة الخامسة في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشا
عن ذلك من الاثار في ابدان البشر واخلاقهم اعلم ان هذه الاقاليم المعتدلة
ليس كلها يوجد له الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله
خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال
الطينة ووفور العمران وفيها الارض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا

بالجملة فتجدهما في شظف من العيش مثل اهل الحجاز واليمن ومثل الملثمين من صنهاجة
الساكنين بصحراء المغرب واطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء
يفقدون الحبوب والادم جملة وانما اغذيتهم واقواتهم الالبان واللحوم ومثل
العرب الجائلين في القفار فانهم وان كانوا ياخذون الحبوب والادم من التلول
الا ان ذلك في الاحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم
فلا يتوصلون منه الى سد الخلة او دونها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم
يقتصرون في غالب احوالهم على الالبان وتعوضهم من الحنطة احسن حالا في جسومهم
واخلاقهم من اهل التلول المنغمسين في العيش فالوانهم اصفى وابدانهم انقى
واشكالهم اتم واحسن واخلاقهم ابعد عن الانحراف و
اذهانهم اثقب في المعارف والادراكات هذا امر تشهد له التجربة في كل جيل منهم
فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين واهل التلول يعرف ذلك
من خبره والسبب في ذلك والله اعلم ان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد
في الجسم فضلات ردية ينشا عنها بعد اقطاره في غير نسبة وكثرة الاخلاط
الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم
كما قلناه وتغطي الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من
ابخرتها الردية فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر
ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والمها والنعام والزرافة
والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة
كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب
اعضائها وحدة مداركها فالغزال اخو المعز والزرافة اخو البعير والحمار والبقر
هو الحمار والبقر والبون بينها ما رايت وما ذاك الا لاجل ان الخصب في التلول فعل
في ابدان هذه من الفضلات الردية والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليه اثره
والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها واشكالها ما شاء واعتبر ذلك في الادميين
ايضا فانا نجد اهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه
يتصف اهلها غالبا بالبلادة في اذهانهم والخشونة في اجسامهم وهذا شان البربر
المنغمسين في الادم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير او الذرة
مثل المصامدة منهم واهل السوس وغمارة فتجد هؤلاء احسن حالا في عقولهم وجسومهم

اهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الادم والبر مع اهل الاندلس المفقود بارضهم
السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لاهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة
الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لهم وكذا اهل الضواحي من المغرب بالجملة
مع اهل الحضر والامصار فان اهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم
ومخصبين في العيش الا ان استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون
بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ماكلهم لحمان الضان
والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في
اغذيتهم ويخف ما يؤديه الى اجسامهم من الفضلات الردية فلذلك تجد جسوم
اهل الامصار الطف من جسوم البادية المخشوشنين في العيش وكذلك تجد المتعودين
بالجوع من اهل البادية فانهم لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة واعلم ان
اثر هذا الخصب في البدن يظهر حتى في حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من اهل
البادية والحاضرة ممن ياخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ احسن دينا واقبالا على
العبادة من اهل الترف والخصب بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والامصار
لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البر
ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من اهل البوادي
وكذلك نجد حال اهل المدينة الواحدة في ذلك يختلف باختلاف حالها في الترف
والخصب وكذلك نجد هؤلاء المخصبين العيش المنغمسين في طيباته لا من اهل
البادية ولا من اهل الحاضرة والامصار اذا نزلت بهم السنون واخذتهم المجاعات
يسرع اليهم الهلاك اكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب واهل مدينة فاس ومصر
فيما يبلغنا لا مثل العرب اهل القفر والصحراء ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب
عيشهم التمر ولا مثل اهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت
واهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فان هؤلاء وان اخذتهم
السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من اولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع
بل ولا يندر والسبب في ذلك والله اعلم ان المنغمسين في الخصب المتعودين للادم
والسمن خصوصا تكتسب امعاؤهم من ذلك رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية
حتى تجاوز حدها فاذا خولف بها العادة بقلة الاقوات وفقدان الادم
واستعمال الخشن غير المالوف من الغذاء اسرع الى المعاء اليبس والانكماش وهو

ضعيف في الغاية ولهذا عد في المقاتل فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه بسرعة
فالهالكون في المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع اللاحق
واما المتعودون للجوع وترك الادم والسمن فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة
عند حدها من غير زيادة وهي صالحة لجميع الاغذية الطبيعية فلا يقع في
معاهم بتبدل الاغذية يبس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي
يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الادم في المآكل واصل هذا كله ان تعلم ان الاغذية
وايلافها او تركها انما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له
مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة
كالسموم واليتوع وما افرط في الانحراف فاما ما وجد فيه التغذي والملاءمة
فيصير غذاء مألوفا بالعادة فاذا اخذ الانسان نفسه باستعمال اللبن والبقل
عوضا من الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن
الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء
عن الطعام كما ينقل عن اهل الرياضات فانا نسمع عنهم في ذلك اخبارا غريبة يكاد
ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا الفت شيئا من خلقها
وطبيعتها لانها كثيرة التلون فاذا حصل له اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة
فقد حصل ذلك عادة وطبيعة لها وما يتوهمه الاطباء من ان الجوع يهلك
فليس على ما يتوهمونه الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية
فانه يحسم المعاء ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك واما اذا كان ذلك
تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيئا فشيئا كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل
عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا
رجع الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدا في الرياضة
بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع اربعين يوما وصالا واكثر وحضر
اشياخنا في دولة السلطان ابي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من اهل الجزيرة الخضراء
ورندة حبستا انفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع امرهما ووقع اختبارهما
فصح شانهما واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا ورأينا كثيرا من اصحابنا ايضا
من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار او عند الافطار
ويكون ذلك غذاءه واستدام ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا تستنكرن

ذلك

ذلك واعلم ان الجوع اصلح للبدن من اكثار الاغذية من كل وجه لمن قدر عليه
او على الاقلال منها وان له اثرا في الاجسام والعقول في صفائها وصلاحها
كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الاغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا
المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ اجيالهم كذلك
وهذا مشاهد في اهل البادية مع اهل الحاضرة وكذا المتغذون بالبان الابل
ولحومها ايضا مع ما يؤثر في اخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل
الاثقال كما هو للابل وتنشأ معاهم ايضا على نسبة معاء الابل في الصحة والغلظ
فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الاغذية ما ينال غيرهم
فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل نضجه والدرياس
والفربيون ولا ينال معاهم منها ضرر وهي لو تناولها اهل الحضر الرقيقة
معاهم بما نشأت عليه من لطيف الاغذية لكان الهلاك اسرع اليهم من طرفة
العين لما فيها من السمية ومن تاثير الاغذية في الابدان ما ذكره اهل الفلاحة
وشاهده اهل التجربة ان الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل
واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها اعظم ما يكون وقد
يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء
دجاجها في غاية العظم وامثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من الاغذية
في الابدان فلا شك ان للجوع ايضا آثارا في الابدان لان الضدين على نسبة
واحدة في التاثير وعدمه فيكون تاثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات
الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في
وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه **المقدمة السادسة** في اصناف المدركين للغيب
من البشر بالفطرة او بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا اعلم ان
الله سبحانه اصطفى من البشر اشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته
وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرصون على هدايتهم
ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم
من المعارف ويظهره على السنتهم من الخوارق الاخبار بوقوع الكائنات
المغيبة عن البشر التي لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها
الا بتعليم الله تعالى اياهم قال صلى الله عليه وسلم الا واني لا اعلم الا ما علمني الله واعلم

ان خبرهم فی ذلک من خاصیة وضروریة الصدق لما تبین لک عند بیان حقیقة
النبوة وعلامة هذا الصنف فی رای العین ولیست منها فی شی انما هی بالحقیقة
استغراق فی لقاء الملک الروحانی بادراکهم المناسب لهم الخارج عن مدارک البشر
بالکلیة ثم یتنزل الی المدارک البشریة اما بسماع دوی من الکلام فیتفهمه او یتمثل له
صورة شخص یخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلی عنه تلک الحال وقد وعی ما القی
علیه قال صلی الله علیه وسلم وقد سئل عن الوحی احیانا یاتینی مثل صلصلة الجرس
وهو اشده علی فیفصم عنی وقد وعیت ما قال واحیانا یتمثل لی الملک رجلا
فیکلمنی فاعی ما یقول ویدرکه اثناء ذلک من الشدة والغط ما لا یعبر عنه ففی
الحدیث کان مما یعالج من التنزیل شدة وقالت عایشة کان ینزل علیه
الوحی فی الیوم الشدید البرد فیفصم عنه وان جبینه لیتفصد عرقا وقال تعالی
انا سنلقی علیک قولا ثقیلا ولاجل الحالة فی تنزل الوحی کان المشرکون یرمون
الانبیاء بالجنون ویقولون له رئی او تابع من الجن وانما لبس علیهم
بما شاهدوه من ظاهر تلک الحال ومن یضلل الله فما له من هاد ومن علاماتهم
ایضا انه یوجد لهم قبل الوحی خلق الخیر والزکاء ومجانبة المذمومات
والرجس اجمع وهذا هو معنی العصمة وکانه مفطور علی التنزه عن المذمومات
والمنافرة لها کانها منافیة لجبلته وفی الصحیح انه حمل الحجارة وهو غلام
مع عمه العباس لبناء الکعبة فجعلها فی ازاره فانکشف فسقط مغشیا علیه
حتی استتر بازاره ودعی الی مجمع ولیمة فیها عرس ولعب فاصابه غشی
النوم حتی طلعت الشمس ولم یحضر شیئا من شانهم بل نزهه الله عن ذلک
بجبلته حتی انه لیتنزه عن المطعومات المستکرهة فقد کان صلی الله علیه وسلم
لا یقرب البصل ولا الثوم فقیل له فی ذلک فقال انی اناجی من لا تناجون
وانظر لما اخبر النبی صلی الله علیه وسلم خدیجة بحال الوحی اول ما فجئه وارادت
اختباره فقالت اجعلنی بینک وبین ثوبک فلما فعل ذهب عنه فقالت انه
ملک ولیس بشیطان ومعناه انه لا یقرب النساء وکذا سالته عن احب الثیاب الیه
ان یاتیه فیها فقال البیاض والخضرة فقالت انه الملک یعنی ان الخضرة
والبیاض من الوان الخیر والملئکة والسواد من الوان الشر والشیاطین
وامثال ذلک ومن علاماتهم ایضا دعاؤهم الی الدین والعبادة

من البشر ان یوجد لهم فی حال الوحی غیبة عن
الحاضرین مع غطیط کانها غشی او اغماء
صح

٤٧

من الصلوة والصدقة والعفاف وقد استدلت خدیجة علی صدقه صلی الله
علیه وسلم بذلک وکذلک ابو بکر ولم یحتاجوا فی امره الی دلیل خارج عن حاله
وخلقه وفی الصحیح ان هرقل حین جاءه کتاب النبی صلی الله علیه وسلم یدعوه
الی الاسلام احضر من وجد ببلده من قریش وفیهم ابو سفیان لیسالهم عن حاله
فکان فیما سال ان قال بم یامرکم فقال ابو سفیان بالصلوة والزکوة والصلة
والعفاف الی آخر ما سال واجابه فقال ان یکن ما تقول حقا انه نبی وسیملک
ما تحت قدمی هاتین والعفاف الذی اشار الیه هرقل هو العصمة فانظر
کیف اخذ من العصمة والدعاء الی الدین والعبادة دلیلا علی صحة النبوة ولم یحتج
الی معجزة فدل علی ان ذلک من علامات النبوة ومن علاماتهم ایضا ان یکونوا
ذوی حسب فی قومهم وفی الصحیح ما بعث الله نبیا الا فی منعة من قومه وفی روایة
اخری فی ثروة من قومه استدرکه الحاکم علی الصحیحین وفی مسایلة هرقل لابی سفیان
کما هو فی الصحیح قال کیف هو فیکم فقال ابو سفیان هو فینا ذو حسب فقال هرقل
والرسل تبعث فی احساب قومها ومعناه ان تکون له عصبیة وشوکة تمنعه
من اذی الکفار حتی یبلغ رسالات ربه ویتم مراد الله من اکمال دینه وملته
ومن علاماتهم ایضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهی افعال یعجز البشر
عن مثلها فسمیت لذلک معجزة ولیست من جنس مقدور العباد وانما یقع فی غیر
محل قدرتهم وللناس فی کیفیة وقوعها ودلالتها علی تصدیق الانبیاء خلاف
فالمتکلمون بناء علی القول بالفاعل المختار قایلون بانها واقعة بقدرة الله لا بفعل
النبی وان کان افعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم الا ان المعجزة لا تکون
من جنس افعالهم ولیس للنبی فیها عند الجمیع الا التحدی بها باذن الله وهو ان
یستدل بها النبی قبل وقوعها علی صدقه فی مدعاه فتنزل منزلة القول الصریح
بان الله تعالی بانه صادق ویکون دلالتها علی الصدق قطعیة فالمعجزة الدالة
فالمعجزة الدالة مجموع الخارق والتحدی ولذلک کان التحدی جزءا منها وعبارة
المتکلمین صفة نفسها وهو واحد لانه معنی الذاتی عندهم والتحدی هو الفارق
بینها وبین الکرامة والسحر اذ لا حاجة فیهما الی التصدیق فلا وجود للتحدی الا ان
وجد اتفاقا وان وقع التحدی عند الکرامة عند من یجیزها وکانت لها دلالة فانما
هی علی الولایة وهو غیر النبوة ومن هنا منع الاستاذ ابو اسحاق وغیره وقوع

مطلب
سؤال هرقل

الخوارق كرامة فرارًا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد ارينا
المغايرة بينهما وانه يتحدى بغير ما يتحدى بها النبي فلا لبس على ان النقل عن الاستاذ
ليس صريحا وربما حمل على انكار ان يقع خوارق الانبياء لهم بناء على اختصاص كل
من الفريقين بخوارقه واما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم ان الخوارق
ليست من افعال العباد وافعالهم معتادة فلا خارق واما وقوعها على يد
الكاذب تلبيسًا فهو محال اما عند الاشعرية فلان صفة نفس المعجزة التصديق
والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلبت الدليل حجة والهداية ضلالة
والقول والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم
من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا واما عند المعتزلة فلان وقوع الدليل شبهة
والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله واما الحكماء فالخارق عندهم من فعل
النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الايجاب الذاتي ووقوع
الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الشروط والاسباب الحادثة مستندة
اخيرًا الى الواجب بالذات الفاعل بالذات لا بالاختيار وان النفس النبوية
عندهم لها خواص ذاتية صدر منها هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له
في التكوين والنبي عندهم مجبول على التصريف في الاكوان متى توجه اليها واستجمع
لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي كان التحدي او لم يكن
وهو شاهد لصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الاكوان الذي
هو من خواص النبوة لا بانه يتنزل عندهم منزلة القول الصريح بالتصديق
فلذلك لا تكون دلالتها قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءً
من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر
ان النبي مجبول على افعال الخير مصروف عن افعال الشر فلا يلم الشر بخوارقه و
الساحر على الضد فافعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة ان
خوارق النبي مخصوصة كالصعود الى السماء والنفوذ في الاجسام الكثيفة واحياء الموتى
وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث
عن بعض المستقبل وامثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء ويأتي النبي بمثل خوارقه
ولا يقدر الولي على مثل خوارق الانبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم
ونقلوه عن مواجدهم واذا تقرر ذلك فاعلم ان اعظم المعجزات واشرفها واوضحها

النفس ح

دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا صلوات الله عليه لان الخوارق في الغالب
تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي وتأتي المعجزة شاهدة به وهذا ظاهر
والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فدلالته في عينه ولا يفتقر الى دليل اجنبي
عليه كسائر الخوارق مع الوحي فهو اوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه
وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الانبياء الا واوتي من الايات
ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي اوتيته وحيا اوحي الي فانا ارجو ان اكون
اكثرهم تابعا يوم القيمة يشير الى ان المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة
وهو كونها نفس الوحي كان المصدق لها اكثر لوضوحها فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والامة
والله تعالى اعلم ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة
الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول اعلم ارشدنا الله
واياك انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام
وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات
الى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته وابدا من ذلك بالعالم المحسوس
الجسماني واولا عالم العناصر المشاهد كيف تدرج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء
ثم الى النار متصلا بعضه ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات وكل واحد
منها مستعد ان يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد
منها الطف مما قبله الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهي الطف من الكل وعلى طبقات
اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدي
بعضهم الى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها
هذه الاثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدا من المعادن ثم النبات
ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر افق المعادن متصل باول افق النبات
مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر افق النبات مثل النخل والكرم متصل باول افق
الحيوان كالحلزون والصدف ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال
في هذه المكونات ان آخر افق منها مستعد بالاستعداد القريب لان يصير اول افق
من الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه وانتهى في تدريج التكوين
الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الكيس و
الادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك اول افق من الانسان

تفسير حقيقة النبوة

بعده وهذا غاية شهودنا ثم انا نجد في العالم على اختلافها آثاراً متنوعة ففي عالم
الحس آثار من حركة الافلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركات النمو
والادراك تشهد كلها بان لها مؤثراً مباينا للاجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات
لوجود اتصال هذه العوالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولابد
فوقها من موجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها ايضا ويكون ذاته
ادراكا صرفا وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك ان يكون للنفس
استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات
وفي لمحة من اللمحات وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد
ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها شان الموجودات المرتبة كما قدمناه
فلها في الاتصال جهة العلو والسفل وهي متصلة بالبدن من اسفل منها ومكتسبة به
المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة بالجهة الاعلى
منها بافق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فان علم الحوادث موجود
في ذواتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته
وقواه بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان وآثارها
ظاهرة في البدن فكانه وجميع اجزائه مجتمعة ومتفرقة آلات للنفس ولقواها
الفاعلة فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن
متدافعاً واما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتقية الى القوة
العليا منها وهي المفكرة التي يعبرون عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهر بآلاته
من البصر والسمع وسائرها ترتقي الى الباطن واوله الحس المشترك وهو قوة تدرك
المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت
قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤديه الحس
المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرداً عن المواد
الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين في تصرفهما البطن الاول من الدماغ مقدمة
للاولى ومؤخرة للثانية ثم يرتقي الخيال الى الوهمية والحافظة فالوهمية لادراك المعاني
المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الاسد
والحافظة لايداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالخزانة تحفظها الى
وقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصرفهما البطن المؤخر من الدماغ اوله للاولى

ومؤخرة للاخرى ثم ترتقي جميعها الى قوة الفكر وآلته البطن الاوسط من
الدماغ وهو القوة التي تقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بها
دائما بما ركب فيها من النزوع الى ذلك لتتخلص من درك القوة والاستعداد
الذي للبشرية وتخرج الى الفعل في تعقلها متشبهة بالملأ الاعلى الروحاني وتصير في
اول مراتب الروحانيات في ادراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائما ومتوجهة
نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملائكة من الافق الاعلى
من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الاولى والنفوس البشرية
في ذلك ثلثة اصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني
فيقنع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من
الحافظة والوهمية على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون بها العلوم
التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه اذ هو
من جهة مبدائه ينتهي الى الاوليات ولا يتجاوزها وان فسدت فسد ما بعدها
وهذا هو في الاغلب نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء
وفيه ترسخ اقدامهم وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو التعقل الروحاني والادراك
الذي لا يفتقر الى آلات البدن بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق
ادراكه عن الاوليات التي هي نطاق الادراك الاول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات
الباطنة وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدائها ولا من منتهاها وهذه مدارك
الاولياء اهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لاهل
تعبير الانسلاخ
السعادة في البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها
الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له
شهود الملأ الاعلى في افقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك
اللمحة وهؤلاء هم الانبياء صلوات الله عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك
اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم عليها وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع
البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من العصمة والاستقامة
التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طباعهم رغبة في العبادة تكتنف بتلك
الوجهة وتسيغ نحوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤا
بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فاذا توجهوا وانسلخوا

عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملا الاعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية
متنزلا فى قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة بسماع دوى كانه رمز من الكلام ياخذ منه
المعنى الذى القى اليه فلا ينقضى الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الرؤيا
الذى يلقى اليه رجلا فيكلمه ويعى ما يقوله والتلقى من الملك والرجوع الى المدارك
البشرية وفهمه ما القى عليه كله كانه فى لحظة واحدة بل اقرب من لمح البصر لانه ليس
فى زمان بل كلها يقع جميعا فيظهر كانها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحى فى
اللغة الاسراع واعلم ان الاولى وهى حالة الدوى هى رتبة الانبياء غير المرسلين
على ما حققوه والثانية وهى حالة تمثل الملك رجلا يخاطب وهى رتبة الانبياء
المرسلين ولذلك كانت اكمل من الاولى وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبى صلى الله
عليه وسلم الوحى لما ساله الحرث بن هشام وقال كيف ياتيك الوحى فقال احيانا
ياتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال واحيانا
يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول وانما كانت الاولى اشد لانها مبدأ
الخروج فى ذلك الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها
على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعندما يتكرر الوحى ويكثر
التلقى يسهل ذلك الاتصال فعندما يعرج الى المدارك البشرية ياتى على جميعها
وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفى العبارة عن الوعى فى الاولى
بصيغة الماضى وفى الثانى بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى ان الكلام
جاء مجىء التمثيل لحالتى الوحى فمثلت الحالة الاولى بالدوى الذى هو فى المتعارف
غير كلام واخبر ان الفهم والوعى يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه
وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك
فى الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع
للتجدد واعلم ان فى حالة الوحى كلها على الجملة صعوبة وشدة قد اشار اليها القرآن
قال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة
وقالت كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا
ولذلك ما كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب
ذلك ان الوحى كما قررناه مفارقة البشرية الى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس
فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها من افقها الى ذلك الافق

الآخر وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدا الوحى فى قوله فغطنى حتى بلغ منى
الجهد ثم ارسلنى فقال اقرا فقلت ما انا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما فى الحديث
وقد يفضى الاعتياد فيه بالتدريج شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله
ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآياته حين كان بمكة اقصر منها وهو بالمدينة
وانظر الى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وانها نزلت كلها او اكثرها
عليه وهو يسير على ناقته بعد ان كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل
فى وقت وينزل الباقى فى حين آخر وكذلك كان من آخر ما نزل بالمدينة آية الدين
وهى ما هى فى الطول بعد ان كانت الآيات تنزل بمكة مثل آيات سورة الرحمن
والذاريات والمدثر والضحى والعلق وامثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها
بين المكى والمدنى من السور والآيات والله المرشد الى الصواب هذا محصل
امر النبوة واما الكهانة فهى ايضا من خواص النفس الانسانية وذلك انه قد تقدم لنا
فى جميع ما مر ان للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ عن البشرية الى الروحانية
التى فوقها وانه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر
انه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشئ من المدارك ولا من التصورات
ولا من الاحوال البدنية كلاما او حركة ولا بامر من الامور بل هو انسلاخ من البشرية
الى الملكية بالفطرة فى لحظة اقرب من لمح البصر واذا كان ذلك وكان
هذا الاستعداد موجودا فى الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلى ان ههنا صنفا
آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضد عن ضده الكامل
لان عدم الاستعانة فى ذلك الادراك ضد للاستعانة فيه وشتان ما بينهما
فاذن اعطى تقسيم الوجود ان هنا صنفا آخر من البشر مفطورا على ان تتحرك قوته
العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة
عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بامور جزئية
محسوسة او متخيلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوان وسجع الكلام وما سنح
من طير او حيوان فيستديم ذلك الاحساس او التخيل مستعينا به فى ذلك الانسلاخ
الذى يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التى فيهم مبدا لذلك الادراك
هى الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها
فى الجزئيات اكثر من الكليات ولذلك تكون متشبثة بها غافلة عن الكليات ولذلك ما تكون

المتخيلة منهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما في نوم او
يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المتخيلة ويكون لها كالمرآة تنظر
فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي
الشياطين وارفع احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذي فيه السجع
والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشئ على ذلك الاتصال
الناقص فيهجس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الاجنبي
ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتمم نقصه بامر اجنبي
عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملايم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ويكون
غير موثوق به وربما يفزع الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك
زعمه وتمويها على السائلين واصحاب هذه السجع هم المخصوصون باسم الكهان
لانهم ارفع ساير اصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع
الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الاضافة وقال لابن صياد حين سئله كاشفا
عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الامر قال ياتيني صادق وكاذب فقال خلط
عليك الامر يعني ان النبوة خاصيتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانها اتصال
من ذات النبي بالملاء الاعلى من غير مشيع ولا استعانة باجنبي والكهانة لما احتاج
صاحبها بسبب عجزه على الاستعانة بالتصورات الاجنبية كانت داخلة في ادراكه
والتبست بالادراك الذي توجه اليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة
فامتنع ان يكون نبوة وانما قلنا ان ارفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى
السجع اخف من سائر المعينات من المرئيات والمسموعات ويدل خفة المعين
على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشئ وقد زعم
بعض الناس ان هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شان
رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وان ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن
والكهان انما يتعرفون اخبار من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من
ذلك دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم كما قررناه وايضا
فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من اخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة
ولم يمنعوا مما سوى ذلك وايضا فانما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط
ولعلها عادت بعد ذلك لما كانت عليه وهذا هو الظاهر لان هذه المدارك كلها

تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لان النبوة هي النور
الاعظم الذي يخفى معه كل نور او يذهب وقد زعم بعض الحكماء انها انما توجد
بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة وقعت لان وجود النبوة لا بد له من
من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص
ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى
الكاهن على ما قررناه فقبل ان يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي
وجود الكاهن اما واحدا او متعددا فاذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت
الاوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شئ بعد وهذا بناء على ان بعض
الوضع الفلكي يقتضي بعض اثره وهو غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي ذلك الاثر
بهيئته الخاصة ولو نقص بعض اجزائها فلا يقتضي شيئا لا انه يقتضي ذلك الاثر
ناقصا كما قالوه ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق
النبي ودلالة معجزته لان لهم بعض الوجدان من امر النبوة كما لكل انسان من امر النوم
ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن باشد مما للنايم ولا يصدهم عن ذلك
ويوقعهم في التكذيب الا قوة المطامع بانها نبوة لهم فيقعون في العناد
كما وقع لامية بن ابي الصلت فانه كان يطمع ان يكون نبيا وكذا وقع لابن صياد
ولمسيلمة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الاماني آمنوا احسن ايمان
كما وقع لطليحة الاسدي وقارب بن الاسود وكان لهما في الفتوحات الاسلامية
من الآثار الشاهدة بحسن الايمان **واما الرؤيا** فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة
في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فانها عندما تكون روحانية تكون صور
الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شان الذوات الروحانية كلها وتصير
روحانية بان تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد تقع لها ذلك
لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوف اليه من الامور المستقبلة وتعود به
الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلي عانته بالمحاكاة والمثال في الخيال
لتخلصه فيحتاج من اجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا تستغني
فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه
اللمحة للنفس انها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها
تعقلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شئ من الالات

البدنية الا ان نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة اهل الافق الاعلى الذين
لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها
ما دامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو
امر الرؤيا واما الذي للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية المحضة
التي هي اعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات الوحي
وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيه ما يقع من الادراك شبيها بحال
النوم شبها بينا وان كان حال النوم ادون منه بكثير فلاجل هذه النسبة عبر الشارع
عن الرؤيا بانها جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة وفي رواية ثلثة واربعين
وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت
هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهي للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم
في رواية ستة واربعين من ان الوحي كان في مبدائه بالرؤيا ستة اشهر وهي نصف
سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من
ستة واربعين فكلام بعيد عن التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم
ومن اين لنا هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع ان ذلك انما يعطي نسبة زمن الرؤيا
من زمن النبوة ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبين لك ما ذكرناه اولا
علمت ان معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاول الشامل للبشر الى الاستعداد القريب
الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم ثم ان هذا الاستعداد البعيد
وان كان عاما في البشر فمعه عوايق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن اعظم تلك
الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم
فتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض
الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمقصود ولذلك ما جعلها الشارع من المبشرات
فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا
الصالحة يراها الرجل الصالح او يرى له واما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى
ما اصفه لك وذلك ان النفس الناطقة انما ادراكها وافعالها بالروح الحيواني
الجسماني وهو بخار لطيف مركزه في التجويف الايسر من القلب على ما في كتب التشريح
لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة
وساير الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده ويتم افعال

افعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتفعل بهذا الروح البخاري
وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في ان اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف
هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلا لآثار الذات المباينة له في جسمانيته
وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته وقد كنا قدمنا
ان ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو الحواس الخمس الظاهرة وادراك في الباطن
وهو بالقوى الدماغية وان هذا الادراك كله صارف لها عن ادراكها ما فوقها من ذواتها
الروحانيات التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت
معرضة للوهن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشي الروح بكثرة التصرف
فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجدد الادراك على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك
بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك
ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية اعماق البدن وتذهب
من ظاهره الى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن ولذلك
كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل فاذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة
رجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصور
التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صورا خيالية واكثر ما تكون معتادة
لانها منتزعة عن المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الى الحس المشترك الذي هو جامع
الحواس الظاهرة فيدركها على انحاء الحواس الخمس وربما التفتت النفس لفتة الى ذاتها
الروحانية مع منازعة القوى الباطنة فتدرك بادراكها الروحاني لانها مفطورة
عليه وتقتبس من صور الاشياء التي صارت متعقلة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ
الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة او المحاكاة في القوالب المعهودة
والمحاكاة من هذه هي المحتاجة الى التعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في
صور الحافظة قبل ان تدرك من تلك اللمحة ما تدرك هي اضغاث الاحلام وفي
الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلث رؤيا من الله ورؤيا من الملك
ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة
الداعية الى التعبير من الملك واضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان
ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص
للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها احد منهم بل كل واحد من الاناسي

فقد رأى شيئا بنومه ما صدق له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع ان
النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد واذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره
من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي
الى الحق **فصل** ووقوع ما يقع من ذلك للبشر غالبا انما هو من غير قصد ولا قدرة
عليه وانما تكون النفس متشوقة لشيء فيقع لها بتلك اللمحة في النوم لا انها تقصد
الى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب اهل الرياضات ذكر اسماء تذكر
عند النوم فيكون عنها الرؤيا فيما يتشوق اليه ويسمونها الحالومة ذكر منها مسلمة
في كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التام وهي ان يقال عند النوم بعد فراغ
السر وصحة التوجه هذه الكلمات الاعجمية وهي تماغس بعدان يسواد وغداس
نوفنا غادس ويذكر حاجته فانه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم وحكي ان رجلا
فعل ذلك بعد رياضة ليال في مأكله وذكره فتمثل له شخص يقول انا طباعك التام
فسأل واخبره عما كان يتشوق اليه وقد وقع لي انا بهذه الاسماء مرائي عجيبة واطلعت بها
على امور كنت اتشوف اليها من احوالي وليس ذلك بدليل على ان القصد للرؤيا يحدثها
وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوي الاستعداد
كان اقرب لحصول ما يستعد له وللشخص ان يفعل من الاستعداد ما احب ولا يكون
دليلا على ايقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء فاعلم ذلك
وتدبره فيما تجد من امثاله والله الحكيم الخبير **فصل** ثم انا نجد في النوع الانساني اشخاصا
يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون
في ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه باثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك
بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الاجسام الشفافة
كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الزجر
في الطير والسباع واهل الطرق بالحصا والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة
في عالم الانسان لا يسع احدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين تلقى على السنتهم كلمات
من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لاول موته او نومه يتكلم بالغيب وكذلك
اهل الرياضة من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة ونحن الآن نتكلم على هذه
الادراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة الى آخرها
ونقدم على ذلك مقدمة في ان النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع

الاصناف التي ذكرناها وذلك انها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر
الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن واحواله وهذا
امر مدرك لكل احد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم
وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي توجد اولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول
الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشوها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها
بورود مدركاته المحسوسة عليها وما تنتزع هي من تلك الادراكات من المعاني
الكلية من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد اخرى حتى يحصل لها الادراك
والتعقل صورة بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصورة متعاقبة
عليها بالادراك واحدة بعد واحدة ولهذا نجد الصبي اول نشوه لا يقتدر
على الادراك الذي لها من ذاتها لا في نوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك لان صورتها
التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم تتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات
ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك
ادراك بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة
وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لان الحواس ابدا جاذبة
لها الى الظاهر بما فطرت عليه اولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر
الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق
مثل النوم او بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق او بالرياضة
مثل اهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ الى الذوات التي فوقها من الملأ الاعلى
لما بين افقها وافقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل وتلك الذوات روحانية
وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها
شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى
الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم تراجع الحس بما ادركت اما مجردا او في قوالبه
فتخبر به هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبي ولنرجع الى ما وعدنا به
من بيان اصنافه   الناظرون في الاجسام الشفافة من المرايا والطساس
والمياه وقلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الطرق بالحصى والنوى
فكلهم من قبيل الكهان الا انهم اضعف رتبة فيه في اصل خلقهم لان الكاهن
لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك

الجسمية كلها في نوع واحد منها واشرفها البصر فيعكف به على المرئي البسيط
حتى يبدو له مدركه الذي يخبر عنه وربما يظن ان مشاهدة هولاء لما يرونه
هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة الى ان
تغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين المرآة حجاب كانه غمام يتمثل فيه
صور هي مداركهم فيشير اليهم بالمقصود فيما يتوجهون الى معرفته من نفي او
اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما ادركوه واما المرآة وما يدرك فيها من الصور
فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الادراك وهو
نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف
ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات واكبادها وللناظرين في الماء
والطساس وامثال ذلك وقد شاهدنا من هولاء من يشغل الحس بالبخور فقط
ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما ادرك ويزعمون انهم يرون الصور متشخصة
في الهواء تحكي لهم احوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغيبة هولاء
عن الحس اخف من الاولين والعالم ابو الغرائب واما الزجر وهو ما يحدث
من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر او حيوان والفكر فيه
بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحدس والفكر فيما زجر فيه من مرئي
او مسموع وتكون قوته المتخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا
بما رآه او سمعه فيوديه ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم
وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته
فيكون عنها الرويا واما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن
لفساد امزجتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة
بالحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من الم النقص ومرضه وربما
زاحمها على التعلق به روحانية اخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه
عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فاذا اصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد
النفس في ذاتها او لما زاحمه من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة
فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق
على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هولاء كلهم مشوب فيه
الحق والباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة

بالتصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك
واما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال
فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه وياخذون فيه بالظن والتخمين بناء
على ما يتوهمونه من مبادي ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة
الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الامور وقد تكلم عليها المسعودي
في مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل انه كان
بعيدا عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من اهله ومن غير اهله وهذه
الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون
الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق
فيها من ادراك غيبهم وفي كتب اهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم في
الجاهلية شق بن انمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج
الثوب ولا عظم فيه سوى الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تاويلهما رويا ربيعة
بن نصر وما اخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة
المحمدية في قريش وكذا رويا الموبذان التي اولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى
عبد المسيح فاخبره بشان النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة
وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في اشعارهم فقال

فقلت لعراف اليمامة داوني • فانك ان داويتني لطبيب •

وقال آخر جعلت لعراف اليمامة حكمه • وعراف نجد ان هما شفياني •

فقالا شفاك الله والله ما لنا • بما حملت منك الضلوع يدان •

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الابلق الاسدي هذه
المدارك الغيبية ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم
من الكلام على الشيء الذي يتشوف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع
ذلك الا في مبادي النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم
كانه مجبول على النطق وغايته ان يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين
عند مفارقة روسهم واوساط ابدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض
الجبابرة الظالمين انهم قتلوا من سجونهم اشخاصا ليتعرفوا عند القتل عواقب امورهم
في انفسهم فاعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك ان آدميا

اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه اربعين يوما يغذى بالتين والجوز
حتى تذهب لحمه ولا يبقى الا العروق وشؤون راسه فيخرج من ذلك الدهن وحين
يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا
فعل من مناكير افعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني ومن الناس
من يحاول حصول هذه المدارك الغيبية بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا
باماتة جميع قوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس وذلك يحصل بجمع الفكر
وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع انه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه
واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل
الموت منه ما يقع بعد الموت وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء اهل الرياضة
السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرف في العوالم
واكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمى هنالك
الجوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة
واما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية من هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون
جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل اذواق العرفان والتوحيد ويزيدون
في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه
اذا نشأت النفس على الذكر كانت اقرب الى العرفان بالله واذا عريت
عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب او التصرف
لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من اول الامر لانه اذا قصد
ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب
واخسر بها صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان
فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيء سواه وان حصل
اثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له
ولا يحفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون
ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرف
كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب الى انكاره ابو اسحق
الاسفرايني وابو محمد بن ابي زيد المالكي في آخرين فرارا من التباس المعجزة
بغيرها والمعول عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف وقد

ثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم
عمر وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول
عمر رضي الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قائدا على بعض جيوش
المسلمين بالعراق ايام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام
وكان بقربه يتحيز اليه فوقع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر في المدينة فناداه
يا سارية الجبل وسمعه سارية بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة
ووقع مثله ايضا لابي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنها في شأن ما نحلها
من اوسق التمر في حديقته ثم نبهها على جداده لتحوزه عن الورثة فقال في سياق
كلامه وانما هما اخواك واختاك فقالت انما هي اسماء فمن الاخرى فقال ان
ذا بطن بنت خارجة اراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب
ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين واهل
الاقتداء الا ان المتصوفة يقولون ان المريد اذا جاء الى المدينة النبوية سلب
حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا الى الحق

فصل

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون اشبه بالمجانين من العقلاء
وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية واحوال الصديقين وعلم ذلك
من احوالهم من يفهم عنهم من اهل الذوق مع انهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار
عن المغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون
بالعجائب وربما ينكر الفقهاء انهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف
عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو غلط فان فضل الله يؤتيه من يشاء و
ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة
الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة
ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهو صفة
خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للانسان يشتد بها نظره ويعرف احوال معاشه
واستقامة منزله وكانه اذا ميز احوال معاشه لم يبق له عذر في قبول التكاليف
لاصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته
فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة
في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف واذا صح

ذلك فاعلم انه ربما يلتبس هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون
بالبهائم ولك في تمييزهم علامات منها ان هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون
عنها اصلاً من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف
والمجانين لا تجد لهم وجهة اصلا ومنها انهم يخلقون على البله من اول نشأتهم
والمجانين يعرض لهم الجنون بعد برهة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فاذا عرض لهم
ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم في الناس
بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف
لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد الى الصواب **فصل** وقد يزعم
بعض الناس ان هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المنجمون القائلون
بالدلالة النجومية ومقتضى اوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل
من الامتزاج بين طبائعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج الى الهواء وهؤلاء
المنجمون ليسوا من الغيب بشيء انما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير
النجومي وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في
الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله ان شاء الله تعالى
وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء ومن هؤلاء قوم من
العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل
نسبة الى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة انهم صيروا
من النقط اشكالاً ذات اربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية
والفردية واستوائها فيها فكانت ستة عشر شكلاً لانها ان كانت ازواجاً كلها
او افراداً فشكلان وان كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فاربعة اشكال
وان كان الفرد في مرتبتين فستة اشكال جاءت ستة عشر شكلا ميزوها باسمائها
ونوعوها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية
بزعمهم وكأنها البروج الاثني عشر التي للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل
شكل بيتا وحظوظا ودلالة على صنف من عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك
فناً حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه الا ان احكام النجامة مستندة الى دلالات
طبيعية كما زعم بطليموس انما تحكم في المواليد والقرانات التي هي عنده من آثار
الكواكب والاوضاع الفلكية في عالم العناصر وتحكم المنجمون من بعده في المسائل

باستخراج الضمائر وتقسيمها على بيوت الفلك والحكم عليها باحكام ذلك البيت
النجومية وهي التي ذكر بطليموس واعلم ان الضمائر امور نفسية ليست من عالم العناصر
فليست من آثار الكواكب ولا الاوضاع الفلكية ولا دلالة لهما عليها نعم انه
صار لفن المسائل مدخل في صناعة النجامة من حيث الاستدلال بالكواكب
والاوضاع الا انه في غير مدلوله الطبيعي فلما جاء اهل الخط عدلوا عن الكواكب
والاوضاع استصعابا لمعاناة الارتفاع بالآلات وتعديل الكواكب بالحسبان
واستخرجوا هذه الاشكال الخطية وفرضوها ستة عشر بيتا من بيوت الفلك ذاتها
ونوعوها الى سعد ونحس وممتزج شأن الكواكب السيارة واقتصروا على التسديس
من المناظرة ونزلوا الاحكام النجومية عليها كما في المسائل لان دلالة كل منهما
غير طبيعية كما قدمناه وانتحل هذه الصناعة كثير من البطالين للمعاش في المدن
وصنفوا فيها التصانيف المحصلة لقواعدها واصولها كما فعله الزناتي منهم
وغيره وقد يكون من اهل هذه الصناعة من يتعرض بها لادراك الغيب باشتغال الحس
بالنظر في اشكال تلك الخطوط فتعتريه حالة الاستعداد كما يعتري المفطورين على
ذلك كما نذكره بعد وهؤلاء اشرف اهل هذه الصناعة وهم على الجملة يزعمون
ان اصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال او الى ادريس
صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون لذلك
بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل
على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعضهم لان معنى الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي
عند ذلك الخط ولا استحالة في ان يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فانهم
صلوات الله عليهم متفاوتون في ادراك الوحي قال الله تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم
على بعض فمنهم من يأتيه الوحي ويكلمه الملك ابتداء من غير طلب ولا وجهة لذلك
ومنهم من يتوجه فيما يعرض له من امور البشر بسؤال الله عن مشكل او تكليف او نحو ذلك
فيتوجه وجهة ربانية يتعرض بها لكشف ما يريد من ذلك من الله ويعطي التقسيم
هنا قسما آخر ان وجد لان الوحي قد يكون وهو لا يستعد له بشيء من الاحوال كالذي
ذكرناه وقد يكون وهو مستعد ببعض الاحوال كما نقل في الاسرائيليات ان بعض
الانبياء كان يستعد لنزول الوحي بسماع الاصوات الطيبة الملحنة وهذا النقل وان لم يكن
متمكنا في الصحة الا انه غير بعيد فالله تعالى يخص انبياءه ورسله بما يشاء واذا تقرر ذلك

الاسماع الطيبة

وقد كنا قدمنا ان في اصحاب خط الرمل من يتعرض للكشف به باشتغال الحس بالنظر
في تلك الخطوط والاشكال فيعتريه حينئذ الادراك الغيبي الوجداني بالتفرغ عن
الحس جملة ويفارق المدارك البشرية الى المدارك الروحانية وقدم تفسيرها وهذا
من الكهانة من نوع النظر في العظام والمياه والمرايا بخلاف من يقتصر في ذلك
منها على الامر الصناعي الذي يحصل به على الغيب بالحدس والتخمين وهو لم يفارق
المدارك الجسمانية بعد حائلا في مرامي الظنون فقد يكون شان بعض الانبياء
الاستعداد بالخط في مقامه النبوي لخطاب الملك كما يستعد به من ليس بنبي
للادراك الروحاني ومفارقة المدارك البشرية الا ان ادراكه روحاني فقط وادراك
النبي ملكي بالوحي من عند الله واما مقامات اهل صناعة الخط في مدارك الحدس
والتخمين فحاش للانبياء منها فانهم لا يشرعون التكلم بالغيب ولا الخوض فيه
لاحد من البشر وقوله في الحديث فمن وافق خطه فذاك اي فهو صحيح من بين الخط
بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته ان يأتيه الوحي عند الخط
او يكون الاشارة بذاك الى تعظيمه وعلو شانه في اتخاذ خطوط الرمل بالنسبة بينه
وبينها اذا كان على ذلك الوجه الذي كان النبي يستعد به للوحي فيأتي على وفاقه
واما اذا اخذ ذلك عن الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا صحة فيه وهذا معنى الحديث
والله اعلم وليس فيه دلالة على مشروعية خط الرمل ولا جواز انتحاله لتعرف الغيب
كما هو شان اهله في المدن وان مال الى ذلك بعضهم بناء على ان فعل النبي شريعة
متبعة فيكون مشروعا على مذهب من يرى ان شرع من قبلنا شرع لنا وليس هذا بمطابق
لذاك فان الشرع انما هو للرسل المشرعين للامم والحديث لم يدل على ذلك وانما دل
على ان هذه الحالة قد تحصل لبعض الانبياء ويحتمل ان يكون غير مشرع فلا يكون شرعا
لا خاصا بامته ولا عاما لهم ولغيرهم وانما يدل على انه حالة تقع لبعض الانبياء خاصة بهم
فلا يتعداه للبشر وهذا اخر ما اردنا تحقيقه هنا والله الملهم للصواب فاذا ارادوا
استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس او رمل او دقيق فوضعوا النقط سطورا على
عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك اربع مرات فتجيء ستة عشر سطرا ثم يطرحون
النقط ازواجا ويضعون ما بقي من كل سطر زوجا كان او فردا في مرتبته على الترتيب
فتجيء اربعة اشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها اربعة اشكال اخرى
من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بازائه وما يجتمع فيها

من زوج او فرد فتكون ثمانية اشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين
تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين ايضا من زوج او فرد فيكون
اربعة اخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكل
كذلك تحتهما ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر الستة عشر
ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته اشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر
والحلول والامتزاج والدلالة على اصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا
وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التواليف واشتهر فيها الاعلام
من المتقدمين والمتاخرين وهي كما رأيت تحكم وهوى والتحقيق الذي ينبغي ان يكون
نصب فكرك ان الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص
من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمي المنجمون
هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في اصل
مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من اهل
هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التي ينظر فيها من النقط والعظام او غيرها
اشتغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة فهو من باب الطرق
بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن
كذلك وانما قصد معرفة المغيب بهذه الصناعة فهذر من القول والعمل
والله يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها اهل هذا الادراك
الغيبي انهم عند توجههم الى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب
والتمطط ومبادي الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف
وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما هو
ساع في تنفيق كذبه **فصل** ومنهم طوايف يضعون قوانين لاستخراج الغيب
ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس
المبني على تاثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه
العرافون وانما هي مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست
اذكر من ذلك الا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص ومن تلك القوانين
الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب
لارسطو يعرف به الغالب من المطلوب في الحروب من الملوك وهو ان يحسب

الحروف التي في اسم احدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف ابجد من الواحد الى الالف احاداً وعشرات ومئين والوفاً فاذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كانا مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين او فردين فصاحب الاقل منهما هو الغالب وان كان احدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب ونقل هنالك بيتين في هذا العمل اشتهر بين الناس وهما

ارى الزوج والافراد يسموا اقلها • واكثرها عند التخالف غالب

ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوى • وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة وذلك بان يجمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع وهي ا الدالة على الواحد وي الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات وق الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين وش الدالة على الالف وهي واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف ابجد ثم رتبوا هذه الحروف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلث واسقطوا مرتبة الالاف منها لانها كانت اخر حروف ابجد وكان مجموع حروف الاثنين في المراتب ثلثة حروف وهي ب الدالة على الاثنين في الاحاد وك الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون ور الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا كذلك في الحروف الدالة على ثلثة فنشأت عنها كلمة جلش وكذلك الى آخر حروف ابجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلش دمت هنث وصخ زعز حفظ طضغ مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فالواحد للكلمة ايقش والاثنان للكلمة بكر والثلثة للكلمة جلش وكذلك الى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة فاذا ارادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في اي كلمة هو من هذه الكلمات واخذوا عددها مكانه ثم يجمعون الاعداد التي

قوله لان الشين لعله غلط من الناسخ لان آخر حروف ابجد والدالة على الالف هي الغين فيكون التركيب الرباعية ايقغ لا ايقش

٥

ونحوط

ياخذونها بدلاً من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة اخذوا ما فضل عنها والا اخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسر في هذا القانون بين وذلك ان الباقي في كل عقد من عقود الاعداد بعد طرح تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت اعداد العقود كلها كانها احاد فلا فرق بين الاثنين او العشرين او المائتين او الالفين وكلها اثنان وكذلك الثلثة والثلثون والثلثمائة والثلاثة الالاف كلها ثلثة فوضعت الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على اصناف العقود في كل كلمة من الاحاد والعشرات والمئين والالوف وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الاحاد او العشرات او المئين او الآلاف فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها الى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس فيها منذ الامر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرون ان الصحيح فيها كلمات اخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالاخرى سواء وهي هذه ارب يسقك جزلط مدوص هتف ونحذن عنش خع ثضظ تسع كلمات على توالي العدد وفيها الثلاثي والرباعي والثنائي وليست جارية على اصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من النجامة والسيميا واسرار الحروف وهو ابو العباس ابن البنا ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم اصح من العمل بكلمات ايقش فالله اعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الاراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك فتصفحه ان كنت من اهل الرسوخ ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة زايرجة العالم المعزوة الى ابي العباس السبتي من اعلام المتصوفة بالمغرب كان في اخر المائة السادسة بمراكش ولعهد يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صنيعة وكثير من الخواص يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرصون لذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دايرة عظيمة في داخلها دواير متوازية منها

للافلاك وللعناصر وللمكونات وللروحانيات ولغير ذلك من اصناف الكائنات
والعلوم وكل دائرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج واما العناصر او غيرهما
وخطوط كل قسم مارة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف
متتابعة موضوعة فمنها برشوم الزمام التي هي اشكال الاعداد عند اهل الدواوين
والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة وفي داخل
الزايرجة وبين الدوائر اسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظهر الدوائر
جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولا وعرضا يشتمل على خمسة وخمسين بيتا
في العرض ومائة واحدى وثلثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت
تارة بالعدد واخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك
الاعداد في اوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية
وحفافي الزايرجة ابيات من عروض الطويل على روي اللام المنصوبة تتضمن
صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الا انها من قبيل الالغاز
في عدم الوضوح والجلاء ولبعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض
اكابر اهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اهل اشبيلية
كان للدولة اللمتونية ونص البيت • سوال عظيم الخلق حزت فصن اذن • غرايب
شك ضبطه الجد مثلا • وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب
من السوال في هذه الزايرجة وغيرها فاذا ارادوا استخراج الجواب عما يسال عنه
عنه من المسايل كتبوا ذلك السوال وقطعوه حروفا ثم اخذوا الطالع لذلك
الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا الى الزايرجة ثم الى الوتر المكتنف
فيها بالبرج الطالع من اوله مارا الى المركز ثم الى محيط الدايرة قبالة الطالع فياخذون
جميع الحروف المكتوبة عليه من اوله الى آخره والاعداد المرسومة بينها و
يصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون احادها الى العشرات وعشراتها
الى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف
السوال ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من
الطالع من الحروف والاعداد من اولها الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط
ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالاولى ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون
حروف البيت الذي هو اصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب

المتقدم الذكر ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في اس البرج عن
آخر المراتب عكس ما عليه الاس عند اهل صناعة الحساب فانه عندهم البعد عن
اول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الاس الاكبر والدور الاصلي
ويدخلون بما يجتمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة واعمال
مذكورة وادوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون اخرى ويقابلون
بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السوال وما
معها ثم يطرحون تلك الحروف باعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون
في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد
الادوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتولف على التوالي
فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل
بهذه الزايرجة وقد راينا كثيرا من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها
بتلك الاعمال ويحسبون ان ما وقع من مطابقة الجواب للسوال في توافق
الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانه قد مر لك ان الغيب
لا يدرك بامر صناعي البتة وانما المطابقة التي فيها بين الجواب والسوال
من حيث الافهام والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما وموافقا
للسوال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السوال
والاوتار والدخول في الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة
واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح اخرى ومعاودة ذلك في الادوار
المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر وقد يقع
الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيقع له معرفة المجهول
منها فالتناسب بين الاشياء هو سر الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس
وطريق لحصوله سيما من اهل الرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة
في الفكر وقد مر لك تعليل ذلك غير مرة ومن اجل هذا المعنى ينسبون هذه
الزايرجة في الغالب لاهل الرياضة فهذه منسوبة للسبتي ووقفت على اخرى
منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري انها من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة
والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوما فيها يظهر لي انما هو المقابلة
بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه انا

وجدنا اعمالاً اخرى في مثل هذه اسقطوا فيه المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب
منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق
مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه الى المطلوب فينكر صحتها ويحسب
انها من التخيلات والايهامات وان صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي
ينظمه كما يريد بين اثناء حروف السؤال والاوتار ويفعل تلك الصناعة
على غير نسبة ولا قانون ثم يجيء بالبيت ويوهم ان العمل جارية على طريقة
منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات
والمعلومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شان كل مدرك
ان ينكر ما ليس في طوقه ادراكه ويكفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة
والحدس القطعي بانها جارية بعمل مطرد وقانون صحيح ولا مرية فيه عند من يباشر
ذلك ممن له مزيد ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعاياة في العدد الذي هو
اوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعد النسبة فيه وخفائها فما ظنك
بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسئلة من المعاياة يتضح لك بها
شيء مما ذكرناه مثاله لو قيل لك خذ عدداً من الدراهم واجعل بازاء كل درهم
ثلثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي اخذت واشتر بها طائراً ثم اشتر
بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة فجوابه ان تقول
هي تسعة لانك تعلم ان فلوس الدرهم اربعة وعشرون وان الثلثة ثمنها وان
عدة اثمان الواحد ثمانية فكانك جمعت الثمن من كل درهم الى الثمن الآخر فكان
كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة اثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائراً آخر
وهو المشترى بالفلوس الماخوذة اولاً وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة
فانت ترى كيف يخرج الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين اعداد المسئلة
والوهم اول ما تلقى اليك هذه وامثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن
معرفته فظهر ان التناسب بين الامور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا
انما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود او العلم واما الكائنات المستقبلة
اذا لم تعلم اسباب وقوعها ولا يثبت لنا خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته
واذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعة في الزايرجة كلها انما هي في استخراج الفاظ
الجواب من الفاظ السؤال لانها كما رايته استنباط حروف على ترتيب من تلك

الحروف

الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو من تناسب بين هما يطلع عليه
بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب
بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع الفاظه
وتراكيبه على وقوع احد طرفي السؤال من نفي او اثبات وليس هذا من المقام
الاول بل انما يرجع الى مطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه
الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استاثر الله بعلمه والله يعلم وانتم لا تعلمون

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الفصل الثاني من الكتاب الاول في العمران البدوي والامم الوحشية
والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات

فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية اعلم ان اختلاف الاجيال
في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون
على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من ينتحل
الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاء والبقر
والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح
والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع
والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امراً ضرورياً
لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجات معاشهم وعمرانهم من القوت والكن
والدفء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه
للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت احوال المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة
من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة
واستكثروا من الاقوات والملابس والتانق فيها وتوسعة البيوت واختطاط
المدن والامصار للتحضر ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة
مبالغها في التانق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة
في انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح واحكام وضعها
في تنجيدها والانتهاء بالصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتخذون
القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويغالون في صروحها ويبالغون في تنجيدها
ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او آنية او ماعون وهؤلاء

هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان ومن هولاء من ينتحل في معاشه
الصنايع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم انمى وارفه من اهل البدو
لان احوالهم زايدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين ان اجيال
البدو والحضر طبيعية لابد منها كما قلناه **فصل** في ان جيل العرب في الخليقة
قد قدمنا في الفصل قبله ان اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح
والقيام على الانعام وانهم مقتصرون على الضروري في الاقوات والملابس
والمساكن وسايرالاحوال والعوايد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي
او كمالي فيتخذون البيوت من الشعر والوبر او الشجر او من الطين والحجارة
غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقد ياوون الى الغيران
والكهوف واما اقواتهم فيتناولونها بيسير العلاج او بغير علاج البتة الا ما مسته النار
فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به اولى من الظعن
وهولاء سكان المداشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه
في السايمة مثل الغنم والبقر فهم ظواعن في الاغلب لارتياد المسارح والمياه
لحيواناتهم اذ التقلب في الارض اصلح بها ويسمون شاويه ومعناه القايمون على الشاء
والبقر ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة به وهولاء مثل البربر والترك
واخوانهم من التركمان والصقالبة **واما** من كان معاشهم في الابل فهم اكثر ظعنا
وابعد في القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الابل في
قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء
في نواحيه فرارا من اذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لمفاحص النتاج في رماله اذ الابل
اصعب الحيوان فصالا ومخاضا واحوجها في ذلك الى الدفء فاضطروا الى الابعاد
النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول ايضا فاوغلوا في القفار نفرة عن النصفة
منهم والجزاء لعدوانهم فكانوا لذلك اشد الناس توحشا وتنزلوا من اهل الحواضر
منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات العجم وهولاء هم العرب وفي
معناهم ظواعن البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق الا ان
العرب ابعد نجعة واشد بداوة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهولاء يقومون
عليها وعلى الشاء والبقر معها فقد تبين لك ان جيل العرب طبيعي لابد منه في العمران
والله الخلاق العليم **فصل** في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية

اصل العمران والامصار ومدد لها قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضروري
في احوالهم العاجزون عما فوقه وان الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في احوالهم
وعوايدهم ولا شك ان الضروري اقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه
وكان الضروري اصل والكمالي فرع ناشي عنه فالبدو اصل للمدن والحضر
سابق عليها لان اول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الترف والكمال
الا اذا كان الضروري حاصلا فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا
نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على
الرياش الذي يحصل به احوال الترف وعوايده عاج الى الدعة وامكن نفسه
من قياد المدينة وهكذا شان القبايل المتبدية كلهم والحضري لا يتوشف الى احوال
البادية الا لضرورة تدعوه اليها او لتقصير عن احوال اهل المدينة ومما يشهد لنا
ان البدو اصل للحضر ومتقدم عليه انا اذا فتشنا اهل مصر من الامصار وجدنا
اولية اكثرهم من اهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وانهم ايسروا فسكنوا
المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على ان احوال الحضارة
ناشية عن احوال البداوة وانها اصل لها فتفهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر
متفاوت الاحوال من جنسه فرب حي اعظم من حي وقبيلة اعظم من قبيلة
ومصر اوسع من مصر ومدينة اكثر عمرانا من مدينة فقد تبين ان وجود البدو
متقدم على وجود المدن والامصار واصل لها كما ان وجود المدن والامصار
من عوايد الترف والدعة التي هي متاخرة عن عوايد الضرورة المعاشية **فصل**
في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة
الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر قال صلى الله
عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه وبقدر
ما يسبق اليها من احد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير
اذا سبقت الى نفسه عوايد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه
طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه ايضا عوايده واهل الحضر لكثرة ما يعانونه
من فنون الملاذ وعوايد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها
قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه
بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة عن احوالهم فنجد الكثير منهم

يقذعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم واهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع
الحشمة لما اخذتهم به عوايد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا واهل البدو
وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شي
من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوايدهم في معاملاتهم على نسبتها
وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر
اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء
الملكات بكثرة العوايد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر
وهو ظاهر وقد يوضح فيما بعد ان الحضارة هي نهاية العمران وخروجه الى
الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين ان اهل البدو اقرب الى
الخير من اهل الحضر والله يحب المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد في حديث
البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع وقد بلغه انه خرج الى سكنى البادية فقال
ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لي
في البدو فاعلم ان الهجرة افترضت اول الاسلام على اهل مكة ليكونوا مع النبي
صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على امره ويحرسونه
ولم تكن واجبة على الاعراب اهل البادية لان اهل مكة يمسهم من عصبية النبي
صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الاعراب
وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث
لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن ابي وقاص عند مرضه
بمكة اللهم امض لاصحابي هجرتهم ولا تردهم على اعقابهم ومعناه ان يوفقهم لملازمة
المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدأوا بها وهو من باب
الرجوع على العقب في السعي الى وجه من الوجوه وقيل ان ذلك كان خاصا بما
قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية الى الهجرة لقلة المسلمين واما بعد الفتح
وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فان الهجرة
ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشاؤها
عمن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن اسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون
على انها بعد الوفاة ساقطة لان الصحابة افترقوا من يومئذ في الافاق وانتشروا
ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية

ارتددت على عقبيك تعربت نعي عليه في ترك السكنى بالمدينة بالاشارة الى
الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله ولا تردهم على اعقابهم وبقوله تعربت
الى انه صار من الاعراب الذين لا يهاجرون واجاب سلمة بانكار ما الزمه من
الامرين وان النبي صلى الله عليه وسلم اذن له في البدو ويكون ذلك خاصا
كشهادة خزيمة وعناق ابي بردة او يكون الحجاج انما نعي عليه ترك السكنى بالمدينة
فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة بان اغتنامه لاذن النبي صلى الله
عليه وسلم اولى وافضل فما آثره به واختصه الا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس فيه
دليل على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لان مشروعية الهجرة انما كان كما علمت
لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك
هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله اعلم

فصل

في ان اهل البدو
اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر والسبب في ذلك ان اهل الحضر القوا جنوبهم
على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا امرهم في المدافعة
عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم
واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم لا تنبههم هيعة ولا ينفر لهم
صيد فهم غارون آمنون قد القوا السلاح وربيت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا
منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على ابي مثواهم حتى صار ذلك خلقا
يتنزل منزلة الطبيعة واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي
وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قايمون بالمدافعة عن
انفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دايما يحملون السلاح
ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا في المجالس
وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفردون في القفر
والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية
يرجعون اليها متى دعاهم داع او استنفرهم صارخ واهل الحضر مهما خالطوهم في البادية
او صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من امر انفسهم وذلك مشاهد
بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك
ما شرحناه واصله ان الانسان ابن عوايده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي
الفه من الاحوال حتى صار له خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر

ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخلق ما يشاء ، **فصل** في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم وذلك انه ليس كل احد مالك امر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب ان يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعانا منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في انفسهم من شجاعة او جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها واما اذا كانت الملكة واحكامها بالقهر والسطوة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما اخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين الفاً من الذهب فانتزعه منه سعد وقال الا انتظرت في اتباعه اذني وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلي بما صلي به وبقي عليك ما بقي من حربك فتكسر قرنه وتفسد قلبه وامضى عمر له سلبه واما اذا كانت الاحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك واما اذا كانت الاحكام تأديبية وتعليمية واخذت من عهد الصبا اثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلاً ببأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب اهل البدو اشد بأساً ممن تأخذه الاحكام ونجد ايضاً الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدفعون عن انفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشايخ والائمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فتفهم هذه الاحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكرن ذلك بما وقع في الصحابة من اخذهم باحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا اشد الناس بأساً لان الشارع صلوات الله عليه لما اخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعه فيه من انفسهم لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي انما هي احكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون انفسهم بما رسخ فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم

مستحكمة كما كانت ولم تخدشها اظفار التأديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا ادبه الله حرصاً على ان يكون الوازع لكل احد من نفسه ويقيناً بان الشارع اعلم بمصالح العباد ولما تناقص الدين في الناس واخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين ان الاحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس واما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما يؤثر في اهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن احكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال ابو محمد بن ابي زيد في كتابه في احكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب ان يضرب احداً من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة اسواط نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط وانه كان ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغط ان يكون دليلاً على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير **فصل** في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل اهل العصبية اعلم ان الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال فالهمها فجورها وتقواها والشر اقرب الخلال اليه اذا اهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفقه الله ومن اخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع اخيه امتدت يده الى اخذه الا ان يصده وازع كما قال ٭ والظلم من شيم النفوس فان تجد ٭ ذا عفة فلعلة لا يظلم ٭ فاما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض او بعدو عليه فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه واما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة او الغرة ليلاً او العجز عن المقاومة نهاراً ويدفعه ذياد الحامية من اعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة واما احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة واما حللهم فانما يذود عنها من خارج حامية الحي من انجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق

وذيادهم الا اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم
ويخشى جانبهم اذ نعرة كل احد على نسبه وعصبيته اهم وما جعل الله في قلوب
عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم وقرباهم موجود في الطباع
البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر
ذلك فيما حكاه القران عن اخوة يوسف حين قالوا لابيه لئن اكله الذئب
ونحن عصبة انا اذا لخاسرون والمعنى انه لا يتوهم العدوان على احد مع وجود
العصبية واما المتفردون في انسابهم فقل ان تصيب احدا منهم نعرة على صاحبه
فاذا اظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة بنفسه خيفة
واستيحاشا من التخاذل فلا يقتدرون من اجل ذلك على سكنى القفر لما انهم
حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الامم سواهم واذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج
الى المدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل امر يحمل الناس عليه من نبوة او اقامة
ملك او دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه لما في طباع
البشر من الاستعصاء ولابد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاتخذه
اماما تقتدي به فيما نورده عليك من بعد والله الموفق **فصل** في ان
العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او في معناه وذلك ان صلة الرحم
طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى واهل الارحام
ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم
قريبه او العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك
نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين
قريبا جدا بحيث حصل به الالتحام والاتحاد كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت
ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها
وتبقى منه شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة
التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء
او نعرة كل احد الى اهل ولائه وحلفه للانفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها
او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من
من الولاء مثل لحمة النسب او قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم
تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم يعني ان النسب انما فائدته هذا الالتحام

الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك
مستغنى عنه اذ النسب امر وهمي لا حقيقة له ونفعه انما هو في هذه الوصلة
والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه
واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته
وصار الشغل به مجانا ومن اعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم
النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار
من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة
التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه والله اعلم **فصل** في ان الصريح
من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم وذلك
لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم عليها
الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل
ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها
في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم الفا وعادة
وربيت فيها اجيالهم حتى تمكنت خلقا وجبلة فلا ينزع اليهم احد من الامم ان
يساهمهم في حالهم ولا يانس بهم احد من الاجيال بل لو وجد منهم واحد السبيل الى
الفرار من حاله وامكنه لما تركه فيؤمن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم و
فسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة
وثقيف وبني اسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا اهل شظف
ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من ارياف الشام والعراق ومعادن
الادم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف
فيها شوب واما العرب الذين كانوا بالتلول في معادن الخصب للمراعي والعيش
من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعة واياد فاختلطت انسابهم
وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف
وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب
في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا للعرب فقط قال عمر تعلموا النسب ولا تكونوا
كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا الى ما لحق هؤلاء
العرب اهل الارياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي

الحضرية فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب امر النسب وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند امرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت ودثرت معها العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

فصل في اختلاط الانساب كيف يقع

انه من البين ان بعضا من اهل الانساب يسقط على اهل نسب آخر بقرب اليهم او حلف او ولاء او لفرار من قومه بجناية اصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكانه وجد لانه لا معنى لكونه من هؤلاء او من هؤلاء الا جريان احكامهم واحوالهم عليه وكانه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيئا من ذلك ومنه شان بجيلة في عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا لزيق اي دخيل ولصيق وطلبوا ان يولي عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا امير المؤمنين انا رجل من الازد اصبت دما في قومي ولحقت بهم فانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسي بالجملة وعد منهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير في هذا العهد ولما قبله من العهود

في ان الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم ان تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لان كل عصبية منهم اذا احست بغلب عصبية الرئيس لهم اقروا بالاذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب غلبا عليهم البتة وان فرضنا انه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الاول من الالصاق ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام او لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالاولية كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق والرياسة لا بد وان تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى انساب يلهجون بها اما لخصوصية فضيلة كانت في اهل ذلك النسب من شجاعة او كرم او ذكر كيف اتفق فينزعون الى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون في انفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة انهم من العرب ومنه ادعاء اولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر احدى شعوب زغبة انهم من بني سليم ثم من الشريد منهم لحق جدهم ببني عامر نجارا يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين انهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف وغلطا باسم العباس ابن عطية ابي عبد القوي ولم يعلم دخول احد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ اول دولتهم على دعوة العلويين اعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباسي الى احد من شيعة العلويين وكذلك ما يدعيه ابناء زيان ملوك بني عبد الواد انهم من ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر من نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتي ايت القاسم اي بنو القاسم ثم يدعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس او القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه فر من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تتم الرياسة عليهم في باديتهم وانما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الدوران في الادارسة فتوهموا ان قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم

انه لما قيل له ذلك نكره وقال بلغة الزناتية ما معناه اما الدنيا والملك فنلناه بسيوفنا
لا بهذا النسب واما نفعه في الآخرة فمردود الى الله واعرض عن التقرب اليه بذلك
ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة انهم من ولد ابي بكر الصديق
وبنو سلامة شيوخ بني يدللتن من توجين انهم من سليم وكذا الزواودة شيوخ
رياح انهم من اعقاب البرامكة وكذلك بنو مهنا امراء طي بالمشرق تدعون فيما
بلغنا انهم من اعقابهم وامثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء
هذه الانساب كما ذكرناه بل يتعين ان يكونوا من صريح ذلك النسب واقوى عصبياته
فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب
العلوية فان المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرغة قومه وانما رأس عليهم بعد
اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من اهل
المنابت المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة **فصل** في ان البيت
والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه وذلك
ان الشرف والحسب انما هو بالخلال ومعنى البيت ان يعد الرجل في آبائه اشرافا
مذكورين يكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة في اهل جلدته لما وقر في نفوسهم
من تجلة سلفهم وشرفهم بخلالهم والناس في نشوئهم وتناسلهم معادن قال النبي
الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا فمعنى الحسب راجع
الى الانساب وقد بينا ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة
والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة
النسب اوضح وثمرتها اقوى وتعديد الاشراف من الآباء زائد في فائدتها فيكون
الحسب والشرف اصليا في اهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتتفاوت البيوت
في هذا الشرف بتفاوت العصبية لانه سرها ولا يكون للمنفردين من اهل الامصار
بيت الا بالمجاز وان توهموه فزخرف من الدعاوي واذا اعتبرت الحسب في اهل
الامصار وجدت معناه ان الرجل منهم يعد سلفا في خلال الخير ومخالطة اهله
مع الركون الى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمرة النسب
وتعديد الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين
على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسبا بالحقيقة وعلى الاطلاق وقد يكون
للبيت شرف اول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم

اى قوم لا حرفة لهم ولا شئ يعيشون به ق

ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به انفسهم
من اشراف البيوتات وليسوا منها في شيء لذهاب العصبية جملة وكثير
من اهل الامصار الناشئين في بيوت العرب او العجم لاول عهدهم موسوسون
بذلك واكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني اسرائيل لانه كان لهم بيت
من اعظم بيوت العالم بالمنبت اولا لما تعدد في سلفهم من الانبياء والرسل
من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية
ثانيا وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به ثم انسلخوا من ذلك اجمع
وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الارض وانفردوا بالاستعباد
والكفر آلافا من السنين ثم ما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا
هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب
العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ احقاب متطاولة وكثير من اهل الامصار
وغيرهم المنقطعين في انسابهم عن العصبية يذهب الى هذا الهذيان وقد غلط ابو الوليد
ابن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتب المعلم الاول
والحسب هو ان يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت
شعري ما الذي ينفعه قدم نزولهم بالمدينة ان لم تكن له عصابة يرهب بها
جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكانه اطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع ان
الخطابة انما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم اهل الحل والعقد واما من
لا قدرة له البتة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة احد ولا يستمال هو
واهل الامصار من الحضر بهذه المثابة الا ان ابن رشد ربي في جيل وبلد
لم يمارسوا العصبية ولا انسوا احوالها فبقي في امر البيت والحسب على الامر
المشهور من تعديد الآباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها
في الخليقة والله بكل شيء عليم **فصل** في ان البيت والشرف للموالي
واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم وذلك انا قدمنا الآن ان الشرف
بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبية فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير
نسبهم واسترقوا العبدى والموالي والتحموا بهم كما قلناه ضرب معهم اولئك الموالي
والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كانها عصبيتهم وحصل
لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله عليه وسلم مولى

القوم وسواء كان مولى رق او مولى اصطناع وحلف وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه اهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائه واصطناعهم لا يتجاوزه الى شرفهم بل يكون ادون منهم على كل حال وهذا شان الموالي في الدول والخدمة كلهم فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها الا ترى الى موالي الاتراك في دولة بني العباس والى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من اعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالي كل دولة وخدمها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الاقدم ان كان من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في اصالته ومجده وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه اذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقا من شرف مواليه وبنيه من بنائهم فلم ينفعه نسب الولادة وانما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسبه الاول في لحمة عصبية ودولة فاذا ذهب وصار ولاؤه واصطناعه في اخرى لم ينفعه الاول لذهاب عصبيته وانتفع بالثاني لوجودها وهذا حال بني برمك والمنقول انهم كانوا اهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بني العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان شرفهم من حيث ولائهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه واكرمكم عند الله اتقاكم

فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء اعلم ان العالم العنصري بما فيه كاين فاسد لا من ذواته ولا من احواله فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كاينة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشا ثم تدرس وكذلك الصنايع وامثالها والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين فهو كاين فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من اهل الخليقة شرف متصل في آبائه

من لدن آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه واول كل شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه ان كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شان كل محدث ثم ان نهايته في اربعة آباء من عقبه وذلك ان باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي اسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لابيه فقد سمع منه ذلك واخذه عنه الا انه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة واضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم ان ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو امر وجب لهم منذ اول النشاة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم النسب فقط فيربا بنفسه عن عصبيته ويرى الفضل له عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحقرهم لذلك فينتقضون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للاذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبايل والامراء واهل العصبية اجمع ثم في بيوت اهل الامصار اذا انحطت بيوت نشات بيوت اخرى من ذلك النسب ان يشا يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب والا فقد يدثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتصل امرها الى الخامس والسادس الا انه في انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم وهو اقل ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم اشارة الى انه بلغ الغاية من المجد وفي التورية ما معناه انا الله ربك طايق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع

وهو يدل على ان الاربعة الاعقاب غاية في الانساب والحسب والله تعالى اعلم
ومن كتاب الاغاني في اخبار عريف القوافي ان كسرى قال للنعمان هل في العرب
قبيلة تتشرف على قبيلة قال نعم قال باي شيء قال من كانت له ثلثة اباء متوالية
روساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده
الا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل حاجب بن زرارة بيت
تميم وآل ذي الجدين بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة فجمع هؤلاء الرهط
ومن تبعهم من عشايرهم واقعد لهم الحكام العدول فقام حذيفة بن بدر ثم
الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان ثم بسطام بن قيس من شيبان ثم حاجب
ابن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه
وكانت هذه البيوتات هي المذكورة بالشرف في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت
بني الديان من بني الحارث بن كعب بيت اليمن وهذا كله يدل على ان الاربعة آباء
نهاية في الحسب والله تعالى اعلم فصل في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب
ممن سواها اعلم انه لما كان البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة
لاجرم كان هذا الجيل الوحشي اشد شجاعة من الجيل الآخر فهم اقدر على التغلب و
انتزاع ما في ايدي سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف احواله في ذلك باختلاف
الاعصار فكلما نزلوا الارياف وتفنكوا النعيم والفوا عوايد الخصب في المعاش
والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في
الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر اذا زال توحشها بمخالطة
الادميين واخصب عيشها كيف تختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في
مشيها وحسن اديمها وكذلك الادمي المتوحش اذا انس والف وسببه ان تكون السجايا
والطبايع انما هو عن المالوفات والعوايد واذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام
والبسالة فمن كان من هذه الاجيال اعرق في البداوة واكثر توحشا كان اقرب
الى التغلب على سواه اذا تقاربا في العدد وتكافا في القوة والعصابة وانظر
في ذلك شان مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم
ومع ربيعة الموطنين ارياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم
الآخرون الى خصب العيش وغضارة النعيم كيف ارهفت البداوة حدهم
في التغلب فغلبوهم على ما في ايديهم وانتزعوا منهم وهكذا حال بني طي وبني عامر بن صعصعة
وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تاخروا في باديتهم عن سائر قبايل مضر واليمن
ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف امسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم
ولم تخلقها مذاهب الترف حتى صاروا اغلب على الامر منهم وكذا كل حي
من العرب يلي نعيما وعيشا خصيبا دون الحي الآخر فان الحي المتبدي يكون اغلب له
واقدر عليه اذا تكافا في القوة والعدد سنة الله في خلقه فصل في ان الغاية
التي تجري اليها العصبية هي الملك وذلك انا قدمنا ان العصبية بها تكون الحماية
والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه وقدمنا ان الآدميين بالطبيعة الانسانية
يحتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد ان يكون متغلبا
عليهم بتلك العصبية والا لم يتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو
امر زايد على الرياسة لان الرياسة انما هو سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر
في احكامه واما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى
رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب
للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب
الملكي غاية للعصبية كما رايت ثم ان القبيل الواحد وان كان فيه بيوتات متفرقة
وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم
جميع العصبيات فيها ويصير كانها عصبية واحدة كبرى والا وقع الافتراق المفضي
الى الاختلاف والتنازع ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض
ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على اهل
عصبية اخرى بعيدة عنها فان كافاتها او مانعتها كانوا اقتالا وانظارا ولكل
واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها شان القبايل والامم المفترقة في العالم
وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها ايضا وزادتها قوة في التغلب الى قوتها
وطلبت غاية من التغلب والتحكم اعلى من الغاية الاولى وابعد وهكذا دايما حتى
تكافي بقوتها قوة الدولة فان ادركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع
من اولياء الدولة اهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها
وصار الملك اجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة
انما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل العصبيات انتظمتها الدولة في اوليائها
تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد

وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة وبني حمدان
مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبية
وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيل الملك اما بالاستبداد او بالمظاهرة
على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ الغاية عوايق
كما نبينه وقفت في مقامها الى ان يقضي الله بامره **فصل** في ان من عوايق
الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم وسبب ذلك ان القبيل
اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت
اهل النعيم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة
بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها وان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع
في انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما
يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شيء من منازع
الملك ولا اسبابه انما همهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل
الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار
من ذلك والتانق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من
توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون
فيما آتاهم الله من البسط وينشا بنوهم واعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة
انفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن ساير الامور الضرورية في العصبية حتى
يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدهم بتعاقبها
الى ان تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون
اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق في النعيم
كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب واذا انقرضت العصبية قصر القبيل
عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم فقد تبين
ان الترف من عوايق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء **فصل** في ان
من عوايق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد لسواهم وسبب ذلك
ان المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فان انقيادهم
ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز
عن المدافعة فاولى ان يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني

اسرائيل لما دعاهم موسى الى ملك الشام واخبرهم بان الله قد كتب لهم ملكها
كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا
منها اي يخرجهم الله منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك
يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان فقالوا اذهب انت وربك فقاتلا
وما ذلك الا لما انسوا من انفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه
الآية وما يؤثر من تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من
الذل للقبط حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع انهم لم يؤمنوا حق الايمان بما
اخبرهم به موسى من ان الشام لهم وان العمالقة الذين كانوا باريحا فريستهم
بحكم من الله قدره لهم فاقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من
انفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما اخبرهم
نبيهم من ذلك وما امرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو انهم تاهوا في قفر
من الارض بين الشام ومصر اربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا
مصرا كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ولعجزهم
عن مقاومتهم كما زعموا ويظهر من مساق الآية ومفهومها ان حكمة ذلك التيه
مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به
وافسد من عصبيتهم حتى نشا في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام
والقهر ولا يسام بالمذلة فنشات لهم بذلك عصبية اخرى اقتدروا بها
على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة اقل ما يأتي
فيها فناء جيل ونشاة جيل آخر سبحان الحكيم العليم وفي هذا اوضح دليل
على شان العصبية وانها التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة
وان من فقدها عجز عن جميع ذلك **ويلحق** بهذا الفصل فيما يوجب المذلة
للقبيل شان المغارم والضرائب فان القبيل الغارمين ما اعطوا اليد لذلك
حتى رضوا بالمذلة فيه لان في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس
الابية الا اذا استهونته عن القتل والتلف وان عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن
عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة
او المطالبة وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة عايقة كما قدمناه ومنه
في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم في شان الحرث لما راى سكة الحراث في بعض

دور الانصار فقال ما دخلت هذه دار قوم الا ادخلهم الذل فهو دليل
صريح على ان المغرم موجب للذلة هذا الى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر
والخديعة بسبب ملكة القهر ففي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يستعيذ من المغرم فسئل عن ذلك فقال ان الرجل اذا غرم حدث فكذب
ووعد فاخلف فاذا رايت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها
بملك آخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم ان زناتة بالمغرب كانوا
شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش
كما رايت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة وانظر في هذا
ما قاله شهر براز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما اطل عليه وسال امانه
على ان يكون له فقال انا اليوم منكم يدي في ايديكم وصغوي معكم فمرحبا بكم
وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلونا بالجزية
فتوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف فصل في ان من
علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس لما كان الملك طبيعيا
للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان اقرب الى خلال
الخير من خلال الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه
من قبل القوى الحيوانية التي فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب
والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان لا للحيوان
فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب
للسياسة وقد ذكرنا ان المجد له اصل يبتني عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية
والعشير وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصبية
فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال لان وجوده دون متمماته كوجود شخص
مقطوع الاعضاء او ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبية فقط
من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا في اهل البيوت والاحساب فما ظنك باهل
الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وايضا فالسياسة والملك هي
كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ احكامه فيهم واحكام الله في خلقه وعباده
انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع واحكام البشر انما هي من الجهل
والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذ

اذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة واونست منه خلال الخير
المناسبة لتنفيذ احكام الله في خلقه فقد تهيا للخلافة في العباد وكفالة الخلق
ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان اوثق من الاول واصح فقد تبين
ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فاذا نظرنا في اهل
العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافسون
في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى
للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل
الاموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف
عند ما يحددونه لهم من فعل او ترك وحسن الظن بهم واعتقاد اهل الدين والتبرك بهم
ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد
للحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من انفسهم والتبذل في احوالهم
والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام
عليها وعلى اسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وامثال
ذلك علمنا ان هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها ان يكونوا ساسة
لمن تحت ايديهم او على العموم وانه خير ساقه الله اليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم
وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك انسب المراتب والخيرات
لعصبيتهم فعلمنا بذلك ان الله تاذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك
اذا تاذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال
الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص
الى ان يخرج الملك من ايديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب
ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في ايديهم من الخير واذا اردنا ان نهلك قرية
امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقري ذلك وتتبعه
في الامم السالفة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار واعلم
ان من خلال الكمال الذي يتنافس فيها القبائل اولوا العصبية وتكون شاهدة لهم
بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف واهل الاحساب واصناف التجار
والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك ان اكرام القبائل واهل العصبيات
والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشيرة والعصبية ويشاركهم في

فى اتباع الجاه امر طبيعى يحمل عليه فى الاكثر الرغبة فى الجاه او المخافة من قوم
المكرم او لتماس مثلها منه واما امثال هولاء ممن ليس له عصبية تتقى ولا جاه
يرتجى فيندفع الشك فى شان كرامتهم ويتمحض القصد فيهم انه للمجد وانتحال الكمال
فى الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام اقتاله وامثاله ضرورى
فى السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه واكرام الطارئين من اهل الفضايل
والخصوصيات كمال فى السياسة العامة فالصالحون للدين العلماء للحاجة اليهم
فى اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بهم والغرباء من مكارم
الاخلاق ومن الترغيب ببعض الوجوه وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو
من العدل فيعلم بوجود ذلك من اهل عصبية انتماؤهم للسياسة العامة وهى
الملك وان الله قد تاذن بوجودها فيهم بوجود علاماتها لهذا فان اول ما يذهب
من القبيل اهل الملك اذا تاذن الله بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف
من الخلق فاذا رايته قد ذهب من امة من الامم فاعلم ان الفضايل قد اخذت
فى الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له

فصل فى انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع وذلك لانهم اقدر
على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوايف لقدرتهم على محاربة
الامم سواهم ولانهم ينزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم
وهولاء مثل العرب وزناتة ومن فى معناهم من الاكراد والتركمان واهل اللثام
من صنهاجة وايضا فهولاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون فيه ولا بلد يجنحون
اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم
وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود افقهم بل يطفرون الى الاقاليم
البعيدة ويتغلبون على الامم النائية وانظر ما يحكى فى ذلك عن عمر رضى الله عنه
لما بويع وقام خطيبا يحرض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة
ولا يقوى عليه اهله الا بذلك اين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا فى الارض
التى وعدكم الله فى الكتاب ان يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون واعتبر ذلك ايضا بحال العرب السالفة من قبل مثل حمير والتبابعة
كيف كانوا يخطون فيما نقل من اليمن الى المغرب مرة والى العراق والهند اخرى
ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم وكذا حال الملثمين بالمغرب لما نزعوا الى الملك

طوفوا

طوفوا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه فى جوار السودان الى الاقليم الرابع
والخامس فى ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شان هذه الامم الوحشية
فلذلك تكون دولهم اوسع نطاقا وابعد من مراكزها نهاية والله مقدر الليل
والنهار

فصل فى ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة
فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية والسبب فى ذلك
ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من ساير الامم
سواهم فيتعين منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك
لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاحمة وللغيرة
التى تجدع انوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين اولئك القايمون
بالدولة انغمسوا فى النعيم وغرقوا فى بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم
من ذلك الجيل وانفقوهم فى وجوه الدولة ومذاهبها وبقى الذين بعدوا عن
الامر وكبحوا عن المشاركة فى ظل من عز الدولة التى شاركوها بنسبتهم وبمنجاة
من الهرم لبعدهم عن الترف واسبابه فاذا استولت على الاولين الايام
واباد غضراءهم الهرم وطبختهم الدولة واكل الدهر عليهم وشرب بما ارهف
النعيم من حدهم واشتفت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة
التمدن الانسانى والتغلب السياسى كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نفسه فى
الانعكاس كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر
محفوظة وشارتهم فى الغلب معلومة فتسمو امالهم الى الملك الذى كانوا ممنوعين منه
بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم ويرتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون
على الامر ويصير اليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقى ايضا منتبذا عنه من عشاير
امتهم فلا يزال الملك ملجأ فى الامة الى ان تنكسر سورة العصبية منها او تفنى
ساير عشايرها سنة الله فى الحيوة الدنيا والآخرة عند ربك خير وابقى واعتبر
هذا بما وقع فى الامم لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم اخوانهم من ثمود ومن
بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التبابعة
من حمير ايضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس
انقرض امر الكينية فملك من بعدهم الساسانية حتى تاذن الله بانقراضهم اجمع
الاسلام وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر

بالمغرب لما انقرض امر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم رجع الى صنهاجة
ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا سنة الله
في عباده وخلقه واصل هذا كله انما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في
الاجيال والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد فاذا انقرضت دولة
فانما يتناول الامر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم
والانقياد واونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك انما يوجد في النسب
القريب منهم لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي
فيه او بعد حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة او ذهاب عمران
او ما شاء الله من قدرته فحينئذ يخرج عن هذا الجيل الى الجيل الذي ياذن الله
بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على الامم والدول واخذوا الامر
من ايدي اهل العالم بعد ان كانوا مكبوحين عنه احقابا

فصل في ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده
والسبب في ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه
اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه او لما تغالط به من ان انقيادها ليس
لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها صار اعتقادا
فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء او لما تراه
والله اعلم من ان غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة باس وانما هو بما انتحلته
من العوائد والمذاهب تغالط ايضا بذلك عن الغلب وهذا راجع الى الاول ولذلك
ترى المغلوب يتشبه ابدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها واشكالها
بل وفي سائر احواله وانظر ذلك في الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم
دائما وما ذاك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف
يغلب على اهله زي الحامية وجند السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه
اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبه والاقتداء
حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون
في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في
الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة
انه علامة الاستيلاء والامر لله وتامل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه

من بابه اذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه
اقتداء الابناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم

فصل في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملكة غيرها اسرع اليها الفناء والسبب فيه
والله اعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت
بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل
والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية
فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية
ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم
وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين
لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك ام لم يحصلوا
وفيه والله اعلم سر آخر وهو ان الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف
الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى
عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في اخلاق الاناسي ولقد يقال مثله
في الحيوانات المفترسة وانها لا تسافد اذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال
هذا القبيل المملوك امره عليه في تناقص واضمحلال الى ان ياخذهم الفناء
والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في امة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم
كثرة ولما فنيت حاميتهم في ايام العرب منهم كثير واكثر من الكثير يقال ان سعدا
احصى من وراء المدائن فكانوا مائة الف وسبعة وثلثين الفا منهم سبعة
وثلثون الفا رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم
الا قليلا ودثروا كان لم يكونوا ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل او عدوان
شملهم فملكة الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب
على امره وصار آلة لغيره ولهذا انما تذعن للرق في الغالب امم السودان
لنقص الانسانية فيهم وقربهم من الحيوانات العجم كما قلناه او من يرجو بانتظامه
في ربقة الرق حصول رتبة او افادة مال او عز كما يقع للترك بالمشرق والعلوج
من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة
لهم فلا يانفون من الرق لما يؤملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة
والله اعلم

فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط وذلك انهم

بطبيعة التوحش التي فيهم اهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير
مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة
والمحاربة الا اذا دفعوا بذلك عن انفسهم فكل معقل او مستصعب عليهم
فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم باوعار الجبال
بمنجاة من عيثهم وفسادهم لانهم لا يتسنمون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب
ولا يحاولون الخطر واما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف
الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف
لسهولتها عليهم الى ان يصبح اهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي
وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه

فصل

في ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب والسبب في ذلك
انهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش واسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة
وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة
وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها
عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له
فالحجر مثلا حاجتهم اليه لنصبه اثافي للقدور فينقلونه من المباني ويخربونها
عليه ويعدونه لذلك والخشب ايضا انما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا
الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليها لذلك فصارت طبيعة وجودهم
منافية للبناء الذي هو اصل العمران هذا في حالهم على العموم وايضا فطبيعتهم انتهاب
ما في ايدي الناس وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في اخذ اموال
الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت اعينهم الى مال او متاع او ماعون
انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ
اموال الناس وخرب العمران وايضا فانهم يكلفون على اهل الاعمال من الصنائع
والحرف اعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والاعمال كما سنذكره
هي اصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال
في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل وابذعر الساكن وفسد العمران وايضا
فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض
انما همهم ما ياخذونه نهبا او مغرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه اعرضوا

عما بعده

عما بعده من تسديد احوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن اغراض المفاسد
وربما فرضوا العقوبات في الاموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار
منها كما هو شانهم وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون
ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم
كانها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من ان
وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها
وتقدم ذلك اول الفصل وايضا فهم متنافسون في الرياسة وقل ان يسلم
احد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره
من اجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية
والاحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما ساله
عن الحجاج واراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم
وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف
تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم
خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان
للفرس اجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليهما
بنو هلال وبنو سليم منذ عهد المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين
قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي
كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد
القرى والمدر والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

فصل

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية
او اثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك انهم لخلق التوحش الذي
فيهم اصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة
في الرياسة فقلما تجتمع اهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوة او الولاية كان
الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم
واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن
التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي او الولي الذي يبعثهم على القيام بامر الله و
يذهب عنهم مذمومات الاخلاق وياخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق

ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك اسرع الناس قبولا للحق
والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبرائتها من ذميم الاخلاق الا ماكان
من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الاولى
وبعده عما ينطبع في النفس من قبيح العوايد وسوء الملكات فان كل مولود يولد على
الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم **فصل** في ان العرب ابعد الامم عن سياسة
الملك والسبب في ذلك انهم اكثر بداوة من ساير الامم وابعد مجالا في القفر
واغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش
فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم
محتاج اليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم
وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شان عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك
والسلطان تقتضي ان يكون السايس وازعا بالقهر والالم تستقم سياسته وايضا
من طبيعتهم كما قدمناه اخذ ما في ايدي الناس خاصة والتجافي عما سوا ذلك من الاحكام
بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا امة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع
باخذ ما في ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات
على المفاسد في الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوايد فلا يكون ذلك
وازعا وربما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي
من ماله في جانب غرضه فتنموا المفاسد بذلك فيقع تخريب العمران فتبقى تلك الامة
كانها فوضى مستطيلة ايدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شان
الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون
اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم
عن انفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم
في الملة لما شيد لهم الدين امر السياسة بالشريعة واحكامها المراعية لمصالح العمران
ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم كان رستم
اذا راى المسلمين يجتمعون للصلوة يقول اكل عمر كبدي يعلم الكلاب الاداب
ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة اجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة
ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شان عصبيتهم مع اهل الدولة ببعدهم عن الانقياد
واعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا انه للخلفاء وهم

من جيلهم ولما ذهب امر الخلافة وانمحى رسمها انقطع الامر جملة من ايديهم وغلب
عليهم العجم دونهم واقاموا بادية في قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل
قد يجهل الكثير منهم انهم كان لهم ملك في القديم وما كان لاحد من الامم في الخليقة
ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة
بذلك ثم دولة مضر في الاسلام بني امية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة
لما نسوا الدين فرجعوا الى اصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الاحيان غلب
على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله وغايته الا تخريب
ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله خير الوارثين **فصل** في ان البوادي
من القبايل والعصايب مغلوبون لاهل الامصار قد تقدم لنا ان عمران البادية
ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية في العمران ليس كلها
موجودا لاهل البدو وانما يوجد لديهم وفي مواطنهم امور الفلح وموادها معدومة
ومعظمها الصنايع فلا يوجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وامثال ذلك
مما يقيم لهم ضرورات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدراهم مفقودة
لديهم وانما بايديهم اعواضها من مغل الزراعة واعيان الحيوان او فضلاته
البانا واوبارا واشعارا واهابا مما يحتاج اليه اهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير
والدراهم الا ان حاجتهم الى الامصار في الضروري وحاجة اهل الامصار اليهم في
الحاجي والكمالي فهم محتاجون الى الامصار في الضروري بطبيعة وجودهم فما داموا في
البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون الى اهلها
ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به فان كان
في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن في المصر ملك فلا بد
فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض اهله على الباقين والا انتقض عمرانه وذلك
الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه اما طوعا ببذل المال لهم ثم يبيح لهم
ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرها ان تمت قدرته
على ذلك ولو بالتضريب بينهم حتى يحصل له فريق منهم يغالب به الباقين فيضطر
الاخرون الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة هذه
النواحي الى الجهات الاخرى لان كل النواحي معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها عن غيرهم
فلا يجد هولاء ملجا الا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله

القاهر فوق عباده • بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه
الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية
وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات فصل في ان الملك
والدول العامة انما تحصل بالقبيل والعصبية وذلك انه قد قررنا في الفصل
الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتدامر
واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف بلذوذ يشتمل
على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس
غالبا وقل ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب
والقتال والمغالبة وشي منها لا يقع الا بالعصبية كما ذكرناه ايضا وهذا الامر
بعيد عن افهام الجمهور ويتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدول منذ اولها
وطال امد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله
في تمهيد امرهم اول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة قد استحكمت صبغتهم
ووقع التسليم لهم والاستغنا عن العصبية في تمهيد امرهم ولا يعرفون كيف كان
الامر من اوله وما لقي اولهم من المتاعب دونه وخصوصا اهل الاندلس في نسيان
هذه العصبية واثرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى
وطنهم وخلا من العصايب والله قادر على ما يشا • فصل في انه اذا استقرت
الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية والسبب في ذلك ان الدول العامة
في اولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للغرابة
وان الناس لم يالفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في اهل النصاب
المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في اعقاب كثيرين ودول
متعاقبة نسيت النفوس شان الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة
الرياسة ورسخ في العقايد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على امرهم
قتالهم على العقايد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في امرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها
كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولامر ما يوضع الكلام في الامامة اخر الكلام في
العقايد الايمانية كانه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم
المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشاوا في ظل العصبية وغيرها واما بالعصايب
الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصبية

العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم ولابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك
انما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم والاوليا
على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم يكن يعدو اعمال بغداد حتى زحف اليها
الديلم وملكوها وصار الخلايف في حكمهم ثم انقرض امرهم وملك السلجوقية من بعدهم
فصاروا في حكمهم ثم انقرض امرهم وزحف آخرا الططر فقتلوا الخليفة ومحوا
رسم الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة
او ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة
وساير ثغور افريقية وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها
والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى تاذن الله بانقراض الدولة وجاء
الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحوا آثارهم وكذا دولة بني امية
بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوايف على امرها
واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم على
ما كان في ولايته وشمخ بانفه وبلغهم شان العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا
بالقاب الملك ولبسوا شارته وامنوا ممن ينقض ذلك عليهم او يغيره لان الاندلس
ليست بدار عصايب ولا قبايل كما سنذكره واستمر لهم ذلك قال ابن شرف

مما يزهدني في ارض اندلس • اسماء معتصم فيها ومعتضد •
القاب مملكة في غير موضعها • كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد •

فاستظهروا على امرهم بالموالي والمصطنعين والطرا على الاندلس من اهل العدوة
من قبايل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر امرها في الاستظهار بهم
حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن ابي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة
استبد كل واحد فيها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على نسبة
الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى اجاز اليهم البحر المرابطون
اهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وازالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم
ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة
وحمايتها من اولها وقد ظن الطرطوشي ان حامية الدول باطلاق هم الجند
اهل العطاء المفروض مع الاهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك
وكلامه لا يتناول تاسيس الدول العامة في اولها وانما هو مخصوص بالدول الاخرة

بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل
انما ادرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي
والصنايع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما ادرك
دول الطوايف وذلك عند اختلال دولة بني امية وانقراض عصبيتها للعرب
واستبداد كل امير بقطره وكان في امارة المستعين ابن هود وابنه المظفر
اهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب
منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدا بالملك عن عشايره
قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو
لذلك لا ينازع فيه ويستعين على امره بالاجراء من المرتزقة فاطلق
الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الامر منذ اول الدولة وانه لا يتم
الا لاهل العصبية فتفطن انت له وافهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه من يشاء

فصل في انه قد تحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن
العصبية وذلك انه اذا كان لعصبية غلب كبير على الامم والاجيال
وفي نفوس القائمين بامره من اهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع
اليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بامره
وظاهروه على شانه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله
الامر من يد اعياصه ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليما لعصبيته
وانقيادا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة ايمانية
استقرت في الاذعان لهم فلو راموها معه او دونه لزلزلت الارض زلزالها
وهذا كما وقع للادارسة في المغرب الاقصى والعبيديين بافريقية ومصر لما انتبذ
الطالبيون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا الى طلبها
من ايدي آل العباس بعد ان استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني امية اولا
ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام
بامرهم البرابرة مرة بعد اخرى فاوربة ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة
وهوارة للعبيديين فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم امرهم واقتطعوا
من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظل الدولة
يتقلص وظل العبيديين يمتد الى ان ملكوا مصر والشام وقاسموهم في الممالك

الاسلامية شق الابلمة ومع هذا فالبرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كله
مسلمون للعبيديين امرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا يتنافسون في الرتبة
عندهم خاصة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحكم
من الغلب لقريش ومضر على ساير الامم فلم يزل الملك في اعقابهم الى انقراض
دولة العرب باسرها والله يحكم لا معقب لحكمه فصل في ان الدولة العامة
الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق
وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والغلب انما يكون بالعصبية
واتفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتاليفها انما يكون بمعونة
من الله في اقامة القلوب   لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت
بين قلوبهم وسره ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الباطل والميل
الى الدنيا حصل التنافس وفشى الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت
الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل
الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك
فعظمت الدولة كما نبين لك بعد فصل في ان الدعوة الدينية
تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها
والسبب في ذلك كما قدمناه ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد
التي في اهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في
امرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عند جميعهم وهم
مستميتون عليه واهل الدولة هم طالبوها وان كانوا اضعافهم فاغراضهم
متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا اكثر
منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه
وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية
واليرموك بضعا وثلثين الفا في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين الفا بالقادسية
وجموع هرقل على ما قاله الواقدي اربعمائة الف فلم يقف للعرب احد من الجانبين
وهزموهم وغلبوهم على ما بايديهم واعتبر ذلك ايضا في دولة لمتونة ودولة
الموحدين فقد كان بالمغرب من القبايل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية
او يشف عليهم الا ان الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار

والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها او الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها وكانوا اكثر عصبية منها واشد بداوة واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كان زناتة ابدا من المصامدة واشد توحشا وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فغلبوا على زناتة اولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداوة اشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه والله غالب على امره

فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم وهذا لما قدمناه من ان كل امر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم اولى الناس بخرق العادة فما ظنك بغيرهم ان لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ المتصوفة وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالاندلس داعيا الى الحق وسمي اصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من امر الموحدين ولم يكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شانه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب ان اذعن ودخل في دعوتهم وبايعهم من معقله بحصن اركش وامكنهم من ثغره وكان اول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين

ومن هذا الباب احوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على اهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتلبسون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون بانفسهم في ذلك للمهالك واكثرهم يهلكون في تلك السبيل مازورين غير ماجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من راى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه واحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا حال الانبياء في دعوتهم الى الله بالعصائب والعشائر وهم المؤيدون من الله لو شاء بالكون كله لكنه انما اجرى الامور بحكمته على مستقر العادة فاذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك واما ان كان من الملبسين بذلك في طلب الرياسة فاجدر ان تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لانه امر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة واول من ابتدا هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وابطا المامون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلي ابن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المامون والاستبدال منه وبويع ابراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت ايدي الدعرة من الشطار والحربية على اهل العافية والصون وقطعوا الطريق وامتلات ايديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الاسواق واستعدى اهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر اهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوش ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابه خلق وقاتل الدعارة فغلبهم واطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد اهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى ابا حاتم وعلق مصحفا في عنقه ودعا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من اخاف المارة ومنع الخفارة لاولئك الشطار وقال له خالد الدريوش انا لا اعيب على السلطان فقال سهل لكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين وجهز ابراهيم بن المهدي اليه العساكر فغلبه واسره وانحل امره سريعا

وذهب ونجا بدمار نفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين ياخذون
انفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون في اقامته من العصبية ولا يشعرون
بمغبة امرهم ومآل احوالهم والذي يحتاج اليه في امر هؤلاء اما المداواة
ان كانوا من اهل الجنون واما التنكيل بالقتل والضرب ان احدثوا
هرجاً واما اذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين وقد ينتسب
بعضهم الى الفاطمي المنتظر اما بانه هو او داع له وليس مع ذلك على علم
من امر الفاطمي ولا ما هو واكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين
او مجانين او ملبسين يطلبون بذلك الدعوى رياسة امتلأت بها
جوانحهم وعجزوا عن التوصل اليها بشيء من اسبابها العادية فيحسبون
ان هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحتسبون
ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم
وقد كان اول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التويزري عمد الى
مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم انه الفاطمي المنتظر تلبيسا على العامة هنالك
بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره وان من ذلك المسجد يكون اصل دعوته
فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع
نطاق الفتنة فدس اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي من قتله في فراشه وكذلك
خرج في غمارة اول هذه المائة ايضا رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوى
واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من امصارهم
فدخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين وامثال ذلك
كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها واما ان كان التلبيس
فاحرى ان لا يتم له امر وان يبوء باثمه وذلك جزاء الظالمين **فصل** في ان
كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها والسبب في ذلك ان عصابة
الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور
التي تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء احكام الدولة فيها من
جباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصائب كلهم على الثغور والممالك فلابد من
نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغراً للدولة وتخماً لوطنها ونطاقاً
لمركز ملكها فان تكلفت بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً

لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر
وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص
على الثغور والنواحي بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها
الى غايته والعلة الطبيعية في ذلك ان قوة العصبية هي من سائر القوى الطبيعية وكل
قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشانها ذلك في فعلها والدولة في مركزها اشد
مما تكون في الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية عجزت
وقصرت عما وراءه شان الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة
على سطح الماء من النقر عليه ثم اذا ادركها الهرم والضعف فانما تاخذ في التناقص
من جهة الاطراف ولا يزال المركز محفوظاً الى ان يتاذن الله بانقراض الامر جملة
فحينئذ يكون انتقاص المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الاطراف
والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فاذا غلب
القلب وملك انهزم جميع الاطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها
المداين فلما غلب المسلمون على المداين انقرض امر فارس اجمع ولم ينفع يزدجرد
ما بقي في يده من اطراف ممالكه وبالعكس من ذلك وكذا الدولة الرومية بالشام
لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون على الشام تحيزوا الى مركزهم بالقسطنطينية
ولم يضرهم انتزاع الشام من ايديهم فلم يزل ملكهم متصلاً بها الى ان تاذن الله تعالى
بانقراضه وانظر ايضاً شان العرب اول الاسلام لما كانت عصائبهم موفورة
كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك
الى ما وراءه من الصين والسند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الاندلس
فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك
التوزيعات اقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى امر الاسلام ولم يتجاوز تلك الحدود
ومنها تراجعت الدولة حتى تاذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك
كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع
لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خليقته **فصل** في ان عظم الدولة واتساع نطاقها
وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة والسبب في ذلك ان الملك انما
يكون بالعصبية واهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة واقطارها
وينقسمون عليها فما كان من الدول العامة قبيلها واهل عصابتها اكثر كانت اقوى واكثر

ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية
لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات
النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس
وراجل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك
لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين
في العالم لعهدهم والترك بالمشرق والإفرنجة والبربر في المغرب والقوط بالأندلس
وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا
على الأقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم
لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة
كانت دولتهم أعظم فملكوا إفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر
بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين
لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين
لهذا العهد لزناتة من بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر
من بني عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة
بعد أخرى يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كانوا ثلاثة آلاف وإن عدد بني عبد الواد
كانوا ألفا إلا أن الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة
في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها وأما طول أمدها أيضا
فعلى تلك النسبة لأن عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول إنما هو بالعصبية فإذا كانت
العصبية قوية كان المزاج تابعا لها وكان أمد العمر طويلا والعصبية إنما هي بكثرة العدد
ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدأ في الدولة من الأطراف
فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع
فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص
وزمانه فيكون أمدها طويلا وانظر ذلك في دولة العرب الإسلامية كيف كان أمدها
أطول الدول لا بنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالأندلس ولم ينتقض أمر
جميعهم إلا بعد الأربعمائة من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريبا من مائتين و
ثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد المعز أمر إفريقية لبلكين بن زيري
سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين

وخمسمائة ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب
الدول في أعمارها على نسب القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عباده

فصل

في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة والسبب في
ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية
تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن كانت
ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر
ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد فإن ساكن هذه
الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان
لابن أبي سرح عليهم وعلى الفرنجة شيئا وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد
أخرى وعظم الإثخان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة
والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب
اثنتا عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده
وهذا معنى ما ينقل عن عمر رضي الله عنه أن إفريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة
إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد
ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام إنما كانت حاميتها من
فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون على الأمر
وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من
أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى
مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن
إفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل
فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم والأرمن والعمالقة
وأكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية
فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى
وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد
سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب
على أمره وبالعكس من هذا أيضا الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة
فيها ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير

من العصبية كما هو الشأن لمصر والشام لهذا العهد اذ هي خلو من القبائل والعصبيات
كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة
الخوارج واهل العصائب انما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك
وعصائبهم يتغلبون على الامر واحد بعد واحد وينتقل الامر فيهم من منبت الى منبت
والخلافة مسماة للعباسي من اعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الاندلس لهذا
العهد فان عصبية ابن الاحمر سلطانها لم تكن لاول دولتهم بقوية ولا كانت كثرة
انما كانوا اهل بيت من بيوت العرب اهل الدولة الاموية بقوا من ذلك القل
وذلك ان اهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونة
والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتها عليهم فاشربت القلوب بغضاءهم
وامكن الموحدون السادة في آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية في سبيل
الاستظهار به على شأنهم من تمليك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من اهل
العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحضارة والامصار
بعض الشيء ورسخوا في الجندية مثل ابن هود وابن الاحمر وابن مردنيش وامثالهم
فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج
على الموحدين فنبذوا اليهم العهد واخرجوهم واستقل ابن هود بالامر بالاندلس
ثم سما ابن الاحمر للامر وخالف ابن هود في دعوته فدعى هو لابن ابي حفص صاحب
افريقية من الموحدين وقام بالامر وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمونهم
الرؤساء ولم يحتج لاكثر منها لقلة العصائب بالاندلس وانها سلطان ورعية ثم استظهر
بعد ذلك على الطاغية من يجيز اليه البحر من اعياص زناتة فصاروا معه عصبة على المثاغرة
والرباط ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة امل في الاستيلاء على الاندلس
فصار اولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى ان تأثل امره ورسخ
وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه اعقابه لهذا اليوم فلا تظنن انه بغير
عصابة فليس كذلك وكان مبدؤه بعصابة الا انها قليلة وعلى قدر الحاجة فان
وطن الاندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب
عليهم والله غني عن العالمين **فصل** في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد والتوغل
في الترف وايثار الدعة والسكون اما الانفراد بالمجد فان الملك كما قدمناه انما هو بالعصبية
والعصبية متألفة من عصبيات كثيرة تكون واحدة منها اقوى من الاخرى كلها فتغلبها

وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب
على الناس والدول وسره ان العصبية العامة للقبيل هو مثل المزاج للمتكون
والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه ان العناصر اذا اجتمعت متكافئة
فلا يقع منها مزاج اصلاً بل لا بد ان يكون واحد منها غالباً على الآخر وبغلبته عليها
يقع الامتزاج وكذا تلك العصبيات لا بد ان تكون واحدة منها هي الغالبة
على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب
وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم اهل بيت ورياسة فيهم
ولا بد ان يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات
كلها لغلب منبته لجميعها واذا تعين له ذلك ومن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر
والانفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم
ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم
لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فتجدع حينئذ
انوف العصبيات ويكبح شكائمهم عن ان يسموا الى مشاركته في التحكم ويقرع عصبيتهم
عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم في الامر لا ناقة ولا جملاً فينفرد
بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته فيه وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة
وقد لا يتم الا للثاني او للثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها الا انه امر لا بد منه
في الدول سنة الله في عباده **واما** التوغل في الترف فلان الامة اذا تغلبت وملكت
ما بايدي اهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات
العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم في
عوائدهم واحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون
مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون
في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الامم في اكل الطيب ولبس الانيق وركوب
الفاره ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون
حظهم من ذلك وترفهم فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة ان
تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله في خلقه **واما** ايثار الدعة فلان
الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا
حصلت الغاية انقضى السعي اليها عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة
والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس
فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون باحوال الدنيا
ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في احوال الملابس والمطاعم والآنية
والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من اجيالهم ولا يزال
ذلك يتزايد فيهم الى ان يتأذن بامره

فصل في انه اذا استحكمت طبيعة الملك
من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم وبيانه من
وجوه الاول انها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة
وكان سعيهم له واحدا كانت هممهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة اسوة في
طموحها وقوة شكائمها ومرماهم الى العز جميع وهم يستطيبون الموت في بناء
مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم
وكبح من اعنتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم
ورئموا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني على ذلك يحسبون ما ينالهم
من العطاء اجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه
وقل ان يستأجر احد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضدا من الشوكة
وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من اهلها
الوجه الثاني ان طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد
نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق
عطاءه بترفه ثم يزداد ذلك في اجيالهم المتأخرة الى ان يقصر العطاء كله
عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو
والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات وينتزعون ما في ايدي
الكثير منهم يستأثرون به عليهم او يؤثرون به ابناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم
لذلك عن اقامة احوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وايضا اذا كثر الترف
في الدولة وصار عطاؤهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة
الذي هو السلطان الى الزيادة في اعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم والجباية
مقدارها معلوم لا يزيد ولا ينقص وان زادت ما يستحدث فيصير مقدارها
بعد الزيادة محدودا فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها

الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ
عما كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات
لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا الى ان يعود العسكر الى اقل الاعداد
فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من
الدول او من تحت ايديها من العصائب والقبائل ويتأذن الله فيها بالفناء
الذي كتبه على خليقته وايضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من الوان
الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال
الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال
الشر فتكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته
وتأخذ الدولة مبادي العطب وتتضعضع احوالها وتنزل بها امراض مزمنة
من الهرم الى ان تقضي عليها الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضي الدعة
كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم طبيعة وجبلة
شان العوائد كلها وايلافها فتربى اجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد
الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها
الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر
فلا تفرق بينهم وبين السوقة من الحضر الا في الثقافة والشارة فتضعف
ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به
من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون
والدعة ورقة الحاشية في جميع احوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون
عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئا فشيئا وينسون خلق البسالة
التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية اخرى ان كانت
لهم واعتبر ذلك في الدول التي اخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك
من ذلك صحيحا من غير ريبة وربما يحدث في الدولة انصارا وشيعا من
غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندا يكونون اصبر على الحروب
واقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء
للدولة من الهرم الذي عساه يطرقها حتى يتأذن الله فيها بامره وهذا كما وقع
في دولة الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالي من الترك فيتخير ملوكهم من

اولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسانًا وجندًا فيكونون اجرأ على الحرب
واصبر على الشظف من ابناء الملوك الذين كانوا قبلهم وربوا فى ماء النعيم
والسلطان وظله وكذلك فى دولة الموحدين بافريقيه فان صاحبها كثيرًا ما يتخذ
اجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك اهل الدولة المتعودين للترف
فتستجد الدولة بذلك عمرًا آخر سالما من الهرم والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الدول لها اعمار طبيعية كما للاشخاص اعلم ان العمر الطبيعى
للاشخاص على ما زعم الاطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهى سنو القمر
الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر فى كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا
وينقص منه فيكون اعمار بعض اهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين او ثمانين
او سبعين على ما تقتضيه ادلة القرانات عند الناظرين فيها واعمار اهل هذه
الملة ما بين الستين الى السبعين كما فى الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعى الذى
هو مائة وعشرون الا فى الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك
كما وقع فى شان نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود واما اعمار الدول
ايضا وان كانت تختلف بحسب القرانات الا ان الدولة فى الغالب لا تعدو
اعمار ثلثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين
الذى هو انتهاء النمو والنشو الى غايته قال تعالى حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين
سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه فى حكمة
التيه التى وقع لبنى اسرائيل وان المقصود بالاربعين فيه فناء الجيل الاحياء
ونشاة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الاربعين فى عمر
الجيل التى هى عمر الشخص الواحد وانما قلناه ان عمر الدولة فى الغالب
لا يعدو ثلثة اجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها
وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك فى المجد
فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب
والناس لهم مغلوبون والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة
الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك فى المجد
الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه ومن عز الاستطالة الى ذل
الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشئ وتونس منهم المهانة والخضوع

ويبقى لهم الكثير من ذلك بما ادركوا الجيل الاول وباشروا احوالهم وشاهدوا
من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومراميهم فى المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك
ذلك بالكلية وان ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الاحوال
التى كانت للجيل الاول او على ظن من وجودها فيهم واما الجيل الثالث فينسون
عهد البداوة والخشونة كان لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية
بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ الترف فيهم غايته بما تبنكوه من النعيم وغضارة
العيش فيصيرون عيالًا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين
للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة
ويلبسون على الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها
وهم فى الاكثر اجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا
مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة
ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتاذن الله بانقراضها
فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلثة اجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها
ولذلك كان انقراض الحسب فى الجيل الرابع كما مر فى ان المجد والحسب انما هو فى
اربعة آباء وقد اتيناك فيه ببرهان طبيعى ظاهر مبنى على ما مهدناه قبل من المقدمات
فتامله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من اهل الانصاف وهذه الاجيال الثلثة اعمارها
مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول فى الغالب هذا العمر بتقريب قبله
او بعده الا ان عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا
مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء
اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون وهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص
من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجرى على السنة الناس
فى المشهور ان عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك
عدد الآباء فى عمود النسب الذى تريده من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت
قد استربت فى عددهم وكانت السنون الماضية منذ اولهم محصلة لديك فعد لكل
مائة من السنين ثلثة من الآباء فان نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم
فهو صحيح وان نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد فى عمود النسب
وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تاخذ عدد السنين من عددهم اذا كان

محصلا لذلك صحيحا والله مقدر الليل والنهار **فصل** في ان انتقال
الدولة من البداوة الى الحضارة اعلم ان هذه الاطوار طبيعية للدول فان الغلب
الذي يكون به الملك انما هو بالعصبية وما يتبعها من شدة الباس وتعود
الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من اولها
بداوة ثم اذا حصل الملك يتبعه الرفه واتساع الاحوال والحضارة انما هو
تفنن في الترف واحكام الصنايع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ
والملابس والمباني والفرش والآنية وساير عوايد المنزل واحواله فلكل واحد
منها صنايع في استجادته والتانق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكثر
باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم باحوال الترف
وما تتلون به من العوايد فصار طور الحضارة للملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة
تبعية الرفه للملك واهل الدول ابدا يقلدون في طور الحضارة واحوالها للدولة
السالفة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب ياخذون **ومثل** هذا وقع للعرب
لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك
العهد في شيء من الحضارة فقد حكي انه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا
على الكافور في خزاين كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحا وامثال ذلك فلما استعبدوا
اهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في مثل
ذلك والقومة عليه افادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل
لهم من اتساع العيش والتفنن في احواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة
والترف في الاحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة
والفرش والآنية والغناء وساير الماعون والخرثي وكذا احوالهم في ايام المباهاة
والولايم وليالي الاعراس من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودي والطبري
وغيرهما في اعراس المامون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل ابوها لحاشية المامون
حين وافاه في خطبتها الى داره بفم الصلح وركب اليها في السفين وما انفق في املاكها
وما نحلها المامون وانفق في عرسها تقف من ذلك على العجب فمنه ان الحسن بن سهل
نثر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المامون فنثر على الطبقة الاولى منهم
بنادق المسك ملتوتة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده
يقع لكل واحد منهم ما اداه اليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير

في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد ان
انفق في مقامة المامون بداره اضعاف ذلك **ومنه** ان المامون اعطاها
في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت واوقد شموع العنبر في كل واحدة
مائة من وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا
بالدر والياقوت وقال المامون حين راه قاتل الله ابا نواس كانه ابصر هذا حيث يقول في
صفة الخمر • كان صغرى وكبرى من فواقعها • حصباء در على ارض من الذهب •
واعد بدار الطبخ من الحطب نقل مائة واربعين بغلا مدة عام كامل ثلث مرات
في كل يوم وفني الحطب لليلتين واوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت واوعز
الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد الى
قصور الملك بمدينة المامون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدة لذلك
ثلثين الفا اجازوا الناس فيها اخريات نهارهم وكثير من هذا وامثاله وكذلك
عرس المامون بن ذي النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن
حيان بعد ان كانوا كلهم في الطور الاول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة
لفقدان اسبابه والقايمين على صنايعه في غضاضتهم وسذاجتهم يذكر ان الحجاج
اولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسئله عن ولايم الفرس وقال
اخبرني باعظم صنيع شهدته فقال نعم ايها الامير شهدت بعض مرازبة
كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا احضر فيه صحاف الذهب على اخونة
الفضة اربعا على كل واحد ويحمله اربع وصايف ويجلس عليه اربعة من الناس
فاذا طعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصايفها فقال الحجاج يا غلام انحر
الجزور واطعم الناس وعلم انه لا يستقل بهذه الابهة وكذلك كانت **ومن هذا**
الباب اعطية بني امية وجوايزهم فانما كان اكثرها الابل اخذا بمذاهب العرب
وبداوتهم ثم كانت الجوايز في دولة بني العباس والعبيديين ومن بعدهم
ما علمت من احمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شان
كتامة مع الاغالبة بافريقية وبني طغج بمصر وشان لمتونة مع ملوك الطوايف بالاندلس
والموحدين كذلك وشان زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من
الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني امية
وبني العباس وانتقلت حضارة بني امية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين

وزمانة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك السلجوقية الى الترك بمصر والى بني ايوب والى التتار بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شانها في الحضارة اذ امور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه اهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتامله تجده صحيحا في العمران والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها والسبب في ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا ايضا من الموالي والصنايع وربيت اجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الجيل الاول والثاني واخذت الدولة في الهرم لم يستقل اولئك الصنايع والموالي بانفسهم في تاسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا عيالا على اهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفروع بالرسوخ فتذهب وتتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين الفا او ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالي والصنايع بلغ ذلك العدد الى اضعافه يقال ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسع مائة الف ولا يبعد مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك والموالي والمصطنعين وقال المسعودي احصي بنو العباس ابن عبد المطلب خاصة ايام المامون للانفاق عليهم فكانوا ثلثين الفا بين ذكران واناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتي سنة واعلم ان سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربي فيه اجيالهم والا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

فصل في اطوار الدولة وكيف تختلف احوال اهلها في البداوة باختلاف الاطوار اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة واطوارها لا تعدو في الغالب خمسة الاول طور الظفر وغلب المدافع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لان ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنايع والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده ويردهم على اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقر الامر في نصابه ويفرد اهل بيته بما يبني من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون في طلب الامر او اشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم اهل العصبية باجمعهم وهذا يدافع الاقارب ولا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل من الاباعد فيركب صعبا من الامر الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجازة الوفود من اشراف الامم ووجوه القبائل وبث المعروف في اهله هذا مع التوسعة على صنايعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادرار ارزاقهم وانصافهم في اعطياتهم لكل هلال حتى يظهر اثر ذلك عليهم في ملابسهم وزيهم وشكتهم ايام الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر اطوار الاستبداد من اصحاب الدولة لانهم في هذه الاطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى اولوه سلما لانظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من سلفه يتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم باحسن مناهج الاقتداء ويرى ان الخروج عن تقليدهم فساد امره وانهم ابصر بما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي

مجالسها واصطناع اخدان السوء وحضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التي
لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسدا الكبار الاولياء من قومه
وصنايع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما ينفق
اعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه
يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم
ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون معه برء الى ان تنقرض
كما نبينه في الاحوال التي نسردها والله خير الوارثين فصل في ان آثار الدولة
كلها على نسبة قوتها في اصلها والسبب في ذلك ان الآثار انما تحدث عن القوة التي
بها كانت اولا وعلى قدرها يكون الاثر فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة
فانما تكون على نسبة قوة الدولة في اصلها لانها لا تتم الا بكثرة الفعلة واجتماع
الايدي على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة
الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من آفاق الدولة واقطارها
فتم العمل على اعظم هياكله الا ترى ان مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن
وانظر بالمشاهدة ايوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى انه اعتزم الرشيد
على هدمه وتخريبه فتكاءده فشرع فيه ثم ادركه العجز وقصة استشارته يحيى بن خالد
في شأنه معروفة فانظر كيف تقدر دولة على بناء لا تستطيع اخرى على هدمه مع بون
ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر
الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني امية بقرطبة والقنطرة التي على واديها
وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها وآثار شرشال
بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول
في القوة والضعف واعلم ان تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهندام
وباجتماع الفعلة وكثرة الايدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع
ولا تتوهم ما تتوهمه العامة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا في اطرافها
واقطارها فليس بين البشر في ذلك كثير بون كما تجد بين الهياكل والآثار ولقد
ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك اخبارا
عريقة في الكذب من اغربها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من الكنعانيين الذين قاتلهم
بنو اسرائيل بالشام زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه الى

الشمس ويزيدون الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال الكواكب لما اعتقدوا
ان للشمس حرارة وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحر هو الضوء وان
الضوء فيما قرب من الارض اكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة
الاضواء فتتضاعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة
المنعكسة فلا حر هناك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحب وان الشمس في نفسها
لا حارة ولا باردة انما هو جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق
هو فيما ذكره من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني اسرائيل عند فتحهم الشام
واطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريب من هياكلنا تشهد لذلك
ابواب بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل المحافظة على اشكالها
ومقادير ابوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين اهل عصره بهذا المقدار
وانما مثار غلطهم في هذا انهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول في
الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة
الاجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله
عن الفلاسفة مزعما لا مستند له الا التحكم وهو ان الطبيعة التي هي جبلة للاجسام
لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال فكانت الاعمار اطول
والاجسام اقوى لكمال تلك الطبيعة فان طرق الموت انما هو بانحلال القوى الطبيعية
فان كانت قوية كانت الاعمار ازيد فكان العالم في اولية نشأته تام الاعمار كامل
الاجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة الى ان بلغ هذه الحال التي هو عليها
ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له
الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين
وابوابهم وطرقهم فيما احدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار
ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتا صغارا وابوابا ضيقة وقد اشار صلى الله
عليه وسلم الى انها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به
واهريق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم
ما اصابهم وكذلك ارض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الارض شرقا وغربا
والحق ما قررناه ومن آثار الدول ايضا حالها في الاعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة
بوران وصنيع المأمون وابن ذي النون وقد مر ذلك كله ومن آثارها ايضا عطايا الدول

تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو اشرفت على الهم فان الهم الذى للاهل
الدولة انما تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والهم لا تزال مصاحبة
الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوايز ابن ذى يزن لوفد قريش كيف اعطاهم
من ارطال الذهب والفضة والاعبد والوصايف عشرا عشرا ومن كرش
العنبر واحدة واضعف لعشرة امثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة
اليمن خاصة تحت استبداد فارس وانما حمله على ذلك همة نفسه بما كان
لقومه التبابعة من الملك فى الارض والغلب على الامم فى العراقين والهند
واليمن والمغرب وكان الصنهاجيون بافريقية ايضا اذا اجازوا الوفد
من امراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال احمالا والكسا تخوتا
مملوة والحملان جنايب عديدة وفى تاريخ ابن الرقيق من ذلك اخبار كثيرة
وكذلك كان عطاء البرامكة وجوايزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا معدما
فانما هو الملك والولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذى يستنفده يوم او
بعض يوم واخبارهم فى ذلك كثيرة مسطورة وهى كلها على نسبة الدول جارية
وهذا جوهر الصقلبى الكاتب قايد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر
استعد من القيروان بالف حمل من المال ولا تنتهى اليوم دولة الى مثل هذا
وكذلك وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام
ايام المامون من جميع النواحى ونقلته من كتاب جراب الدولة غلات السواد
سبعة وعشرون الف الف درهم مكرزة مرتين وثمانه الف درهم وثمانون
الف درهم ومن الحلل النجرانية مايتا حلة ثنتان ومن طين الختم مايتان
واربعون رطلا كسكر احد الف الف درهم مرتين وستمائة الف درهم مرة
كور دجلة عشرون الف الف درهم مرتين وثمانمائة الف درهم حلوان
اربعة آلاف الف درهم مرتين وثمانمائة الف درهم مرة الاهواز خمسة
وعشرون الف الف درهم مرتين ومن ماء الورد ثلثون الف قارورة
مرة ومن الزيت الاسود عشرون الف رطل كرمان اربعة آلاف الف
درهم مرتين ومايتا الف درهم مرة ومن المتاع اليمانى خمسمائة الف درهم
مرة السند وما يليه احد عشر الف الف رطل مرتين وخمسمائة الف درهم
مرة ومن العود الهندى مائة وخمسون رطلا سجستان اربعة آلاف الف درهم

مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن الفانيد عشرون الف رطل
خراسان ثمانية وعشرون الف الف درهم مرتين ومن نقر الفضة الفا نقرة
اثنان ومن البراذين اربعة آلاف دابة ومن الرقيق الف راس ومن الثياب
سبعة وعشرون الف ثوب ومن الاهليلج ثلثة آلاف رطل جرجان اثنا عشر
الف الف درهم مرتين ومن الابريسم الف شقة قومس الف الف درهم مرتين
وخمسمائة الف درهم مرة ومن نقر الفضة الف طبرستان والرويان ونهاوند
ستة آلاف الف درهم وثلثمائة الف درهم مرة ومن الفرش الطبرية ستمائة قطعة
ومن الاكسية مايتان ثنتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل
ثلثمائة ومن الجامات ثلثمائة الرى اثنا عشر الف الف درهم مرتين ومن العسل
عشرون الف رطل همدان احد عشر الف الف درهم مرتين وثمانمائة الف
الف درهم مرة ومن رب الرمانين الف رطل ومن العسل اثنا عشر الف رطل
ما بين البصرة والكوفة عشرة آلاف درهم مرتين وسبعمائة الف درهم مرة
ماسبذان والريان اربعة آلاف درهم شهرزور ودستة آلاف الف
درهم مرتين الموصل وما يليها اربعة وعشرون الف الف درهم مرتين
الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات اربعة وثلثون الف الف درهم مرتين
الكرخ ثلثمائة الف درهم مرة كيلان خمسة آلاف الف درهم مرتين ومن
الرقيق الف راس ومن العسل اثنا عشر الف زق ومن البزاه
عشرة ومن الاكسية عشرون ارمينية ثلث عشر الف الف درهم مرتين ومن
البسط المحفورة عشرون ومن الرقم خمسمائة وثلثون رطلا ومن المالح السورماهى
عشرة آلاف رطل ومن الطريح عشرة آلاف رطل ومن البغال مايتان ثنتان
ومن البزاة ثلثون قنسرين اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل
دمشق اربعمائة الف دينار وعشرون الف دينار الاردن ستة وتسعون
الف دينار فلسطين ثلثمائة الف دينار اثنان وتين وتسعمائة الف دينار
مرة وعشرون الف دينار برقة الف الف درهم افريقية ثلثة عشر الف الف
درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون اليمن ثلثمائة الف دينار انتهى
الاندلس فالذى ذكره الثقاة من مورخيها ان الناصر عبد الرحمن ثامن ملوك
بنى امية المتلقب بلقب الخلافة ترك فى بيوت امواله عند الوفاة خمسة

آلاف الف دينار مكررة مرتين تكون جملتها بالقناطير خمسمائة قنطار ورايت
في بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة الاف قنطار
من دنانير الذهب وخمسمائة قنطار في كل سنة واما دولة العبيديين فرايت
في تاريخ ابن خلكان عند ما ذكر الافضل امير الجيوش ابن بدر الجمالي المستبد على
خلفائهم بمصر انه لما قتل وجد في خزائنه ستمائة الف الف دينار مكررة مرتين و
مائتان وخمسون اردبا من الدراهم وما يناسب ذلك من ذخائر الفصوص
واللآلي والاقمشة والامتعة والمراكب والحمولة واما هذه الدول الحادثة
التي ادركناها فاعظمها دولة الترك بمصر وكان استغنى لها ايام الناصر بن محمد
بن قلاون منهم وغلب عليه لاول دولته الاميران بيبرس وسلار ثم خلعه بيبرس
واستبد بكرسيه وسلار رديف له فلما انتزع الناصر الملك من يده نكب
بعد مدة رديفه سلار واستصفى ذخيرته فوقفت على جريدة احصائها
ومنها نقلت من الياقوت البرهمان والبلخش اربعة ارطال ونصف ومن
الزمرد تسعة وعشرين ومن فصوص ما بين فيروزج وعين هر ثلثمائة قطعة
كبارا ومن الفصوص المختلفة رطلان ومن اللؤلؤ المدور من زنة مثقال
الى درهم الف ومائة وخمسون حبة ومن الذهب العين الف الف دينار
مكررة مرتين واربعمائة الف قفرة فسقية مملوة بالذهب صبيبا واكياس
مملوة ذهبا استخرجت من بين حائطين ولم تعلم عدتها ومن الدراهم الف الف
اثنان مكررة مرتين واحد وسبعون الفا ومن الحلي المصاغ اربعة قناطير
الى ما يناسب ذلك من الاقمشة والامتعة والمراكب والظهر والغلال
والسائمة والمماليك والجواري والعقار وبعد دولة بني مرين بالمغرب الاقصى
وقفت على جريدة في خزائن ملوكهم بخط صاحب المال عندهم حسون بن البواق
ان مخلف السلطان ابي سعيد بيت ماله سبعمائة قنطار ونيف من دنانير
الذهب وفي موجوده مما سوى ذلك ما يناسبه وكان السلطان ابي الحسن ابنه
من بعده اكبر من ذلك ولما استولى على تلمسان وجد في ذخائر سلطانها اي
تاشفين من ملوك بني عبد الواد ثلثمائة قنطار ونيف من الذهب ما بين مسكوك
ومصوغ الى ما يناسب ذلك مما سواه واما ملوك افريقيه من بقية الموحدين
فادركت السلطان ابابكر تاسع ملوكهم وقد نكب قائده واتابك عساكره محمد بن الحكيم

فاستصفى منه

فاستصفى منه اربعين قنطارا من دنانير الذهب ومد من الفصوص واللآلي
والذهب من فروش بهويته قريب من ذلك الى ما يناسب ذلك من سائر المتملكات
وحضرت بمصر ايام الملك الظاهر ابي سعيد برقوق وقد نكب استداره الامير
محمود وصادره فاخبرني متولي مصادرته ان مبلغ ما استصفى منه من الذهب
الف الف دينار مكررة مرتين وستمائة الف دينار مرة واما ما سوى ذلك من
الاقمشة والمركب والانعام والغلال والظهر فعلى نسبة ذلك فاعتبر ذلك
في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك
شيء من امثاله فتضيق حوصلتك عن ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا
امثال هذه الاخبار عن الدول السالفة بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب
فان احوال الوجود والعمران متفاوتة ومن ادرك منها رتبة سفلى او وسطى فلا يحصر
المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني امية والعبيديين
وقايسنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي
هي اقل بالنسبة اليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في اصل قوتها
وعمران ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الاصل في القوة كما قدمناه
ولا يسعنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية الشهرة والوضوح
بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء
وغيره فخذ من الاحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها او ضعفها وضخامتها او صغرها
واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك انه ورد على المغرب
لعهد السلطان ابي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة
كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن و
الهند ودخل مدينة دلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل
بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضا
بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان ابي عنان وكان يحدث
عن شان رحلته وما راى من العجائب بممالك الارض واكثر ما كان يحدث عن دولة
صاحب الهند وياتي من احواله بما يستغربه السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج
للسفر احصى اهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر
تدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس

الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه فى ذلك الحفل منجنيقات على الظهر
يرمى بها بشكارة الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وامثال
هذه الحكايات فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت انا يومئذ فى بعض
الايام وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشان
واريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال لى الوزير
فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير
الناشئ بالسجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه ومكث فى السجن سنين ربى
فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما ادرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها
فاذا قال له ابوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له ابوه بشياتها ونعوتها
فيقول يا ابت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول اين الغنم من الفار وكذا فى
لحم البقر والابل اذ لم يعاين فى محبسه الا الفار فيحسبها كلها ابناء جنس الفار وهذا
كثيرا ما يعترى الانسان فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الاغراب
كما قدمناه اول الكتاب فليرجع الانسان الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة
الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الامكان قبله وما خرج منه
رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه اوسع شئ فلا يفرض حدا
بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشئ فاذا نظرنا اصل
الشئ وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم من نسبة ذلك على احواله
وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل رب زدنى علما فصل فى استظهار صاحب
الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالى والمصطنعين اعلم ان صاحب الدولة انما يتم امره
كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شانه وبهم يقارع الخوارج على دولته
ومنهم يقلد اعمال مملكته ووزارة دولته وجباية امواله لانهم اعوانه على الغلب
وشركاؤه فى الامر ومساهموه فى سائر مهماته هذا ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه
فاذا جاء الطور الثانى وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه
بالراح صاروا فى حقيقة الامر من بعض اعدائه واحتاج فى مدافعتهم عن الامر وصدهم
عن المشاركة الى اولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم
دونهم فيكونون اقرب اليه من سائرهم واخص به قربا واصطناعا واولى ايثارا
وجاها لما انهم يستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الامر الذى كان لهم والرتبة التى

الفوا فى مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة ويخصهم بمزيد التكرمة والايثار
ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الاعمال والولايات والوزارة
والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه ويكون خالصة له دون قومه من القاب
المملكة لانهم حينئذ اولياؤه الاقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن
باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التى كان بناء الغلب
عليها ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون
عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع فى برئها
من هذا الداء لانه مما يتأكد فى الاعقاب الى ان يذهب رسمها واعتبر ذلك فى دولة
بنى امية كيف كانوا انما يستظهرون فى حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد
ابن ابى وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابى سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب
ابن ابى صفرة وخالد بن عبد الله القسرى وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال ابن
ابى بردة بن ابى موسى الاشعرى ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب
وكذلك صدرا من دولة بنى العباس كان الاستظهار فيها ايضا برجالات العرب
فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت
الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبنى سهل بن نوبخت وبنى طاهر ثم بنى بويه
وموالى الترك مثل بغا ووصيف واتامش وباكباك وابن طولون وابنائهم وغير
هؤلاء من موالى العجم فتصير الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله
فى عباده فصل فى احوال الموالى والمصطنعين فى الدول تتفاوت قديمهم وحديثهم
اعلم ان المصطنعين فى الدول يتفاوتون بالدولة بتفاوت قديمهم وحادثهم فى
الالتحام بصاحبها والسبب فى ذلك ان المقصود فى العصبية من المدافعة والمغالبة
انما يتم بالنسب لاجل التناصر فى ذوى الارحام والقربى والتخاذل فى الاجانب
والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق او بالحلف تتنزل منزلة ذلك لان امر النسب
وان كان طبيعيا فانما هو وهمى والمعنى الذى كان به الالتحام انما هو العشرة والمرافقة
وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر احوال الموت والحياة واذا حصل
الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله فى الاصطناع
فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنزل هذه المنزلة
وتؤكد اللحمة وان لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فاذا كانت الولاية بين القبيل

وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها اوشج وعقايدها اصح ونسبها اصرح لوجهين احدهما انهم قبل الملك اسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية الا عند الاقل منهم فيتنزلون منهم منزلة ذوي قرابتهم واهل ارحامهم فاذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى وعن اهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه احوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها وتميز حالاتهم وينزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم اضعف والتناصر لذلك ابعد وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك الوجه الثاني ان الاصطناع قبل الملك يبعد امده عن الدولة بطول الزمن ويخفى شان تلك اللحمة ويظن بها في الاكثر النسب فيقوى بها في الاكثر النسب فيقوى حال العصبية واما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفة الاكثر فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة الى الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده اشد التحاما به واقرب قرابة اليه ويتنزل منه منزلة ابنائه واخوانه وذوي رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة في آخر امرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يبني لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ باوليتهم واشراف الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مهاوي الضعة وانما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن اوليائها الاقدمين وصنايعها الاولين ما يعتريهم في انفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظره بما ينظر به قبيله واهل نسبه لتاكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء اهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجية وهكذا شان الدول في اواخرها واكثر ما يطلق اسم الصنايع والاولياء على الاولين واما هؤلاء المحدثون فخدم واعوان والله ولي المؤمنين

فصل فيما تعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه اذا استقر الملك اذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القايمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا ساير القبيل عنه وتداوله بنوهم واحدا بعد واحد بحسب الترشيح فربما حدث

لاهل القرابة ه

التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الاكثر ولاية صبي صغير او مضعف من اهل المنبت يترشح للولاية بعهد ابيه او بترشيح ذويه وخوله ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك فيقوم به كافله من وزراء ابيه او حاشيته ومواليه او قبيله ويوري بحفظ امره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي تدعوه اليها ترف احواله ويسيمه في مراعيها متى امكنه وينسيه النظر في الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد ان حظ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحل والعقد والامر والنهي ومباشرة الاحوال الملوكية وتفقدها من النظر في الجيش والمال والثغور انما هو للوزير ويسلم له في ذلك الى ان تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته وابناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الاخشيدي وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن ابي عامر بالاندلس وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشانه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على يد المتغلب عليه اما بقتل او بدفع عن الرتبة فقط الا ان ذلك في النادر الاقل لان الدولة اذا اخذت في تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل ان تخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن احوال الترف ونشاة ابناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة والفوا اخلاق الدايات والاظآر وربوا عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبدادا من تغلب انما همهم في القنوع بالابهة والتفنن في اللذات وانواع الترف وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما الا في الاقل النادر والله يؤتي الملك من يشاء **فصل** في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك وذلك ان الملك والسلطان حصل لاوليه منذ اول الدولة لعصبية قومه وعصبيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا المتغلب وان كان صاحب عصبية من قبيل الملك او الموالي والصنايع فعصبيته مندرجة في عصبية اهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك وهو لا يحاول باستبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهي والحل والعقد والابرام والنقض يوهم

فيها اهل الدولة انه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه
فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته والقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك
وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان
واولوه على انفسهم من القبيل مذ اول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء
من ذلك لنفسه عليه اهل العصبية وقبيل الملك وحاولوا الاستيثار به دونه لانه
لم تستحكم له صبغة في ذلك تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لاول وهلة
وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن المنصور بن ابي عامر حين سما الى مشاركة هشام
واهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع ابوه واخوه من الاستبداد بالحل والعقد
والمراسم التابعة فطلب من هشام خليفته ان يعهد له بالخلافة فنقم ذلك عليه
بنو مروان وسائر قريش وبايعوا لابن عم الخليفة هشام بن محمد بن عبد الجبار بن الناصر
وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه
بسواه من اعياص الدولة الى آخرها واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين فصل
في حقيقة الملك واصنافه الملك منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا ان البشر
لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا
دعت الضرورة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده الى حاجته
يأخذها لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعه الآخر
عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع
المفضي الى المقاتلة وهي تؤدي الى الهرج وسفك الدماء واذهاب النفوس المفضي
ذلك الى انقطاع النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم
فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من اجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم
عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية
لما قدمناه من ان المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك
منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك
الا بالعصبيات كما مر والعصبيات متفاوتة وكل عصبية فلها تحكم وتغلب على من يليها
من قومها وعشيرتها وليس الملك لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية
ويجبي الاموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك
وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور او جباية

الاموال او بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر
في دولة الاغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به
عصبيته ايضا عن الاستعلاء على جميع العصبيات والضرب على سائر الايدي
وكان فوقه حكم غيره فهو ايضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل امراء النواحي
ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدول المتسعة
النطاق اعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة
الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة مع الامويين تارة ومع
العبيديين اخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل امراء البربر
وملوكهم مع الافرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر و
قومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده فصل
في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر اعلم ان مصلحة السلطان
ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله او ملاحة وجهه او عظم جثمانه او اتساع علمه
او جودة خطه او ثقوب ذهنه وانما مصلحتهم فيه من حيث اضافته اليهم فان
الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان
انه المالك للرعية القائم بامورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية
من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته اليهم هي التي تسمى الملكة
وهو كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها بمكان من الجودة حصل
المقصود من السلطان على اتم الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك
مصلحة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم وهلاكا لهم
ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات
منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه
بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم واخلاقهم وربما
خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات
وربما اجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام امره
عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه اولا وفسد السياج من اصله بالعجز عن
الحماية واذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به واشربوا
محبته واستماتوا دونه في محاربة اعدائه فاستقام الامر من كل جانب واما توابع

حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك
واما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي
اصل كبير في التحبب الى الرعية واعلم انه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظاً
شديد الذكاء من الناس واكثر ما يوجد الرفق في الغفل او المتغفل واقل
ما في اليقظ انه يكلف الرعية فوق طوقهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه
على عواقب الامور في مباديها بالمعية فيهلكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم
سيروا على سير اضعفكم ومن هذا الباب اشتراط الشارع في الحاكم قلة الافراط
في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن ابي سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال
لم عزلتني يا امير المومنين العجز ام لخيانة فقال عمر لم اعزلك لواحدة منهما لكن
كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس فاخذ من هذا ان الحاكم لا يكون مفرط
الذكاء والكيس مثل زياد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف
وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما ياتي في اخر هذا الكتاب
والله خير المالكين وتقرر من هذا ان الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة
لانه افراط في الفكر كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان من
كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما
في الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف
الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطن وامثال ذلك
والله يخلق ما يشاء **فصل** في معنى الخلافة والامامة لما كانت حقيقة الملك
انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من اثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة
بمن تحت يده من الخلق في احوال دنياهم لحمله اياهم في الغالب على ما ليس في
طوقهم من اغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف
منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل فوجب
ان يرجع في ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى
احكامها كما كان للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة
لم يستتب امرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل فاذا كانت
هذه القوانين مفروضة من العقلاء واكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة
عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية

نافعة

نافعة في الحيوة الدنيا والآخرة وذلك ان الخلق ليس المقصود بهم دنياهم
فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله يقول افحسبتم
انما خلقناكم عبثاً فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضي بهم الى السعادة في آخرتهم
صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض فجاءت الشرائع بحملهم على
ذلك في جميع احوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي
للاجتماع الانساني فاجرته على منهج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشرع فما كان
منه بمقتضى القهر والتغلب واهمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان
ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة واحكامها من غير نظر الشرع
فمذموم ايضاً لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور
لان الشارع اعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من امور آخرتهم واعمال
البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك او غيره قال صلى الله عليه وسلم
انما هي اعمالكم ترد عليكم واحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب
بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الاحكام الشرعية في احوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا
الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك
معنى الخلافة وان الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي
هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار
والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية
الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح
الآخرة فهي في الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا
فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم **فصل**
في اختلاف الامة في حكم الخلافة وشروطها واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب
وانه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به وتسمى خلافة
وامامة والقائم به خليفة واماماً وسماه المتأخرون سلطاناً حين فشا التعدد
فيه واضطروا بالتباعد وفقدان شروط المنصب الى عقد البيعة لكل متغلب
فاما تسميته اماماً فتشبيهاً بامام الصلوة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال
الامامة الكبرى واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في امته فيقال خليفة

باطلاق وخليفة رسول الله واختلف فى تسمية خليفة الله فاجازه بعضهم اقتباسا
من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله جعلكم
خلايف الارض ومنع الجمهور منه لان معنى الاية ليس عليه وقد نهى ابوبكر رضى الله عنه
لما دعى به قال لست خليفة الله ولكن خليفة رسول الله ولان الاستخلاف انما هو
فى حق الغايب واما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه من
الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند
وفاته بادروا الى بيعة ابى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى امورهم وكذا فى
كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الاعصار واستقر
ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى ان
مدرك وجوبه العقل وان الاجماع الذى وقع فانما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا
وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم
منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض فما لم يكن الحاكم
الوازع افضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع ان حفظ النوع
من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذى لحظه الحكماء فى وجوب
النبوات فى البشر وقد نبهنا على فساده وان احدى مقدماته ان الوازع انما يكون
بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد
يكون بسطوة الملك وقهر اهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما فى امم المجوس وغيرهم
ممن ليس له كتاب او لم تبلغه الدعوة او نقول يكفى فى رفع التنازع معرفة كل واحد
بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم ان ارتفاع النزاع بوجود الشرع
هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء
اهل الشوكة او بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينتهض دليلهم العقلى المبنى
على هذه المقدمة فدل على ان مدرك وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذى
قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب راسا لا بالعقل
ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء
انما هو امضاء احكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ احكام الله
لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالاجماع والذى حملهم على هذا المذهب
انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا

لما راوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعى على اهله ومرغبة فى رفضه واعلم
ان الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما ذم المفاسد الناشئة
عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك ان هذه محظورة كما اثنى
على العدل والنصفة واقامة مراسم الدين والذب عنه واوجب بازائه
الثواب وهى كلها من توابع الملك فاذا انما وقع الذم للملك على صفة
وحال دون اخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب
من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة اليهما وانما
المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله عليهما الملك
الذى لم يكن لغيرهما وهما من انبياء الله واكرم الخلق عنده ثم نقول لهم
ان هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يغنيكم شيئا فانكم
موافقون على وجوب اقامة احكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصبية
والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك ولو لم ينصب امام
وهو عين ما فررتم عنه واذا تقرر ان هذا المنصب واجب بالاجماع فهو من فروض
الكفاية وراجع الى اختيار اهل الحل والعقد فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعا
طاعته لقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم ولا يجوز عقد هذا المنصب
لاثنين معا وعليه جمهور العلماء وقوفا مع ظواهر الاحاديث التى دلت على ذلك
فى صحيح مسلم فى كتاب الامارة منه وذهب آخرون ذلك انما هو فى البلد الواحد
وفى حال تقاربهما واما عند التباعد وقصور الامام عن البلد الشاسع فيجوز نصب آخر هنالك
للقيام بالمصالح ومن المشاهير الذين نقل عنهم ذلك الاستاذ ابواسحق الاسفراينى
شيخ المتكلمين ومال اليه امام الحرمين فى كتاب الارشاد وربما يظهر من آراء
الاندلسيين والمغاربة الجنوح الى ذلك فقد كان العلماء بالاندلس متوافرين وبايعوا
لبنى امية ولقبوا الناصر عبدالرحمن منهم بامير المؤمنين التى هى سمة الخلافة وكذا الموحدون
بعدهم بالمغرب وقد رد بعضهم ذلك بالاجماع وهو غير ظاهر اذ لو كان هناك اجماع
لم يخالفه الاستاذ ابواسحق ولا امام الحرمين فهم اقعد بمعرفة الاجماع نعم رد عليه
الامام المازرى والنووى وقوفا مع ظواهر الحديث كما قلناه وربما احتج لذلك
بعض المتاخرين بدليل التمانع الذى فى التنزيل وهو قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا
ولا ينهض الاستدلال على ذلك بالاية الكريمة لان دلالتها عقلية نبهنا الله عليها

ليحصل لنا التوحيد الذى امرنا باعتقاده بدليل عقلى فيكون ارسخ وعطلوبنا
فى باب الامامة المنع من نصب امامين وهو شرعى تكليفى فلا يتم الاستدلال بها الا
ان تقررها شرعية بزيادة مقدمة اخرى وهى ان التعدد ينشاء عنه الفساد ونحن
ممنوعون مما يجر اليه ويصير الاستدلال حينئذ شرعيا والله اعلم واما شروط هذا
المنصب فهى اربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء
مما يوثر فى الراى والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى فاما اشتراط
العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا لاحكام الله اذا كان عالما بها وما لم يعلمها
لا يصح تقديمه لها ولا يكفى من العلم الا ان يكون مجتهدا لان التقليد نقص والامامة
تستدعى الكمال فى الاوصاف والاحوال واما العدالة فلانه منصب دينى ينظر فى ساير
المناصب التى هى شرط فيها فكان اولى باشتراطها فيه ولا خلاف فى انتفاء العدالة
فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وامثالها وفى انتفائها بالبدع الاعتقادية
خلاف واما الكفاية فهو ان يكون جريا على اقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها
كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبية واحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة
ليصح له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وسياسة الدنيا
وتدبير المصالح واما سلامة الحواس والاعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى
والصمم والخرس وما يوثر فقده من الاعضاء فى العمل كفقد اليدين والرجلين
والانثيين فتشترط السلامة منها كلها لتاثير ذلك فى تمام عمله وقيامه بما جعل اليه
وان كان انما يشين فى المنظر فقط كفقد احدى هذه الاعضاء فتشترط السلامة منه
شرط كمال ويلحق بفقدان الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه
فى اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالاسر
وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض اعوانه عليه من غير عصيان
ولا مشاقة فينتقل النظر فى حال هذا المستولى فان جرى على حكم الدين والعدل وحميد
السياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته
حتى ينفذ فعل الخليفة واما النسب القرشى فلاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك
واحتجت قريش على الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا امير
ومنكم امير بقوله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش وامثال هذه الادلة كثيرا واوصانا
ان نحسن الى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم

فحجوا الانصار ورجعوا عن قولهم منا امير ومنكم امير وعدلوا عما كانوا هموا به
من بيعة سعد لذلك وثبت ايضا فى الصحيح لا يزال هذا الامر فى هذا الحى من قريش
وامثال هذه الادلة كثيرا الا انه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم
من الترف والنعيم وبما انفقتهم الدولة فى ساير اقطار الارض عجزوا لذلك
عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير
من المحققين حتى ذهبوا الى نفى اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر فى ذلك مثل قوله
صلى الله عليه وسلم اسمعوا واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجة
فى ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة فى ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر
لو كان سالم مولى ابى حذيفة حيا لوليته او لما داخلنى فيه الظنة وهو ايضا لا يفيد
ذلك لما علمت ان مذهب الصحابى ليس بحجة وايضا فمولى القوم منهم وعصبية الولاء
حاصلة لسالم من قريش وهو الفائدة فى اشتراط النسب ولما استعظم عمر امر الخلافة
وراى شروطها كانها مفقودة فى ظنه عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى عهد
من الولاء المفيد للعصبية كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فرآه غير محتاج اليه
اذ الفائدة فى النسب انما هى العصبية وهى حاصلة من الولاء وكان ذلك حرصا من
عمر على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه به لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن
القائلين بنفى اشتراط القرشية القاضى ابو بكر الباقلانى لما ادرك عليه عصبية قريش
من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فاسقط شرط القرشية
وان كان موافقا لراى الخوارج لما راى عليه حال الخلفاء لعهده وبقى الجمهور على
القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشى ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين
ويرد عليهم سقوط شرط الكفاية التى بها يقوى على امره لانه اذا ذهبت الشوكة
بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق
ذلك ايضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف
الاجماع ولنتكلم الآن فى حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب فى هذه المذاهب
فنقول ان الاحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع
لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشى ومقصد الشارع منه
لم نقتصر فيه على التبرك بوصلة النبى صلى الله عليه وسلم كما هو المشهور وان كانت
تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا لكن التبرك ليس من المقاصد

الشرعية كما علمت فلابد اذاً من مصلحة في اشتراط النسب هي المقصودة في
مشروعيته واذا سبرنا وقسمنا لم نجدها الا اعتبار العصبية التي يكون بها الحماية
والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه
الملة واهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك ان قريشاً كانوا انف مضر
واصلهم واهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية
والشرف فكان سائر العرب يعترفون لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل الامر
في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل
مضر ان يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكره فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة
والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل
اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش لانهم قادرون على
سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من احد خلاف عليهم ولا فرقة
لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب
وهم اهل العصبية القوية ليكون ابلغ في انتظام الملة واتفاق الجماعة واذا انتظمت
كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر اجمع فاذعن لهم سائر العرب وانقادت الامم
سواهم الى احكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في ايام الفتوحات
واستمر بعدها في الدولتين الى ان اضمحل امر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان
لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس اخبار العرب وسيرهم وتفطن
لذلك من احوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السير وغيره واذا ثبت ان
اشتراط القرشية انما هو لرفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا ان الشارع
لا يخص الاحكام بجيل ولا عصر ولا امة علمنا ان ذلك انما هو من الكفاية فرددناه
اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا
في القائم بامور المسلمين ان يكون من قوم اولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها
ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الاقطار والافاق
كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب
كانت وافية بها فغلبوا سائر الامم وانما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية
الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لانه سبحانه انما جعل الخليفة نائباً عنه
في القيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك

ولا يخاطب بالامر من لا قدرة له عليه الا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب في شأن
النساء وانهن في كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب
بالوضع وانما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شيء وكان
الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل احد فيها قائم على نفسه فخطابهن
فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بامر امة او جيل الا
من غلب عليهم وقل ان يكون الامر الشرعي مخالفاً للامر الوجودي والله اعلم

فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة اعلم ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع
ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه رضي الله
عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض
الى نظر الامة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام
ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون
معصوماً من الكبائر والصغائر وان علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله عليه
بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة
ولا نقلة الشريعة بل اكثرها موضوع او جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه
فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا في علي ولهذا قال له عمر اصبحت مولى كل
مؤمن ومؤمنة ومنها قوله اقضاكم من الله بقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر
منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكماً في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره
ومنها قوله من يبايعني على روحه وهو وصيي وولي هذا الامر من بعدي فلم يبايعه
الا علي ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً لقراءة سورة براءة
في الموسم حين انزلت فانه بعث بها اولاً ابا بكر ثم اوحي اليه ليبلغه رجل منك
او من قومك فبعث علياً ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي
وايضاً فلم يعرف انه قدم احداً على علي واما ابو بكر وعمر فقد قدم عليهما في غزاتين
اسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاص اخرى وهذه كلها عندهم ادلة شاهدة بتعيين
علي للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تاويلهم
ثم منهم من يرى ان هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه وكذلك تنتقل منه
الى من بعده وهؤلاء هم الامامية ويتبرؤون من الشيخين حيث لم يقدموا علياً
ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون في امامتهما ولا تلتفت الى نقل القدح

فيهما من غلاتهم فهو مردود عنه وعندهم ومنهم من يقول ان هذه الادلة انما اقتضت
تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهولاء
هم الزيدية ولا يتبرؤن عن الشيخين ولا يغمضون في امامتهما مع قولهم بان عليا افضل
منهما لكنهم يجوزون امامة المفضول مع وجود الافضل ثم اختلف هولاء الشيعة في
مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا من واحد
على ما نذكر بعد وهولاء يسمون الامامية نسبة الى مقالتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه
في الايمان وهو اصل مذهبهم ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيعة
ويشترطان يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهولاء
هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر
اخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج في الامام فيلزمه الباقر ان لا يكون ابوهما زين
العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعي عليه مذاهب المعتزلة
واخذه اياها عن واصل بن عطا ولما ناظر الامامية زيدا في امامة الشيخين ورواه يقول
بامامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الائمة وبذلك سموا رافضة ومنهم
من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك الى اخيهما محمد بن الحنفية ثم الى
ولده وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاه وبين هذه الطوايف اختلافات
تركناها اختصارا ومنهم طوايف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان
في القول بالاهية هولاء الائمة اما على انه بشر اتصف بصفات الالوهية او ان الاله
حل في ذاته البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذاهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه
ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب الى ذلك فيه منهم وسخط محمد بن الحنفية
المختار بن ابي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنه والبراءة منه وكذلك فعل
جعفر الصادق بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات
انتقل روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هولاء
الغلاة من يقف عند واحد من الائمة لا يتجاوزه الى غيره بحسب من تعين لذلك
عندهم وهولاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو حي لم يمت الا انه غايب عن اعين الناس
ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وانه
في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وانه في
جبل رضوى من ارض الحجاز ۰ قال شاعرهم كثير

الا ان الائمة من قريش ۰ ولاة الحق اربعة سواء ۰
علي والثلثة من بنيه ۰ هم الاسباط ليس بهم خفاء ۰
فسبط سبط ايمان وبر ۰ وسبط غيبته كربلاء ۰
وسبط لا يذوق الموت حتى ۰ يقود الجيش يقدمه اللواء ۰
تغيب لا يرى فيهم زمانا ۰ برضوى عنده عسل وماء ۰

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثني عشرية منهم يزعمون ان الثاني عشر
من ائمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة
وتغيب حين اعتقل مع امه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الارض عدلا
يشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم الى الآن ينتظرونه
ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلوة المغرب بباب هذا
السرداب وقد قربوا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم
ثم ينفضون ويرجعون الى الليلة القابلة وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هولاء
الواقفية يقول ان الامام الذي مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون
لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة اهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل
بني اسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي امروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق
التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير موضعها وكان من هولاء
السيد الحميري ومن شعره في ذلك

اذا ما المرء شاب له ۰ قذال وعلله المواشط بالخضاب ۰
فقد ذهبت بشاشته واودى ۰ فقم يا صاح نبك على الشباب ۰
فليس بعايد ما فات منه ۰ الى احد الى يوم الاياب ۰
الى يوم يؤب الناس فيه ۰ الى دنياهم قبل الحساب ۰
ادين بان ذلك دين حق ۰ وما انا في النشور بذي ارتياب ۰
كذاك الله اخبر عن اناس ۰ حيوا من بعد درس في التراب ۰

وقد كفانا مؤنة هولاء الغلاة ائمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم
عليها فاما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه ابي هاشم
وهولاء هم الهاشمية ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى اخيه علي ثم الى ابنه
الحسن بن علي وآخرون زعموا ان ابا هاشم لما مات بارض السراة منصرفا من الشام

اوصى ابراهيم الى اخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالسفاح واوصى هو الى اخيه
عبد الله بن ابي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحدًا
بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم
ابو مسلم وسليمان بن كثير وابو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون
ذلك بان حقهم في هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيًا عند الوفاة وهو
اولى بالوراثة بعصبة العمومية واما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وانها
باختيار ائمة الحل والعقد لا بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم اخيه الحسين
ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة
داعيًا الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده
فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد ان اوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين
السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور
فهزم وقتل وعهد بالامر الى اخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي
فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر
الصادق قد اخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم الى ان
الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم ابن علي بن عمر وعمر هو اخو
زيد بن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات
في محبسه وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد هو اخوه عيسى الذي حضر
مع ابراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة في عقبه واليه انتسب
دعي الزنج كما نذكره في اخبارهم وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد محمد بن عبد الله
اخوه ادريس الذي فر الى المغرب ومات هنالك وقام بامره ابنه ادريس بن ادريس
واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكًا بالمغرب الى ان انقرضوا كما نذكر
في اخبارهم وبقي من امر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي
ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط
واخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الاطروش منهم واسلموا
على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر اخو زيد بن علي فكانت لبنيه في طبرستان
دولة وتوصل الديلم بسببهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر
في اخبارهم واما الامامية فساقوا الامامة من علي الوصي الى ابنه الحسن بالوصية

ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه علي زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر
الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين ففرقة ساقوها الى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم
بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية
لوقوفهم عند الثاني عشر من الائمة وقولهم بغيبته الى آخر الزمن كما فاما الاسماعيلية فقالوا
بامامة اسمعيل الامام بالنص من ابيه جعفر وفائدة النص عليه عندهم وان كان قد مات
قبل ابيه انما هي بقاء الامامة في عقبه كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم
انتقلت الامامة من اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو اول الائمة المستورين لان الامام
عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر فيكون دعاته ظاهرين اقامة للحجة على الخلق واذا كانت له
شوكة ظهر واظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق وبعده ابنه محمد الحبيب
وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبيد الله المهدي الذي اظهر دعوته ابو عبد الله الشيعي
في كتامة وتتابع الناس على دعوته ثم اخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب
وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في اخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية
نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون ايضا الباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن
اي المستور ويسمون ايضا الملحدة لما في ضمن مقالاتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة
ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك
حصونًا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها الى ان توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق
فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل للشهرستاني
واما الاثنا عشرية وربما خصوا باسم الامامية عند المتاخرين منهم فقالوا بامامة
موسى الكاظم بن جعفر لوفاة اخيه الاكبر اسمعيل الامام في حياة ابيهما جعفر
فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه المامون ومات قبله
فلم يتم له امر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي
المنتظر الذي قدمنا ذكره وفي كل واحد من هذه المقالات للشيعة اختلاف
كثير الا ان هذه اشهر مذاهبهم ومن اراد استيعابها ومطالعتها فعليه
بكتب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل
من يشاء ويهدي من يشاء فصل في انقلاب الخلافة الى الملك اعلم ان الملك
غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه

كما قدمناه من قبل وان الشرائع والديانات وكل امر يحمل عليه الجمهور فلابد فيه من
العصبية اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قدمناه فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها
يتم امر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وجدنا
الشارع قد ذم العصبية وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله اذهب عنكم
عبية الجاهلية وفخرها بالآباء انتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان اكرمكم
عند الله اتقاكم ووجدناه ايضا قد ذم الملك واهله ونعى على اهله احوالهم
من الاستمتاع بالخلاق والاسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله و
انما حض على الالفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدنيا واحوالها
كلها عند الشارع مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه
او يذمه من افعال البشر او يندب الى تركه اهماله بالكلية او اقتلاعه من اصله
وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية انما قصده تصريفها في اغراض الحق
جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة كما قال صلى الله
عليه وسلم من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت
هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فلم يذم الغضب
وهو يقصد نزعه من الانسان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار
للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم الغضب للشيطان والاغراض
الذميمة فاذا كان الغضب في الله ولله كان محمودا وهو من شمائله صلى الله عليه
وسلم وكذا ذم الشهوات ايضا ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت
شهوته كان نقصا في حقه وانما المراد تصريفها فيما ابيح له باشتماله على المصالح ليكون
الانسان عبدا متصرفا طوع الاوامر الالهية وكذا العصبية حيث ذمها الشرع
وقال لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم فانما مراده ان تكون العصبية على الباطل
واحواله كما كانت في الجاهلية وان يكون لاحد فخر بها او حق على احد لان ذلك
مجان من افعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فاما اذا
كانت العصبية في الحق واقامة امر الله فامر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع
اذ لا يتم قوامها الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب
بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل
وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مخلصا في غلبه

للناس انه لله وحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموما وقد
قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي لما علم من
نفسه انه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب
عند قدومه الى الشام في ابهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال
اكسروية يا معاوية فقال يا امير المؤمنين انا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مباهاتهم
بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد
الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من اصله لم يقنعه هذا الجواب في تلك
الكسروية وانتحالها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وانما اراد عمر بالكسروية
ما كان عليه اهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والبغي وسلوك سبله والغفلة
عن الله واجابه معاوية بان القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وانما قصده بها
وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك واحواله ونسيان
عوائده حذرا من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم
استخلف ابا بكر على الصلاة اذ هي اهم امور الدين وارتضاه الناس للخلافة
وهي حمل الكافة على احكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما انه مظنة للباطل ونحلة
يومئذ لاهل الكفر واعداء الدين فقام بذلك ابو بكر ما شاء الله متبعا سنن
صاحبه وقاتل اهل الردة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر
فاتبع اثره وقاتل الامم فغلبهم واذن للعرب في انتزاع ما بايديهم من الدنيا والملك
فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى عثمان ثم الى علي والكل متبرئون عن
الملك متنكبون عن طرقه واكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام
وبداوة العرب فقد كانوا ابعد الامم عن احوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم
الذي كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي الفوه فلم تكن امة من الامم اسغب
عيشا من مضر لما كانوا بالحجاز في ارض غير ذي زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من
الارياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا
يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما يأكلون العقارب والخنافس ويفخرون
باكل العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه وقريبا من هذا
كانت حال قريش في مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين
بما اكرمهم الله به من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى امم فارس والروم وطلبوا

ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت
بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلثين الفا
من الذهب او نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا ياخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة
على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان علي يقول يا صفراء ويا بيضاء
غري غيري وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم يعهدها للعرب لقلتها
يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما ياكلون الحنطة بنخالها
ومكاسبهم مع هذا اتم ما كانت لاحد من اهل العالم قال المسعودي في ايام عثمان
اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة الف
دينار والف الف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا
الف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد
وفاته خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف امة وكانت غلة طلحة من
العراق الف دينار كل يوم ومن ناحية الشراة اكثر من ذلك وكان على مربط
عبد الرحمن بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم
وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين الفا وخلف زيد بن ثابت
من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع
بمائة الف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية
وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر
والساج وبنى سعد بن ابي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها واوسع فضاءها
وجعل على اعلاها شرفات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر
والباطن وخلف يعلى بن منية خمسين الف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته
ثلثمائة الف درهم انتهى كلام المسعودي فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن
ذلك منعيا عليهم في دينهم اذ هي اموال حلال لانها غنائم وفيوء ولم يكن تصرفهم
فيها باسراف انما كانوا على قصد من احوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح وان
وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما اشرنا اليه من الاسراف
والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه
كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت
البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية

كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك لذلك عندهم حكم الرفه والاستكثار
من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة
ومذاهب الحق ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان
طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي او لايثار باطل
او لاستشعار حقد كما يتوهمه متوهم او ينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم
في الحق وخالف كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وان
كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل انما قصد الحق واخطأ
والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار
الواحد به ولم يكن لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو امر طبيعي ساقته
العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو امية ومن لم يكن على طريقة معاوية في
اقتفاء الحق من اتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو قد حملهم معاوية
على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة التي كان
جمعها وتاليفها اهم عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز
يقول اذا راى القاسم بن محمد بن ابي بكر لو كان لي من الامر شيء لوليته الخلافة
ولو اراد ان يعهد اليه لفعله لكنه يخشى من بني امية اهل الحل والعقد لما ذكرناه
فلا يقدر ان يحول الامر عنهم لئلا يقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك
التي هي مقتضى العصبية فالملك اذا حصل وفرضنا ان الواحد انفرد به وصرفه
في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه وقد انفرد سليمان صلوات الله عليه
وابوه داود بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به
وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة
بما كان بنو امية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا
عليه مع ان ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب احد في ذلك ولا يظن بمعاوية
غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية
من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم
في الملك مذهب اهل البطالة والبغي انما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم الا في
ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو اهم لديهم من كل مقصد
يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من احوالهم

فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك واما مروان فكان من الطبقة
الاولى من التابعين وعدالته معروفة ثم تدرج الامر في ولد عبد الملك وكانوا
من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع الى طريقة
الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك
في اغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها
واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى ان نعوا عليهم افعالهم
وادالوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان
وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من
بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر الى بنيهم فاعطوا الملك والترف
حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم
وانتزاع الامر من ايدي العرب جملة وامكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة
ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة
ما قلناه وقد حكى المسعودي مثله في احوال بني امية عن ابي جعفر المنصور وقد حضر
عمومته وذكروا بني امية فقال اما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع
واما سليمان فكان همه بطنه وفرجه واما عمر فكان اعور بين عميان وكان رجل
القوم هشام قال ولم يزل بنو امية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه
ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الامور ورفضهم ادانيها حتى افضى
الامر الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي
الله جهلا باستدراجه وامنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة
وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز والبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر
عبد الله بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل ارضه فارا ايام بني
العباس قال اقمت مليا ثم اتاني ملكهم فقعد على الارض وقد بسطت لي فرش
ذات قيمة فقلت ما منعك من القعود على ثيابنا فقال اني ملك وحق لكل ملك
ان يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم
فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا واتباعنا قال فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد
محرم عليكم في كتابكم قلت فعل ذلك عبيدنا واتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج
والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم

من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فاطرق ينكت بيده في الارض
ويقول عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع راسه الي وقال ليس كما ذكرت
بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله واتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز
والبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وانا خائف ان يحل بكم العذاب
وانتم ببلدي فينالني معكم وانما الضيافة ثلث فتزود ما احتجت عليه
وارتحل عن ارضي فتعجب المنصور واطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة
الى الملك وان الامر كان في اوله خلافة ووازع كل احد فيها من نفسه وهو الدين
يؤثرونه على امور دنياهم وان افضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا
عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسين والحسن وعبد الله بن عمر وابن جعفر وامثالهم
يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة
وحفظا للالفة التي بها حفظ الكلمة ولو ادى الى هلاكه وهذا علي اشار عليه
المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعوية وطلحة على اعمالهم حتى يجتمع الناس
عن بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من امره وكان ذلك من سياسة الملك
فابى فرارا من الغش الذي ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد اشرت
عليك بالامس بما اشرت ثم عدت الى نظري فعلمت انه ليس من الحق والنصيحة وان الحق
فيما رأيته انت فقال علي لا والله بل اعلم انك نصحتني بالامس وغششتني اليوم ولكن
منعني مما اشرت به ذائد الحق وهكذا كانت احوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم
ونحن • نرقع دنيانا بتمزيق ديننا • فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع • فقد رأيت
كيف صار الامر الى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على
منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا
وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء
بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار
الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت في اغراضها من القهر والتحكم
في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لخلف بني عبد الملك ولمن جاء بعد المعتصم
والمتوكل من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك
في الطورين ملتبس بعضها ببعض ثم ذهب رسم الخلافة واثرها بذهاب عصبية العرب
وفناء جيلهم وتلاشي احوالهم وبقي الامر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم

بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع القابه ومناحيه لهم
وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين
ومغراوة وبني يفرن ايضاً مع خلفاء بني امية بالاندلس والعبيديين بالقيروان
فقد تبين ان الخلافة قد وجدت بدون الملك اولاً ثم التبست معانيهما واختلطت
ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار

فصل في معنى البيعة اعلم ان البيعة هي العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد اميره
على انه يسلم له النظر في امر نفسه وامور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه
فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده
جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة
مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدي هذا مدلولها في عرف اللغة
ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة
وعند الشجرة وحيث ما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه ايمان البيعة
لان الخلفاء كانوا يستحلفون على هذا العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك
فسمي هذا الاستيعاب ايمان البيعة وكان الاكراه فيها اغلب ولهذا لما افتى
مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الاكراه انكرها الولاة عليه ورأوها قادحة
في ايمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه واما البيعة المشهورة
لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض او اليد او الرجل
او الذيل اطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا
الخضوع في التحية والتزام الادب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى
حقيقة عرفية واستغني بها عن مصافحة ايدي الناس التي هي حقيقة في الاصل
لما في المصافحة لكل احد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب
الملوكي الا في الاقل ممن يقصد التواضع من الملوك فياخذ به نفسه مع خواصه
ومشاهير اهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه اكيد على الانسان
معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا تكون افعاله عبثاً ومجاناً واعتبر ذلك
من افعالك مع الملوك والله القوي العزيز

فصل في ولاية العهد اعلم
انا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وان حقيقتها
النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك في

حياته

حياته ويتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى امورهم كما كان هو
يتولاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك
من الشرع باجماع الامة على جوازه وانعقاده اذ وقع بعهد ابي بكر الى عمر
بمحضر الصحابة فاجازوه واوجبوا على انفسهم به طاعة عمر رضي الله عن جميعهم وكذلك
عهد عمر في الشورى الى الستة من بقية العشرة وجعل لهم ان يختاروا للمسلمين
ففوض ذلك بعضهم الى بعض حتى افضى الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر
المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلي وآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته اياه
على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده فانعقد امر عثمان لذلك
واوجبوا طاعته والملأ من الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره واحد منهم
فدل على انهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة
كما عرف ولا يتهم الامام في هذا الامر وان عهد الى ابيه او ابنه لانه مأمون على النظر لهم
في حياته فاولى ان لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد
او لمن خصص التهمة في الولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما
اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة او توقع مفسدة فتنتفي الظنة
عند ذلك رأساً كما وقع في عهد معوية لابنه يزيد وان كان فعل معوية مع وفاق
الناس له حجة في الباب والذي دعا معوية الى ايثار ابنه يزيد بالعهد دون من
سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق اهل الحل
والعقد عليه حينئذ من بني امية اذ بنو امية يومئذ لا يرضون سواه وهم
عصابة قريش واهل الملة اجمع واهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن
هو اولى بها وعدل الى المفضول عن الفاضل حرصاً على الاتفاق واجتماع الاهواء
الذي شانه اهم عند الشارع ولا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحابته مانعة
مما سوى ذلك وحضور اكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب
فيه فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول
الحق فانهم كلهم اجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر عن ذلك
انما محمول على تورعه عن الدخول في شيء من الامور مباحاً كان او محظوراً كما هو
معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن
الزبير وندور المخالف معروف ثم انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء

كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني امية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وامثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم ايثار ابنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشأنهم غير شأن اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو الى ذلك الى وازعه واما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد اشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني والعصباني فلو قد عهد الى غير من ترتضيه العصابة لردت ذلك وانتقض امره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف سأل رجل عليا رضي الله عنه ما بال الناس اختلفوا عليك ولم يختلفوا على ابي بكر وعمر فقال لان ابا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وانا اليوم وال على مثلك يشير الى وازع الدين افلا ترى الى المأمون لما عهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضى كيف انكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه ابراهيم ابن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد ان يصطلم الامر حتى بادر المأمون من خراسان الى بغداد وردّ امرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلافها المصالح ولكل منها حكم يخصه لطفا من الله تعالى بعباده واما ان يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو امر من الله يخص به من يشاء فينبغي ان تحسن النية فيه ما امكن خوفا من العبث بالمناصب الدينية والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده وعرض هنا امور تدعو الضرورة الى بيان الحق فيها فالاول منها ما حدث في يزيد من الفسق ايام خلافته فاياك ان تظن بمعاوية رضي الله عنه انه علم ذلك من يزيد فانه اعدل من ذلك وافضل بل قد كان يعذله ايام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو اقل من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلفت الصحابة يومئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته لاجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من اباه لما فيه من اثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لان

شوكة يزيد يومئذ هي عصبية بني امية وجمهور اهل الحل والعقد من قريش وتتبع عصبية مضر اجمع فهي اعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فاقصروا عن يزيد بسبب ذلك واقاموا على الدعاء بهدايته او الراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على احد من الفريقين فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم   الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو امر لم يصح ولا نقله احد من ائمة النقل والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وان عمر منع من ذلك فدليل واضح على انه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال ان اعهد فقد عهد من هو خير مني يعني ابا بكر وان اترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة حاضرون يوافقونه على ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه الى الدخول على النبي صلوات الله عليه يسألانه عن شأنهما في العهد فابى علي من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل ان عليا علم انه لم يوص ولا عهد لاحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من اركان الايمان كما يزعمون وليس كذلك وانما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ولو كانت من اركان الايمان لكان شأنها شأن الصلاة ولكان يستخلف فيها كما استخلف ابا بكر في الصلوة ولكان يشتهر كما اشتهر امر الصلوة واحتجاج الصحابة على خلافة ابي بكر بقياسها على الصلوة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا دليل على ان الوصية لم تقع ويدل ذلك ايضا على ان امر الامامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم وشأن العصبية المراعى في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان امر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من اجل الاحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزهم من تتابع هذه المعجزات الخارقة والاحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي رجعوا لها ودهشوا من تتابعها

فكان امر الخلافة والملك والعهد والعصبية وساير هذه الانواع مندرجا في
ذلك العباب كما وقع فلما انحسر ذلك المد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون
الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت آثار الخوارق
وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر امر العصبية ومجاري العوايد فيما ينشا عنها
من المصالح والمفاسد واصبحت الخلافة والملك والعهد بهما من المهمات
الاكيدة كما زعموه ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي
صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الاهمية زمان الخلفاء
بعض الشيء بما دعت الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشان الردة والفتوحات
فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم
من اهم الامور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي
هي الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشا الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد
الشريعة واحكامها والامر الثالث شان الحروب الواقعة في الاسلام
بين الصحابة والتابعين واعلم ان اختلافهم انما يقع في الامور الدينية وينشا
عن الاجتهاد في الادلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا
عن الادلة فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه
فهو مخطئ فان جهته لا تتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين
المخطئ منهما والتاثيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وكل مجتهد
مصيب فاحرى بنفي الخطاء والتاثيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين
انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك
في الاسلام انما هو واقعة علي مع معاوية ومع الزبير وطلحة وعايشة وواقعة
الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فاما واقعة علي فان الناس
عند عند مقتل عثمان كان مفترقين في الامصار فلم يشهدوا بيعة علي والذين
شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على امام كسعد
وسعيد وابن عمر واسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة
مظعون وابي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير
وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وامثالهم من اكابر الصحابة
والذين كانوا في الامصار عدلوا عن بيعته ايضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا

فوضى حتى تكون شورى بين المسلمين فيمن يولونه وظنوا بعلي هوادة في سكوت
نصر عثمان من قاتليه لا في الممالات عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية
اذا صرح بملامته انما توجهها عليه في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فراى علي ان
بيعته قد انعقدت ولزمت من تاخر عنها باجماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي
وموطن الصحابة وارجا الامر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتفاق
الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك وراى الاخرون ان بيعته لم تنعقد لافتراق
الصحابة اهل الحل والعقد بالافاق ولم يحضر الا القليل ولا تكون البيعة
الا باتفاق اهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم او من القليل
منهم وان المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون اولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام
وذهب الى هذا معاوية وعمرو بن العاص وام المومنين عايشة والزبير وابنه
عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج
ومن كان رايهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا
الا ان اهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين
اجماعا وتصويب رايه فيما ذهب اليه وتعيين الخطاء في جهة معاوية ومن كان
على رايه وخصوصا طلحة والزبير لانتقاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل
مع دفع التاثيم عن كل واحد من الفريقين كالشان في المجتهدين وصار اجماعا
من اهل العصر الثاني على احد قولي اهل العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل علي رضي الله عنه
عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي نفسي بيده لا يموتن احد من هولاء وقلبه
نقي الا ادخله الله الجنة يشير الى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك
ريب في عدالة احد منهم ولا قدح بشيء من ذلك فهم من علمت وافعالهم واقوالهم
انما هي عن المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند اهل السنة الا قولا للمعتزلة
فيمن قاتل عليا لم يلتفت اليه احد من اهل الحق ولا عرج عليه واذا نظرت بعين
الانصاف عذرت الناس اجمعين في الاختلاف في شان عثمان واختلاف
الصحابة من بعده وعلمت انها كانت فتنة ابتلى بها الامة بينا المسلمون
قد اذهب الله عدوهم وملكهم ارضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم
بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار
جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيره وآدابه

ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر
والبعد عن سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد اصبحوا
في ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز
ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستنكفوا من ذلك وغصوا به
لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم
مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وقبائل كندة والازد
من اليمن وقبائل تميم وقيس من مضر وامثالهم فصاروا الى الغض من قريش
والانفة عليهم والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء
عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدل في القسم عن السوية وفشت
المقالة بذلك وانتهت الى اهل المدينة وهم من علمت فاعظموه وابلغوه عثمان
فبعث الى الامصار من يكشف له الخبر بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة واسامة بن زيد
وامثالهم فلم ينكروا على الامراء شيئا ولا رأوا عليهم طعنا وادوا ذلك كما علموه
فلم ينقطع الطعن من اهل الامصار وما زالت الشناعات تكثر والاشاعات تنمو
في الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان
وعزله ثم جاء الى المدينة من اهل الامصار يسألون عزل العمال وشكوا الى علي وعائشة
والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم ينقطع بذلك السنتهم بل وفد
سعيد بن العاص وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولا
ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه
امتناعه من العزل فابى الا ان يكون عن جرحة ثم نقلوا النكير الى غير ذلك من افعاله
وهو متمسك بالاجتهاد وهم ايضا كذلك ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاؤا
الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله
وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطلحة
وغيرهم يحاولون تسكين الامور ورجوع عثمان الى رأيهم وعزل لهم عامل مصر
فانصرفوا قليلا ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون انهم لقوه في يد حامله
الى عامل مصر بان يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكنا من مروان فهو
كاتبك فحلف مروان فقال عثمان ليس في الحكم اكثر من هذا فحاصروه بداره ثم بيتوه
على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع

وكلهم كانوا مهتمين بامر الدين ولا يضيعون شيئا من تعلقاته ثم نظروا بعد
هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على احوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم الا خيرا
لما شهدت به احوالهم ومقالات الصادق فيهم واما الحسين فانه لما ظهر فسق
يزيد عند الكافة من اهل عصره بعثت شيعة اهل البيت بالكوفة الحسين ان يأتيهم
فيقوموا بامره فرأى الحسين ان الخروج على يزيد متعين من اجل فسقه لا سيما على من له
القدرة على ذلك وظنها من نفسه باهليته وشوكته فاما الاهلية فكانت كما ظن وزيادة
واما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لان عصبية مضر كانت في قريش وعصبية
قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف انما كانت في بني امية تعرف ذلك لهم
قريش وسائر الناس ولا ينكرونه وانما نسي ذلك اول الاسلام لما شغل الناس
من الذهول بالخوارق وامر الوحي وتردد الملائكة لنصر المسلمين فاغفلوا امور عوائدهم
وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق الا العصبية الطبيعية
في الحماية والدفاع ينتفع بها في اقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها
محكم والعادة معزولة حتى انقطع امر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض
الشيء للعوائد فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت فاصبحت مضر اطوع
لبني امية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل فتبين لك غلط الحسين الا انه
في امر دنيوي لا يضره الغلط فيه واما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط
بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن عباس وابن الزبير وابن عمر
وابن الحنفية اخوه وغيرهم في مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع
عما هو بسبيله لما اراده الله واما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع
يزيد في الشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا ان الخروج على يزيد وان كان
فاسقا لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا
الحسين ولا انكروا عليه ولا اثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب
بك الغلط ان تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فانهم
اكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم
وهو يقاتلهم بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وابا سعيد
وانس بن مالك وسهل بن سعد وزيد بن ارقم وامثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم
عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه انه عن اجتهاد منهم كما كان فعله هو عن اجتهاد منه

وكذلك لا يذهب بك الغلط ان تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد
وان كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي الحنفي على شرب
النبيذ واعلم ان الامر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هولاء وان كان خلافه
عن اجتهادهم وانما انفرد بقتاله يزيد واصحابه فلا تقولن ان يزيد وان كان فاسقا
ولم يجز هولاء الخروج عليه فافعاله عندهم نافذة صحيحة واعلم انه انما ينفذ
من افعال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه ان يكون مع
الامام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال حسين مع يزيد ولا ليزيد
بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد
والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق ايضا واجتهاد وقد غلط القاضي ابوبكر ابن
العربي المالكي في هذا فقال في كتابه المسمى بالقواصم والعواصم ما معناه ان الحسين
قتل بشرع جده وهو غلط حمله عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل في قتال
اهل الاراء واما ابن الزبير فانه رأى في خروجه ما رآه الحسين وظن كما ظن وغلطه
في امر الشوكة اعظم لان بني اسد لا يقاومون بني امية في جاهلية ولا اسلام
والقول بتعيين الخطاء في جهة مخالفه كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل اليه
لان الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجده ههنا واما يزيد فعين خطاءه فسقه
وعبد الملك صاحب ابن الزبير اعظم الناس عدالة وناهيك في عدالته
احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه
بالحجاز مع ان الكثير من الصحابة كانوا يرون ان بيعة ابن الزبير لم تنعقد
لانه لم يحضرها اهل الحل والعقد كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل
مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وان لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي
نزل به بعد تقرير ما قررناه يجري على قواعد الفقه وقوانينه مع انه شهيد مثاب باعتبار
قصده وتحريه الحق هذا هو الذي ينبغي ان تحمل عليه افعال السلف من الصحابة
والتابعين فهم خيار الامة واذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة
والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين او ثلثا ثم
يفشو الكذب فجعل الخيرية وهو العدالة مختصة بالعصر الاول والذي يليه
فاياك ان تعود نفسك او لسانك ان تعرض لاحدهم ولا يوسوس قلبك بالريب
في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم اولى الناس بذلك

وما اختلفوا الا عن بينة وما قاتلوا وقتلوا الا في سبيل جهاد او اظهار حق واعتقد
مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقتدي كل احد بمن يختاره منهم
ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه واكوانه

فصل في الخطط الدينية الخلافية لما تبين ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب
الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الامرين اما
في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها
واما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا
ان هذا العمران ضروري للبشر وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان اهملت
وقدمنا ان الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح نعم انما تكون اكمل
اذا كانت بالاحكام الشرعية لانه اعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج
تحت الخلافة اذا كان اسلاميا ويكون من توابعها وقد ينفرد اذا كان في غير
الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظايف تابعة تتعين خططا وتتوزع
على رجال الدولة وظايف فيقوم كل واحد بوظيفة حسب ما يعينه الملك الذي
تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك امره ويحسن قيامه بسلطانه واما المنصب
الخلافي وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني
يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين فلنذكر الخطط الدينية
المختصة بالخلافة ونرجع الى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية
الشرعية من الصلوة والقضاء والفتيا والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت
الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكانها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها
متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في ساير احوال الملة الدينية
والدنيوية وتنفيذ احكام الشرع فيهما على العموم فاما امامة الصلاة فهي
ارفع هذه الخطط كلها وارفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة
ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شان ابي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلوة
على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا افلا
نرضاه لدنيانا فلولا ان الصلوة ارفع من السياسة لما صح القياس واذا ثبت
ذلك فاعلم ان المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة
للصلوات المشهودة واخرى دونها مختصة بقوم او محلة وليست للصلوات العامة

العامة فاما المساجد العظيمة فامرها راجع الى الخليفة او الى من يفوض اليه
من سلطان او وزير او قاض فينصب لها الامام في الصلوات الخمس والجمعة
والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى
والاستحسان ولئلا تفتات الرعايا عليه بشيء من النظر في المصالح العامة
وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون
نصب الامام لها عنده واجبا واما المساجد المختصة بقوم او محلة فامرها
راجع الى الجيران ولا تحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان واحكام هذه الولاية
وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الاحكام السلطانية
للماوردي وغيره فلا نطول بذكره وقد كان الخلفاء الاولون لا يقلدونها
لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلوة
وترصدهم بذلك في اوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وانهم لم يكونوا
يستخلفون فيها وكان حال الدولة الاموية من بعدهم استئثارا بها واستعظاما
لرتبتها يحكى عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي الا عن
ثلثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والاذن بالصلوة فانه داع الى الله
والبريد فان في تأخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه
من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلوة
وكانوا يستأثرون بها في الاحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة
اشادة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم
واما الفتيا فللخليفة تصفح اهل العلم والتدريس ورد الفتيا الى من هو اهل لها
على ذلك ومنع من ليس باهل لها وزجره لانها من مصالح المسلمين في اديانهم
فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له باهل فيضل الناس
وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد العظام
التي للسلطان الولاية عليها والنظر في ائمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك
وان كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على انه ينبغي ان يكون
لكل احد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه من التصدي لما ليس له
باهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الاثر اجرؤكم على الفتوى
اجرؤكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من اجازة

او رد. و اما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب
الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع الا انه
بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف
الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه
بانفسهم ولا يجعلون القضاء في شيء الى سواهم واول من دفعه الى غيره
وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى ابا الدرداء معه في المدينة وولى شريحا
بالبصرة وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور
الذي تدور عليه احكام القضاء وهي مستوفاة فيه يقول فيه اما بعد فان
القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلي اليك فانه لا ينفع تكلم
بحق لا نفاذ له وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع
شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين
على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما او حرم حلالا ولا يمنعك
قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع
الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم فيما
تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه
وقس الامور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقا غائبا او بينة امدا ينتهي اليه
فان احضر بينته اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه فان ذلك
انفى للشك واجلى للعمى المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد
او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا في ولاء او نسب فان الله سبحانه عفا
عن الايمان ودرأ بالبينات واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم
فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر
والسلام. انتهى كتاب عمر وانما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وان كان
مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة اشغالها من الجهاد والفتوحات
وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظيم العناية
به فاستخفوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به
تخفيفا عن انفسهم وكانوا مع ذلك انما يقلدونه اهل عصبيتهم بالنسب او الولاء
ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك. و اما احكام هذا المنصب وشروطه

معروفة في كتب الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانية لان القاضي انما كان
في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك امورا اخرى
على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر
منصب القضاء آخر الامر على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض
الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى
والمفلسين واهل السفه وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى
عند فقد الاولياء على رأي من يراه والنظر في مصالح الطرقات والابنية
وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة
والجرح ليحصل الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته
وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم
وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد
وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكانه يمضي ما عجز
القضاة او غيرهم عن امضائه ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد
الامارات والقرائن وتاخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح
واستحلاف الشهود وذلك اوسع من نظر القاضي وكان الخلفاء الاولون
يباشرونها بانفسهم الى ايام المهتدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها
لقضاتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه ابي ادريس الخولاني وكما فعله المامون
ليحيى بن اكثم والمعتصم لابن ابي داود وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة
الجهاد في عساكر الصوائف وكان يحيى بن اكثم يخرج ايام المامون بالصائفة
الى ارض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني امية
بالاندلس وكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء او من يجعلون
ذلك له من وزير مفوض او سلطان متغلب وكان ايضا النظر في الجرائم
واقامة الحدود مختصا في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعبيديين
بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهي وظيفة اخرى دينية كانت
من الوظائف الشرعية في تلك الدول يوسع النظر فيها عن احكام القضاء
قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت
الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم بالقود والقصاص ويقيم التعزير

والتاديب في حق من لم ينته الى الجريمة ثم تنوسي شان هاتين الوظيفتين
في الدول التي تنوسي فيها امر الخلافة فصار امر المظالم راجعا الى السلطان
كان له تفويض من الخليفة او لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين
منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص
حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب
السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي
وتارة باسم الشرطة وبقي قسم التعازير واقامة الحدود في الجرائم الثابتة
شرعا فجمع للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته
واستقر الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن اهل
عصبية الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطة من مراسم
الدين فكانوا لا يولون فيها الا من اهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف
او الرق او بالاصطناع ممن يوثق بكفايته وغنائه فيما يدفع اليه ولما
انقرض شان الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا وسلطانا صارت هذه
الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لانها ليست من القاب الملك
ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة عن العرب وصار الملك لسواهم من امم
الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية بعدا عنهم بمنحاها
وعصبيتها وذلك ان العرب كانوا يرون ان الشريعة دينهم والنبي
صلى الله عليه وسلم منهم واحكامه وشرائعه نحلتهم بين الامم وطريقهم و
غيرهم لا يرون ذلك انما يولونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملة فقط
فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تاهل لها في دول الخلفاء
السالفة وكان اولئك المتاهلون لما اخذهم ترف الدول منذ مئين
من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد
ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن انفسهم وصارت هذه الخطط في الدول
الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في اهل الامصار
ونزل اهلها عن مراتب العز لفقد الاهلية بانسابهم وما هم عليه من الحضارة
فلحقهم من الاحتقار ما يلحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبية
الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من اجل قيامها

بالملة واخذها باحكام الشريعة لما انهم الحاملون للاحكام المقتدون بها ولم يكن ايثارهم في الدولة حينئذ اكراما لذواتهم وانما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وان حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه اذ حقيقة الحل والعقد انما هو لاهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل ولا عقد لديه اللهم الا اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقي الفتاوى منهم فنعم والله الموفق وربما يظن بعض الناس ان الحق فيما وراء ذلك وان فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة عن الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة وطبيعة العمران في هؤلاء لا تقتضي لهم شيئا من ذلك لان الشورى والحل والعقد انما يكون لصاحب عصبية يقتدر بها على حل او عقد او فعل او ترك واما من لا عصبية له ولا يملك من امر نفسه شيئا ولا من حمايتها وانما هو عيال على غيره فاي مدخل له في الشورى واي معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهم الا شوراه فيما يعلمه من الاحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة واما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة احوالها واحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوك والامراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب اليه باي جهة انتسب واما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء في الاغلب لهذا العهد وما احتف به انما حملوا الشريعة اقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينقلونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية اكابرهم ولا يتصفون الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم واهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل اهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والائمة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الامة باحد الامرين

فالعابد

فالعابد احق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لان العابد ورث صفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا انما هو صاحب اقوال ينصها علينا في كيفيات العمل وهؤلاء اكثر فقهاء عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

العدالة وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الاشهاد واداء عند التنازع وكتبا في السجلات يحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وانما قلنا عن اذن القاضي لان الناس قد اختلطوا وخفي التعديل والجرح الا على القاضي فكأنه انما يأذن لمن يثبت عنده عدالته ليحفظ على الناس امورهم ومعاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتاب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح احوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وان لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه واذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة بهم في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالبا في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس فيها ليتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله اعلم

الحسبة والسكة اما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك

ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح
العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين و
اهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط
بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين
بالمكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه
على تنازع او استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك
ويرفع اليه وليس له ايضا الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش
والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله ايضا حمل
المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ
حكم وكانها احكام ينزه عنها القضاة لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع
الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك ان تكون خادمة
لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين
بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي
فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار
نظره عاما في امور السياسة فاندرجت في وظايف الملك وافردت
بالولاية واما السكة فهي النظر في النقود المتعامل بها بين المسلمين وحفظها
مما يداخلها من الغش او النقص ان كان يتعامل بها عددا او ما يتعلق بذلك
ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود
بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك
ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار او الدرهم بعد ان يقدر
ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترتسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته
بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف اهل القطر
ومذاهب الدولة الحاكمة فان السبك والتخليص في النقود لا يقف
عند غاية وانما ترجع غايته الى الاجتهاد فاذا اتفق اهل افق او قطر
على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموه اماما وعيارا يعتبرون به نقودهم
وينتقدونها بمماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر في ذلك كله
لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فيندرج تحت الخلافة

ولقد كانت تدخل في عموم ولاية القضاء ثم افردت لهذا العهد بالولاية
كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظايف الخلافية وبقيت منها
وظايف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه واخرى صارت سلطانية فوظيفة
الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية نتكلم عليها في مكانها
بعد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه
ويدرجون احكامه غالبا في السلطانيات وكذا نقابة الانساب التي يتوصل بها
الى الخلافة او الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة
فقد اندرجت رسوم الخلافة ووظايفها في رسوم الملك والسياسة في ساير
الدول لهذا العهد والله مصرف الامور بحكمته فصل في اللقب بامير المومنين
وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء وذلك انه لما بويع ابو بكر
رضي الله عنه كان الصحابة وساير المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم يزل الامر على ذلك الى ان هلك فلما بويع لعمر بعهده اليه
كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله وكانهم استثقلوا هذا اللقب لطوله
وكثرة اضافاته وانه يتزيد فيما بعد دايما الى ان ينتهي الى الهجنة
ويذهب منه التمييز بتعدد المضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون
عن هذا اللقب الى سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد
البعوث باسم الامير وهو فعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون
النبي صلى الله عليه وسلم امير مكة وامير الحجاز وكان الصحابة ايضا يدعون
سعد بن ابي وقاص امير المسلمين لامارته على جيش القادسية وهم
معظم المسلمين يومئذ واتفق ان دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه
باسم امير المومنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوا به يقال اول
من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة
وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسال عن عمر
ويقول اين امير المومنين وسمعها اصحابه فاستحسنوه وقالوا اصبت
والله اسمه انه امير المومنين حقا فدعوه به وذهب لقبا له في الناس
وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها احد سواهم ساير دولة
بني امية ثم ان الشيعة خصوا عليا بالاسم الامام نعتا له بالامامة التي

هي اخت الخلافة ولتعريضًا بمذهبهم في انه احق بامامة الصلوة من ابي بكر
كما هو مذهبهم وبدعتهم فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب
الخلافة من بعده فكان كلهم يسمى بالامام ماداموا ما دام يدعون لهم في
الخفآء حتى اذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده الى امير
المومنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم مازالوا يدعون ائمتهم بالامام
الى ابرهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على امره
فلما هلك دعي اخوه السفاح بامير المومنين وكذا الرافضة بافريقيه مازالوا
يدعون الائمة من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر لعبيد الله المهدي وكانوا
ايضا يدعونه بالامام ولابنه ابي القاسم من بعده فلما استوسق لهما الامر
دعوا من بعدهما امير المومنين وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يدعون
ادريس بالامام وابنه ادريس الاصغر كذلك وهكذا شانهم وتوارث
الخلفاء هذا اللقب بامير المومنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام
والعراق المواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة واهل الملة والفتح
وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز بعضهم
عن بعض لما في امير المومنين من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس
حجابًا لاسمائهم الاعلام عن امتهانها في السنة السوقة وصونًا لها عن الابتذال
فتلقبوا بالسفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد الى آخر الدولة
واقتفى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقيه ومصر وتجافى بنو امية عن ذلك
اما بالمشرق قبلهم فجريًا مع الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها
لم تفارق حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة واما
بالاندلس فتقليدًا لسلفهم مع ما علموه من انفسهم من القصور عن ذلك
التي استاثر بها بنو العباس بالعجز عن ملك الحجاز اصل العرب والملة والبعد
عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وانهم انما منعوا بامارة القاصية
انفسهم من مهالك بني العباس حتى جاء عبد الرحمن الآخر منهم وهو الناصر
ابن الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة
واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعبثهم بالخلفاء
بالعزل والاستبدال والقتل والسمل فذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب

الخلفاء

الخلفاء بالمشرق وافريقيه وتسمى بامير المومنين وتلقب بالناصر لدين الله
واخذت من بعده عادة ومذهبا لقن عنه ولم يكن لآبائه وسلفه قوته
واستمر الحال على ذلك الى ان انقرضت عصبية العرب اجمع وذهب رسم
الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين
بالقاهرة وصنهاجة على امراء افريقيه وزناتة على المغرب وملوك الطوائف
بالاندلس على امر بني امية واقتسموه وافترق امر الاسلام فاختلفت مذاهب
الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالالقاب تعبرنقيه يستشعر
بعد ان تسموا جميعا باسم السلطان فاما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم صح
منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة
وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء
الملك وذخيرة الملك وامثال هذه وكان العبيديون ايضا
يخصون بها امراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلفاء قنعوا بهذه الالقاب
وتجافوا عن القاب الخلافة ادبًا معها وعدولًا عن سماتها المختصة بها
شان المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتاخرون من اعاجم
حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت
عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك
مثل الناصر والمنصور زيادة الى الالقاب كانوا يختصون بها قبل هذا
الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما اضافوها الى
الدين فقط فيقولون صلاح الدين اسد الدين نور الدين واما ملوك
الطوائف بالاندلس فاقتسموا القاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم
عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد
والمظفر وامثالها كما قال ابن شرف ينعى عليهم ذلك فقال

مما يزهدني في ارض اندلس ۔ اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها ۔ كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

واما صنهاجة فاقتصروا على الالقاب التي كان خلفاء العبيديين يلقبونهم
بها للتنويه مثل نصير الدولة وسيف الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك
لما ادالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم
وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان

وكذا شان ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئا من هذه الالقاب
الا اسم السلطان جريا على مذهب البداوة والغضاضة ولما محي اسم
الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين
ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من اهل الخير والاقتدا نزعت به همته
الى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي
واوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي ابا بكر من مشيخة
اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه
بعهد الخليفة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورايته وخاطبه
فيه بامير المسلمين تشريفا له واختصاصا فاتخذها لقبا ويقال انه كان دعي له
بامير المسلمين من قبل ادبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون
من انتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على اثرهم داعيا الى الحق
آخذا بمذاهب الاشعرية ناعيا على اهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف
في ترك التاويل لظواهر الشريعة وما يؤول اليه ذلك كما هو معروف من
مذهب الاشعرية وسمى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك التكفير وكان يرى راي
اهل البيت في الامام المعصوم وانه لا بد منه في زمان يحفظ بوجوده نظام هذا
العالم فسمي بالامام اولا لما قلناه من مذهب الشيعة في القاب خلفائهم
واردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه في عصمة الامام وتنزه عند اتباعه
عن امير المومنين آخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة
الاغمار والولدان من اعقاب اهل الخلافة يومئذ بالمغرب والمشرق
ثم انتحل عبد المومن ولي عهده اللقب بامير المومنين وجرى عليه من بعده
خلفاء بني عبد المومن وآل ابي حفص من بعدهم استئثارا به عن سواهم لما دعى اليه
شيخهم المهدي من ذلك وانه صاحب الامر واولياؤه من بعده كذلك
دون كل احد لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دابهم ولما انتقض
الامر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب اولوهم مذاهب البداوة والسذاجة
واتباع لمتونة في انتحال اللقب بامير المسلمين ادبا مع رتبة الخلافة التي
كانوا على طاعتها لبني عبد المومن اولا ولبني ابي حفص من بعدهم ثم نزع
المتاخرون منهم الى اللقب بامير المومنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا

في منازع الملك وتتميما لمذاهبه وسماته والله غالب على امره

فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

اعلم ان الملة لا بد من قايم بها عند غيبة النبي يحملهم على احكامها
وشرايعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاءهم به من التكاليف والنوع
الانساني ايضا بما تقدم من ضرورة السياسة فيه للاجتماع البشري
لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى
بالملك والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل
الكافة على دين الاسلام طوعا او كرها اتخذت فيه الخلافة والملك لتوجه
الشوكة من القائمين بها اليهما معا **واما** ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن
دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا في المدافعة فقط فصار القايم
بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وانما وقع الملك لمن وقع
منهم بالعرض ولامر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية بما فيها من الطلب
للملك بالطبع كما قدمناه لانهم مكلفون بالتغلب على الامم كما في الملة الاسلامية
وانما هم مطلوبون باقامة دينهم في خاصتهم ولذلك بقي بنو اسرايل
من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو اربعمائة سنة لا يعتنون
بشيء من امر الملك انما همهم اقامة دينهم فقط وكان القايم بدينهم يسمى
الكوهن كانه خليفة لموسى صلوات الله عليه يقيم لهم امر الصلوات و
القربان ويشترطون فيه ان يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه وسلامه
لان ذلك كان له ولبنيه بالوحي ثم اختاروا لاقامة السياسة التي هي
للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتولون احكامهم العامة والكوهن اعظم
رتبة منهم في الدين وابعد عن شغب الاحكام واتصل ذلك فيهم الى ان استحكمت
طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الارض التي
اورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله
عليه فحاربتهم امم الفلسطين والكنعانيين والارمن واذرن وعمون ومواب
ورياستهم في ذلك راجعة الى شيوخهم واقاموا على ذلك نحوا من اربعمائة سنة
ولم يكن لهم صولة الملك وضجر بنو اسرائيل من مطالبة الامم فطلبوا
على لسان شمويل من انبيائهم ان ياذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فملك عليهم

طالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان
صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد الى الحجاز ثم الى اطراف اليمن
ثم الى اطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه
بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه الى دولتين كانت احديهما بنواحي
نابلس للاسباط العشرة وكرسي ملكهم فيها سبسطية والاخرى بالقدس
لبني يهودا وبني يامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما بايديهم من الملك
اولا الاسباط العشرة في سبسطية ثم ثانيا بني يهودا ببيت المقدس
بعد اتصال ملكهم نحو الف سنة وخرب مسجدهم واحرق توراتهم وامات
دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى ان ردهم بعض ملوك الكينية
من الفرس الى بيت المقدس بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد واقاموا
امر دينهم على رسمه الاول للكهنوتية فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر
وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل امر اليونانيين فاعتز
اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم
الكهنونية الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقاتلوا يونان حتى انقرض امرهم
وغلبهم الروم فصاروا تحت امرهم ثم زحفوا الى بيت المقدس وبها بنو
هيردوس اصهار بني حشمناي وبقية دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها
عنوة واثخنوا في القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس
واجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود
بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد
ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم امر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن
وكان المسيح صلوات الله عليه لما جاءهم بما جاء به من الدين والنسخ لبعض
احكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من ابراء الاكمه والابرص واحياء
الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وامنوا به واكثرهم الحواريون اصحابه
وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا الى الافاق داعين الى ملته وذلك ايام اوغسطس
اول ملوك القياصرة وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من
بني حشمناي اصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم الى
ملك القياصرة اوغسطس يغريه به فاذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن

من امره وافترق الحواريون شيعا ودخل اكثرهم الى بلاد الروم داعين الى دين
النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا
الانجيل الذي انزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ اربع على اختلاف
رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي
منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللطيني لبعض اكابر الروم
وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطيني
الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من الانجيل مع انها
ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى صلوات الله عليه وبكلام
الحواريين وغالبها مواعظ وقصص والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع
الحواريون الرسل لذلك العهد برومية ووضعوا قوانين الملة النصرانية
وصيروها بيد اقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدة الكتب التي يجب قبولها
والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة اسفار وكتاب يوشع
وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا واسفار الملوك اربعة
وسفر بنيامين وكتاب المقابيين لابن كريون ثلثة وكتاب عزرا الامام
وكتاب اوشير وقصة هامان وكتاب ايوب الصديق ومزامير داود
عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء الكبار
والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان عليه السلام
ومن شريعة عيسى صلوات الله المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة
وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الابركسيس في قصص الرسل
وكتاب بولس اربع عشرة رسالة وكتاب اقليمنطس وفيه الاحكام وكتاب
ابوغلمسيس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي واختلف شان القياصرة في الاخذ
بهذه الشريعة تارة وتعظيم اهلها ثم تركها اخرى والتسلط عليهم بالقتل
والنفي الى ان جاء قسطنطين واخذ بها فاستمروا عليها وكان صاحب
هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم
وخليفة المسيح فيهم ويبعث نوابه وخلفاءه الى ما بعد عنه من امم النصرانية
ويسمونه الاسقف اي نائب البطرك ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات
ويفتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة

بعبادة بالراهب واكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول راس
الحواريين وكبير التلامذة برومة يقيم بها دين النصرانية الى ان قتله نيرون
خامس القياصرة ثم قام بخلافته في كرسي رومة اريوس وكان مرقاس الانجيلي
بالاسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى
بالبطرك وهو اول البطاركة فيها وجعل معه اثني عشر قساً على انه اذا مات البطرك
يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المومنين واحد مكان ذلك الثاني عشر
فكان امر البطاركة الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقايده
واجتمعوا بنيقية ايام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر
من اساقفتهم على راي واحد في الدين فكتبوه وسموه الامانة وجعلوا اصلاً
يرجعون اليه وكان فيما كتبوه ان البطرك القايم بالدين لا يرجع في تعيينه
الى اجتهاد الاقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وابطل ذلك الراي وانما
وانما يقدم عن ملاء واختيار من ائمة المومنين ورؤسائهم فبقي الامر كذلك
ثم اختلفوا بعد ذلك في قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا
في هذه القاعدة فبقي الامر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الاقسة يدعون
الاسقف فيما غاب عن البطرك بالاب تعظيماً له فاشتبه الاسم في اعصار
متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فارادوا ان يميزوا البطرك
عن الاسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه ابو الآباء وظهر هذا الاسم
اول ظهوره بمصر على ما زعم جرجس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي
الاعظم عندهم وهو كرسي رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل
سمة عليه الى الآن ثم اختلف النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح
وصاروا طوايف وفرقاً واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف
الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة الى ان استقرت لهم ثلاث طوايف
هي فرقهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر ان نسخم
اوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر كما صرح به
القرآن العظيم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال انما هو الاسلام
او الجزية او القتل ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا
على راي الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قايم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين

بمصر على راي اليعقوبية وهو ساكن بين اظهرهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك
مصر فيهم اساقفة ينوبون عنه في اقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك
رومية لهذا العهد ولا يسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة
بباءين موحدتين من اسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب
البابا عند الافرنجة انه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم
واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون
يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرظور وحرفه الاوسط بين الذال والظاء المعجمتين
ويباشره بوضع التاج على راسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الانبرطور هذا
ملخص ما اوردناه من شرح هذين الاسمين اللذان هما البابا والكوهن والله
يضل من يشاء ويهدي من يشاء. فصل في مراتب الملك والسلطان
والقابها اعلم ان السلطان في نفسه ضعيف يحمل امراً ثقيلاً فلا بد له من الاستعانة
بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وساير مؤنه فما ظنك
بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة
من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم على بعض في انفسهم بامضاء
الاحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عليهم في اموالهم حتى باصلاح سابلتهم
والى حملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش
والمكاييل والموازين حذراً من التطفيف والى النظر في السكة لحفظ
النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له
والرضى بمقاصده فيهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية
من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال
من اماكنها اهون علي من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت
باولي القربى من اهل النسب او التربية او الاصطناع القديم للدولة كانت
اكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه في الاستعانة قال تعالى واجعل لي
وزيراً من اهلي هرون اخي اشدد به ازري واشركه في امري وهو اما ان يستعين
في ذلك بسيفه او بقلمه او برايه ومعارفه او بحجابه عن الناس ان يزدحموا عليه
فيشغلوه عن النظر في مهماتهم او بدفع النظر في الملك كله اليه والعول على
كفايته في ذلك واضطلاعه به فلذلك قد توجد لرجل واحد وقد تفترق في اشخاص

وقد تتفرع كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم يتفرع الى قلم الرسائل والمخاطبات
وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبة وهو صاحب الجباية
والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة
وصاحب البريد وولاية الثغور اعلم ان الوظائف السلطانية في هذه الملة
الاسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا
كما قدمناه فالاحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحد منها
في سائر وجوهها لعموم تعلق الشرعي بجميع افعال العباد والفقيه ينظر في مرتبة الحكم
الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان
او تفويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي حدود نظره في الاحكام
والاموال وسائر السياسات مطلقا او مقيدا وفي موجبات العزل ان عرضت
وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك
والسلطان من وزارة او جباية او ولاية لابد للفقيه من النظر في جميع ذلك لما
قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الاسلامية على رتبة الملك
والسلطان وربته انما هو لمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا لما يخصها
من احكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل احكامها
الشرعية مع انها مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي
ابي الحسن الماوردي وغيره من اعلام الفقهاء فان اردت استيعابها فعليك
بمطالعتها هنالك وانما تكلمنا في الوظائف الخلافية وافردناها لنميز بينها
وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق احكامها الشرعية فليس من غرض
كتابنا فانما انما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني
والله الموفق **الوزارة** وهي ام الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها
يدل على مطلق الاعانة فان الوزارة مأخوذ من الموازرة وهي المعاونة
او من الوزر وهو الثقل كانه يحمل مع مفاعله اوزاره واثقاله وهو راجع
الى المعاونة المطلقة وقد كنا قدمنا في اول الفصل ان احوال السلطان
وتصرفاته لا تعدو اربعة انحاء لانها اما ان تكون في امور حماية الكافة واسبابها
من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحماية والمطالبة
وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد

بالمو

بالموبذ واما ان يكون في امور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان او في الزمان
وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما ان يكون
في امور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بمضيعة
وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية ويسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق
واما ان يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحموا عليه فيشغلوه
عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو احواله هذه
الاربعة بوجه وكل خطة او رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها ترجع الا
ان الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك
الصنف اذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائما ومشاركته في كل صنف
من احوال ملكه واما ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات
فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر او ولاية جباية خاصة او النظر
في امر خاص كحسبة الطعام او النظر في السكة فان هذه كلها نظر في احوال خاصة
فيكون صاحبها تبعا لاهل النظر العام وتكون رتبته مرؤوسة لاولئك وما زال
الامر في الدول قبل الاسلام هكذا حتى اذا جاء الاسلام وصار الامر خلافة
فذهبت هذه الخطط كلها بذهاب رسم الملك الا ما هو طبيعي من المعاونة
بالرأي والمفاوضة فيه فلم يكن زواله اذ هو امر لابد منه فكان صلى الله
عليه وسلم يشاور اصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويختص
مع ذلك ابا بكر بخصوصيات اخرى حتى كانت العرب الذين عرفوا الدول
واحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون ابا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير
يعرف بين المسلمين لذهاب رتب الملك بسذاجة الاسلام وكذا عمر
مع ابي بكر وعلي وعثمان مع عمر واما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن
عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا اميين لا يحسنون الكتاب ولا الحساب
فكانوا يستعملون في الحسبان اهل الكتاب او افرادا من موالي العجم ممن
يجيده فكان قليلا فيهم واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت
صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم يكن عندهم
رتبة خاصة للامية التي فيهم والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج

السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين وليست من السياسة الملكية
في شيء وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة احسنها لان الكل
كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان
الخليفة يستنيب في كتابه متى عن له من يحسنه واما مدافعة ذوي الحاجات
عن ابوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك
وجاءت رسوم السلطان والقابه كان اول شيء بدئ به في الدولة شان الباب
وسده دون الجمهور لما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم
كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاصي وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام
الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه
الحاجب وقد جاء ان عبد الملك لما ولى حاجبه قال له وليتك حجابة بابي
الا عن ثلث المؤذن للصلوة فانه داعي الله وصاحب البريد فامر ما جاء به
وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين
في امور القبايل والعصايب واستيلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي امر الحسبان
في الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على اسرار السلطان
ان تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من
حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذ اللسان لذلك العهد
على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا ساير دولة
بني امية فكان النظر للوزير عاما في احوال التفويض والمفاوضات وساير امور
الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء
بالاهلة وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت
مراتبه وارتفعت عظم شان الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد
وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل له
النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج
الى النظر في جمعه وتفريقه واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل
لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور
وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه
فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وساير معاني الوزارة والمعاونة

حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشيد اشارة الى عموم نظره
وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة
التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء
في الدولة العباسية شان الاستبداد على الخلفاء وتعاور فيها استبداد
الوزراء مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة
الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم
فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما
على نفسه والوزير كالوكيل في تنفيذ احكامه والى وزارة تفويض وهي حال
ما يكون الوزير مستبدا عليه وقد فوض اليه الخليفة جميع امور خلافته
وجعلها لنظره واجتهاده وجرى حينئذ الخلاف في العقد لوزيرين معا لوزارة
التفويض مثل ما جرى من العقد لامامين معا وقد تقدم في احكام الخلافة
ثم استمر الاستبداد وصار الامر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن
لاولئك المتغلبين ان ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة
الوزراء في اللقب لانهم خول لهم فتسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد
على الدولة يسمى امير الامراء او بالسلطان الى ما يحليه به الخليفة من القابه
كما تراه في القابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة في خاصته
ولم يزل هذا الشان عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله
وصار صناعة ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك
ولانهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها
من ساير الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص
اسم الامير بصاحب الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع ذلك عالية
على اهل الرتب وامره نافذ في الكل اما نيابة او استبدادا واستمر الامر
على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر فراوا الوزارة قد ابتذلت بترفع اولئك
عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك معقب بنظر
الامير فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف اهل هذه الرتبة العالية
في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الاحكام والنظر في الجند
يسمى عندهم بالنايب لهذا العهد واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية

واما دولة بني امية بالاندلس فابقوا اسم الوزير في مدلوله اول الدولة
ثم قسموا خطته اصنافا وافردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان
المال وزيرا وللترسل وزيرا وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في احوال
اهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون
امر السلطان هنالك كل فيما جعل له وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة
واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن
مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشان هذا الى آخر دولتهم فارتفعت
خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون
لقبها فاكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بافريقيه
والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فاغفلوا امر هذه
الخطط اولا وتنقيح اسمائها حتى ادركت دولتهم الحضارة فصاروا الى
تقليد الدولتين قبلهم في وضع اسمائها كما تراه في اخبار دولتهم ولما جاءت
دولة الموحدين من بعد ذلك اغفلت الامر اولا للبداوة ثم صارت الى انتحال
الاسماء والالقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الامويين
وقلدوها في مذاهب السلطان واصاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه
ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم
والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاؤا
ولم يزل الشان ذلك الى هذا العهد واما في دولة الترك بالمشرق فيسمون
هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجلس
والتقدم بالوفود بين يديه يسمونه الدوادار ويضيفون اليه استتباع
واصحاب البرد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وفي الحضرة
وحالهم على ذلك لهذا العهد والله متولي الامور **الحجابة** قد قدمنا
ان هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة الاموية والعباسية بمن يحجب
السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم او يفتحه لهم على قدره وفي
مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤسة لها اذ الوزير
متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر ايام بني العباس والى هذا العهد
فهي بمصر مرؤسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب واما في دولة

بني امية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة
والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في
دولتهم رفيعة غاية كما تراه في اخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم
ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها
فكان المنصور بن ابي عامر وابناه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك
واطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا
يعدونه شرفا لهم وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال القاب الملك
واسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف
والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة
وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم ثم لم تكن في دول المغرب
وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة
العبيديين بمصر عند استفحالها وحضارتها الا انه قليل ولما جاءت
دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب
وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء الا آخرا فلم يكن عندهم من الرتب
الا الوزير فكانوا اولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك
للسلطان في خاص امره كابن عطية وعبد السلام الكرمي وكان له مع ذلك
النظر في الحسبان والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل
نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا
في دولتهم يومئذ واما بنو ابي حفص بافريقية فكانت الرياسة في دولتهم
اولا والتقدم لوزير الرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين
وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب
واختص الحسبان والديوان برتبة اخرى يسمى متوليها بصاحب الاشغال
ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال
ويعاقب على التفريط وكان من شرطه ان يكون من الموحدين واختص
عندهم القلم ايضا بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الاسرار لان الكتابة
لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج
السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين في داره الى قهرمان خاص بداره

في احواله بجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة
في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر للذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه
في ذلك على اهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما اضافوا اليه كتابة العلامة
على السجلات اذا اتفق انه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره
واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا
الحاجب واسطة بين الناس وبين اهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة
السيف والحرب ثم الراي والمشورة فصارت الخطة ارفع الرتب واوعبها
للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم
ثم استبد بعد ذلك حافده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب آثار
الحجر والاستبداد باذهاب خطة الحجابة التي كانت سلماً اليه وباشر اموره كلها
بنفسه من غير استعانة باحد والامر في ذلك لهذا العهد واما دول زناتة
بالمغرب واعظمها دولة بني مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم واما
رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسايل
راجعة الى من يحسنها من اهلها وان اختصت ببعض البيوت من المصطنعين
في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق واما باب السلطان وحجبه عن العامة
فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة
المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال
سطواته وحفظ المعتقلين في سجونه والعريف عليهم في ذلك فالباب له
واخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع اليه فكانها وزارة
صغرى واما دولة بني عبد الواد فلا اثر عندهم لشيء من هذه الالقاب
ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب
في بعض الاحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني ابي حفص
وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليداً للدولة بما كانوا
في بيعتها وقايمين بدعوتها منذ اول امرهم واما اهل الاندلس لهذا العهد
فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وساير الامور المالية
يسمونه بالوكيل واما الوزير فكالوزير الا انه قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم
يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول

واما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من اهل الشوكة
وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه
الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في اهل الدولة وفي
العامة على الاطلاق وللنايب التولية والعزل في بعض الوظايف على الاحيان
ويقطع القليل من الارزاق ويثبتها وتنفذ اوامره ومراسمه كما تنفذ
المراسم السلطانية وكان له النيابة العامة المطلقة عن السلطان
وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار
من لا ينقاد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك صح
هو صاحب جباية الاموال في الدولة على اختلاف اصنافها من خراج او مكس
او جزية ثم في تصريفها في الانفاقات السلطانية او الجرايات المقدرة وله
مع ذلك التولية والعزل في ساير العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ
على اختلاف مراتبهم وتباين اصنافهم ومن عوايدهم ان يكون هذا الوزير
من صنف القبط القايمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك
في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة
من رجالات الترك او ابنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور
ومصرفها بحكمته لا اله الا هو **ديوان الاعمال** والجبايات هذه الوظيفة
من الوظايف الضرورية للملك وهي القيام على اعمال الجبايات وحفظ حقوق
الدولة في الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف
اعطياتهم في اباناتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك
الاعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك
في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحسبان لا يقوم به الا المهرة من اهل تلك
الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها
ويقال ان اصل هذه التسمية ان كسرى نظر يوماً الى كتاب ديوانه وهم يحسبون
مع انفسهم كانهم يحادثون فقال ديوانه اي مجانين بلغة الفرس فسمي موضعهم
بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان ثم نقل هذا
الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسبانات وقيل انه اسم
للشياطين بالفارسية وسمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الامور و
وقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك

الاعمال وصل هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسايل ومكان جلوسهم
بباب السلطان من مايأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر
في ساير هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول
النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان اعطياتهم او غير ذلك على حسب
مصطلح الدولة وما قرره اولوها اعلم ان هذه الوظيفة انما تحدث في الدول
عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في اعطاف الملك وفنون التمهيد
واول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية عمر رضي الله عنه يقال بسبب مال
اتى به ابو هريرة من البحرين استكثروه وتعبوا في قسمه فسموا الى احصاء الاموال
وضبط العطاء والحقوق فاشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت
ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل اشار عليه به الهرمزان لما رآه
يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من
تخلف منهم اخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فاثبت لهم ديوانا وسأل
عمر رضي الله عنه عن اسم الديوان ففسر له ولما اجمع على ذلك امر عقيل بن ابي
طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا
ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتديا من قرابة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان
الجيش وروى الزهري عن سعيد بن المسيب ان ذلك كان في المحرم
سنة عشرين واما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الاسلام على
ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية
وكتاب الدواوين من اهل العهد من الفريقين فلما جاء عبد الملك بن مروان
واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة
ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة
في الكتاب والحسبان فامر عبد الملك سليمان بن سعد والي الاردن لعهده
ان ينقل ديوان الشام الى العربية فاكمل لسنة من يوم ابتدائه ووقف
عليه سرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في
غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم واما ديوان العراق فامر الحجاج كاتبه
صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زاذان

فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الاشعث
استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وامره ان ينقل الديوان من الفارسية
الى العربية ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن
يحيى يقول لله در صالح ما اعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة
في دولة بني العباس مضافة الى ما كان له النظر فيه كما كان شان بني برمك
وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء تلك الدولة فاما ما يتعلق بهذه
الوظيفة من الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش او بيت المال في الدخل والخرج
او تمييز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط
الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسابات فامر راجع الى كتب الاحكام السلطانية
وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث
طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم
من الملك بل هي ثالثة اركانه لان الملك لا بد له من الجند والمال و
والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان في امر السيف
وامر القلم وامر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك
كان الامر في دولة بني امية بالاندلس والطوايف بعدهم واما في دولة
الموحدين فكان صاحبها انما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج
الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها
وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يليها في
الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو ابي حفص بافريقية وكان
شان الجالية من الاندلس فقدم عليهم اهل البيوتات وفيهم من كان
يستعمل في ذلك بالاندلس مثل بني سعيد اصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين
ببني ابي الحسين فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا النظر لهم في الاشغال كما كان لهم
بالاندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها اهل الحسبان والكتاب
وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ امر الحاجب ونفذ امره في كل شان من شؤون
الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوسا للحاجب واصبح من جملة الجباة
وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة واما في دولة بني مرين لهذا
العهد فحسبان الخراج والعطاء مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي

يصحح الحسابات كلها وترجع الى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان او الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء هذه اصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان واما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو اعلى رتب الناظرين في الاموال لان النظر في الاموال عندهم يتنوع الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظم سلطانهم واتساع الاموال والجبايات عن ان يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالي السلطان واهل عصبيته وارباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم استاذ الدار وهو احد الامراء الاكابر في الدولة من الجند وارباب السيوف وتتبع هذه الخطة عندهم خطط اخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة النظر على امور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاصة به من اقطاعه او سهمانه من اموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من اموال المسلمين العامة التي نظره وهو تحت يد الامير استاذ الدار وان كان الوزير من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه وناظر الخاص ايضا تحت يد الخازن لاموال السلطان من مماليكه يسمى خازن دار لاختصاص وظيفته بمال السلطان الخاص به هذا مسمى هذه الخطة في دولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من امرها بالمغرب والله مصرف الامور لا رب سواه

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك بطبيعة الاستغناء كثير من الدول عنها راسا كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما اكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شان اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بابلغ من العبارة اللسانية في الاكثر وكان الكاتب للامير يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظم

امانتهم وخلوص اسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان او شارته يغمس في طين احمر مذاف بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته اولا او آخرا على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من اهل المراتب في الدولة او استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شان الحجابة وصار امرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لما سلف من امرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابته ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الانفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بامره قائما على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو ان يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه احكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان باوجز لفظ وابلغه فاما ان تصدر كذلك واما ان يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على اساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شان الدول واعلم ان صاحب هذه الخطة لا بد ان يتخير من ارفع طبقات الناس واهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في اصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاعد احكامهم من امثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد

والكلام من البلاغة واسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة
الى ارباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم
لاجل سذاجة العصبية فيختص السلطان اهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه
فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فاما رتبة السيف فتستغني عن معاناة
واما المال والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الاخرى
فيختارون لها من هذه الطبقة لما دعت اليه الضرورة ويقلدونه الا انه
يكون يد آخر من اهل العصبية عالية على يده ويكون نظره منصرفاً عن نظره
كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان رياسة الكتابة عندهم وان
كانت لصاحب الانشاء الا انه تحت يد امير من اهل عصبية السلطان يعرف
بالدويدار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته في غالب احواله اليه وتعويله
على الآخر في احوال البلاغة وتطبيق المقاصد وغير ذلك وتوابعها واما الشروط
المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه
من اصناف الناس فهي كثيرة واحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته
الى الكتاب وهي هذه اما بعد حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم
ووفقكم وارشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله
عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافاً وان كانوا في الحقيقة سواء
وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معايشهم وابواب
ارزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في اشرف الجهات اهل الادب والمروءة والعلم
والرواية بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق
سلطانهم ويعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من
الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم
التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل
صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات
كلها احوج الى اجتماع خلال الخير المحمود وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم
ايها الكتاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج
من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ان يكون حليماً في موضع
الحلم فهما في موضع الحكم ومقداماً في موضع الاقدام ومحجماً في موضع الاحجام مؤثراً

للعفاف والعدل والانصاف كتوماً للاسرار وفياً عند الشدائد
عالماً بما يأتي من النوازل يضع الامور مواضعها والطوارق اماكنها قد نظر
في كل فن من فنون العلوم فاحكمه فان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف
بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده
وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل امر عدته وعتاده ويهيئ
لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب
وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها
ثقاف السنتكم ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار
واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك
معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب
الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الامور
ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءات
واربأوا بانفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر والسخف
والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم
وتواصوا عليها بالذي هو اليق باهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم
فان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب
اليه امره وان اقعد احدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه
واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه
واستظهر به ليوم حاجته اليه احوط منه على ولده واخيه فان عرضت في الشغل
محمدة فلا يضيفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه
وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم يا معشر
الكتاب اسرع منه الى القراء وهو لكم افسد منه لها فقد علمتم ان الرجل منكم
اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه ان يعتقد له
من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته وكتمان سره وتدبير امره
ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه والاضطرار الى
ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة
والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه

لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم او صير اليه من امر خلق الله وعياله امر فليراقب ربه عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله واحبهم اليه ارفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفيء موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن اذاهم متخلفا وليكن في مجلسه متواضعا حليما وفي سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا واذا صحب احدكم رجلا فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة واجمل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها وان خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم والكاتب بفضل ادبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها الا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا فيه ما امكنكم من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلهما ولا سيما الكتاب وارباب الآداب وللامور اشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة واصدقها حجة

واحمدها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وادبه فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه او مقالته الى ان يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقل احد منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان صاحبه اعقل منه واحمد في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على اخيه او نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وانا اقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه في اسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الشرطة ويسمى صاحبها لهذا العهد بافريقية الحاكم وفي دولة اهل الاندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي وهي وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها لبعض الاحيان وكان اصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم احكام الجرائم في حال استبرائها اولا ثم الحدود بعد استيفائها فان التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع الا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر في استبراء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده اذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر في الدماء والحدود باطلاق وافردوها من نظر القاضي ونوهوا بهذه الرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم

ولم يكن عامة التنفيذ في طبقات الناس انما كان حكمه على الدهماء واهل
الريب والضرب على ايدي الدعارة والفجرة ثم عظمت نباهتها في دولة
بني امية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الصغرى
على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على ذوي المراتب السلطانية والضرب
على ايديهم في الظلامات وعلى ايدي اقاربهم ومواليهم من اهل الجاه وجعل
صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار
ورجل يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا في تصريفه وكانت
ولايتها للاكابر من رجالات الدولة حتى كان ترشيحا للوزارة والحجابة
واما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وان لم يجعلوها
عامة وكان لا يليها الا رجالات الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على
اهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن ولاية رجال
الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين واما في دولة
بني مرين لهذا العهد بالمغرب فولايتها في بيوت من مواليهم واهل اصطناعهم
وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك او اعقاب اهل الدولة قبلهم
من الكرد يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الاحكام
لقطع مواد الفساد وحسم ابواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق
مجامعه مع اقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة
في المدينة والله مقلب الليل والنهار **قيادة الاساطيل** وهي من مراتب
الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ومرؤوسة لصاحب السيف
وتحت حكمه في كثير من الاحوال ويسمى صاحبها باسم الملند بتفخيم اللام منقولا
من لغة الافرنجة فانه اسمها في اصطلاح لغتهم وانما اختصت هذه الرتبة
بملك افريقية والمغرب لانهما جميعا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب
وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية الى الشام
وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى
بلاد الشام ايضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى اهل عدوته الساكنون
بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من احواله ما لا تعانيه امة
من امم البحار فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية

من هذا البحر الرومي وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا
مهرة في ركوبه والحرب في اساطيله ولما اسف من اسف منهم الى ملك
العدوة الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب اجازوا
في الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من ايديهم امرها وكان لهم بها
المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة
وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه
مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافيه
معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو
ابن العاص ان صف لي البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف
دود على عود فاوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه احد من العرب الا من
افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدي
سيد بجيلة لما اغزاه عمان فبلغه فانكر عليه وعنفه انه ركب البحر للغزو ولم يزل
الشان ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية اذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على اعواده
والسبب في ذلك ان العرب لبداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه و
الروم والافرنجة لممارستهم احواله ومرباهم في التقلب على اعواده مرنوا عليه واحكموا
الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم العجم خولا لهم
وتحت ايديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية
في حاجاتهم البحرية امما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها
فشرهوا الى الجهاد فيه وانشأوا السفن والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال
والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصوا
بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب الى هذا البحر وعلى ضفته مثل الشام
وافريقية والمغرب والاندلس واوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان
عامل افريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا
على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية ايام زيادة الله الاول ابن ابرهيم
ابن الاغلب على يد اسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة ايضا في ايامه بعد ان
كان معاوية بن حديج اغزى صقلية ايام معوية بن ابي سفين فلم يفتح الله على يده
وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده اسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك اساطيل

افريقيه والاندلس في دولة العبيديين والامويين تعاقبت الى بلادهما في
سبيل الفتنة فجوسوا خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى اسطول الاندلس
ايام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب او نحوها واسطول افريقيه كذلك
مثله او قريبا منه وكان قايد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفاها
للحط والاقلاع بجانة والمرية وكانت اساطيلها مجتمعة من ساير الممالك
من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قايد من النواتية يدبر
امر حربه وسلاحه ومقاتلته ورايس يدبر امر جريته بالريح او بالمجاذف
وامر ارسائه في مرفاه فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني
مهم عسكرت بمرفاها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره
ومواليه وجعلهم لنظر امير واحد من اعلى طبقات اهل مملكته يرجعون كلهم اليه
ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد
الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم
وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم في شيء من جوانبه
وامتطوا ظهره للفتح ساير ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنايم
وملكوا ساير الجزاير المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقه ومنورقه ويابسه
وسردانيه وصقليه وقوصره ومالطه واقريطش وقبرص وساير ممالك الروم
والفرنج وكان ابو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون اساطيلهم من المهدية
جزيرة جنوه فتنقلب بالظفر والغنيمة وافتتح مجاهد العامري صاحب دانيه من
ملوك الطوايف جزيرة سردانيه في اساطيله سنة خمس واربعمائة وارتجعها
النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الاكثر من لجة هذا
البحر وسارت اساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر
في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية
فتوقع بملوك الفرنج وتثخن في ممالكهم كما وقع في ايام بني ابي الحسين ملوك صقليه
القايمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت امم النصرانية باساطيلهم
الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزاير الرومانيه
لا يعدونها واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقد
ملات الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا

فلم تظهر للنصرانية فيه الواح حتى اذا ادرك الدولة العبيدية والاموية الفشل
والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم الى جزاير البحر الشرقية
مثل صقليه واقريطش ومالطه فملكوها ثم الحوا على سواحل الشام في تلك
الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور
بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم
وغلبوا بني خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية
ثم ملكوا المهدية مقر ملك العبيديين من يد اعقاب بلكين بن زيري
وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شان الاساطيل
في دولة مصر والشام الى ان انقطع ولم يعتنوا بشيء من امره لهذا العهد بعد ان
كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في اخبارهم
فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت
مختصة بها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لذلك العهد موفور الاساطيل
ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قايد الاسطول به لعهد
لمتونه بنو ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن ايديهم اخذها عبد المومن
بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد اساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا
ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين اقاموا
خطة هذا الاسطول على اتم ما عرف واعظم ما عهد وكان قايد اساطيلهم
احمد الصقلي اصله من صدغيان الموطنين بجزيرة جربه من سدويكش
اسره النصارى من سواحلها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقليه
واستكفاه ثم هلك وولي ابنه فاسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه
فلحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المومن واجاز الى مراكش
فتلقاه الخليفة يوسف العسري بن عبد المومن بالمبرة والكرامة واجزل
الصلة وقلده امر اساطيله فجلى في جهاد امم النصرانية وكانت له آثار
ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت اساطيل المسلمين على عهده
في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام
صلاح الدين يوسف بن ايوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور
الشام من يد الامم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه

وتتابعت اساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس
الذي كانوا قد استولوا عليه فامدوهم بالعدد والاقوات ولم تغن عنهم اساطيل
الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد
اساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك كما اشرنا
اليه قبل فاوفد صلاح الدين على يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين
رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من ايديهم
وابقا عليهم في دولته فبعث عبد الكريم هذا منهم الى ملك المغرب طالبا مدد
الاساطيل لتحول في البحر بين اساطيل الكفرة وبين مرادهم من امداد النصرانية
بثغور الشام واصحبه كتابه اليه في ذلك من انشاء الفاضل البيساني يقول
في افتتاحه فتح الله لحضرة سيدنا ابواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصبهاني
في كتاب الفتح القدسي فنقم عليهم المنصور على مناهج البر والكرامة وردهم
الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك وفي هذا اختصاص ملك المغرب بالاساطيل
وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم
عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشان الاساطيل البحرية و
الاستعداد منها للدول ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين
واستولت امم الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس والجاوا المسلمين الى سيف
البحر وملكوا الجزاير التي من جانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط
هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه اساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى
المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان ابي الحسن ملك زناتة بالمغرب فان اساطيله
كانت عند مرامه الجهاد في مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك
قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوايد البحر بكثرة العوايد
البدوية بالمغرب وانقطاع العوايد الاندلسية ورجع النصارى فيهم الى ديدنهم
المعروف من الدربة والمران عليه والبصر باحواله وغلب الامم في لجه وعلى اعواده
وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من اهل البلاد الساحلية لهم المران عليه
لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة من الدول تستجيش لهم اعوانا وتوضح لهم
في هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدول المغربية محفوظة
والرسم في معاناة الاساطيل بالانشا والركوب معهودا لما عساه تدعوا

اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون
الريح على الكفر واهله فمن المشتهر بين اهل المغرب عن كتب الحدثان انه لا بد للمسلمين
من الكرة على النصرانية وافتتاح ما ورا البحر من بلاد افرنجة وان ذلك يكون في
الاساطيل والله ولي المومنين **فصل** في التفاوت بين مراتب السيف
والقلم في الدول اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها
على امره الا ان الحاجة الى السيف في اول الدولة مادام اهلها في تمهيد امرهم
اشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني
والسيف شريك في المعونة وكذلك في اخر الدولة حيث تضعف عصبيتها
كما ذكرناه ويقل اهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتحتاج الدولة الى الاستظهار
بارباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان
الشان اول الامر في تمهيدها فيكون للسيف مزية في الحالتين على القلم ويكون ارباب
السيف حينئذ اوسع جاها واكثر نعمة واسنى اقطاعا واما في وسط الدولة فيستغني
صاحبها بعض الشي عن السيف لانه قد تمهد امره ولم يبق همه الا في تحصيل
ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم
هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع
غمودها الا اذا نابت نايبة او دعيت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة
اليها فيكون ارباب الاقلام في هذه الحاجة اوسع جاها واعلى رتبة واعظم
نعمة وثروة واقرب من السلطان مجلسا واكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا
لانه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه وتثقيف
اطرافه والمباهاة باحواله ويكون الوزرا حينئذ واهل السيوف مستغنى
عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على انفسهم من بوادره وفي معنى ذلك
ما كتب به ابو مسلم للمنصور حين امره بالقدوم اما بعد فانه مما حفظناه من
وصايا الفرس اخوف ما يكون الوزرا اذا سكنت الدهما سنة الله في عباده
فصل في شارات الملك والسلطان الخاصة به اعلم ان للسلطان
شارات واحوالا تقتضيها الابهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن
الرعية والبطانة وساير الروسا في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ
المعرفة وفوق كل ذي علم عليم **الآلة** فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من

الحاجة الى

الالوية والرايات وقرع الطبول والنفخ فى الابواق والقرون قد ذكر ارسطو
فى الكتاب المنسوب اليه فى السياسة ان السر فى ذلك ارهاب العدو فى الحرب
فان الاصوات الهائلة لها تاثير فى النفوس بالروعة ولعمرى انه امر وجدانى
فى مواطن الحروب يجده كل احد من نفسه وهذا السبب الذى ذكره ارسطو ان
كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات واما الحق فى ذلك ان النفس عند سماع
النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة
يستسهل بها الصعب ويستميت فى ذلك الوجه الذى هو فيه وهذا موجود حتى فى الحيوانات
العجم فانفعال الابل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تاكيدا
اذا كانت الاصوات متناسبة كما فى الغناء وانت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل
هذا المعنى ولاجل ذلك تتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقارية لا طبلا
ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان فى موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس
الشجعان بطربهم الى الاستماتة ولقد راينا فى حروب العرب من يتغنى امام الموكب
بالشعر ويطرب فيجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث
كل قرن الى قرنه وكذلك زناتة من امم المغرب يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف
ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون
ذلك الغناء تاصوكايت واصله كله فرح يحدث فى النفس فتنبعث عنه الشجاعة
كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله اعلم واما تكثير الرايات
وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل لا اكثر وربما يحدث فى النفوس من التهويل
زيادة فى الاقدام واحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم ثم ان
الملوك والدول يختلفون فى اتخاذ هذه الشارات فمن مكثر ومقلل بحسب
اتساع الدولة وعظمها فاما الرايات فانها شعار الحروب من عهد الخليقة ولم
تزل الامم تعقدها فى مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبى صلى الله عليه وسلم
ومن بعده من الخلفاء واما قرع الطبول والنفخ فى الابواق فكان المسلمون
لاول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضا لاحواله واحتقارا
لابهته التى ليست من الحق فى شىء حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا زهرة
الدنيا ونعيمها ولابسهم الموالى من الفرس والروم اهل الدول السالفة واروهم
ما كان اولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ

الآلة فاتخذوها واذنوا لعمالهم فى اتخاذها تنويها بالملك واهله فكثيرا ما كان
العامل صاحب الثغر او قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين او العبيديين
لواءه ويخرج الى بعثه او عمله من دار الخليفة او داره فى موكب من اصحاب
الرايات والآلة فلا يميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها
او بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد فى رايات بنى العباس
فان راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعيا على بنى امية
فى قتلهم ولذلك سموا المسودة ولما افترق امر الهاشميين وخرج الطالبيون
على العباسيين فى كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم فى ذلك فاتخذوا الرايات
بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر ايام العبيديين ومن خرج من الطالبيين فى ذلك
العهد بالمشرق كالداعى بطبرستان وداعى صعدة او من دعا الى بدعة الرافضة
من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المامون عن لبس السواد وشعاره فى دولته
عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضرا واما الاستكثار فلا ينتهى الى حد وقد كانت
آلة العبيديين لما خرج العزيز نزار الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة
من الابواق واما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرهم فلم يختصوا بلون
واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا
على الاذن فيها لعمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة
قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على سواه من عماله
وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع اثر السلطان فى مسيره يسمى الساقة وهم فيه
بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول فى ذلك فمنهم من يقتصر على سبع
فى العدد تبركا بالسبعة كما هو فى دولة الموحدين وبنى الاحمر بالاندلس ومنهم من
يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت ايام السلطان ابى الحسن
فيما ادركنا مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير ومنسوجة بالذهب
ما بين كبير وصغير وياذنون للولاة والعمال والقواد فى اتخاذ راية واحدة
صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير ايام الحرب لا يتجاوزون ذلك
واما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون اولا راية واحدة عظيمة
وفى راسها خصلة كبيرة من الشعر ويسمونها الجاليش والجتر وهى شعار العسكر
عن عمومه ثم على راس السلطان راية اخرى تسمى العصابة وهى ام الشطفة وهى

شعار السلطان عندهم ثم يعقد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق
وهو الراية بلسانهم واما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات
ويبيحون لكل امير او قائد عسكر ان يتخذ من ذلك ما شاء الا العصابة فانها خاص
بالسلطان واما الجلالقة لهذا العهد من امم الافرنجة بالاندلس فاكثر شانهم اتخاذ
الالوية القليلة ذاهبة في الجو صعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ
الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم
وعمن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم
والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين

السرير

واما السرير والمنبر والتخت والكرسي
وهو اعواد منصوبة او ارائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن اهل
مجلسه ان يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملك قبل الاسلام
وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على اسرة الذهب وكان لسليمان بن داود
عليهما السلام سرير من عاج مغشى بالذهب الا انه لا تأخذ به الدول الا بعد
الاستفحال والترف شان الابهة كلها كما قلناه واما في اول الدولة عند
البداوة فلا يتشوفون اليه واول من اتخذه في الاسلام معوية واستاذن
الناس فيه وقال لهم اني قد بدنت فاذنوا له فاتخذه واتبعه الملوك الاسلاميون
فيه وصارت من منازع الابهة ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره
على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير من الذهب
محمول على الايدي لجلوسه شان الملوك فيجلس عليه وهم امامه ولا يغيرون
عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لابهة الملك ثم كان بعد
ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة
والمنابر والتخوت ما عفا على الاكاسرة والقياصرة والله مقلب الليل والنهار

السكة

وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد
تنقش فيه صور او كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدنانير او الدراهم فتخرج رسوم
تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد ان يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس
في خلوصه بالسبك مرة بعد اخرى وبعد تقدير اشخاص الدنانير والدراهم بوزن
معين يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر اشخاصها يكون التعامل بها
وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل الى اثرها

وهو النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر
في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول
وهو وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص من البهرج بين الناس في النقود
عند المعاملات ويتقون في سلامتها من الغش بختم السلطان عليها
بتلك النقوش المعروفة وكانت ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة
مثل تمثال السلطان لعهدها او تمثال حصن او حيوان او مصنوع او غير ذلك ولم يزل
هذا الشان عند العجم الى آخر امرهم ولما جاء الاسلام اغفل ذلك لسذاجة الدين
وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس
ودراهمهم بين ايديهم يردونها في معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم
الى ان تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وامر عبد
الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وابو الزناد فضرب الدراهم وتميز المغشوش
من الخالص وذلك سنة اربع وسبعين وكتب عليها الله احد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة
العراق ايام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها
ثم يوسف بن عمر بعده وقيل اول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير
بالعراق سنة سبعين بامر اخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في الوجهين بركة
وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج
وقدروا وزنها على ما كانت استقرت ايام عمر وذلك ان الدرهم كان وزنه
اول الاسلام ستة دوانيق والمثقال وزنه درهم وثلثة اسباع الدرهم فيكون
عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك ان اوزان الدراهم ايام الفرس
كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر
ومنها عشرة فلما احتيج الى تقديره في الزكاة اخذ الوسط من الثلثة وذلك
اربعة عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلثة اسباع درهم وقيل ان الدراهم
كان منها البغلي ثمانية دوانق والطبري اربعة دوانق والمغربي ثلاثة دوانق
واليمني دانق فامر عمر ان ينظر الاغلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما اثنا
عشر دانقا فكان الدرهم ستة دوانق وان زدت ثلثة اسباعه كان مثقالا
واذا نقصت ثلثة اعشار المثقال كان درهما فلما راى عبد الملك اتخاذ السكة
لصيانة النقدين الجاريين في معاملة المسلمين عن الغش عين مقدارها على هذا الذي

وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم امر بضربها في سائر
النواحي سنة ست وسبعين صح

استقر لعهد عمر رضي الله عنه فاتخذ طابع الحديد ونقش فيه كلمات لا صورا لان
العرب كان الكلام والبلاغة اقرب مناحيهم واظهرها مع ان الشرع ينهى عن
الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في ايام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على
شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من احد الوجهين
اسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبي وآله وعلى الوجه الثاني التاريخ
واسم الخليفة هكذا ايام العباسيين والعبيديين والامويين واما صنهاجة
فلم يتخذوا سكة الا اخر الامر اتخذها المنصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد
في تاريخه ولما جاءت الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدراهم
مربع الشكل وان يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملأ من احد
الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الاخر كتبا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده
وفعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد وقد كان المهدي
فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من
قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته واما اهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة
وانما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنا بالصنجات المقدرة بعدة منها
ويطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلوة واسم السلطان
كما يفعله اهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم **تنبيه** ولنختم الكلام في السكة
بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان مقدارهما وذلك ان الدراهم
والدنانير مختلفة السكة في المقادير والموازين بالآفاق والامصار وسائر الاعمال
والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام بهما في الزكوة والانكحة والحدود
وغيرها فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار تتعين في تقديره وارادته وتجري عليهما
احكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم ان الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد
الصحابة والتابعين ان الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل
من الذهب والاوقية منه اربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار ووزن
المثقال من الذهب ثنتان وسبعون حبة من الشعير الوسط فالدرهم الذي هو
سبعة اعشاره خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان
الدرهم الجاهلي كان بينهم على انواع اجودها الطبري وهو ثمانية دوانق والبغلي
وهو اربعة دوانق فجعلوا الشرعي بينهما ستة دوانق وكانوا يوجبون الزكوة

في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس
هل كان ذلك من وضع عبد الملك واجماع الناس بعده كما نقلناه ذكر ذلك
الخطابي في كتاب معالم السنن والماوردي في كتاب الاحكام السلطانية وانكره
المحققون من المتأخرين لما يلزم منه ان يكون الدرهم والدينار الشرعيان
مجهولين في عصر الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة
والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق انهما كانا معلومي المقدار في ذلك
العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما
غير مشخص في الخارج وانما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعي المتقرر في مقدارهما
ووزنهما حتى استفحلت الدولة العباسية وعظمت احوالها ودعت الحال الى تشخيصهما
في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك
ايام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما في الخارج ونقش عليهما السكة باسمه
وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية راسا حتى خلصت
ونقشت عليها سكة وتلاشى وجودها وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ثم بعد
ذلك وقع اختيار اهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار
والدرهم واختلفت في ذلك الاقطار والافاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما
الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الاول وصار اهل كل افق يستخرجون الحقوق
الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية واما
وزن الدينار ثنتين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون
وعليه الاجماع الا ان ابن حزم خالف ذلك وزعم انه اربعة وثمانون حبة
نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهما وغلطا وهو
الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم ان الاوقية الشرعية ليست هي المتعارفة
بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة
ذهنا لا اختلاف فيها والله خلق كل شيء فقدره تقديرا **الخاتم** واما الخاتم
فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك
معروف للملوك قبل الاسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه
وسلم اراد ان يكتب الى قيصر فقيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون
مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله قال البخاري جعل الثلاث

كلمات في ثلاثة اسطر وختم به وقال لا ينقش احد مثله قال وتختم به ابو بكر وعمر
وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس وكانت كثيرة الماء فلم يدرك قعرها
بعد واغتم لذلك عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثاله وفي كيفية نقش هذا
الخاتم والختم به وجوه وذلك ان الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الاصبع
ومنه تختم اذا لبسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الامر بلغت آخره
وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتمة الامر ويطلق على السداد
الذي تسد به الاواني والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك
وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام قال لان آخر ما يجدونه في شرابهم
ريح المسك وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذي هو السداد لان الخمر
يجعل لها في الدن سداد الطين او القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ
في وصف خمر الجنة بان سدادها من المسك وهو اطيب عرفا وذوقا من الطين
والقار المعهودين في الدنيا فاذا صح اطلاق الخاتم على هذه كلها صح اطلاقه
على اثرها الناشئ عنها وذلك ان الخاتم اذا نقشت فيه كلمات او اشكال
ثم غمس في مداف من طين او مداد ووضع على صفح القرطاس بقي اثر الكلمات
في ذلك الصفح وكذا اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب
مرتسما فيه واذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى لان النقش
على الاستقامة من اليمنى وقد يقرأ من الجهة اليمنى ان كان النقش من الجهة اليسرى
لان الختم يقلب جهة الخط في الصفح كما كان في النقش من يمين او يسار فيحتمل
ان يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد والطين ووضعه على الصفح فتنتقش
الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه
كان الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامة وهو من دونها ملغى ليس بتام وقد يكون
هذا الختم بالخط آخر الكتاب او اوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح او باسم
السلطان او الامير او صاحب الكتاب من كان او شيء من نعوته يكون ذلك الخط علامة
على صحة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك في المتعارف علامة ويسمى خاتما تشبيها
باثر الخاتم الاصبعي في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم اي
علامته وخطه الذي ينفذ بها احكامه ومنه خاتم السلطان او الخليفة اي علامته
قال الرشيد ليحيى بن خالد لما اراد ان يستوزر جعفرا ويستبدل به من الفضل اخيه

فقال

فقال لابيهما يحيى يا ابت اني اردت ان احول الخاتم من يميني الى شمالي فكنى له
بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف
الوزارة لعهدهم ويشهد لصحة هذا الاطلاق ما نقله الطبري ان معاوية
ارسل الى الحسن عند مراودته اياه في الصلح صحيفة بيضاء ختم على اسفلها
وكتب اليه ان اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما شئت فهو لك
ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخط او غيره ويحتمل ان يختم به في جسم
لين فتنتقش فيه حروفه ويجعل على موضع الخزم من الكتاب اذا خزم وعلى المودعات
وهو من السداد كما مر وهو في الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم واول من اطلق
الختم على الكتب اي العلامة معاوية لانه امر لعمر بن الزبير عند زياد في الكوفة
بمائة الف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فانكرها
معاوية وطلب بها عمرا وحبسه حتى قضاها عنه اخوه عبد الله واتخذ معاوية
عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن تحزم
اي جعل لها السداد وديوان الخاتم عبارة عن الكتاب القائمين على انفاذ
كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة او بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان
جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الاعمال والحزم للكتب يكون اما بدس
الورق كما في عرف كتاب المغرب واما بلصق راس الصحيفة على ما تنطوي عليه
من الكتاب كما في عرف اهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس او اللصاق
علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فاهل المغرب يجعلون على مكان الدس
قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع
وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش ايضا
قد غمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه احمر فيرتسم ذلك النقش عليه
وكان هذا الطين معروفا في الدولة العباسية بطين الختم وكان يجلب من سيراف
فيظهر انه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة او النقش للسداد والحزم
للكتب خاص بديوان الرسائل وكان للوزير في الدولة العباسية ثم اختلف
العرف وصار لمن اليه الترسيل وديوان الكتاب في الدول ثم صاروا في دول
المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون
صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد

ويلبسه السلطان شارة في غرضهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الامور بحكمه

الطراز

ومن ابهة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان ترسم اسماؤهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير او الديباج او الابريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب الحاما وسدا بخيط الذهب او ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه او التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك او ولايته لوظيفة من وظايف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او اشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى تجري مجرى الفال او السجلات وكان ذلك في الدولتين من ابهة الامور وافخم الاحوال وكانت الدور المعدة لنسج اثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القايم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في امور الصناع والالة والحاكة فيها واجراء ارزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة اعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بني امية بالاندلس والطوايف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه بضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول بطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من اكثر الدول بالجملة ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني امية اول المائة السادسة فلم ياخذوا بذلك اول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لبس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها اعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة واما لهذا العهد فادركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الاحمر معاصرهم بالاندلس واتبع هو في ذلك دول الطوايف فاتى منه بلمحة شاهدة بالاثر واما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيه من الطرز

محرز آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا ان ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظايف دولتهم وانما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه الزركش لفظة اعجمية ويرسم اسم السلطان او الامير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللايقة بها والله مقدر الليل والنهار وهو خير الوارثين

الفساطيط والسياج اعلم ان هذا من شارات الملك وترفه اتخاذ الاخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهى بها في الاسفار وتتنوع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وانما يكون الامر في اول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني امية انما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الاقل منهم فكانت اسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الاهل والولد كما هو شان العرب لهذا العهد فكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشان العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقة تحشر الناس على اثره ان يقيموا اذا ظعن ونقل انه استعمل في ذلك الحجاج حين اشار به روح بن زنباع وقصته في احراق فساطيط روح وخبائه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى ارادتهم على الظعن الا من يامن بوادر السفهاء من احيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولهذا اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته ولما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخف الى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في اسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا مختلفة الاشكال مقدرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير او القايد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من

الكتان يسمى في المغرب باللسان البربري الذي هو لسان اهله افراک بالكاف التي بين القاف والكاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره واما في المشرق فيتخذه كل امير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيط زهرا انيقا لاختلاف الوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دول الموحدين وزناتة التي اظلتنا كان سفرهم اول امرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى اذا اخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى اتخاذ الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما ارادوه وهو من الترف بمكان الا ان العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك الى تحفظ آخر كما نذكره والله القوي العزيز المقصورة للصلوة والدعاء في الخطبة وهما من الامور الخلافية ومن شارات الملك الاسلامي ولم تعرف في غير دول الاسلام فاما البيت المقصورة لصلاة السلطان تتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه فاول من اتخذها معاوية بن ابي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل اول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلوة وهي انما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شان احوال الابهة كلها وما زال الشان ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف واما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم خلفاء العبيديين ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بالقيروان وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون ساير المغرب والاندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظها من الترف وجاء يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعد سنة لملوك المغرب والاندلس

وهكذا

وهكذا الشان في ساير الدول سنة الله في عباده واما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشان اولا عند الخلفاء ولاية الصلوة بانفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلوة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضاء عن اصحابه واول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر وكتب اليه عمر اما بعد فقد بلغني انك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك لما كسرته فلما حدثت الابهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلوة واستنابوا فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة في المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولان تلك الساعة مظنة للاجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان اول من دعى للخليفة في الخطبة ابن عباس رضه دعى لعلي رضي الله عنه في خطبته وهو بالبصرة عامل له فقال اللهم انصر عليا الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وكان الخليفة يعتز بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقيب اسمه وذهبت ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر ان يشاركه فيه احد او يسمو اليه وكثيرا ما يغفل المعاهدون من اهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في اسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الابهام والاجمال لمن ولي امور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك ان الدعاء على الاجمال انما يتناول العباسي تقليدا في ذلك لما سلف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى ان يغمراسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير ابو زكريا يحيى بن ابي حفص على تلمسان ثم بدا له في اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك اعوادهم يذكرون عليها من شاؤا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني ابي حفص وثالث ملوكهم

وتخلف بعض ايامه عن شهود الجمعة فقيل له لم تحضر هذا الرسول لخلو الخطبة
من ذكر سلطانه فاذن في الدعاء له وكان ذلك سببا لاخذهم بدعوته وهكذا
شان الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فاذا انتبهت
عيون سياستهم ونظروا في اعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة
ومعاني البذخ والابهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا
الى غايتها وانفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من
من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب **فصل في الحروب** ومذاهب الامم
في ترتيبها **اعلم** ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ
براها الله واصلها ارادة الانتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل
منها اهل عصبيته فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان احديهما تطلب
الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة
ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان
واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده فالاول اكثر
ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان
اكثر ما يكون بين الامم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان
والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بايدي غيرهم
ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة
ولا ملك وانما همهم ونصب اعينهم غلب الناس على ما في ايديهم والثالث
هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هي حروب الدول مع الخارجين عليها
والمانعين لطاعتها فهذه اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان
منها حروب بغي وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل وصفة
الحروب الواقعة بين اهل الخليقة منذ اول وجودهم على نوعين نوع بالزحف
صفوفا ونوع بالكر والفر اما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب
اجيالهم واما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من اهل المغرب
وقتال الزحف اوثق واشد من قتال الكر والفر وذلك ان قتال الزحف
ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح او صفوف الصلاة ويمشون

بصفوفهم الى العدو قدما فذلك اثبت عند المصاع واصدق في القتال
وارهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في ازالته وفي
التنزيل ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص
اي يشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد
بعضه بعضا ومن هنا لك حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف
فان المقصود بالصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى العدو ظهره
فقد اخل بالمصاف وباء باثم الهزيمة كانه جرها على المسلمين وامكن منهم عدوهم فعظم
الذنب لعموم المفسدة وتعديها الى الدين بخرق سياجه فهو من الكبائر ويظهر من هذه
الادلة ان قتال الزحف اشد عند الشارع واما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة
والامن من الهزيمة ما في قتال الزحف الا انهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا
ثابتا يلجؤون اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد ثم ان
الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر
اقساما لانه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشروا من قاصية النواحي استدعى
ذلك ان يجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم
الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لاجل النكراء والجهل بعضهم ببعض
فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم الى بعض
ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها
من سلطان او قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبية وهو مذكور في اخبار
فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرا
منفردا بصفوفه متميزا بقائده ورايته يسمونه المقدم ثم عسكرا آخر من ناحية
اليمين عن موقف الملك يسمونه الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال يسمونه
الميسرة ثم آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك واصحابه
في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفه القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب
المحكم اما في مدى واحد للبصر او على مسافة بعيدة اكثرها اليوم واليومان
بين كل عسكرين منهما او كيفما اعطاه حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذ
يكون الزحف من بعد هذه التعبية وانظر ذلك في اخبار الفتوحات واخبار
الدولتين وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن حمايته لبعد

المدى في التعبية فاحتيج الى من يسوقها من خلفه وعين لذلك حجاج بن يوسف كما اشرنا اليه
وكما هو معروف في اخباره وكان في الدولة الاموية بالاندلس ايضا كثير منه وهو مجهول
فيما لدينا لانا انما ادركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب الى التناكر
بل اكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لدينا حلة او مدينة ويعرف كل منهم قرنه و
يناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبية **فصل** ومن مذاهب
اهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عساكرهم من الجمادات والحيوانات
العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون ادوم
للحرب واقرب الى الغلب وقد يفعله اهل الزحف ايضا ليزيدهم ثباتا وشدة
فقد كان الفرس وهم اهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها ابراجا
من الخشب امثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها
وراءهم في حومة الحرب كانها الحصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم
وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وان فارس في اليوم الثالث اشتدوا
بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوها ونخزوها بالسيوف
على خراطيمها فنفرت ونكصت على اعقابها الى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر
فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع واما الروم وملوك بالاندلس بل واكثر العجم
فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به
من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات
في اركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير
ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وفعل ذلك الفرس ايام القادسية
وكان رستم جالسا فيها على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس
وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه الى الفرات وقتل واما اهل الكر والفر
من العرب واكثر الامم البدوية الرحالة فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذي
يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونه المجبودة وليس امة من الامم الا وهي تفعل
ذلك في حروبها وتراه اوثق من الجولة وامن من الغرة والهزيمة وهو امر مشاهد
وقد اغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للاثقال
والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والابل فصارت
العساكر بذلك عرضة للهزايم مستشعرة للفرار في المواقف وكان الحرب اول

الاسلام كله زحفاً وان كان العرب انما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك
اول الاسلام امران احدهما ان عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون
الى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني انهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر
ولما رسخ فيهم من الايمان والاستماتة اقرب والزحف الى الاستماتة اقرب واول من ابطل الصف في الحرب
وصار الى التعبية كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجيبري بعده
قال الطبري لما ذكر قتل الجيبري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري
ويلقب ابا الدلفاء وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وابطل الصف من يومئذ
انتهى فتنوسي قتال الزحف بابطال الصف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل
الدول من الترف وذلك انها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون
من الابل وسكنى النساء والولدان معهم في الاحياء فلما حصلوا على ترف الملك
والفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شان البادية والقفر نسوا لذلك عهد
الابل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء في الاسفار وحملهم الملك
والترف على اتخاذ الفساطيط والاخبية فاقتصروا على الظهر الحامل للاثقال والابنية
وكان ذلك صنعتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لانه لا يدعو الى الاستماتة كما يدعو
اليها الاهل والمال فيخف الصبر من اجل ذلك وتصرفهم الهيعات وتخرم صفوفهم
فصل ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العسكر وتاكده في قتال الكر و
الفر صار ملوك المغرب يتخذون طوائف من الفرنج في جندهم واختصوا بذلك
لان قتال اهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتاكد في حقه ضرب المصاف
ليكون ردءاً للمقاتلة امامه فلابد وان يكون اهل ذلك الصف من قوم متعودين
للثبات في الزحف والا اجفلوا على طريقة اهل الكر والفر فانهزم السلطان والعسكر
باجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب ان يتخذوا جنداً من هذه الامة المتعودة الثبات
في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة
باهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي اريناكها من تخوف الاجفال
على مصاف السلطان والفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عادتهم في
القتال الزحف فكانوا اقوم بذلك من غيرهم مع ان الملوك في المغرب انما يفعلون
ذلك عند الحرب مع امم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة واما في الجهاد
فلا يستعينون بهم حذراً من ممالاتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد

وقد ابدينا سببه والله بكل شيء عليم **فصل** ويبلغنا عن امم الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهام ان تعبية الحرب عندهم بالمصاف وانهم يقسمون عسكرهم ثلثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويكبون كنائنهم بين ايديهم ثم يناضلون جلوساً وكل صف ردء للذى امامه ان يكبسهم العدو الى ان يتهيأ النصر لاحدى الطائفتين على الاخرى وهى تعبية محكمة غريبة

فصل وكان من مذاهب الاول فى حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما فى ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس فى الظلمة ستراً من عاره فاذا تساووا فى ذلك ارجف المعسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم ويديرون الحفاير نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً ان يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول فى امثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الايدى عليه من كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسى هذا الشأن جملة كأن لم يكن والله خير القادرين **وانظر** فى وصية على رضى الله عنه وتحريضه لاصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن احد ابصر بها قال فى كلام له فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع واخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه انبأ للسيوف عن الهام والتووا على اطراف الرماح فانه اصون للاسنة وغضوا الابصار فانه اربط للجأش واسكن للقلوب وا الاصوات فانه اطرد للفشل اولى بالوقار وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها الا بايدى شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بعد الصبر ينزل النصر وقال الاشتر يومئذ يحرض الازد عضوا على النواجذ من الاضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بابائهم واخوانهم حناقاً على عدوهم قد وطنوا على الموت كيلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم فى الدنيا عار وقد اشار الى كثير من ذلك ابو بكر الصيرفى شاعر لمتونة واهل الاندلس فى كلمة يمدح فيها تاشفين بن على بن يوسف ويصف ثباته فى حرب شهدها يقول فيها

يا ايها الملك الذى يتقنع * من منكم الملك الهمام الاروع * ومن الذى غدر العدو به دجى

فانفض كل وهو لا يتضعضع * تمضى الفوارس والطعان يصدها * عنه ويدرؤها الوفاء فيرجع * والليل من وضح الترائك انه * صبح على هام الجيوش يلمع * انى فزعتم يا بنى صنهاجة واليكم * فى الروع كان المفزع * وصددتم عن تاشفين وانه * لعقابه لو شاء فيكم موضع * انسان عين لم يصبه منكم * حصن وقلب اسلمته الاضلع * ما انتم الا اسود خفية * كل لكل كريهة مستطلع * يا تاشفين اقم لجيشك عذره * بالليل والقدر الذى لا يدفع *

ومنها فى تشكل الحرب

اهديك من ادب السياسة ما به * كانت ملوك الفرس قبلك تولع * لا اننى ادرى بها لكنها * ذكرى تحض المؤمنين وتنفع * البس من الحلق المضاعفة التى * وصى بها صنع الصنايع تبع * والهند وارق الرقيق فانه * امضى على حد الدلاص واقطع * واركب من الخيل السوابق عدة * حصناً حصيناً ليس فيه مدفع * خندق عليك اذا ضربت محلة * سيان تتبع ظافراً او تتبع * والواد لا تعبره وانزل عنده * بين العدو وبين جيشك يقطع * واجعل مناجزة الجيوش عشية * ووراءك الصدق الذى هو امنع * واذا تضايقت الجيوش بمعرك * ضنك فاطراف الرماح اوسع * واصدمه اول وهلة لا تكترث * شيئاً فاظهار النكول يضعضع * واجعل من الطلاع اهل شهامة * للصدق فيهم شيمة لا تخدع * لا تسمع الكذاب جاءك مرجفاً * لا راى للكذوب فيما يصنع *

وقوله واصدمه اول وهلة لا تكترث البيت مخالف لما عليه الناس فى امر الحرب فقد قال عمر لابى عبيد بن مسعود الثقفى لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم واشركهم فى الامر ولا تكن مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف وقال له فى اخرى انه لن يمنعنى ان اؤمر سليطاً الا سرعته فى الحرب وفى التسرع فى الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لامرته لكن لا يصلحها الا المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بان التثاقل فى الحرب اولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفى الا ان يريد ان الصدم بعد البيان فله وجه والله اعلم

فصل ولا وثوق فى الحرب بالظفر وان حصلت اسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك ان اسباب الغلب فى الاكثر مجتمعة من امور ظاهرة وهى الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف وصدق القتال وما جرى مجرى ذلك

ومن امور خفية وهو اما من حيل البشر وخدعهم في الارجاف والتشانيع التي يقع بها
التخاذل وفي تقديم الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من علي فيتوهم المنخفض لذلك
ويتخاذل وفي الكمون في الغياض ومطمئن الارض والتوارى بالكدا عن العدو
حتى يبدو لهم العساكر دفعة وقد تورطوا وامثال ذلك
واما ان يكون تلك الاسباب الخفية امورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها
يلقى في القلوب فيستولى الرهب عليهم من اجلها فيختل مراكزهم ويقع الهزيمة واكثر
ما يقع الهزايم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعتمل كل واحد من الفريقين
فيها حرصا على الغلب فلابد من وقوع التاثير في ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن امثال العرب رب حيلة انفع من قبيلة
فقد تبين ان وقوع الغلب في الحروب غالبا عن اسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء
عن الاسباب الخفية وهو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع
الغلب عن الامور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة
شهر وما وقع من غلبة المشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين اياهم
بعده كذلك في الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقاء الرعب في قلوب
الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان
الرعب في القلوب سببا للهزايم في الفتوحات الاسلامية كلها الا انه خفي عن العيون
وقد ذكر الطرطوشي ان من اسباب الغلب في الحرب ان يفضل عدة الفرسان
المشاهير من الشجعان المشاهير في احد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر
مثل ان يكون احد الجانبين فيه عشرة او عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب
الآخر ثمانية او ستة عشر فالجانب الزايد ولو بواحد يكون له الغلب واعاد في ذلك
وابدا وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وانما الصحيح المعتبر
في الغلب حال العصبية ان يكون في احد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفي
الجانب الآخر عصايب متعددة والجانبان متقاربان في العدة فان الجانب الذي
عصبيته واحدة اقوى واغلب من الجانب الذي هو عصايب متعددة والجانبان
العصايب اذا كانت متعددة يقع بينهما من التخاذل ما يقع في الوجدان المتفرقين
العادمين للعصبية اذ ينزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي
عصبيته واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم انه اصح في الاعتبار ما ذهب اليه الطرطوشي

ولم يحمله على ذلك الانسيان شان العصبية في حيلة وبلده وانهم المتايرون
الدفاع والحماية والمطالبة الى الوجدان او الجماعة الناشية عنهم لا يعتبرون
في ذلك عصبية ولا نسبا وقد بينا ذلك اول الكتاب مع ان هذا وامثاله
على تقدير صحته انما هو في الاسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة
وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما اشبهها فكيف يجعل ذلك سببا كفيلا
بالغلب ونحن قدرنا الآن ان شيئا منها لا يعارض الاسباب الخفية من الحيل
والخدع ولا الامور السماوية من الرعب والخذلان الالهي فاعلمه وتفهم احوال الكون
والله مقدر الليل والنهار فصل ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وان اسبابه
خفية غير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل ان تصادف موضعها في احد
من طبقات الناس من الملوك او العلماء او الصالحين او المنتحلين للفضائل
على العموم فكثير ممن اشتهر وبعد صيته وليس هناك وكثير ممن اشتهر بالشر وهو
بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو احق بها واهلها وقد تصادف موضعها
ويكون طبقا على صاحبها والسبب في ذلك ان الشهرة والصيت انما هو بالاخبار
والاخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب
والتشيع وتدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال لخفائها
بالتلبيس والتصنع او الجهل الناقل ويدخلها التقرب لاصحاب التجلة والمراتب
الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة
بحب الثناء والناس متطاولون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا
في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها واين مطابعه وكل ما حصل
بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر فصل في الجباية وسبب
نقصها اعلم ان الجباية اول الدولة تكون قليلة الوزايع كثيرة الجملة وآخر
الدولة تكون كثيرة الوزايع قليلة الجملة والسبب في ذلك ان الدولة ان
ان كانت على سنن الدين فليس الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج
والجزية وهي قليلة الوزايع لان مقدار الزكوة من المال قليل كما علمت
وكذا زكوة الحبوب والماشية وكذلك الجزى والخراج وجميع المغارم الشرعية
وهي حدود لا تتعدى وان كانت على سنن العصبية والتغلب فلابد من
من البداوة في اولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة و

وخفض الجناح والتجافي عن اموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك
الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجتمع الاموال
من مجموعها واذا قلت الوزايع والوظايف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه
فيكثر الاعتمار ويتزايد لحصول الاغتباط بقلة المغرم واذا كثر الاعتمار كثرت
اعداد تلك الوظايف والوزايع فكثرت الجباية التي هي جملتها فاذا استمرت
الدولة واتصلت وتعاقبت ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس
وذهب سر البداوة والسذاجة وخلقها من الاغضاء والتجافي وجاء
الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وتخلق اهل الدولة حينئذ بخلق
التحذلق وتكثرت عوايدهم وحاجاتهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف
فيكثرون الوظايف والوزايع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وساير
اهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووظيفة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية
ويضعون المكوس على المبايعات وفي ابواب المدينة كما نذكر بعد ثم تتدرج
الزيادات فيها مقدارا بعد مقدار لتدرج عوايد الدولة في الترف وكثرة الحاجات
والانفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضمهم وتصير عادة مفروضة
لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر احد بمن زادها على التعيين
ولا من هو واضعها انما تثبت على الرعايا كانها عادة مفروضة ثم تزيد الى الخروج
عن حد الاعتدال فتذهب غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم
لقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفايدته فتنقبض
كثير من الايدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية بنقصان تلك الوزايع
منها وربما يزيدون في مقدار الوظايف اذا راوا ذلك النقص في الجباية
ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع ولا فايدة
لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم الفايدة المرجوة به فلا تزال
الجملة في نقص ومقدار الوزايع والوظايف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها
الى ان ينتقص العمران بذهاب الامال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة
لان فايدة الاعتمار عايدة اليها واذا فهمت ذلك علمت ان اقوى الاسباب في الاعتمار
تقليل مقدار الوظايف على المعتمرين ما امكن فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادراك
المنفعة فيه والله مالك الامور

فصل في ضرب المكوس اواخر الدولة

اعلم ان الدول تكون في اولها بدوية كما قلنا فيكون لذلك قليلة الحاجات لعدم
الترف وعوايده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء
بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتها ثم لا تلبث ان تاخذ بدين الحضارة
والترف وعوايدها وتجري على نهج الدول السالفة قبلها فيكثر لذلك خرج الدولة ويكثر
خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك
الجباية فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء
والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظايف والوزايع اولا كما قلناه ثم
يزيد الخرج والحاجات بالتدريج في عوايد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة
الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الاموال من الاعمال القاصية فتقل الجباية
وتكثر العوايد ويكثر بكثرتها ارزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة انواعا
من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الاثمان في الاسواق
وعلى اعيان السلع في ابواب المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف
الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في اواخر
الدول زيادة بالغة فتكسد الاسواق لفساد الامال ويوذن ذلك باختلال العمران
ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى ان تضمحل وقد كان وقع منه بامصار المشرق
في اخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم
واسقط صلاح الدين بن ايوب تلك الرسوم جملة واعاضها باثار الخير وكذلك وقع بالاندلس
لعهد الطوايف حتى محا رسمه يوسف بن تاشفين امير المرابطين وكذلك وقع بامصار
الجريد بافريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله لطيف بعباده

فصل في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية اعلم ان الدولة اذا ضاقت
جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوايد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها
عن الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية فتارة توضع
المكوس على بياعات الرعايا واسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة
بالزيادة في القاب المكوس ان كانت قد استحدثت من قبل وتارة بمقاسمة العمال
والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون انهم قد حصلوا على طايل من اموال الجباية
لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلح للسلطان حرصا على تنمية الجباية
لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوايد والغلات مع يسارة اموالهم

وان الارباح يكون على نسبة روس الاموال فياخذون فى اكتساب الحيوان والنبات
لاستغلالها وفى شرآء البضايع والتعرض بها لحوالة الاسواق يحسبون ذلك من ادرار
الجباية وتكثير الفوايد وهو غلط عظيم وادخال للضرر على الرعايا من وجوه متعددة
فاولاً مضايقة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والبضايع وتيسير اسباب ذلك
فان الرعايا متكافئون فى اليسار او متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا ينتهى الى غاية
موجودهم او تقرب فاذا رافقهم السلطان فى ذلك كثير منهم فلا يكاد
احد منهم واذا يحصل على غرضه فى شئ من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك
غم ونكد ثم ان السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك اذا تعرض له غصبا او بايسر ثمن
اذ لا يجد من ينافسه فى شرائه فيبخس ثمنه على بايعه ثم اذا حصلت فوايد الفلاحة ومغلها
كله من زرع او حرير او عسل او سكر او غير ذلك من انواع الغلات وحصلت بضايع
التجارة من ساير الانواع فلا ينتظرون به حوالة الاسواق ولا نفاق البياعات
لما يدعوهم اليه تكاليف الدولة فيكلفون اهل تلك الاصناف من تاجر او فلاح
بشرآء تلك البضايع ولا يرضون فى اثمانها الا القيم وازيد فيستوعبون فى ذلك
ناض احوالهم ويبقى تلك البضايع بايديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلاً من الادارة
التى فيها كسبهم ومعاشهم وربما يدعوهم الضرورة الى شئ من المال فيبيعون تلك
السلع على كساد من الاسواق بابخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر او الفلاح منهم
بما يذهب براس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت
والمضايقة وفساد الارباح ما يقبض امالهم عن السعى بالجملة ويؤدى الى فساد
الجباية فان معظم الجباية انما هى من الفلاحين والتجار لاسيما بعد وضع المكوس
ونمو الجباية بها فاذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة
ذهبت الجباية جملة او دخلها النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل
له من الجباية وبين هذه الارباح القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية اقل من القليل
ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شرآء وبيع فانه من
البعيد ان يوخذ منه فيه المكس ولو كان غيره فى تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلا
من جملة الجباية ثم فيه التعرض لفساد عمرانه واختلال الدولة بفساده ونقصه لان الرعايا
اذا قعدوا عن تثمير اموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها
تلاف احوالهم فافهم ذلك كان الفرس لا يملكون الا من اهل بيت المملكة ثم يختارونه

من اهل الدين والفضل والادب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه
مع ذلك العدل وان لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الاسعار فى
البضايع ولا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة واعلم ان السلطان
لا ينمى ماله ولا يدر موجوده الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل فى اهل الاموال
والنظر لهم فبذلك ينبسط امالهم وتنشرح صدورهم للاخذ فى تثمير الاموال وتنميتها
فيعظم منها جباية السلطان واما غير ذلك السلطان من تجارة او فلح فانما
هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة ولقد ينتهى الحال بهولاء
المنتحلين للتجارة والفلاحة من الامرآء المتغلبين فى البلدان انهم يتعرضون لشرآء
الغلات والسلع من اربابها الواردين الى بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤن
ويبيعونها لوقتها لمن تحت ايديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن وهذه اشد
من الاولى واقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك
من يداخله من هذه الاصناف اعنى التجار والفلاحين بما هى صناعته التى نشأ عليها
فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا
مع ما يحصل له من التجارة فلا مغرم ولا مكس فانها اجدر بنمو الاموال واسرع فى تثميرها ولا يفهم
مع ذلك ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغى للسلطان ان يحذر
من هولآء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهمنا رشد انفسنا
وينفعنا بصالح اعمالنا لا رب غيره **فصل** فى ان ثروة السلطان وحاشيته
انما يكون فى وسط الدولة والسبب فى ذلك ان الجباية فى اول الدولة تتوزع
على القبيل واهل العصبية بمقدار غنائهم وعصبيتهم ولان الحاجة اليهم فى تمهيد
الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم فى ذلك متجافٍ لهم عما يسمون اليه من الجباية
معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فلهم عليه عزة وله اليهم حاجة
فلا يطير فى سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته فيجد حاشيته لذلك واذنابه
من الوزراء والكتاب والموالى مملقين فى الغالب وجاههم متقلص لانه من جاه
مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه من اهل عصبيته فاذا استحكمت طبيعة الملك
وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض ايديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم
بين الناس فى سهمانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلة غنائهم بالدولة انما انتهى من
اعنتهم وصار الموالى والصنايع مساهمين لهم فى القيام بالدولة وتمهيد الامر

فيتفرد صاحب الدولة بالجباية او معظمها ويحتوي على الاموال ويحتجنها للنفقة في مهمات
الاحوال فيكثر ثروته ويمتلي خزاينه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على ساير قومه فيعظم
حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم
ويقتنون الاموال ويتاثلونها ثم اذا اخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية
وفناء القبيل المعاهدين للدولة احتاج صاحب الامر الى الاعوان والانصار لكثرة
الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه واعوانه
وهم ارباب السيوف واهل العصبيات وانفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة
وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والانفاق فيقل الخراج وتشتد
حاجة الدولة الى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب
بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة
المال وينفق ابناء البطانة والحاشية ما تاثل اباؤهم من الاحوال في غير سبيلها
من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة
ويرى صاحب الدولة انه احق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم
فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئا فشيئا وواحدا بعد واحد على نسبة رتبتهم وتنكر
الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها واهل الثروة
والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد ان يدعمه اهله ويرفعوه
وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية بني قحطبة وبني برمك وبني سهل
وبني طاهر وامثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها ايام الطوائف
في بني شهيد وبني عبدة وبني حدير وبني برد وامثالهم وكذا في الدول التي ادركناها
لعهدنا سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا فصل ولما يتوقعه اهل الدول
من امثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص
عن ربقة السلطان بما حصل ايديهم من مال الدولة الى قطر آخر ويرون انه اهنا لهم
واسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والاوهام المفسدة
لاحوالهم ودنياهم واعلم ان الاخلاص من ذلك بعد الحصول فيه غير ممتنع فان
صاحب هذا الغرض ان كان هو الملك بنفسه فلا تمكنه الرعية بذلك طرفة عين
ولا اهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم ملكه واتلاف نفسه لمجاري
العادة بذلك لان ربقة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق

نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر واما ان كان
صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته واهل الرتب في دولته فقل
ان يخلى بينه وبين ذلك اما اولا فلما يراه الملوك ان ذويهم وحاشيتهم بل وساير
رعاياهم مماليك لهم مطلعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة
ضنانة باسرارهم واحوالهم ان يطلع عليها احد وغيرة من خدمته لسواهم ولقد كانوا
بنو امية بالاندلس يمنعون اهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم
بايدي بني العباس فلم يحج ساير ايامهم احد من اهل دولتهم وما ابيح الحج لاهل الدول
من الاندلس الا بعد فراغ شان الاموية ورجوعها الى الطوايف واما ثانيا فانهم
وان سمحوا بحل ربقته هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون انه جزء من
مالهم كما كان ربه جزءا من دولتهم اذ لم يكتسب الا بها وفي ظل جاهها فتحوم نفوسهم
على انتزاع ذلك المال او ابتلاعه كما جزء من الدولة ينتفعون به ثم اذا توهمنا انه خلص
بذلك المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل فتمتد اليه اعين الملوك بذلك القطر
وينتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا او بالقهر ظاهرا لما يرون انه مال الجباية
والدول وانه مستحق للانفاق في المصالح واذا كانت اعينهم تمتد الى مال الجباية
والدول التي تجد السبيل اليه بالشرع والعادة وانظر ما وقع لقاضي جبلة الثائر بها على ابن
عمار صاحب طرابلس لما غلبه الفرنج عليها ولحق الى دمشق ثم الى بغداد وبها السلطان
بركيارق بن ملكشاه وذلك آخر المائة الخامسة فجاوره وزير السلطان واستقرض منه
غالب ماله ثم استصفوه جميعا وكان لا يعبر عنه كثرة ولقد حاول السلطان ابو يحيى
زكريا بن احمد اللحياني تاسع او عاشر ملوك الحفصيين بافريقية الخروج عن عهدة الملك
واللحاق بمصر فرارا من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل
اللحياني الرحلة الى ثغر طرابلس يوري بتمهيده وركب السفن من هنالك وخلص الى
الاسكندرية بعد ان حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت والناطق والذخيرة
وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله الى مصر
ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة تسع عشرة من المائة الثامنة
فاكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئا فشيئا بالتعريض الى ان حصل
عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني الا في الجراية التي فرض له الى ان هلك في سنة ثمان
وعشرين حسبما نذكره في اخباره فهذا وامثاله من جملة الوساوس التي تعتري اهل الدول

لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب وانما يخلصون ان اتفق لهم الخلاص بانفسهم وما
يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف
في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية او بالجاه في انتحال طرق الكسب
من التجارة والفلاحة والدول انساب لكن النفس راغبة اذا رغبتها واذا
ترد الى قليل تقنع والله الرزاق فصل في ان نقص العطاء من السلطان
نقص في الجباية والسبب في ذلك ان الدولة والسلطان هو السوق الاعظم
للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتجن السلطان الاموال والجبايات او فقدت
فلم يصرفها الى مصارفها قل حينئذ ما بايدي الحاشية وانقطع ما كان ايضا
يصل منهم الى حاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد
ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق من سواهم فيقع الكساد في الاسواق وتضعف
الارباح في المتاجر لقلة الاموال فيقل الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون
من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوايد والارباح
ووبال ذلك عايد الى الدولة لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فان الدولة
كما قلناه في السوق الاعظم ام للاسواق كلها واصلها ومادتها في الدخل والخرج
فاذا كسدت وقلت مصارفها فاحذر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل
ذلك واشد منه وايضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه
ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده فصل
في ان الظلم موذن بخراب العمران اعلم ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب
بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرون حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم
واذا ذهب آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر
الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فان كان
الاعتداء كثيرا عاما في جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب على نسبته
والعمران ووفوره ونفاق اسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب
ذاهبين وجايين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن المكاسب
كسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير
تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره
وخربت امصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران

يفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في اخبار الفرس
عن الموبذان صاحب الدين عندهم ايام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في انكار
ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عايدته على الدولة بضرب المثال في ذلك
على لسان البوم حين سمع الملك اصواتها وساله عن فهم كلامها فقال ان بوما ذكرا
يروم نكاح بوم انثى وانها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في ايام بهرام
لتنوح فيها فقبل شرطها فقال لها ان دامت ايام الملك اقطعتك الف قرية
فهذا اسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وساله عن مراده فقال له
ايها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف
تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام
للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل
والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك وانك
ايها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من اربابها وعمارها وهم ارباب الخراج
ومن توخذ منهم الاموال واقطعتها الحاشية والخدم وارباب البطالة فتركوا العمارة
والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف
على من بقي من ارباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم واووا
الى ما بعد او تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال
وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع
المواد التي لا تستقيم دعايم الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك اقبل على النظر في ملكه
وانتزعت الضياع من ايدي الخاصة وردت الى اربابها وحملوا على رسومهم السالفة
واخذوا بالعمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الارض واخصبت البلاد وكثرت
الاموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور
واقبل الملك على مباشرة اموره بنفسه فحسنت ايامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه
الحكاية ان الظلم مخرب للعمران وان عايدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد
والانتقاص ولا تنظرن الى ان الاعتداء قد يوجد في الامصار العظيمة من الدول
التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء
واحوال اهل المصر فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا واحواله متسعة بما لا ينحصر
كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا اذ النقص انما يقع بالتدريج

فاذا خفي بكثرة الاحوال واتساع الاعمال في المصر لم يظهر اثره الا بعد حين وقد
تذهب تلك الدولة المتعدية من اصلها قبل خراب المصر وتجي الدولة الاخرى
فترفعها بجدتها وتجبر النقص الذي كان حصل فيه فلا يكاد يشعر به الا ان ذلك في
الاقل والمراد من هذا ان حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان امر واقع
لا بد منه لما قدمناه ووباله عايد على الدول ولا تحسبن الظلم انما هو اخذ المال او الملك
من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم اعم من ذلك وكل من
اخذ ملك احد او غصبه في عمله او طالبه بغير حق او فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه
فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون
لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عايد على الدولة
بخراب العمران الذي هو مادتها لذهاب الامال من اهله واعلم ان هذه الحكمة المقصودة
للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشا عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن
بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية
الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رايت
مؤذنا بانقطاع النوع لما ادى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة
فكان تحريمه مهما وادلته من القران والسنة كثيرة اكثر من ان ياخذها قانون الضبط
والحصر ولو كان كل احد قادرا عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بغيره
من المفسدات للنوع التي يقدر كل احد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر الا ان
الظلم لا يقدر عليه لانه انما يقع من اهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير
الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه للقادر عليه من نفسه وما ربك بظلام للعبيد
ولا تقولن ان العقوبة قد وضعت بازاء الحرابة في الشرع وهي من الظلم القادر
لان المحارب زمن حرابته قادر فان الجواب في ذلك من طريقين احدهما ان
ان نقول ان العقوبة التي وضعت في ذلك انما هي بازاء ما تقترفه من الجنايات
في نفس او مال على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة
بجنايته واما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة الطريق الثاني ان نقول المحارب
لا يوصف بالقدرة لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها
قدرة فهي المؤذنة بالخراب واما قدرة المحارب فانما هي اخافة يجعلها ذريعة
لاخذ الاموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدرة

المؤذنة للخراب واما قدرة المحارب فانما هي اخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال
والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدرة المؤذنة
للخراب والله قادر على ما يشاء فصل ومن اشد الظلامات واعظمها افسادا
للعمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك ان الاعمال من قبيل المتمولات
لما سنبين في باب الرزق ان الكسب والرزق انما هو قيم اعمال اهل العمران فاذا مساعيهم
واعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم سواها فان الرعية المعتملين في العمارة انما معاشهم
ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شانهم واتخذوا سخريا في غير معاشهم
بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم صح
بل هو معاشهم بالجملة وان تكرر ذلك عليهم افسد امالهم في العمارة وقعدوا عن السعي
فيها جملة فادى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه والله يرزق من يشاء بغير حساب
فصل واعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على اموال
الناس في شراء ما بايديهم بابخس الاثمان ثم فرض البضايع عليهم بارفع الاثمان على
وجه الغصب والاكراه في الشراء والبيع وربما يفرض عليهم تلك الاثمان على التراخي
والتاجيل فيتعللون في الخسارة التي تلحقهم بما يحدثهم به المطامع من جبر ذلك بحوالة
الاسواق في تلك البضايع التي فرضت عليهم بالغلاء ثم يطالبون بتلك الاثمان
معجلة فيضطرون الى بيعها بابخس الثمن ويعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس
اموالهم وقد يعم ذلك اصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الافاق
في البضايع وساير السوقة واهل الدكاكين في الماكل والفواكه واهل الصنايع
فيما يتخذ من الالات والمواعين فيشمل الخسارة ساير الاصناف والطبقات
وتتوالى على الساعات وتجحف برؤوس الاموال ويجدون عنها معاولجة الا القعود
عن الاسواق لذهاب رؤوس الاموال في جبرها بالارباح ويتثاقل الواردون
من الافاق لشراء البضايع وبيعها من اجل ذلك فتكسد الاسواق ويبطل معاش
ويفقص جباية السلطان او يفسد لان معظمها من اواسط الدولة وما بعدها انما يكون
من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة
ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به هذا فيما كان بامثال هذه الذرايع والاسباب
الى اخذ الاموال واما اخذها مجانا والعدوان على الناس في اموالهم وحرمهم
ودمائهم واسرارهم واعراضهم فهو يفضي الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة
سريعا لما ينشا عنه من الهرج المفضي الى الانتقاض ومن اجل هذه المفاسد

خطر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظر اكل اموال الناس
بالباطل سدا لابواب المفاسد المفضية الى انتقاض العمران بالهرج وبطلان
المعاش واعلم ان الداعي لذلك كله انما هو حاجة الدولة والسلطان الى الاكثار من
المال بما يعرض لهم من الترف في الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل
على القوانين المعتادة فيستحدثون القابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفي لهم
الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى اموال الناس
يشتد ونطاق الدولة بذلك يضيق الى ان يمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها
طالبها والله مقدر الامور لا رب سواه **فصل** في الحجاب كيف يقع في الدولة اعلم
ان الدولة في اول امرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لانها لا بد لها
من العصبية التي بها يتم امرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية
والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان
فاذا كانت الدولة في اول امرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة
والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد
بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس في الحديث مع اوليائه في خواص
شؤونه لما يكثر حينئذ من حاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ويتخذ
الاذن ببابه على من لا يأمنه من اوليائه واهل دولته ويتخذ حاجبا له عن الناس
يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت
خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها
ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم
فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب معهم الخواص
من اوليائهم وحجبوا غير اولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظا على انفسهم
من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر
اخص من الاول يفضي الى مجالس الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة فالحجاب
الاول يكون في اول الدولة كما ذكر كما حدث ايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني امية
وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح
ثم لما جاءت دولة بني العباس وحدث للدولة من الترف والعز ما هو معروف
وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعى ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب

اخص به وصارت بباب الخلفاء داران للغاشية دار للخاصة ودار للعامة
كما هو مسطور في اخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث اخص من الاول وهو
عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك ان اهل الدولة وخواص الملك
اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فاول ما يبدأ به
ذلك المستبد ان يحجب عنه بطانة ابيه وخواص اوليائه يوهمه ان في مباشرتهم
خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك عنه لقاء الغير ويعوده
ملابسة اخلاقه هو حتى لا يتبدل سواه الى ان يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا
الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب الا اواخر الدولة كما قدمناه
في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه اهل الدول على انفسهم
لان القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد
من اعقاب ملوكها لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح
لذلك وحصول دواعيه ومباديه والله غالب على امره **فصل** في انقسام
الدولة الواحدة بدولتين واعلم ان اول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها
وذلك ان الملك عندما يستفحل ويبلغ احوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبد
صاحب الدولة بالمجد وينفرد به ويأنف حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع اسبابها
ما استطاع من اهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب
المساهمون له في ذلك بانفسهم ونزعوا الى القاصية واجتمع اليهم من يلحق بهم مثل
حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد اخذ في التضايق ورجع
عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال امره يعظم بتراجع نطاق
الدولة حتى يقاسم الدولة او يكاد وانظر ذلك في الدولة الاسلامية العربية حين
كان امرها عزيزا مجتمعا ونطاقها ممتدا في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة
غالبة على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر ايامهم الا ما كان من بدعة الخوارج
المستميتين في شان بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم امرهم لمزاحمتهم
العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بني امية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة
العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلص عن القاصية
نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا
واقتطعها عن دعوتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج

وقام بامره وامر ابنه من بعده البرابرة من اوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الاعاجم في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على افريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين اخريين وصارت الدولة العربية ثلث دول دولة بني العباس بمركز العرب واصلهم ومادة ودولة بني امية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بافريقية ومصر والشام والحجاز ولم يزل هذه الدول الى ان كان انقراضها متقاربا او جميعا وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول اخرى فكان بالجزيرة والموصل بنو حمدان وبنو عقيل بعدهم وبمصر والشام بنو طولون وبنو طغج بعدهم فكان بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك الى استبداد على فارس والعراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم ايضا بعد الاستفحال كما هو معروف في اخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية لما بلغت الى غايتها ايام ادريس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك المغرب لنفسه ما بين جبل اوراس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم اشير بجبل تيطري واستحدث ملكا آخر قسيما لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان ولم يزل ذلك الى ان انقرض امرهما جميعا وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو ابي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لاعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل امرهم واستولى على الغاية خرج بالممالك الغربية من اعقابهم الامير ابو زكريا يحيى بن السلطان ابي اسحاق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا ببجاية وقسنطينة وما اليها اورثه بنوه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس ثم الملك بين اعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي الانقسام الى اكثر من دولتين وثلثة في غير اعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بافريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقية ثائر مستقل بامره كما نذكره وكذا حال الجريد والزاب من افريقية قبيل هذا العهد كما نذكره ايضا وكذا شأن كل دولة لا بد وان تعرض

فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم اعياصها او من يغلب من رجال دولتها الامر وتتعدد فيها الدول والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم واسبابه واحدا بعد واحد وبينا انها تحدث للدولة بالطبع وانها كلها امور طبيعية لها واذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من اهل الدولة ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويحسبه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويظن انه لحقها بتقصير من قبله من اهل الدولة او غفلتهم وليس كذلك فانها امور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيها والعوائد تتنزل منزلة طبيعية اخرى فان من ادرك مثلا اباه وكبراء اهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الالهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الابهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا ازيلت تلك الابهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب اوهام الابهة فيتدرع الدولة بتلك الابهة ما امكنها حتى ينقضي الامر وربما تحدث عند آخر الدولة قوة توهم ان الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم انها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل اجل كتاب

فصل في كيفية طروق الخلل للدولة اعلم ان مبنى الملك على اساسين لا بد منهما فالاول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام اولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال

والخلل اذا طرق الدولة طرقها في هذين الاساسين فلنذكر اولاً طروق الخلل في
الشوكة والعصبية ثم نرجع الى طروقه في المال والجباية واعلم ان تمهيد الدولة وتأسيسها
فلنذكر اولاً طروق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع الى طروقه في المال والجباية
واعلم ان تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصبية وانه لا بد من عصبية
كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة به من عشيرة
وقبيلة فاذا جاءت للدولة طبيعة الملك من الترف وجدع انوف اهل العصبية
كان ما يجدع انوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فتشتد
في جدع انوفهم ما يبلغ من سواهم ويأخذهم الترف ايضاً اكثر من سواهم لمكانهم
من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر
آخراً الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الامر فيقلب
غيرته منهم الى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف
الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم
وهي العصبية الكبرى التي كان تجمع بها العصائب وتستتبعها فتنحل عروتها وتضعف
شكيمتها ويستبدل منها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الاحسان ويتخذ منهم
عصبية الا انها ليست مثل تلك في شدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها
وقد كنا قدمنا ان شأن العصبية وقوتها انما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في
ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والانصار اهل النعرة الطبيعية ويحس
بذلك اهل العصائب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً
فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد ويقلد الآخر
من اهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي
قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية
وينسوا نعرتها وسورتها ويصيرون اجراء على الحماية ويقلون لذلك فتقل الحامية
التي تنزل بالاطراف والثغور فتتجاسر الرعايا على نقض الدعوة في الاطراف
ويبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى تلك الاطراف لما يرجون
ح من حصول غرضهم بمبايعة اهل القاصية لهم وامنهم من وصول الحامية اليهم
ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في اقرب
الاماكن الى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين او ثلاث

على قدر قوتها في الاصل كما قلناه ويقوم بامرها غير اهل عصبيتها وتغلبهم المعهود
واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت اولاً الى الاندلس والهند
والصين وكان امر بني امية نافذاً في جميع العرب بعصبية عبد مناف حتى لقد امر
سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل
ولم يرد امره ثم تلاشت عصبية بني امية بما اصابهم من الترف فانقرضوا وجاء
بنو العباس فغضوا من اعنة بني هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم فانحلت
عصبية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم اهل القاصية
مثل بني الاغلب بافريقية واهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج
بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بامرهم اذعاناً للعصبية التي لهم وامناً ان تصلهم
مقاتلة او حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخراً فيتغلبون على الاطراف والقاصية
ويحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت
الدولة تقلصاً الى ان تنتهي الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما اخذ
منها الترف فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال امدها
بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس اهل ايالتها
وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل احد من الاجيال
مبدأها ولا اوليتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة فتستغني بذلك
عن قوة العصائب ويكفي صاحبها في تمهيد امرها الاجراء على الحماية من جندي ومرتزق
ويعضد ذلك ما وقر في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد احد ان يتصور عصياناً
او خروجاً الا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدي لذلك
ولو جهد جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال اسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام
صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يختلج في ضميرها
انحراف عن الطاعة فتكون اسلم من الهرج والانتقاض الذي يحدث بالعصائب
والعشائر ثم لا يزال امر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية
في البدن العادم للغذاء الى ان تنتهي الى وقتها المقدور ولكل اجل كتاب ولكل دولة
امد والله يقدر الليل والنهار واما الخلل الذي يطرق من جهة المال فاعلم ان
الدولة في اولها تكون بدوية كما مر فيكون لها خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات
والتعفف عن الاموال فتتجافى عن الامعان في الجباية والتحذلق والكيس في جمع

المال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ الى الاسراف فى النفقة فلا تحتاج الدولة
الى كثير المال ثم تحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف ويكثر الانفاق
بسببه فتعظم نفقات السلطان واهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك الى اهل
المصر ويدعو الى الزيادة فى اعطيات الجند وارزاق اهل الدولة فيكثر الاسراف
فى النفقات وينتشر ذلك فى الرعية لان الناس على دين الدولة وعوائدها
ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على اثمان البياعات فى الاسواق لادرار الجباية
لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه
وارزاق جنده ثم يزيد عوائد الترف فلا تفى بها المكوس وتكون الدولة قد
استفحلت فى الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمتد ايديهم
الى جمع المال من اموال الرعايا من مكس او تجارة او نقد فى بعض الاحوال بشبهة او
بغير شبهة ويكون الجند فى ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل محل مطالعة
والهرم فى العصبية فيتوقع ذلك منهم ويداوى بسكينة بافاضة العطاء وكثرة
الانفاق فيهم ولا يجد عن ذلك وليجة ويكون جباة الاموال فى الدولة قد عظمت
ثروتهم فى هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بايديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فتتوجه
التهم اليهم باحتجان الاموال من الجباية وتفشو السعاية فيه بعضهم من بعض
للمنافسة والحسد فتعمهم النكبات والمصادرات واحدا بعد واحد الى ان تذهب
ثروتهم وتتلاشى احوالهم ويفقد ما كان للدولة من الابهة والجمال بهم واذا اصطلمت
نعمتهم تجاوزتهم الدولة الى اهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن فى هذا
الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر فتنصرف سياسة صاحب
الدولة ح الى مداراة الامور ببذل المال ويراه انفع من السيف لقلة غنائه فتعظم
حاجته الى الاموال زيادة على النفقات وارزاق الجند ولا تغنى فيما يريد ويعظم
الهرم بالدولة ويتجاسر عليها اهل النواحى والدول تنحل عراها فى كل طور
من هذه الى ان تفضى الى الهلاك ويتعرض لاستيلاء الطلاب فان قصدها طالب
انتزعها من ايدى القائمين بها والا بقيت وهى تتلاشى الى ان تضمحل كالذبال فى
السراج اذا فنى زيته وطفى والله مالك الامور ومدبر الاكوان لا اله الا هو

فصل فى حدوث الدول وتجددها كيف يقع

اعلم ان نشأة الدول وبدايتها اذا اخذت الدولة المستقرة فى الهرم والانتقاص

يكون على نوعين اما بان يستبد ولاة الاعمال فى الدولة بالقاصية عندما يتقلص
ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وملك يستقر فى نصابه
ويرثه عنه ابناؤه او مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك
الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون فى الاستيثار به ويغلب منهم من يكون له
فضل قوة على صاحبه وينتزع ما فى يده كما وقع فى دولة بنى العباس حين اخذت
دولتهم بالهرم وتقلص ظلها عن القاصية فاستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو
حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع فى الدولة الاموية بالاندلس
وافترق ملكها فى الطوائف الذين كانوا ولاتها فى الاعمال وانقسمت دولا وملوكا
اورثوها من بعدهم من قرابتهم او مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة
وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون فى رياستهم ولا يطمعون فى الاستيلاء
على الدولة المستقرة وانما الدولة ادركها الهرم فتقلص ظلها عن القاصية وعجزت
عن الوصول اليها والنوع الثانى بان يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الامم
والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما اشرنا اليه او بان يكون صاحب شوكة
وعصبية كبيرا فى قومه قد استفحل امره فيهم فيسمو بهم الى الملك وقد حدثوا به انفسهم
بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له
ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى ان يظفروا بها ويرثوا
امرها كما وقع للسلجوقية مع بنى سبكتكين ولبنى مرين بالمغرب مع الموحدين والله
غالب على امره

فصل فى ان الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة

بالمطاولة لا بالمناجزة قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع
من ولاة الاطراف اذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا تقع
منهم مطالبة للدولة فى الاكثر كما قدمناه لان قصاراهم القنوع بما فى ايديهم وهو
نهاية قوتهم والنوع الثانى نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من
من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما يكون لهم من العصبية والاعتزاز
ما هو كفاء ذلك ووافٍ به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال
تتكرر وتتصل الى ان يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطاولة ولا يحصل لهم فى
الغالب ظفر بالمناجزة والسبب فى ذلك ان الظفر فى الحروب انما يقع غالبا
كما قدمناه بامور نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال

كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما قرر ولذلك كان الخداع من انفع
ما يستعمل في الحروب واكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة
المستقرة قد صيرت العوايد المالوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير
موضع فتكثر بذلك العوايق لصاحب الدولة المستجدة ويكسر من همم اتباعه
واهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرته
الا ان الآخرين وهم الاكثر قد داخلهم الفشل والكسل بعقايد التسليم
للدولة المستقرة فيرجع الى الصبر والمطاولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة
فتضمحل عقايد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه
فيقع الظفر والاستيلاء وايضا فالدولة المستقرة كثيرة الترف بما استحكم لهم
من الملك وتوسعوه من النعم واللذات واختصوا به دون غيرهم من اموال
الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيها الابهة
الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيرهبون بذلك
كله عدوهم واهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة
واحوال الفقر والخصاصة التي يفقد معها الاستعداد من ذلك فيسبق الى قلوبهم
اوهام الرعب لما يبلغهم عن احوال الدولة المستقرة وكثرة استعدادها ويحجمون
عن قتالهم من اجل ذلك فيضطر اميرهم الى المطاولة حتى تاخذ الدولة المستقرة
ماخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية فينتهز حينئذ صاحب
الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله
في عباده وايضا فاهل الدولة المستجدة كلهم مباينون لاهل الدولة المستقرة
بانسابهم وعوايدهم وفي ساير مناحيهم ثم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من
هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليهم فتتمكن المباعدة بين اهل الدولتين
سرا وجهرا ولا يصل الى اهل الدولة المستجدة خبر عن اهل الدولة المستقرة
يصيبون به غرة منهم باطنا ولا ظاهرا لانقطاع المواصلة والمداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة
وهم في احجام ويكون عن المناجزة حتى اذا تاذن الله بزوال الدولة
المستقرة ونفاد عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها اتضح لاهل الدولة المستجدة
مع الايام ما كان يخفى عنهم من هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه
من اعمالها ونقصوه من اطرافها فتنبعث هممهم يدا واحدة للمناجزة ويذهب
ما كان يعتق في عزايمهم من التوهمات وتنتهي المطاولة الى حدها ويقع الاستيلاء

آخرا بالمناجزة واعتبر ذلك في دولة بني العباس عند ظهورها وبدايتها كيف
اقام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين
او تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية وكذا العلوية بطبرستان
عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك
الناحية ثم لما انقضى امر العلوية وسما الديلم الى ملك فارس والعراقين مكثوا
سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا اصبهان وفارس ثم استولوا على الخليفة
ببغداد وكذا العبيديون اقام داعيتهم بالمغرب ابو عبد الله الشيعي بين كتامة
من قبايل البربر عشر سنين وتزيد يطاول بني الاغلب بافريقية حتى ظفر بهم واستولوا
على المغرب كله ثم سموا الى ملك مصر فمكثوا ثلثين سنة او نحوها في طلبها يجهزون
اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد
والشام وملكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك
الى الحجاز واقيمت بالحرمين ثم نازل قايدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر
واستولوا عليها واقتلع دولة بني طغج من اصولها واختط القاهرة فجاء
خليفته معد المعز لدين الله فنزلها لستين سنة او نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية
وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان واجازوا من وراء
النهر مكثوا نحوا من ثلثين سنة يطاولون ابن سبكتكين بخراسان حتى استولوا
على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد ايام من الدهر
وكذا التطر من بعدهم خرجوا من المفاوزة اعوام سبعة عشر وستماية فلم يتم لهم
الاستيلاء الا بعد اربعين سنة وكذا اهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة
على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين حتى استولوا عليهم ثم خرج الموحدون بدعوتهم
على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلثين يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش وكذا بنو
مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلثين سنة واستولوا
على فاس واقتطعوها واعمالها من ملكهم ثم اقاموا في محاربتهم ثلثين اخرى
حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما ذلك كله مذكور في تواريخ هذه الدول
فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطاولة والمطالبة سنة الله في عباده
ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا يعترض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية
وكيف كان الاستيلاء على فارس والروم لثلاث او اربع من وفاة النبي

صلى الله عليه وسلم من غير مطاولة اعلم ان ذلك انما كانت معجزة من معجزاة نبينا
صلوات الله عليه سرها استماتة المسلمين فى جهاد عدوهم استبصارا بالايمان
وما اوقع الله فى قلوب عدوهم كفاء ذلك من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله
خارقا للعادة المعلومة فى مطاولة الدول المستجدة للمستقرة واذا كان ذلك
خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها فى الملة الاسلامية
والمعجزات لا يقاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها **فصل** فى دفور العمران
اواخر الدول وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات انه قد تقرر لك فيما سلف
ان الدول فى اول امرها لابد من الرفق فى ملكتها والاعتدال فى ايالتها اما من
الدين ان كانت الدعوة دينية او من المكارمة والمحاسنة التى تقتضيها
البداوة الطبيعية للدول واذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال
الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر وكثر التناسل واذا كان ذلك كله
بالتدريج فانما يظهر اثره بعد جيل او جيلين فى الاقل وفى انقضاء الجيلين تشرف
الدولة على نهاية عمرها الطبيعى فيكون حينئذ العمران فى غاية الوفور والنماء
ولا تقولن انه قد مر لك ان اواخر الدولة يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء
الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاجحاف وان حدث حينئذ وقت
الجبايات فانما يظهر اثره فى تناقص العمران بعد حين من اجل التدريج فى الامور
الطبيعية ثم ان المجاعة والموتان يكثر عند ذلك فى اواخر الدولة والسبب فيه
اما المجاعات فلقبض الناس ايديهم عن الفلح فى الاكثر بسبب ما يقع فى اواخر
الدول من العدوان فى الاموال والجبايات وفى البياعات بالمكوس او الفتن
الواقعة بانتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل احتكار الزرع غالبا
وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم
فى كثرة الامطار والضرع على نسبة الا ان الناس واثقون فى اقواتهم بالاحتكار
فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه اولو الخصاصة
فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع واما كثرة
الموتان فلها اسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه او كثرة الفتن لاختلال الدول
فيكثر الهرج والقتل او وقوع الوباء وسببه فى الغالب فساد الهواء بكثرة العمران
لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء

الروح الحيوانى وملابسه دائما فيسرى الفساد الى مزاجه فان كان الفساد
قويا وقع المرض فى الرئة وهذه هى الطواعين وامراضها مخصوصة بالرئة وان
كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن به ويتضاعف فتكثر الحميات
فى الامزجة وتمرض الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة
فى هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة بما كان فى اوائلها من حسن الملكة
ورفقها وعظم الحماية وقلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين فى موضعه فى الحكمة
ان تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضرورى ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل
فى الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتى بالهواء الصحيح
ولهذا ايضا فان الموتان يكون فى المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير
كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء **فصل** فى ان العمران
البشرى لابد له من سياسة ينتظم بها امره انه قد تقدم لنا فى غير موضع ان
الاجتماع للبشر ضرورى وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه وانه لابد لهم فى الاجتماع
من وازع وحاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله
يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذى جاء به مبلغه وتارة
الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد
معرفته بمصالحهم فالاول يحصل نفعها فى الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح
بالعاقبة ولمراعاته نجاة العباد فى الآخرة والثانية انما يحصل نفعها فى الدنيا
فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء
ما يجب ان يكون عليه كل واحد واحد من اهل ذلك المجتمع فى نفسه وخلقه حتى يستغنوا
عن الحكام راسا ويسمون المجتمع الذى يحصل فيه ما ينبغى من ذلك بالمدينة الفاضلة
والقوانين المراعاة فى ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التى يحمل
عليها اهل الاجتماع بالاحكام للمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه المدينة
الفاضلة عندهم نادرة او بعيدة الوقوع فانما يتكلمون عليها على جهة الفرض
والتقدير ثم ان السياسة العقلية التى قدمناها تكون على وجهين احدهما
تراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان فى استقامة ملكه على الخصوص
وهذه كانت الفرس وهى على وجه الحكمة وقد اغنانا الله عنها فى الملة ولعهد
الخلافة لان احكام الشريعة مغنية عنها فى المصالح العامة والخاصة والآداب

واحكام الملك مندرجة فيها الوجه الثاني ان تراعي فيها مصلحة السلطان وكيف
يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعا
وهذه السياسة هي التي لساير الملوك في العالم من مسلم وكافر الا ان ملوك
المسلمين يجرون على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذن مجتمعة
من احكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية واشياء من مراعاة
الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع اولا ثم بالحكماء في آدابهم
والملوك في سيرهم واحسن ما كتب في ذلك واودعه كتاب طاهر بن الحسين قايد المامون
لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المامون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه ابوه
طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه
من الآداب الدينية والخلقية والسياسات الشرعية والملوكية وحثه على مكارم
الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة ونص الكتاب منقولا كتاب طاهر بن الحسين
من كتاب الطبري بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فعليك بتقوى الله
وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك
في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما انت
صاير اليه وموقوف عليه ومسئول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل
وينجيك يوم القيمة من عقابه واليم عذابه فان الله سبحانه قد احسن اليك واوجب
عليك الرافة بمن استرعاك امرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام
بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم
والامن لسبيلهم وادخال الراحة عليهم ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه
وسايلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت واخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك
وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل فانه راس امرك وملاك شانك واول ما يوفقك
الله عز وجل به لرشدك وليكن اول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعالك المواظبة
على ما افترض عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس
قبلك وتوقعها على سننها في اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل
فيها وترتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصدق فيها
لربك نيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك وادأب
عليها فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم اتبع ذلك بالاخذ

بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلايقه واقتفاء آثار
السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك امر فاستعن عليه باستخارة الله
عز وجل وتقواه وبلزوم ما انزل الله عز وجل في كتابه من امره ونهيه وحلاله
وحرامه وايتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه
بما يحق لله عز وجل عليك ولا تميلن عن العدل فيما احببت او كرهت
لقريب من الناس او بعيد وآثر الفقه واهله والدين وحملته وكتاب الله
عز وجل والعاملين به فان احسن ما تزين به المرء الفقه في دين الله والطلب له
والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله و
القايد اليه والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها وبها مع توفيق الله
عز وجل يزداد العبد معرفة له واجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد
مع ما في ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك
والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد في الامور كلها فليس شيء ابين نفعا
ولا اخص امنا ولا اجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد
دليل على التوفيق والتوفيق قايد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية
بالاقتصاد وآثره في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والاعمال الصالحة
والسنن المعروفة ومعالم الرشد ولا غاية للاستكثار في البر والسعي له اذا كان
يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة اولياء الله في دار كرامته واعلم
ان القصد في شان الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب وانك لن تحوط
نفسك ومرتبتك ولا تستصلح امورك بافضل منه فأته واهتد به تتم
امورك وتزيد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك واحسن ظنك بالله
عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه في الامور كلها تستدم به
النعمة عليك ولا تتهمن احدا من الناس فيما توليه من عملك قبل ان تكشف
امره فان ايقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم فاجعل من شانك حسن
الظن باصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك
على اصطناعهم ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان في امرك مغمزا فانه
انما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم بسوء الظن ما ينغص
لذاذة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفي به ما احببت

كفاية منه من امورک وتدعوا به الناس الى محبتک والاستقامة فى الامور كلها
ولا يمنعک حسن الظن باصحابک والرافة برعيتک ان تستعمل المسئلة والبحث
عن امورک والمباشرة لامور الاوليآء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها
ويصلحها بل لتكن المباشرة لامور الاوليآء والحياطة للرعية فى النظر فى حوايجهم
وحمل مؤناتهم آثر عندک مما سوى ذلک فانه اقوم للدين واحيى للسنة
واخلص نيتک فى جميع هذا وتفرّد بتقويم نفسک تفرّد من يعلم انه مسئول
عما صنع ويجزى بما احسن ومأخوذ بما اسآء فان الله عز وجل جعل الدين عزًّا
وحرزًا ورفع من اتبعه وعززه واسلک بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة
الهدى واقم حدود الله تعالى فى اصحاب الجرايم على قدر منازلهم وما استحقوه
ولا تعطّل ذلک ولا تتهاون فيه ولا تؤخر عقوبة اهل العقوبة فان فى
تفريطک فى ذلک ما يفسد عليک حسن ظنک واعزم على امرک فى ذلک بالسنن
المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لک دينک وتتم لک مروتک
واذا عاهدت عهدًا فاوف به واذا وعدت الخير فانجزه واقبل الحسنة
وادفع بها واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتک واسدد لسانک
عن قول الكذب والزور وابغض اهل النميمة فان اول فساد امرک فى عاجلها
وآجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لان الكذب راس المآثم والزور
والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقابلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم
لطيعها امر واحبب اهل الصلاح والصدق واعن الاشراف بالحق وواصل
الضعفآء وصل الرحم وابتغ بذلک وجه الله تعالى واعزاز امره والتمس فيه ثوابه
والدار الآخرة واجتنب سوء الاهوآء والجور واصرف عنهما رايک واظهر
برائتک من ذلک لرعيتک وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة
التى تنتهى بک الى سبيل الهدى واملک نفسک عند الغضب وآثر الوقار
والحلم واياک والحدة والطيش والغرور فيما انت بسبيله واياک ان تقول
انا مسلط افعل ما اشآء فان ذلک سريع فيک الى نقص الراى وقلة اليقين
بالله وحده لا شريک له واخلص لله النية فيه واليقين به واعلم ان الملک
لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشآء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول
النقمة الى احد اسرع منه الى حملة النعمة من اصحاب السلطان والمبسوط لهم فى

الدولة اذا كفروا نعم الله عز وجل واحسانه واستطالوا بما آتاهم الله عز وجل
من فضله ودع عنک شره نفسک ولتكن ذخائرک وكنوزک التى تدخر
وتكنز البر والتقوى والعدل واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد
لامورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم واعلم ان الاموال
اذا كنزت وذخرت فى الخزاين لا تنمى واذا كانت فى صلاح الرعية واعطآء
حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وزكت وصلحت العامة وتزينت به الولاة
وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنعة فليكن كنز خزاينک تفريق
الاموال فى عمارة الاسلام واهله وفرق منه على اوليآء امير المومنين قبلک حقوقهم
واوف رعيتک من ذلک حصصهم وتعهد ما يصلح امورهم ومعاشهم
فانک اذا فعلت ذلک قرت النعمة عليک واستوجبت المزيد من الله
عز وجل وكنت بذلک على جباية خراجک وجمع اموال رعيتک وعملک اقدر
وكان الجميع لما شملهم من عدلک واحسانک اسلس لطاعتک واطيب نفسًا
بكل ما اردت فاجهد نفسک فيما حددت لک فى هذا الباب وليعظم خشيتک فيه
فانما يبقى من المال ما انفق فى سبيل الله حقه واعرف للشاكرين شكرهم
واثبهم عليه واياک ان تنسيک الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون
بما يحق عليک فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن
عملک لله عز وجل وفيه وارج الثواب فان الله سبحانه قد اسبغ عليک نعمته
فى الدنيا واظهر لديک فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدک الله
خيرًا واحسانًا فان الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين
وقضى الحق فيما حمل من النعم والبس من الكرامة ولا تحقرن ذنبًا ولا تمالين
حاسدا ولا ترحمن فاجرًا ولا تصلن كفورًا ولا تداهنن عدوًا ولا تصدقن
نمامًا ولا تامنن غدارًا ولا توالين فاسقًا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا
ولا تحقرن انسانًا ولا تردن سائلا فقيرًا ولا تحسنن باطلًا ولا تلاحظن
مضحكًا ولا تخلفن موعدًا ولا ترهبن فخرًا ولا تظهرن غضبًا ولا تاتين زهوًا
ولا تمشين مرحًا ولا تزكين سفيها ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا تدفع
الايام عتابا ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه او محاماة ولا تطلبن ثواب الآخرة
بالدنيا واكثر مشاورة الفقهآء واستعمل نفسک بالحلم وخذ عن اهل التجارب

لاتثمرة

وذوی العقل والرأی والحکمة ولا تدخلن فی مشورتک اهل الرفه والبخل
ولا تسمعن لهم قولاً فان ضررهم اکثر من نفعهم ولیس شیٔ اسرع فساداً لما استقبلت
فیه امر رعیتک من الشح واعلم انک اذا کنت حریصاً کنت کثیر الاخذ قلیل
العطیة واذا کنت کذلک لم یستقم لک امرک الا قلیلاً فان رعیتک انما تعتقد
علی محبتک بالکف عن اموالهم وترک الجور علیهم ویدوم صفاء اولیائک لک
بالافضال علیهم وحسن العطیة لهم فاجتنب الشح واعلم انه اول ما عصی به الانسان
ربه وان العاصی بمنزلة خزی وهو قول الله عز وجل ومن یوق شح نفسه
فاولئک هم المفلحون فسهل طریق الجود بالحق واجعل للمسلمین کلهم من فیئک
حظاً ونصیباً وایقن ان الجود من افضل اعمال العباد فاعدده لنفسک
خلقاً وارض به عملاً ومذهباً وتفقد الجند فی دواوینهم ومکاتبهم وادر
علیهم ارزاقهم ووسع علیهم فی معایشهم لیذهب الله عز وجل بذلک فاقتهم
فیقوی لک امرهم وتزید به قلوبهم فی طاعتک وامرک خلوصاً وانشراحاً
وحسب ذی السلطان من السعادة ان یکون علی جنده ورعیته رحمة فی عدله
وحیطته وانصافه وعنایته وشفقته وبره وتوسعته فزایل مکروه احد البابین
باستشعار فضیلة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالی نجاحاً وصلاحاً
وفلاحاً واعلم ان القضاء من الله تعالی بالمکان الذی لیس به شیٔ من الامور لانه میزان
الله الذی تعتدل علیه احوال الناس فی الارض وباقامة العدل والعدل فی القضاء
والعمل تصلح احوال الرعیة وتأمن السبل وینتصف المظلوم ویأخذ الناس حقوقهم
وتحسن المعیشة ویؤدی حق الطاعة ویرزق الله العافیة والسلامة ویقوم الدین
وتجری السنن والشرایع علی مجاریها به تنجز الحق والعدل فی القضاء ولیکن رجک
ویقر حدک وراشتد فی امر الله عز وجل وتورع عن النطف وامض لاقامة الحدود
واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم ولیکن رجک ویقر حدک
وانتفع بتجربتک وانتبه فی صمتک واسدد فی منطقک وانصف الخصم وقف
عند الشبهة وابلغ فی الحجة ولا تأخذک فی احد من رعیتک محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم
وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفکر وتدبر واعتبر وتواضع لربک وارفق بجمیع
الرعیة وسلط الحق علی نفسک ولا تسرعن الی سفک دم فان الدماء من الله عز وجل
بمکان عظیم انتهاکاً لها بغیر حقها وانظر هذا الخراج الذی استقامت علیه الرعیة وجعله الله

وسهل طریق الجود بالحق

للاسلام عزاً ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه وعدوهم کبتاً وغیظاً
ولاهل الکفر من معاهدیهم ذلاً وصغاراً فوزعه بین اصحابه بالحق والعدل
والتسویة والعموم فیه ولا ترفعن منه شیئاً عن شریف لشرفه ولا عن غنی لغناه
ولا عن کاتب لک ولا عن احد من خاصتک ولا حاشیتک ولا تأخذن منه
فوق الاحتمال ولا تکلفن امراً فیه شططاً واحمل الناس کلهم علی مر الحق فان
ذلک اجمع لالفتهم والزم لرضاء العامة واعلم انک جعلت بولایتک خازناً
وحافظاً وراعیاً وانما سمی اهل عملک رعیتک لانک راعیهم وقیمهم فخذ
منهم ما اعطوک من عفوهم ونفذه فی قوام امرهم وصلاحهم وتقویم اودهم
واستعمل علیهم ذوی الرأی والتدبیر والتجربة والخبرة بالعلم والعمل بالسیاسة
والعفاف ووسع علیهم فی الرزق فان ذلک من الحقوق اللازمة لک فیما تقلدت
واسند الیک ولا یشغلنک عنه شاغل ولا یصرفنک عنه صارف فانک
متی آثرته وقمت فیه بالواجب استدعیت به زیادة النعمة من ربک وحسن
الاحدوثة فی عملک واجتررت به المحبة من رعیتک واعنت علی الصلاح
فدرت الخیرات ببلدک وفشت العمارة بناحیتک وظهر الخصب فی کورک
وکثر خراجک وتوفرت اموالک وقویت بذلک علی ارتضاء جندک وارضاء
العامة باقاضة العطاء فیهم من نفسک وکنت محمود السیاسة مرضی العدل
فی ذلک عند عدوک وکنت فی امورک کلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة
فنافس فی هذا ولا تقدم علیه شیئاً تحمد مغبة امرک ان شاء الله تعالی واجعل
فی کل کورة من عملک امیناً یخبرک اخبار عمالک ویکتب الیک بسیرهم واعمالهم
حتی کانک مع کل عامل معاین لاموره کلها وان اردت ان تأمرهم بامر فانظر
فی عواقب ما اردت من ذلک فان رأیت السلامة فیه والعافیة ورجوت
فیه حسن الدفاع والنصح والصنع فامضه والا فتوقف عنه وراجع اهل البصر والعلم
ثم خذ فیه عدته فانه ربما نظر الرجل فی امر من امره وقد اتاه علی ما یهوی فاغواه
ذلک واعجبه فان لم ینظر فی عواقبه اهلکه ونقض علیه امره فاستعمل الحزم
فی کل ما اردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة واکثر من استخارة
ربک فی جمیع امورک وافرغ من عمل یومک ولا تؤخره واکثر مباشرته
بنفسک فان لغد اموراً وحوادث تلهیک عن عمل یومک الذی اخرت واعلم

ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه واذا اخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك
ذلك حتى تعرض منه واذا امضيت لكل يوم عمله ارحت بدنك ونفسك واحكمت
امور سلطانك وانظر احرار الناس وذوى السن منهم ممن تستيقن صفاء طويتهم
وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على امرك فاستخلصهم واحسن
اليهم وتعاهد اهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم واصلح
حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا وافرد نفسك للنظر فى امور الفقراء والمساكين
ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه
احفى مسئلة ووكل بامثاله اهل الصلاح من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم
اليك لتنظر فيها بما يصلح الله به امرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وارملهم
واجعل لهم ارزاقا من بيت المال اقتداء بامير المؤمنين اعزه الله فى العطف عليهم
والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة واجر للاضراء
من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره فى الجراية على غيرهم
وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم وقواما يرفقون بهم واطباء يعالجون اسقامهم
واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال واعلم ان الناس
اذا اعطوا حقوقهم وافضل امانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب انفسهم دون رفع
حوائجهم الى ولاتهم طمعا فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم وربما برم المتصفح
لامور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذهنه وفكره منها ما يناله به مؤنة ومشقة
وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن اموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل
كالذى يستقبل ما يقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته فاكثر الاذن للناس عليك وأرهم
وجهك وسكن لهم حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم
فى المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك فاذا اعطيت فاعط بسماحة
وطيب نفس والتمس الصنيعة والاجر غير مكدر ولا منان فان العطية على ذلك
تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من امور الدنيا ومن مضى من قبلك من
اهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم فى احوالك
كلها بامر الله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته واقامة دينه
وتجنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك
من الاموال وينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا واكثر مجالسة العلماء

ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن اكرم دخلائك عليك وخاصتك عليك من اذا رأى
عيبا فيك فلا تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك فى سر واعلامك ما فيه من النقص
فان اولئك انصح اوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك
وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وامور كورك ورعيتك ثم فرغ لما يورده عليك
من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبر له فما كان
موافقا للحق والحزم فامضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه
الى التثبت فيه والمسئلة عنه ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم
ولا تقبل من احد الا الوفاء والاستقامة والعون فى امور المسلمين ولا تضعن
المعروف الا على ذلك وتفهم كتابى اليك واكثر النظر فيه والعمل به واستعن
بالله على جميع امورك واستخره فان الله عز وجل مع الصلاح واهله وليكن اعظم
سيرتك وافضل رعيتك ما كان لله عز وجل رضى ولدينه نظاما ولاهله
عزا وتمكينا وللملة وللذمة عدلا وصلاحا وانا اسأل الله عز وجل ان يحسن عونك
وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام وحدث الاخباريون ان هذا الكتاب
لما ظهر وشاع امره اعجب به الناس واتصل بالمأمون ولما قرئ عليه قال ما ابقى
ابو الطيب يعنى طاهرا شيئا من امر الدنيا والدين والتدبير والراى والسياسة
واصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة
الا وقد احكمه واوصى به ثم امر المأمون فكتب به الى جميع العمال فى النواحى ليقتدوا به
ويعملوا بما فيه هذا احسن ما وقفت عليه فى هذه السياسة والله يهدى من يشاء من عباده

فصل فى امر الفاطمى وما يذهب اليه الناس فى شانه وكشف الغطاء عن ذلك

ان من المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على مر الاعصار انه لا بد فى آخر الزمان
من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى
على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدى ويكون خروج الدجال وما بعده من اشراط
الساعة الثابتة فى الصحيح على اثره وان عيسى صلوات الله على نبينا وعليه ينزل من بعده
فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدى فى صلاته
ويحتجون فى الباب باحاديث خرجها الائمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها
ببعض الاخبار وللمتصوفة المتأخرين فى امر هذا الفاطمى طريقة اخرى ونوع من الاستدلال

وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي اوصلهم طرائقهم ونحن الآن نذكر هنا
الاحاديث الواردة في هذا الباب وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في انكارهم
من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة وارائهم ليتبين لك الصحيح من ذلك
ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الائمة خرجوا احاديث المهدي منهم الترمذي
وابو داود والبزار وابن ماجة والحاكم والطبراني وابو يعلى الموصلي واسندوها
الى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وابي هريرة
وانس وابي سعيد الخدري وام حبيبة وام سلمة وثوبان وقرة ابن اياس وعلي
الهلالي وعبد الله بن الحارث بن جزء باسانيد ربما تعرض لها المنكرون
كما نذكره الآن لان المعروف عند اهل الحديث ان الجرح مقدم على التعديل
فاذا وجدنا طعنا في بعض رجال الاسانيد بغفلة او سوء حفظ او قلة ضبط او
ضعف او سوء راي تطرق ذلك الى صحة الحديث واوهن منه ولا تقولن ان
مثل ذلك ربما يتطرق الى رجال الصحيحين فان الاجماع من المحدثين على صحة ما فيهما
كما ذكره البخاري ومسلم والاجماع ايضا قد اتصل في الامة على تلقيهما بالقبول والعمل
بما فيهما وفي الاجماع اعظم حماية واحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك
فقد نجد مجالا للكلام في اسانيدها بما نقل عن ائمة الحديث في ذلك ولقد توغل ابو بكر
ابن خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن
اغربها ما ذكره ابو بكر الاسكاف في فوائد الاخبار مسندا الى مالك بن انس عن محمد بن المنكدر
عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب
بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما احسب وحسبك هذا
غلوا والله اعلم بصحة طريقه الى مالك بن انس على ان ابا بكر الاسكاف متهم وضاع
واما الترمذي فخرج هو وابو داود بسنديهما الى ابن مسعود من طريق عاصم ابن ابي النجود
احد القراء السبعة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم
لو لم يبق من الدنيا الا يوم قال زائدة لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني
او من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي هذا لفظ ابي داود وسكت عليه
وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي
لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي وفي لفظ آخر
حتى يلي رجل من اهل بيتي وقال في كليهما حديث حسن صحيح ورواه ايضا من طريق عاصم

موقوفا على ابي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم
من ائمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما
اصلته من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من ائمة المسلمين انتهى الا ان عاصما
قال فيه احمد بن حنبل كان رجلا صالحا قاريا للقران خيرا ثقة والاعمش احفظ منه
وكان شعبة يختار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في زر
وابي وائل يشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة الا انه كثير
الخطاء في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن
ابي حاتم قلت لابي ان ابا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية
فقال كل من اسمه عاصم سيء الحفظ وقال ابو حاتم محله عندي محل الصدق صالح الحديث
ولم يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن خراش في حديثه نكرة
وقال ابو جعفر العقيلي لم يكن فيه الا سوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شيء وقال
يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته رديء الحفظ وقال سمعت شعبة
يقول حدثنا عاصم عن ابي النجود وفي النفس ما فيها وقال الذهبي ثبت في القراءة وهو
في الحديث دون الثبت صدوق يهم وهو حسن الحديث وان احتج احد بان الشيخين
اخرجا له فانما اخرجا له مقرونا بغيره لا اصلا والله اعلم وخرج ابو داود في الباب
عن علي رضي الله عنه من رواية فطر بن خليفة عن القاسم بن ابي بزة
عن ابي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر
الا يوم لبعث الله رجلا من اهل بيتي يملاها عدلا كما ملئت جورا وفطر بن خليفة
وان وثقه احمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم الا ان العجلي
قال حسن الحديث وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال احمد بن
عبد الله بن يونس كنا نمر على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرة كنت امر به
وادعه مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال ابو بكر بن عياش ما تركت
الرواية عنه الا لسوء مذهبه وقال الجوزجاني زائغ غير ثقة انتهى وخرج ابو داود ايضا
بسنده الى علي رضي الله عنه عن هرون بن المغيرة عن عمر بن ابي قيس عن شعيب
ابن خالد عن ابي اسحق السبيعي قال قال علي ونظر الى ابنه الحسن فقال ان ابني
هذا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم
نبيكم يشبهه في الخلق ثم ذكر قصة يملا الارض عدلا وقال هرون حدثنا

عمرو بن ابی قیس عن مطرف بن ابی طریف عن ابی الحسن عن هلال بن عمر
سمعت علیًا یقول قال النبی صلی الله علیه وسلم یخرج رجل من وراء النهر
یقال له حارث حراث علی مقدمته رجل یقال له منصور یوطئ او یمکن لآل محمد
کما مکنت قریش لرسول الله صلی الله علیه وسلم وجب علی کل مؤمن نصره او قال
اجابته سکت علیه ابو داود وقال فی موضع آخر فی هرون هو من الشیعة
وقال السلیمانی فیه نظر وقال ابو داود فی عمرو بن ابی قیس لا بأس به فی حدیثه
خطاء وقال الذهبی صدوق له اوهام واما ابو اسحق السبیعی وان خرج عنه
فی الصحیحین فقد ثبت انه اختلط آخر عمره وروایته عن علی منقطعة وکذا روایة
ابی داود عن هرون بن المغیرة واما السند الثانی فابو الحسن فیه وهلال بن عمرو
مجهولان ولم یعرف ابو الحسن الا من روایة مطرف بن طریف عنه انتهی وخرج
ابو داود ایضا عن ام سلمة وکذا ابن ماجه والحاکم فی المستدرک من طریق علی بن نفیل
عن سعید بن المسیب عن ام سلمة قالت سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول
المهدی من عترتی من ولد فاطمة لفظ ابی داود وسکت علیه ولفظ ابن ماجة
المهدی من ولد فاطمة ولفظ الحاکم سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یذکر المهدی
فقال نعم هو حق وهو من بنی فاطمة ولم یتکلم علیه بتصحیح ولا غیره وقد ضعفه
ابو جعفر العقیلی وقال لا یتابع عمرو بن نفیل علیه ولا یعرف الا به وخرج ابو داود
ایضا عن ام سلمة من روایة صالح بن ابی الخلیل عن صاحب له عن ام سلمة
عن النبی صلی الله علیه وسلم قال یکون اختلاف عند موت خلیفة فیخرج رجل
من اهل المدینة هاربًا الی مکة فیأتیه ناس من اهل مکة فیخرجونه وهو کاره فیبایعونه
بین الرکن والمقام ویبعث الیه بعث من الشام فیخسف بهم بالبیداء بین مکة والمدینة
فاذا رای الناس ذلک اتاه ابدال الشام وعصائب اهل العراق فیبایعونه ثم ینشأ
رجل من قریش اخواله کلب فیبعث الیهم بعثًا فیظهرون علیهم وذلک بعث کلب
والخیبة لمن لم یشهد غنیمة کلب فیقسم المال ویعمل فی الناس بسنة نبیهم صلی الله
علیه وسلم ویلقی الاسلام بجرانه الی الارض فیلبث سبع سنین ثم یتوفی ویصلی علیه
المسلمون قال ابو داود وقال بعضهم عن هشام تسع سنین وقال بعضهم سبع
سنین ثم رواه ابو داود من روایة ابی الخلیل عن عبد الله بن الحارث عن ام سلمة
فتبین بذلک المبهم فی الاسناد الاول ورجاله رجال الصحیحین لا مطعن فیهم

ولا مغ

ولا مغمز وقد یقال انه من روایة قتادة عن ابی الخلیل وقتادة مدلس وقد
عنعنه والمدلس لا یقبل من حدیثه الا ما صرح فیه بالسماع مع ان الحدیث لیس فیه
تصریح بذکر المهدی نعم ذکره ابو داود فی ابوابه وخرج ابو داود وایضا وتابعه
الحاکم عن ابی سعید الخدری من طریق عمران القطان عن قتادة عن ابی نضرة
عن ابی سعید الخدری قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم المهدی منی اجلی الجبهة
اقنی الانف یملأ الارض قسطًا کما ملئت جورًا وظلمًا یملک سبع سنین هذا
لفظ ابی داود وسکت علیه ولفظ الحاکم منا اهل البیت اشم الانف اقنی
اجلی یملأ الارض قسطًا وعدلًا کما ملئت جورًا وظلمًا یعیش هکذا وبسط یساره
واصبعین من یمینه السبابة والابهام وعقد ثلثة قال الحاکم هذا حدیث صحیح
علی شرط مسلم ولم یخرجاه وعمران القطان مختلف فی الاحتجاج به وانما اخرج له
البخاری استشهادًا لا اصلًا وکان یحیی القطان لا یحدث عنه وقال یحیی بن معین
لیس بالقوی وقال مرة لیس بشیء وقال احمد بن حنبل ارجو ان یکون صالح الحدیث
وقال یزید بن زریع کان حروریًا وکان یری السیف علی اهل القبلة وقال النسائی
ضعیف وقال ابو عبید الآجری سألت ابا داود عنه فقال من اصحاب الحسن
وما سمعت الا خیرًا وسمعته ذکره مرة اخری فقال ضعیف افتی فی ایام ابراهیم بن عبد الله
ابن حسن بفتوی شدیدة فیها سفک الدماء وخرج الترمذی وابن ماجة والحاکم
عن ابی سعید الخدری من طریق زید العمی عن ابی الصدیق الناجی عن ابی سعید الخدری
قال خشینا ان یکون بعد نبینا حدث فسألنا نبی الله صلی الله علیه وسلم فقال ان فی
امتی المهدی یخرج یعیش خمسًا او سبعًا او تسعًا زید الشاک قال قلنا وما ذاک قال
سنین قال فیجیء الیه الرجل فیقول یا مهدی اعطنی قال فیحثی له فی ثوبه ما استطاع
ان یحمله لفظ الترمذی وقال هذا حدیث حسن وقد روی من غیر وجه عن ابی سعید
عن النبی صلی الله علیه وسلم ولفظ ابن ماجة والحاکم یکون فی امتی المهدی ان قصر
فسبع والا فتسع فتنعم فیه امتی نعمة لم یسمعوا بمثلها قط تؤتی الارض اکلها
ولا تدخر منهم شیئًا والمال یومئذ کدوس فیقوم الرجل فیقول یا مهدی اعطنی فیقول
خذ انتهی وزید العمی وان قال فیه الدارقطنی واحمد بن حنبل ویحیی بن معین انه صالح
وزاد احمد انه فوق یزید الرقاشی وفضل ابن عیسی الا انه قال فیه ابو حاتم ضعیف
یکتب حدیثه ولا یحتج به وقال یحیی بن معین فی روایة اخری لا شیء وقال مرة یکتب حدیثه

حمنا اوه

وهو ضعيف وقال الجوزجاني متماسك وقال ابو زرعة ليس بقوي واهي الحديث
ضعيف وقال ابو داود ليس بذاك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف
وقال ابن عدي عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء على ان شعبة قد روى عنه
ولعل شعبة لم يرو عن اضعف منه وقد يقال ان حديث الترمذي وقع تفسيرا
لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون
في آخر امتي خليفة يحثي المال حثيا لا يعده عدا ومن حديث ابي سعيد قال من
خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ومن طريق آخر عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة
يقسم المال ولا يعده انتهى واحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم
على انه المراد بها • ورواه الحاكم ايضا من طريق عوف الاعرابي عن ابي الصديق
الناجي عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة
حتى تملأ الارض ظلما وجورا وعدوانا ثم يخرج من اهل بيتي من يملأها قسطا
وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا حديث على شرط الشيخين
ولم يخرجاه ورواه الحاكم ايضا من طريق سليمان بن عبيد عن ابي الصديق الناجي
عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر امتي المهدي
يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم
الامة يعيش سبعا او ثمانيا يعني حججا وقال فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع ان
سليمان بن عبيد لم يخرج له احد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرا احدا
تكلم فيه ثم رواه الحاكم ايضا من طريق اسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر
الوراق وابي هرون العبدي عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال تملأ الارض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي يملك
سبعا او تسعا فيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم فيه
هذا حديث صحيح على شرط مسلم وانما جعله على شرط مسلم لانه اخرج عن حماد بن سلمة
وعن شيخه مطر الوراق واما شيخه الآخر وهو ابو هرون العبدي فلم يخرج له وهو ضعيف
جدا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط اقوال الائمة في تضعيفه واما الراوي له عن حماد
ابن سلمة وهو اسد بن موسى يلقب اسد السنة وان قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به
في صحيحه واحتج به ابو داود والنسائي الا انه قال مرة اخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا له
وقال فيه ابو محمد بن حزم منكر الحديث • ورواه الطبراني في معجمه الاوسط من رواية

ابي الواصل عبد الحميد بن واصل عن ابي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي
احد بني بهدلة عن ابي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
يخرج رجل من امتي يقوم بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج له الارض
من بركتها تملأ الارض منه قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الامة
سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال فيه الطبراني رواه جماعة عن ابي الصديق
ولم يدخل احد منهم بينه وبين ابي سعيد احدا الا ابا الواصل فانه رواه عن الحسن
ابن يزيد عن ابي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن ابي حاتم ولم يعرفه باكثر
مما في هذا الاسناد من روايته عن ابي سعيد ورواية ابي الصديق عنه وقال الذهبي
في الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات واما ابو الواصل الذي رواه
عن ابي الصديق فلم يخرج له احد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة
الثانية وقال فيه يروي عن انس روى عنه شعبة وعتاب بن بشير وخرج
ابن ماجة في كتاب السنن له عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن ابي زياد
عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذ اقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه
وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئا نكرهه فقال انا اهل بيت اختار الله
لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا
حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه
فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من اهل بيتي
فيملأها قسطا كما ملؤها جورا فمن ادرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج
انتهى وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن ابي زياد راويه
قال فيه شعبة كان رفاعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد
ابن فضيل كان من كبار ائمة الشيعة وقال احمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة
حديثه ليس بذاك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكان
باخرة يلقن وقال ابو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابو داود لا اعلم
احدا ترك حديثه وغيره احب الي منه وقال ابن عدي هو من شيعة اهل الكوفة
ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالاكثرون على ضعفه
وقد صرح الائمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله

بقول ع

وهو حديث الرايات فقال وكيع بن الجراح ليس بشيء وكذلك قال احمد بن حنبل وقال
ابو قدامة سمعت ابا اسامة يقول في حديث يزيد عن ابراهيم في الرايات لو حلف
عندي خمسين يمينا قسامة ما صدقته اهذا مذهب ابراهيم اهذا مذهب علقمة اهذا
مذهب عبد الله واورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح
وخرج ابن ماجة عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي عن ابراهيم بن محمد بن
الحنفية عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا
اهل البيت يصلحه الله في ليلة وياسين العجلي وان قال فيه ابن معين ليس به بأس
فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة في اصطلاحه قوية في التضعيف جدا
واورد له ابن عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له
وقال هو معروف به وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن علي رضي الله عنه انه قال للنبي
صلى الله عليه وسلم امنا المهدي ام من غيرنا يا رسول الله قال بل منا بنا يختم الله
كما بنا فتح وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة الشرك
قال علي امؤمنون ام كافرون قال مفتون وكافر انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة
وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمرو بن جابر الحضرمي وهو اضعف منه قال
احمد بن حنبل روى عن جابر مناكير وبلغني انه كان يكذب وقال النسائي ليس بثقة وقال
وكان ابن لهيعة شيخا احمق ضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب وكان يجلس معنا
فيبصر سحابة فيقول هذا علي قد مر في السحاب وخرج الطبراني ايضا عن علي رضي الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها
كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا اهل الشام ولكن سبوا اشرارهم فان فيهم الابدال
يوشك ان يرسل على اهل الشام سيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم
الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من اهل بيتي في ثلاث رايات المكثر يقول
هم خمسة عشر الفا والمقلل يقول هم اثنا عشر الفا امارتهم امت امت يلقون سبع
رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله الى المسلمين
الفتهم ونعمتهم وقاصيهم ورأيهم انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف
الحال ورواه الحاكم في مستدركه فقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وفي روايته ثم يظهر
الهاشمي فيرد الله الناس الى الفتهم الى آخره وليس في طريقه ابن لهيعة وهو اسناد
صحيح كما ذكر وخرج الحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه من رواية ابي الطفيل

عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال هيهات
ثم عقد بيده سبعا فقال ذاك يخرج في آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل
فيجمع الله تعالى له قوما قزع كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم لا يستوحشون الى
الى احد ولا يفرحون باحد دخل فيهم على عدة اصحاب بدر لم يسبقهم الاولون
ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد اصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال ابو
الطفيل قال ابن الحنفية اتريده قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الاخشبين
قلت لا جرم والله لا اريمها حتى اموت فمات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث
صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما هو على شرط مسلم فقط فان فيه عمارا الدهني ويونس
ابن ابي اسحاق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العنقزي ولم يخرج له البخاري
احتجاجا بل استشهادا مع ما ينضم الى ذلك من تشيع عمار الدهني وهو وان وثقه
احمد وابن معين وابو حاتم والنسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان ان بشر بن مروان
قطع عرقوبيه قلت في اي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجة عن انس بن مالك
رضي الله عنه من رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن
عكرمة بن عمار عن اسحاق بن عبد الله عن انس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول نحن ولد عبد المطلب سادة اهل الجنة انا وحمزة وعلي وجعفر والحسن و
الحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وان اخرج له مسلم فانما اخرج له متابعة وقد ضعفه
بعض ووثقه آخرون وقال ابو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل الا ان يصرح بالسماع
وعلي بن زياد قال الذهبي في الميزان لا يدرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد
وسعد بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به
بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لانه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان
كان ممن فحش خطاؤه فلا يحتج به وقال احمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعي انه سمع
عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك هو ههنا ببغداد لم يحج فكيف سمعها
وجعله الذهبي ممن يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية
مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي عبد الله بن عباس لو لم اسمع
انك مثل اهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه في ستر لا اذكره
لمن يكره قال فقال ابن عباس منا اهل البيت اربعة منا السفاح ومنا المنذر
ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال له مجاهد فبين لي هؤلاء الاربعة فقال

ان السفاح فربما قتل انصاره وعفى عن عدوه واما المنذر اراه قال فانه يعطي المال
الكثير لا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه واما المنصور فانه يعطي النصر
على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم يرعب منه عدوه على مسيرة
شهرين والمنصور يرعب منه عدوه على مسيرة شهر واما المهدي الذي يملأ الارض
عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلقي الارض افلاذ كبدها قال قلت
وما افلاذ كبدها قال امثال الاسطوانة من الذهب والفضة انتهى وقال الحاكم
حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن ابيه
واسمعيل ضعيف وابوه ابراهيم وان خرج له مسلم فالاكثرون على تضعيفه وخرج
ابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلثة
كلهم ابن خليفة ثم لا يصير الى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق
فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شيئا لا احفظه فقال فاذا رأيتموه فبايعوه
ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدي انتهى ورجاله رجال الصحيح الا ان فيه
ابا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره انه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور
بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام
وكان مشهورا بالتشيع وعمي في آخر عمره فخلط قال ابن عدي حدث باحاديث
في الفضائل لم يوافقه عليها احد ونسبوه الى التشيع انتهى وخرج ابن ماجة
عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن لهيعة عن ابي زرعة عمرو بن
جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه قال الطبراني تفرد به ابن لهيعة
وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجه الطبراني في معجمه الاوسط ان ابن لهيعة
ضعيف وان شيخه عمرو بن جابر اضعف منه وخرج البزار في مسنده والطبراني
في معجمه الاوسط واللفظ للطبراني عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال يكون في امتي المهدي ان قصر فسبع والا فثمان (فثمان) والا فتسع تنعم
امتي فيها نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الارض شيئا
من النبات والمال كدوس يقوم الرجل يا مهدي اعطني فيقول خذ قال الطبراني
والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم تابعه عليه احد وهو وان
وثقه ابو داود وابن حبان ايضا بما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح

وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال ابو زرعة ليس عندي بذاك وقال
عبد الله بن احمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العقيلي وحدث باحاديث
وانا شاهد لم اكتبها تركتها على عمد وكتب بعض اصحابنا عنه كانه ضعفه وخرج
ابن يعلى الموصلي في مسنده عن ابي هريرة قال حدثني خليلي ابو القاسم صلى الله
عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من اهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا
الى الحق قال قلت وكم يملك قال خمسا واثنتين قال قلت ما خمس واثنتين قال
لا ادري انتهى وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه ابو حاتم لا يحتج به
فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا الى قول ابي حاتم لا يحتج به الا ان فيه
مرجا بن رجا اليشكري وهو مختلف فيه قال ابو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين
ضعيف وقال ابو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له البخاري في صحيحه حديثا
واحدا وخرج ابو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والاوسط عن قرة
ابن اياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأن الارض جورا وظلما
فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا مني اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي يملأها
عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما فلا تمنع السماء شيئا من قطرها ولا الارض
شيئا من نباتها يلبث فيكم سبعا او ثمانيا او تسعا يعني سنين انتهى وفيه داود
ابن المحبر بن قحذم عن ابيه وهما ضعيفان جدا وخرج الطبراني في معجمه الاوسط
عن ام حبيبة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج ناس من قبل المشرق
يريدون رجلا عند البيت حتى اذا كانوا ببيداء من الارض خسف بهم فيلحق
بهم من تخلف فيصيبهم ما اصابهم قلت يا رسول الله كيف بمن كان اخرج مستكرها
قال يصيبهم ما اصاب الناس ثم يبعث الله كل امرئ على نيته انتهى وفيه سلمة بن الابرش
وهو ضعيف وفيه محمد بن اسحاق وهو مدلس وقد عنعن ولا يقبل الا ان يصرح
بالسماع وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم في نفر من المهاجرين والانصار علي بن ابي طالب عن يساره والعباس
عن يمينه اذ تلاحى العباس ورجل من الانصار فاغلظ الانصاري للعباس فاخذ
النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي فقال سيخرج من صلب هذا حتى يملأ
الارض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض قسطا وعدلا فاذا رأيتم
ذلك فعليكم بالفتى التميمي فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي

انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمرى وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان انتهى و
خرج الطبرانى فى معجمه الاوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم
قال ستكون فتنة لا يهدأ منها جانب الا جاش منها جانب حتى ينادى مناد
من السماء ان اميركم فلان انتهى وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جدًّا
وليس فى الحديث تصريح بذكر المهدى وانما ذكروه فى ابوابه وترجمته استيناسًا
هذه الجملة الاحاديث التى خرجها الائمة فى المهدى وخروجه آخر الزمان
وهى كما رأيت لم يخلص منها على النقد الا القليل والاقل منه وربما تمسك
المنكرون لشانه بما رواه محمد بن خالد الجندى عن ابان بن صالح بن ابى عياش
عن الحسن البصرى عن انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال
لا مهدى الا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين فى محمد بن خالد الجندى انه ثقة وقال
البيهقى تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه فى اسناده
فمرةً يروونه كما تقدم وينسب ذلك الى محمد بن ادريس الشافعى ومرةً يروى
عن محمد بن خالد عن ابان عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلًا قال البيهقى
فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان بن ابى عياش وهو متروك عن الحسن
عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب
وقد قيل ان معنى لا مهدى الا عيسى اى لا يتكلم فى المهد الا عيسى يحاولون بهذا
التاويل رد الاحتجاج به او الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث جريج
ومثله من الخوارق واما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون فى شىء من هذا
وانما كان كلامهم فى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والاحوال
وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل على رضى الله عنه والقول
بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى صلى الله عليه وسلم والتبرى من الشيخين
كما ذكرناه فى مذاهبهم ثم جاء الاسماعيلية منهم يدعون الوهية الامام بنوع الحلول
وآخرون يدعون رجعة من مات منهم وآخرون ينتظرون عود الامر فى اهل
البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من احاديث المهدى وغيرها ثم حدث
ايضا عند المتاخرين من المتصوفة الكلام فى الكشف وفيما وراء حجاب الحس وظهر
من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية
والرافضة لقولهم بالوهية الائمة او حلول الاله فيهم وظهر منهم ايضا القول بالقطب

من الائمة بنوع التناسخ او الحقيقة وآخرون ينتظرون
مجى من يقطع بموته منهم صح

والابدال

والابدال وكانه يحاكى مذهب الرافضة فى الامام والنقباء واشربوا اقوال الشيعة
وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقتهم فى لباس الخرقة ان عليا
رضى الله عنه البسها الحسن البصرى واخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل
ذلك عندهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن على من وجه صحيح ولم تكن هذه
الطريقة خاصة بعلى كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم اسوة فى طرق الدين وفى تخصيص
هذا بعلى دونهم رائحة من التشيع قوية تفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم فى التشيع
وانخراطهم فى سلكه ثم امتلأت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتاخرين
من المتصوفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه
بعض عن بعض وكله مبنى على اصول واهية من الفريقين وربما يستند بعضهم فى ذلك
الى كلام المنجمين فى القرانات وهو من نوع الكلام فى الملاحم وياتى الكلام عليها فى الباب
الذى يلى هذا واكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتاخرين فى شان الفاطمى ابن العربى
الحاتمى فى كتاب عنقاء مغرب وابن قسى فى كتاب خلع النعلين وعبد الحق ابن سبعين
وابن ابى واطيل من تلميذه فى شرحه لكتاب خلع النعلين واكثر كلماتهم فى شانه
الغاز وامثال وربما يصرحون فى الاقل او يصرح مفسروا كلامهم وحاصل مذهبهم فيه
على ما ذكر ابن ابى واطيل ان النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها
تعقبها الخلافة ثم تعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبرًا وتكبرًا وباطلًا قالوا ولما كان
فى المعهود من سنة الله رجوع الامور الى ما كانت وجب ان يحيى امر النبوة والحق
بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله
كما كان قبل النبوة يشيرون بهذا الى ما وقع بعد النبوة من الخلافة ثم بعدها الملك
وهى ثلاث مراتب فكذلك ايضا الولاية التى لهذا الفاطمى الذى يحيى امر النبوة
والحق ثم خلافة اثره بعده ثم الدجل بعدها وهو الباطل الذى كنى عنه بخروج الدجال
فهى ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة
قالوا ولما كان امر الخلافة لقريش حكما شرعيًا بالاجماع الذى لا يوهنه انكار من لم يزاول
علمه وجب ان تكون الامامة فيمن هو اخص من قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم
اما ظاهرًا فبنى عبد المطلب واما باطنًا فممن كان من حقيقة الآل والآل من اذا حضر
لم يغب من هو آله وابن العربى الحاتمى سماه فى كتاب عنقاء مغرب من تاليفه
خاتم الاولياء وكنى عنه بلبنة الفضة اشارةً الى حديث البخارى فى باب

خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلي فيمن قبلي من الانبياء كمثل رجل ابتنى
بيتاً واكمله حتى اذا لم يبق منه الا موضع لبنة فانا تلك اللبنة فيفسرون خاتم
النبيين باللبنة التي اكملت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة
الكاملة ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال
فيها خاتماً للاولياء اي حايزا للرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الانبياء
حايزاً للرتبة التي لها خاتمة النبوة ولما كنى الشارع عن تلك الرتبة الخاتمة
بلبنة البيت في الحديث المذكور وهم على نسبة واحدة فيهما فهي لبنة واحدة
في التمثيل ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين
كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم
ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر ذاك خاتم الانبياء وهذا خاتم
الاولياء قال ابن العربي فيما نقل ابن ابي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو
من اهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون بعد مضي خ ف ج من الهجرة
ورسم حروفاً ثلثة يريد عددها بحساب الجمل وهي الخاء المعجمة بواحدة من فوق
بستمائة والفاء اخت القاف بثمانين والجيم المعجمة بواحدة من اسفل بثلثة
وذلك ستمائة وثلاثة وثمانون سنة وهو في آخر القرن السابع ولما انصرم
هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على ان المراد بتلك المدة
مولده وعبر بظهوره عن مولده وان خروجه يكون عند العشر والسبعمائة وانه
الامام الناجم من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة
ثلث وثمانين وستمائة فيكون عمره يوم خروجه ستاً وعشرين سنة قال وزعموا
ان خروج الدجال يكون سنة ثلث واربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي وابتداء
اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى تمام الف سنة
وقال ابن ابي واطيل في شرحه كتاب خلع النعلين الولي المنتظر القايم بامر الله
المشار اليه بمحمد المهدي وخاتم الاولياء ليس هو بنبي وانما هو ولي ابتعثه روحه
وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه كالنبي في امته وقال علماء امتي
كانبياء بني اسرائيل ولم تزل البشرى تتتابع به من اول اليوم المحمدي الى قبيل الخمسمائة
نصف اليوم وتاكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته وازدلاف
زمانه منذ انقضت الى هلم جراً قال وذكر الكندي ان هذا الولي هو الذي يصلي

بالناس صلاة الظهر ويجدد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الاندلس
ويصل الى رومية فيفتحها ويسير الى المشرق فيفتحه ويفتح قسطنطينية ويصير
ملك الارض فيتقوى المسلمون ويعلو الاسلام ويظهر دين الحنيفية فان من
صلوة الظهر الى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه السلام ما بين هذين وقت
وقت وقال الكندي ايضاً الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتتح بها سور
القرآن جملة عددها بحساب الجمل سبعمائة وثلاثة واربعون وسبعة دجالية
ثم ينزل عيسى في وقت صلوة العصر فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب
ثم يبلغ ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة وستون عاماً عدد الحروف المعجمة
وهي ق ي ن دولة العدل منها اربعون عاماً قال ابن ابي واطيل وما ورد
من قوله لا مهدي الا عيسى فهذا مدفوع بحديث جريج وغيره وقد جاء في الصحيح
فمعناه لا مهدي تساوي هدايته وقيل لا يتكلم في المهد الا عيسى صح
قال لا يزال هذا الامر قايماً حتى تقوم الساعة او يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني
قريشاً وقد اعطى الوجود ان منهم من كان في اول الاسلام ومنهم من سيكون
في آخره وقال الخلافة بعدي ثلثون او احدى وثلثون او ستة وثلثون وانقضاؤها
في خلافة الحسن واول امر معاوية فيكون اول امر معاوية خلافة اخذاً باوائل
الاسماء فهو سادس الخلفاء واما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز ثم الباقون
خمسة من اهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله انك لذو قرنيها يريد الامة اي انك
خليفة في اولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة
فالاول هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم
اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده
لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وقد انفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله
والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر بفتح القسطنطينية
فنعم الامير اميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه
بضع والبضع من ثلث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكر اربعين وفي بعض
الروايات سبعين واما الاربعون فانه مدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقين من
اهله القايمين بامره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر اصحاب النجوم والقرانات
ان مدة بقاء امره واهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً فيكون الامر
على هذا جارياً على الخلافة والعدل اربعين او سبعين ثم تختلف الاحوال فيكون

ملكا انتهى كلام ابن ابى واطيل وقال فى موضع آخر نزول عيسى يكون فى وقت
صلوة العصر من اليوم المحمدى حين تمضى ثلثة ارباعه قال وذكر الكندى يعقوب
ابن اسحاق فى كتاب الجفر الذى ذكر فيه القرانات انه اذا وصل القران الى الثور
على راس ضح بحرفى الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة
من الهجرة ينزل المسيح فيحكم فى الارض ما شاء الله قال وقد ورد فى الحديث
ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ينزل بين مهرودتين يعنى حلتين
مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعا كفيه على اجنحة الملكين له لمة كانما خرج
من ديماس اذا طاطا راسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان
الوجه وفى حديث آخر مربوع الخلق والى البياض والحمرة وفى آخر انه يتزوج
فى الغرب والغرب دلو البادية يريد انه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته
بعد اربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب
وجاء ان ابا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن ابى واطيل والشيعة
تقول انه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد وعليه حمل بعضهم حديث لا مهدى
اى لا يكون مهدى الا عيسى اى لا يكون مهدى الا المهدى الذى نسبته
الى الشريعة المحمدية نسبة عيسى الى الشريعة الموسوية فى الاتباع وعدم النسخ
الى كلام من امثال هذا كثير يعينون فيه الوقت والرجل والمكان فينقضى
الزمان ولا اثر لشىء من ذلك فيرجعون الى تجديد رأى آخر منتحل كما تراه من
مفهومات لغوية واشياء تخييلية واحكام نجومية فى هذا انقضت
اعمار الاول منهم والآخر واما المتصوفة الذين عاصرناهم فاكثرهم يشيرون
الى ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب
من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه عن
جماعة اكبرهم ابو يعقوب البادسى كبير الاولياء بالمغرب كان فى اول هذه
المائة الثامنة واخبرنى عنه حافده ابو زكريا يحيى عن ابيه ابى محمد عبد الله
عن ابيه الولى ابى يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه او بلغنا من كلام
هؤلاء المتصوفة وما اورده اهل الحديث من اخبار المهدى قد استوفينا جميعه
بمبلغ طاقتنا والحق الذى ينبغى ان يتقرر لديك انه لا تتم دعوة من الدين
والملك الا بوجود شوكة وعصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم

امر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين الطبيعية التى اريناكها
هنالك وعصبية الفاطميين والطالبيين بل وقريش اجمع قد تلاشت
من جميع الآفاق ووجد امم آخرون استعلت عصبيتهم على عصبية قريش الا ما بقى
بالحجاز فى مكة وينبع والمدينة من الطالبيين من بنى حسن وبنى حسين وبنى
جعفر منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون
فى مواطنهم وامارتهم وآرائهم يبلغون الآلاف من الكثرة فان صح ظهور
هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته الا بان يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم
فى اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها
واما على غير هذا الوجه مثل ان يدعو الناس فاطمى منهم الى مثل ذلك الامر
فى افق من آفاق الارض من غير عصبية ولا شوكة الا مجرد نسبة فى اهل البيت
فلا يتم ذلك ولا يمكن لما اسلفناه من البراهين الصحيحة واما ما تدعيه العامة
والاغمار من الدهماء ممن لا يرجع فى ذلك الى عقل يهديه ولا علم يفيده فيتحينون
ذلك على غير نسبة وفى غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور رجل فاطمى
ولا يعلمون حقيقة الامر فيه كما بيناه واكثر ما يتحينونه فى القاصية من الممالك
واطراف العمران مثل الزاب بافريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير
من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة من ارض السوس يتحينون
هنالك لقاءه زعما منهم انه يظهر بذلك الرباط وانه يبايع هنالك ولمكان
ذلك الرباط بالقرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم انه منهم او قائمون بدعوته
زعما لا مستند له الا غرابة تلك الامم وبعدهم عن يقين المعرفة باحوالها
من كثرة او قلة او ضعف او قوة ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها
عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام فى ظهوره هنالك لخروجه عن ربقة
الدول ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم فى ذلك الا هذا ولقد يقصد
ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تمنيه النفس تمامها
وسواسا وحمقا وقتل كثير منهم اخبرنى شيخنا محمد بن ابرهيم الابلى
قال خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب
رجل من منتحلى التصوف يعرف بالتويزرى نسبة الى توزر مصغرا
وادعى انه الفاطمى المنتظر واتبعه كثير من اهل السوس من ضناكة وكزولة .

وعظم امره وكاد يستفحل وخافه رؤساء المساندة على امرهم فدسّ عليه
السكيوى من قتله بياتا وانحل امره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة
السابعة والعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمي
واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة بادس عنوة وحرق اسواقها وارتحل
الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم امره وكثير من هذا النمط واخبرني
شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو انه صحب في حجه من رباط العباد
وهو مدفن الشيخ ابي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلاً من اهل البيت
من سكان كربلا كان متبوعاً معظماً كثير التلميذ والخادم قال وكان
الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في اكثر البلدان قال وتأكدت
الصحبة بيننا في تلك الطريق فانكشف لي امرهم وانهم جاؤوا من موطنهم
بكربلاء لطلب هذا الامر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عاين دولة
بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه
ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا ويدل هذا
القول من هذا الرجل على انه مستبصر في ان الامر لا يتم الا بالعصبية المكافئة
لاهل الوقت فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصبية
بني مرين لذلك العهد لا يقاومها احد من اهل المغرب استكان ورجع الى
الحق واقصر عن مطامعه وبقي عليه ان يستيقن ان عصبية الفواطم
وقريش اجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب الا ان التعصب لشأنه لم يتركه
لهذا القول والله يعلم وانتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور
القريبة نزعة من الدعاء الى الحق والقيام بالسنة
لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان
الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه
واكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما ان اكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه
من طبيعة معاشهم فيأخذون انفسهم في تغيير المنكر باصلاح السابلة ما استطاعوا
الا ان الصبغة الدينية فيهم لا تستحكم لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين
انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم و
اقبالهم على مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها قبل

التوبة ومنها توبتهم فتجد تابع ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة
غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب
والبغي وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش باقصى جهدهم
وشتان بين طلب هذا الامر من صلاح الخلق وبين طلب الدنيا فاتفاقهما
ممتنع فلا تستحكم لهم صبغة في الدين ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة
ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته
في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل امرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع
ذلك بافريقية لرجل من بني كعب من سليم يسمى قاسم بن مرا بن احمد في المائة
السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم
وكان يسمى سعادة وكان اشد ديناً من الاول واقوم طريقة في نفسه
ومع ذلك فلم يستتب امر تابعه لما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه
عند ذكر قبائل سليم ورياح ومن بعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون
بمثل ذلك ويلبسون فيه وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم
لهم ولا لمن بعدهم شيء من امرهم سنة الله في عباده فصل
في حدثان الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر
اعلم ان من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب امورهم وعلم ما يحدث
لهم من حياة او موت او خير او شر سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا
او معرفة مدد الدول وبقائها فالتطلع الى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها ولذلك
تجد الكثير من الناس يتشوفون الى الوقوف على ذلك في المنام والاخبار عن الكهان
في قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس
ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات
والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها
بل وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب امورهم في الكسب والجاه والعشرة
والعداوة وامثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصى والحبوب
ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهي من المنكرات
الفاشية في الامصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك وان البشر محجوبون عن
الغيب الا من اطلعه الله عليه من عنده في نوم او ولاية واكثر ما يعتني بذلك ويتطلع اليه

الملوك والامرآء فی آماد دولهم ولذلک انصرفت العنایة من اهل العلم الیه
وکل امة من الامم فیوجد لهم الکلام من کاهن او منجم او ولی فی مثل ذلک
من ملک یرتقبونه او دولة یحدثون انفسهم بها وما یحدث لهم مع الامم
من الحروب والملاحم ومدة بقآء الدولة وعدد الملوک فیها والتعرض لاسمائهم
ویسمی مثل هذه الحدثان وکان فی العرب الکهان والعرافون یرجعون الیهم فی
ذلک وقد اخبروا بما سیکون للعرب من الملک والدولة کما وقع لشق
وسطیح فی تاویل رؤیا ربیعة بن نصر من ملوک الیمن اخبرهم بملک الحبشة
بلادهم ثم رجوعها الیهم ثم ظهور الملة والدولة للعرب من بعد ذلک وکذا
تاویل سطیح لرؤیا الموبذان بعث الیها به کسری مع عبد المسیح واخبره بظهور
الدولة للعرب وکذا کان فی جیل البربر کهان وکان من اشهرهم موسی بن صالح
من ابی یفرن وقیل من غمرت وله کلمات حدثانیة علی طریقة الشعر برطانتهم
وفیها حدثان کثیر ومعظمه فیما یکون لزناتة من الملک والدولة بالمغرب وهی
متداولة بین اهل الجیل وهم یزعمون تارة انه ولی وتارة انه کاهن وقد یزعم
فی بعض مزاعمهم انه کان نبیا لان تاریخه عندهم قبل الهجرة بکثیر وقد یستند الجیل
فی ذلک الی خبر الانبیاء ان کانوا لعهدهم کما وقع لبنی اسرائیل فان انبیاءهم
المتعاقبین فیهم کانوا یخبرونهم بمثله عندما یعنتون فی السوال عنه واما فی الدولة
الاسلامیة فوقع منه کثیر فیما یرجع الی بقآء الدنیا ومدتها علی العموم وفیما یرجع الی
الدول واعمارها علی الخصوص وکان المعتمد فی ذلک صدر الاسلام اثار
منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بنی اسرائیل مثل کعب الاحبار ووهب
ابن منبه وامثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلک من ظواهر ماثورة وتاویلات
محتملة ووقع لجعفر الصادق وامثاله من اهل البیت کثیر من ذلک مستندهم فیه
والله اعلم الکشف بما کانوا علیه من الولایة واذا کان مثله لا ینکر من غیرهم
من الاولیآء فی ذویهم واعقابهم وقد قال صلی الله علیه وسلم ان فیکم محدثین
فهم اولی الناس بهذه الرتب الشریفة والکرامات الموهوبة واما بعد
صدر الملة وحین عکف الناس علی العلوم والاصطلاحات وترجمت کتب
الحکمآء الی اللسان العربی فاکثر معتمدهم فی ذلک کلام المنجمین فی الملک والدول
وسایر الامور العامة من القرانات وفی الموالید والمسایل وسایر الامور الخاصة

من الطوالع لها وهی شکل الفلک عند حدوثها فلنذکر الآن ما وقع لاهل الاثر
فی ذلک ثم نرجع الی کلام المنجمین اما اهل الاثر فلهم فی مدة الملة وبقآء الدنیا
ما وقع فی کتاب السهیلی فانه نقل عن الطبری ما یقتضی ان مدة بقآء الدنیا
منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلک بظهور کذبه ومستند الطبری فی ذلک
انه نقل عن ابن عباس ان الدنیا جمعة من جمع الآخرة ولم یذکر لذلک
دلیلا وسره والله اعلم تقدیر الدنیا بایام خلق السموات والارض وهی
سبعة ثم الیوم بالف سنة لقوله وان یوما عند ربک کالف سنة مما تعدون
قال وقد ثبت فی الصحیح انه صلی الله علیه وسلم قال اجلکم فی اجل من کان قبلکم
من صلوة العصر الی غروب الشمس وقال بعثت انا والساعة کهاتین واشار
بالسبابة والوسطی وقدر ما بین صلوة العصر وغروب الشمس عند صیرورة ظل
کل شیء مثلیه یکون علی التقریب نصف سبع وکذلک فضل الوسطی علی السبابة
فتکون هذه المدة نصف سبع الجمعة کلها وهو خمسمائة سنة ویوید قوله صلی الله علیه
وسلم لن یعجز الله ان یوخر هذه الامة نصف یوم فدل ذلک ان مدة الدنیا قبل
الملة خمسة الاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه انها خمسة آلاف وستمائة اعنی
الماضی وعن کعب ووهب ان مدة الدنیا کلها ستة الاف سنة ثم قال السهیلی
ولیس فی الحدیثین ما یشهد لشیء مما ذکره مع وقوع الوجود بخلافه فاما قوله لن یعجز الله
ان یوخر هذه الامة نصف یوم فلا یقتضی نفی الزیادة علی النصف واما قوله علیه السلام
بعثت انا والساعة کهاتین فانما فیه الاشارة الی القرب وانه لیس بینه وبین الساعة
نبی غیره ولا شرع غیر شرعه ثم رجع السهیلی الی تعیین امد الملة من مدرک آخر لو ساعده
التحقیق وهو ان جمع الحروف المقطعة فی اوایل السور بعد حذف المکرر قال
وهی اربعة عشر حرفا یجمعها قولک الم یسطع نص حق کره فاخذ عددها بحساب
الجمل فکان تسعمایة وثلثة تضاف الی المنقضی من الالف الآخرة قبل بعثته
فهذه هی مدة الملة قال ولا یبعد ان یکون ذلک من مقتضیات هذه
الحروف قلت وکونه لا یبعد لا یقتضی ظهوره ولا التعویل علیه والذی حمل
السهیلی علی ذلک انما هو ما وقع فی کتاب السیر لابن اسحاق فی حدیث ابنی
اخطب من احبار الیهود وهو ابو یاسر واخوه حیی حین سمعا الم من هذه الحروف
المقطعة وتاولا علی بیان المدة بهذا الحساب فبلغت احدی وسبعین فاستقلا المدة

وجاء حيي الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد
فقال الر ثم استزاد فقال المر فكانت احدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة
وقال لقد لبس علينا امرك يا محمد حتى ما ندري اقليلا اعطيت ام كثيرا ثم ذهبوا
عنه وقال لهم ابو ياسر ما يدريكم لعله اعطي عددها كلها سبعمائة وثلث واربعين سنة
قال ابن اسحاق فنزل قوله هو منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر الآيات
انتهى ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف
على تلك الاعداد ليست طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح
الذي يسمونه حساب الجمل نعم انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصيره حجة
وليس ابو ياسر واخوه حيي ممن يؤخذ وليس في ذلك دليلا ولا من علماء اليهود
لانهم كانوا بادية بالحجاز غفلا من الصنائع والعلوم حتى من علم شريعتهم وفقه
كتابهم وملتهم وانما يتلقفون امثال هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض
للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثان دولها على الخصوص
مستند من الاثر اجمالي في حديث خرجه ابو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق
شيخه محمد بن يحيى الذهلي عن سعيد بن ابي مريم عن عبد الله بن ابي فروخ عن اسامة
ابن زيد الليثي عن ابن لقبيصة بن ذويب عن ابيه قال قال حذيفة بن اليمان والله
ما ادري انسي اصحابي ام تناسوا والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قائد فتنة الى ان تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا
باسمه واسم ابيه واسم قبيلته وسكت عليه ابو داود وقد تقدم انه قال في رسالته
ما سكت عليه في كتابي فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحا فهو مجمل ويفتقر
في بيان اجماله وتعيين مبهماته الى آثار اخرى تجود اسانيدها وقد وقع هذا
الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة
ايضا قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فما ترك شيئا يكون في
مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه اصحابي
هؤلاء ولفظ البخاري ما ترك شيئا الى قيام الساعة الا ذكره وفي كتاب الترمذي
من حديث ابي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة
العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون الى قيام الساعة الا اخبرنا به حفظه
من حفظه ونسيه من نسيه انتهى وهذه الاحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيح من

تفصيل في احوال الجفر وحقيقته

من احاديث الفتن والاشراط لا غير لانه المعهود من الشارع صلوات الله عليه في
امثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي انفرد بها ابو داود في هذا الطريق شاذة
منكرة مع ان الائمة اختلفوا في رجاله فقال ابن ابي مريم في ابن فروخ احاديثه
مناكير وقال البخاري يعرف منه وتنكر وقال ابن عدي احاديثه غير محفوظة واسامة
ابن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فانما خرج له البخاري استشهادا
وضعفه يحيى بن سعيد واحمد بن حنبل وقال ابو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وابن
قبيصة بن ذويب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لابي داود في هذا
الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر يستندون في حدثان الدول
على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون ان فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم
لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اصل ذلك ولا مستنده واعلم ان كتاب الجفر
كان اصله ان هرون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه
عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم
على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظرائه من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي
يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلي
وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لان الجفر في اللغة هو الصغير وصار
هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من المعاني
غرائب مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه
وانما تطير عنه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق
لكان فيه نعم المستند من نفسه او من رجال قومه فهم اهل الكرامات وقد صح عنه انه
كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد
من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف واذا كانت الكرامات
تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالاصل
الكريم تشهد لفروعه الطيبة وقد ينقل بين اهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب
الى الجفر وفي اخبار دولة العبيديين كثير منه وانظره ما حكاه ابن الرقيق في لقاء
ابي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف
بعثاه الى ابن حوشب داعيتهم باليمن فامره بالخروج الى المغرب وبث الدعوة فيه
عن علم لقنه ان دولتهم تتم هنالك وان عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال

با زيقيه قال بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار وارا هم موقف صاحب
الحمار لساحتها وبلغ هذا الخبر حافده اسمعيل بن منصور فلما حاصره صاحب الحمار
ابو يزيد بالمهدية كان يسايل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه الى المكان الذى
عين جده عبيد الله فايقن بالظفر و برز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب
فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عنهم كثيرة واما المنجمون فيستندون فى حدثان
الدول الى الاحكام النجومية اما فى الامور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات
وخصوصا بين العلويين وذلك ان العلويين زحل والمشترى يقترنان فى كل عشرين
سنة مرة ثم يعود القران الى برج آخر فى تلك المثلثة من التثليث الايمن
ثم بعده الى آخر كذلك الى ان يتكرر فى المثلثة الواحدة ثنتى عشرة مرة يستوفى
بروجها الثلثة فى ستين سنة ثم يعود فيستوفيها فى ستين اخرى ثم يعود ثالثة
ثم رابعة فيستوفى المثلثة بثنتى عشرة مرة واربع عودات فى مائتين واربعين سنة
ويكون انتقاله فى كل برج على التثليث الايمن وينتقل من المثلثة الى المثلثة
التى تليها اعنى الى البرج الذى يلى البرج الاخير من القران الذى قبله فى المثلثة وهذا
القران الذى هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع
العلويين فى درجة واحدة من الفلك الى ان يعود اليها بعد تسعمائة وستين سنة
مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين فى كل مثلثة ثنتى عشرة مرة وبعد مائتين
واربعين سنة ينتقل الى مثلثة اخرى والصغير هو اقتران العلويين فى برج وبعد
عشرين سنة يقترنان فى برج آخر على تثليثه الايمن وفى مثل درجة او دقايقه مثال
ذلك وقع قران اول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون اول دقيقة من القوس
وبعد عشرين فى الاسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود الى اول
الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعد مائتين واربعين ينتقل
من النارية الى الترابية لانها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم
المائية ثم يرجع الى اول الحمل فى تسعمائة وستين سنة وهو الكبير يدل على عظام الامور
مثل تغيير الملك والدول وانتقال الملة من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين
والطالبين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن او عمرانها
ويقع اثناء هذه القرانات قران النحسين فى برج السرطان فى كل ثلثين سنة مرة
ويسمى الرابع وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فيعظم

المولد النبوى

دلالة هذا القران فى الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر
وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك او ينتهى على قدر السعادة والنحوسة
فى وقت قرانهما وعلى قدر تيسير الدليل فيه قال جراش بن احمد الحاسب فى الكتاب الذى
الفه لنظام الملك ورجوع المريخ فى العقرب له اثر عظيم فى الملة الاسلامية لانه كان
دليلها فان المولود النبوى كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هنالك
حدث تشويش على الخلفاء وكثر المرض فى اهل العلم والدين ونقصت احوالهم
وربما انهدم بعض بيوت العبادة ولقد يقال انه كان عند قتل على رضى الله عنه
ومروان من بنى امية والمتوكل من بنى العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع احكام
القرانات كانت فى غاية الاحكام وذكر شاذان البلخى ان الملة تنتهى الى ثلثمائة و
عشرين سنة وقد ظهر كذب هذا القول وقال ابو معشر يظهر بعد المائة والخمسين
منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراش رأيت فى كتب القدماء المنجمين اخبروا
كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وان دليلهم الزهرة وكانت فى شرفها
فيبقى الملك فيهم اربعين سنة وقال ابو معشر فى كتاب القرانات ان القسمة اذا
انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت وفيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك
ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبى ويكون قوة
ملكه ومدته بقدر ما بقى من درجات شرف الزهرة وهى احد عشر درجا بتقريب من
برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين وكان ظهور ابو مسلم عند انتقال الزهرة
ووقوع القسمة اول الحمل وصاحب الحد المشترى وقال يعقوب بن اسحاق الكندى ان
مدة الملة تنتهى الى ستمائة وثلث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند قران
الملة فى ثمان وعشرين درجة وثنتين واربعين دقيقة ودقايقها ستون فيكون ستمائة
وثلثا وتسعين سنة قال وهذا مدة الملة باتفاق الحكماء وتعضده الحروف الواقعة
فى اوايل السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا هو الذى ذكره السهيلى
والغالب ان الاول هو مستند السهيلى فيما نقلناه عنه قال جراش وسئل هرمز افريد الحكيم
عن مدة اردشير وولده ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشترى وكان فى شرفه
فيعطى اطول السنين واجودها اربعمائة وسبعا وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة
وكانت عند القران فى شرفها فدل انهم يملكون الف سنة وستين سنة وسأل كسرى
انوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك عن فارس الى العرب فاخبره ان

القايم منهم يولد لخمس واربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب يفوض التدبير
الى الزهرة وينتقل القران من الهوائية الى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب
فهذه الادلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي الف وستون سنة وسال
كسرى ابرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر وقال توفيل الرومي
المنجم ايام بني امية ان دولة الاسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة
فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب
عن هيئتها في قران الملة فحينئذ اما يفتر العمل به واما يتجدد من الاحكام ما يوجب خلاف
الظن قال جراش واتفقوا على ان خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى خراب العالم
تهلك ساير المكونات وذلك عند ما يقطع قلب الاسد اربعا وعشرين درجة الذي
هو حد المريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة وذكر جراش ان ملك زابلستان
وهي غزنة بعث الى المامون بحكيمه ذوبان اتحفه به في هدية وانه تصرف للمامون في الاختيارات
لحروب اخيه ولعقد اللواء لطاهر وان المامون اعظم حكمته فساله عن مدة ملكهم فاخبره
بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد اخيه وان العجم يتغلبون على الخلافة الديلم
اولا في دولة خمسين سنة ثم تسوء حالهم حتى يظهر الترك من شمال المشرق فيملكون
الى الشام والفرات ويفتحون بلاد الروم ثم يكون ما يريده الله فقال له المامون من
اين لك ذلك قال من كتب الحكماء ومن احكام صصة بن داهر الهندي الذي وضع
الشطرنج قلت والترك الذين اشار الى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقضت
دولتهم اول القرن السابع قال جراش وانتقال القران الى المثلثة المائية في برج الحوت
يكون سنة ثلث وثمنين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها الى برج العقرب حيث كان قران
الملة ثلث وخمسين قال والذي في الحوت هو اول الانتقال والذي في العقرب تستخرج
منه دلايل الملة قال وتحويل السنة الاولى من القران الاول في المثلثات المائية
في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك واما مستند
المنجمين في دولة دولة على الخصوص فمن القران الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه
لان له دلالة عندهم على حدوث الدول وجهاتها من العمران والقايمين بها من الامم
وعدد ملوكهم واسمائهم واعمارهم ونحلهم واديانهم وعوايدهم وحروبهم كما ذكر ابو معشر
في كتابه في القرانات وقد تؤخذ هذه الدلالة من القران الاصغر اذا كان الاوسط
دالا عليه فمن هذا يؤخذ الكلام في الدول وقد كان يعقوب بن اسحاق الكندي

منجم الرشيد والمامون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتابا سماه الشيعة
بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة
بني العباس وانها نهايته واشار الى انقراضها والحادثة على بغداد انه يقع في
منتصف المائة السابعة وان انقراضها يكون بانقراض الملة ولم نقف على شيء
من خبر هذا الكتاب ولا راينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرح هلاكو ملك
التطر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع
بالمغرب جزء منسوب الى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر انه وضع لبني
عبد المومن لذكر الاولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة ما تقدم
عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد
الكندي منجم وكتب في الحدثان وانظر ما نقله الطبري في اخبار المهدي عن [ابي بديل]
من صنايع الدولة قال بعث الى الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد ايام ابيه فجئتهما
جوف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدي
فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى
فاذا وقف عليه كنتم قد نعيتم اليه نفسه قالا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق
مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشرة اربعين ففعل فوالله
لولا اني رايت العشرة في تلك الورقة والاربعين في هذه ما شككت انها هي ثم
كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوما ومنثورا ورجزا ما شاء الله
ان يكتبوه وبايدي الناس متفرق كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان
الملة على العموم وبعضها في دولة دولة على الخصوص وكلها منسوب الى مشاهير
من اهل الخليقة وليس منها اصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه
فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء مطلعها
وهي متداولة بين الناس وتحسب
العامة انها من الحدثان العام فيطبقون كثيرا منها على الحاضر والمستقبل والذي
سمعناه من شيوخنا انها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم
وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من ايدي موالي بني حمود وملكهم لعدوة الاندلس
ومن الملاحم بايدي اهل المغرب ايضا قصيدة تسمى التبعية اولها

طربت وما ذاك مني طرب	وقد يطرب الطائر المغتصب

وما ذاك مني للهوى أراه ... ولكن لتذكار بعض السبب

قريبا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضا ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه

في صبغ ذا الأزرق لشفرة خيارا ... فافهموا يا قوم هذي الإشارا

نجم زحل أخبر بذي العلاما ... وبدل الشكلا وهي سلاما

شاشية زرقا بدل العماما ... وطاشرا أزرق بدل الغفارا

يقول ذا أخوه قدم ذا التحنيس لأن يهودي ... يصلب على واد فاس في يوم عيد

حتى تجتبه الناس من البوادي ... وتقتل يا قوم على الغفارا

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في أحكام القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب أيضا قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء منسوبة لابن الأبار في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيرا بما يقول وله قدم في علم النجوم فقال لي إن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الكاتب مقتول المستنصر وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدي رحمه الله ينشد شيئا الأبيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها

عذيري من زمن قلب يغر ببارقة الأشنب ... ومنها في ذكر اللحياني ما سمع ملوك الدولة

فيبعث من جيشه قائدا ... ويبقى هناك على حرب

فتأتي على الشيخ أخباره ... فيقبل كالجمل الأجرب

ويظهر من عدله سيرة ... وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم ... فما رأيت الرسوم امحت ... ولم يرع حق لذي منصب

فخذ في الرحيل عن تونس ... وودع معالمها واذهب ... فسوف تكون بها فتنة ... تضيف البري إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس بعد السلطان أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر أخيه محمد يقول فيه

وبعد أبو عبد الإله شقيقه ... ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل

إلا أن هذا الرجل لم يملك بعد أخيه وكان يمني بذلك نفسه إلى أن هلك ومن

ملاحم المغرب أيضا الملعبة المنسوبة إلى الهوشني على لغة العامة في عروض البلد وأولها

دعني يا دمعي الهتان ... فرت الأمطار ولم تفتر

واشتقت كلها الوديان ... وإنني نملأ وتتغدر

البلدان كلها ترتوي ... ما وقفنا مثل ما تدري

وأنتين الصيف والشتوي ... والفاكا والربيع تجري

قال حين صحت الدعوى ... دعني نبكي ومن عذري

أيا دبرة في ذي الزمان ... وذا القرن اشتد وتمرمر

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة أهل المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل يحرفه العامة أو يجازف فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه الألغاز لا يعلم تأويله إلا الله تتخلله أوفاق عددية ورموز ملغوزة وأشكال حيوانات تامة ورؤوس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روي اللام والغالب أنها كلها غير صحيحة لأنها لم تبتن على أصل علمي من نجامة ولا غيرها ومن غريب ما سمعته بعض الخواص تبينا فلونه بمصر عن ملحمة ابن العربي ولعلها غير هذه أنه تكلم على طالع بناء القاهرة وأنه جعل مدة عمرانها أربعمائة وستين سنة من دلالات ذلك الطالع النجومية وينتهي ذلك إلى حدود الثلاثين بعد الثمانمائة لأنا إذا أحملنا على الأربعمائة والستين حساب القمري لأنها شمسية فتزيد عليها بالحساب ثلاثة لكل مائة أربع عشرة سنة فتكون أربعمائة وأربعا وسبعين سنة نحملها على ثلثمائة وخمسين من الهجرة تاريخ بنائها فتكون ثمانمائة واثنين وثلاثين سنة هذا إن صح كلام ابن العربي وصدقت الدلالة النجومية وسمعت أيضا أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة لأن ذلك إنما يؤخذ من القرانات على أن ملاحم ابن العقب مدخولة وقد نقل ابن خلكان عن كتاب الأغاني في ترجمة ابن القرية أن ابن أبي العقب وهو محمد بن عبد الله بن أبي العقب من الأمور التي اشتهرت ولا وجود لها في الخارج مثل مجنون ليلى وابن القرية والله أعلم بذلك ووقفت بالمشرق أيضا

على ملحمة في حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى الباجربقي
وكلها الغاز بالحروف اولها ان شئت سد سر الجفر نايسكي
من علم جيز وصح والد الحسن فافهم وكن واعيا حرفا وجملة
والوصف فافعل كفعل الحاذق الفطن اما الذي قبل عصري لست اذكره
لكنني اذكر الآتي من الزمن ببيرس يسبق بجاء بعد خمستها
وحاء ميم بطيش نام في الكفن شين له اثر من تحت سرته
له القضاء قضاء اي ذي المنن بمصر والشام مع ارض العراق له
وآذربيجان من ملك الى اليمن وال نوار لما نال ظاهرهم
القاتك الباتك المعتق بالشحن اخلع سعيدا ضعيف السن بين الى
لالا وقاف ونون لزتـ في قرن قرم شجاع له عقل ومشورة
لسبق بجاء وابن بعد ذو شجن من بعد بار من الاعوام قتلته
يلي المشوق ميم الملك والتسن هذا هو الاعرج الكلبي فاعن به
في عصره فتن ناهيك من فتن يأتي من المشرق جيش الترك يقدمهم
غاز عن القاف قاف جر بالفتن فقبل ذلك ويل الشام اجمعها
فاذنب يشجو على الاهلين والوطن اذا اذا زلزلت يا ويح مصر من
الزلزال ما زال عاما غير مفتطن طاء وطاء وعين كلهم حبسوا
هلكى وينفق اموالا بلا ثمن ليسير القاف قافا نحو احمدهم
حموت به ان ذاك الحصن في كمن وينصبون اخاه وهو صالحهم
لام الف شين لذاك شئ تمت ولايتهم بالحاء لا احد من
البنين يداي الملك في الزمن ومنها ويقال انه اشارة الى الملك الظاهر
برقوق وقدوم ابيه عليه بمصر ياتي اليه ابوه بعد هجرته وطول
غيبته والشظف والدرن وابياتها كثيرة والغالب انها مصنوعة
ومثل صنعتها كان في القديم كثيرا وموصوف الانتحال حكى المورخون لاخبار
بغداد انه كان بها ايام المقتدر وراق ذكي يعرف بالدانيال يبل الاوراق
ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من اسماء اهل الدولة ويشير بها الى
ما يعرف ميلهم اليه من احوال الرفعة والجاه كانها ملاحم ويحصل بذلك على ما
يريده منهم من الدنيا وانه وضع في بعض دفاتره ميم مكررة ثلث مرات

وجاء به الى مفلح مولى المقتدر وكان عظيما في الدولة فقال له هذا كناية عنك
وهو مفلح مولى مقتدر ميم من كل واحدة وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه
مما يناله من الملك والسلطان ونصب له علامات لذلك من احواله
لتعارفه موه بها عليه فبذل له ما اغناه به ثم وضعه الوزير الحسن بن القسم
ابن وهب على مفلح هذا وكان معزولا فجاءه باوراق مثلها وذكر اسم
الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وانه يلي الوزارة للثامن عشر
من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا في ايامه ووقف
مفلحا على الاوراق وذكر فيها كوائن اخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع وما
لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فاعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر فاهتدى
من تلك الرموز والعلامات الى ابن وهب لظهورها وكان ذلك سببا
لوزارته بمثل هذه الحيل العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الالغاز والظاهر
ان هذه الملحمة التي تنسبونها الى الباجربقي من هذا النوع ولقد سألت اكمل
اكمل الدين شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل
الذي تنسب له من الصوفية وهو الباجربقي وكان عارفا بطرايقهم فقال كان
من المعروفين بالقلندرية المبتدعين في حلق اللحية وكان يحدث عما يكون
من الملوك لعصره بطريق الكشف ويومي الى رجال معينين عنده ويلغز عنهم
بحروف يعينها في ضميره لمن يراه منهم وربما نظم ذلك في ابيات قليلة كان يتعاهد
انشادها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها
الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو امر ممتنع اذ الرمز
انما يهدي الى كشفه قانون يعرف قبله او يوضع له واما مثل هذه الحروف فدلالتها
على المراد منها مخصوصة بهذا الناظم فرايت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء
لما كان في النفس من امر هذه الملحمة وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ثم
وقفت بعد ذلك وانا بدمشق عند حلول الركاب السلطاني بها سنة اثنتين
وثمانمائة على قضاء المالكية بمصر فوقفت على تاريخ ابن كثير في سنة اربع وعشرين
وسبعمائة في ترجمة التعريف بهذا الرجل فقال شمس الدين محمد الباجربقي
الذي تنسب اليه الفرقة الضالة الباجربقية والمشهور عنهم انكار الصانع
وكان والده جمال الدين عبد الرحيم بن عمر الموصلي رجلا صالحا من علماء

الشافعية ودرس في مدارس بدمشق ونشا ابنه هذا بين الفقها فاشتغل
قليلا ثم اقبل على السلوك ولازمه جماعة يعتقدون ممن هو على طريقته ثم حكم
القاضي المالكي باراقة دمه وهرب الى المشرق ثم اقام البينة بالعداوة
بينه وبين من شهد عليه وحكم الحنبلي بحقن دمه فاقام بالقابون مدة
سنين وتوفي ليلة الاربعا سادس عشر ربيع الآخر سنه اربع وعشرين
وقال ابن كثير ومن شعر الباجربقي في نظم الحضر ٥ ٥

فاسمع وكن واعيا حوفاجملة ... والوصف فانهم بفهم الحاذق الفطن
في قصد مصر وما بالشام بعد تتر ... رب السماوات من خير ومحن
بيبرس ليسقي بكاس بعد احسنتها ... وجابهم بطش تام في اللبن
جلق ماذا حل ساحتها ... واخربوا جامعا لله كيف بني
يا ويلها كم عدوا في الدين كم قتلوا ... وكم دم سفكوا من عالم ددني
والكون مغتم والارجاء مظلمة ... حتى حمايمها باحت على الغصن
ما للعسر ايا اما للدين منتصر ... قوموا الى الشام من سهل ومن حزن
عرب العراق ومصر والصعيد اتوا ... وموت الكفر فيها عزم من يكن

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله عليه توكلت

الفصل الرابع من الكتاب الاول في البلدان والامصار والمدن وسائر العمران الحضري وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

فصل في ان الدول اقدم من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك ، وبيانه ان البنا، واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعوا اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متاخر عن البداوة ومنازعها وايضا فالمدن والامصار ذات هياكل واجرام عظيمة وبنا، كبيرا اذ هي موضوعة للعموم لا للخصوص فيحتاج الى اجتماع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها شوقيا واضطراريا بل لابد من اكراههم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعصا الملك او مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي به لكثرته الا الملك والدولة فلابد في تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان امد الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الاسوار تتباعد وتنفسح الى ان تتسع الخطة وتبعد المسافة ويبعى ذرع المساحة كما وقع ببغداد وامثالها ذكر الخطيب في تاريخه ان الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المامون خمسة وستين الف حمام وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة واحدة يجمعها سور واحد لافراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الاسلامية وحال مصر والقاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد واما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما ان يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية تمدها العمران دايما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها عمران الجبال لان اهل البدو اذا انتهت احوالهم الى غايتها من الرفه والكسب نزعوا الى الدعة والسكون الذي

فى طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتأهلون فيها واما ان لم يكن للملك المدينة
المؤسسة مادة تقيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة
خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا الى ان يبذعر ساكنها
وتخرب كما وقع فى بغداد ومصر والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة
ابن حماد بالمغرب وامثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الاولين
ملك آخر ودولة ثانية تتخذها قرارا وكرسيا وتستغنى بها عن اختطاط المدينة
لنزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزيد مبانيها ومصانعها بتزايد احوال
الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا
العهد فاعتبر ذلك وافهم سر الله فى خليقته فصل فى ان الملك يدعو الى نزول الامصار
وذلك ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار
لامرين احدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال واستكمال
ما كان ناقصا من امور العمران فى البدو والثانى دفع ما يتوقع على الملك من امر
المنازعين المشاغبين لان المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن
يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذى سموا اليه من ايديهم
فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة
والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة بما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من
وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصابة
انما احتيج اليها فى الحرب للثبات بما يقع من كرة القوم بعضهم على بعض عند
الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كثير عصابة ولا عدد فيكون
حال هذا المصر ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت من عضد الدولة التى تروم
الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها فاذا كانت بين احيائهم امصار انتظموها
فى استيلائهم للامن من مثل هذا الانخرام وان لم يكن هنالك مصر استحدثوه ضرورة
لتكميل عمرانهم اولا وحط اثقالهم ويكون ثانيا شجا فى حلق من يروم العزة
والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم فقد تبين ان الملك يدعو الى نزول الامصار
والاستيلاء عليها والله غالب على امره فصل فى ان المدن العظيمة والهياكل
المرتفعة انما يشيدها الملك الكبير وقد قدمنا ذلك فى آثار الدول من المبانى
وغيرها وانها تكون على نسبتها وذلك ان تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة

وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من
اقطارها وجمعت ايديهم على عملها وربما استعين فى ذلك اكثر الامر بالهندام
الذى يضاعف القوى والقدر فى حمل اثقال البناء لعجز القدرة البشرية عن ذلك
كالمخال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم
العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب
انها كانت بقدرهم متفرقين او مجتمعين فيتخيل لهم اجساما تناسب ذلك اعظم
من هذه بكثير فى طولها وعرضها واقطارها ليناسب بينها وبين القدر التى
صدرت تلك المبانى عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته فى ذلك
الصناعة الهندسية وكثير من المتقلبين فى البلاد يعاين من شأن البناء واستعمال
الحيل فى نقل الاجرام عند اهل الدول المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه
عيانا واكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد
لتوهمهم ان مبانى عاد ومصانعهم انما عظمت لعظم اجسامهم وتضاعف قدرهم
وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين نعرف مقادير اجسامهم
من الامم وهى فى مثل ذلك العظم واعظم كايوان كسرى ومبانى العبيديين
من الشيعة بافريقية والصنهاجيين واثرهم باد الى اليوم فى صومعة قلعة ابن
حماد وكذلك بناء الاغالبة فى جامع القيروان وبناء الموحدين فى رباط الفتح
وبناء السلطان ابى الحسن لعهد اربعين سنة فى المنصورة بازاء تلمسان وكذلك
الحنايا التى جلب اهل قرطاجنة اليها الماء فى القناة الراكبة عليها ماثلة ايضا
لهذا العهد وغير ذلك من المبانى والهياكل التى نقلت الينا اخبار اهلها قريبا
وبعيدا وتيقنا انهم لم يكونوا اما فراط فى مقادير اجسامهم وانما هذا راى ولع
القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود فى الحجر منحوتة الى هذا
وقد ثبت فى الحديث الصحيح انها بيوتهم يمر بها الركب الحجازى اكثر السنين ويشاهدونها
لا تزيد فى جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وانهم ليبالغون فيما يعتقدون
من ذلك حتى انهم ليزعمون ان عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك
من البحر طريا فيشويه فى الشمس يزعمون بذلك ان الشمس حارة فيما قرب منها
ولا يعلمون ان الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الارض
والهواء واما الشمس فى نفسها فغير حارة ولا باردة وانما هى كوكب مضىء لا مزاج له

وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا ان الدول على نسبة قوتها
في اصلها والله يخلق ما يشاء **فصل** في ان الهياكل العظيمة جداً لا تستقل
ببنائها الدولة الواحدة والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون
ومضاعفة القدر البشرية وقد يكون المباني في عظمها اكثر من القدر مفرده
او مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج الى معاودة قدر اخرى مثلها في ازمنة
متعاقبة الى ان يتم فيبتدئ الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل
واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الايدي حتى يتم القصد من ذلك
ويكون ماثلا للعيان فيظنه من رآه من الآخرين انه بناء دولة واحدة وانظر في
ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وان الذي بناه سبأ بن يشجب وساق اليه
سبعين واديا وعاقه الموت عن اتمامه فاتمه ملوك حمير من بعده ومثل هذا
نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية واكثر المباني العظيمة
في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك ان المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد
يشرع في تاسيسها واختطاطها فاذا لم يتبع اثره من بعده من الملوك في اتمامها بقيت
بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك ايضا انا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة
تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع ان الهدم اسهل من البناء بكثير لان الهدم رجوع
الى الاصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء تضعف
قدرتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا ان القدرة التي اسسته مفرطة القوة
وانها ليست اثر دولة واحدة وهذا ما وقع للعرب في ايوان كسرى لما اعتزم
الرشيد على هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك فقال
يا امير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين
سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل فاتهمه في النصيحة وقال اخذته النعرة للعجم
والله لاصرعنه وشرع في هدمه وجمع الايدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار
وصب عليه الخل حتى اذا ادركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث
الى يحيى يستشيره ثانيا في التجافي عن الهدم فقال يا امير المؤمنين لا تفعل استمر
على ذلك لئلا يقال عجز امير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع
العجم فعرفها الرشيد واقصر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون في هدم الاهرام
التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبه فانتهوا الى جوبين

الحائط

الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهناك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم
فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم زاعمون انه وجد هناك ركاز بين تلك الحيطان
والله اعلم وكذلك الحنايا المعلقة بقرطاجنة الى هذا العهد يحتاج اهل مدينة تونس
الى انتخاب الحجارة لبنائهم ويستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيتحاولون على هدمها
الايام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل
المشهودة شهدت منها في ايام صباي كثيرا والله على كل شيء قدير **فصل**
فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة المدن قرار
تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون
وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب ان يراعى
فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فاما
الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار وان يكون
وضع ذلك في ممتنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة
بحر او نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها
على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات
السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا
او مجاورة المياه فاسدة او مناقع متعفنة او مروج خبيثة اسرع اليه العفن
من مجاورتها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن
التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغاية وقد اشتهر بذلك في قطر
المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد ساكنها او طارقها يخلص من
حمى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل
ونقل البكري في سبب حدوثه انه وقع فيها حفر ظهر فيه على اناء من نحاس مختوم
بالرصاص فلما فض ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك
بدء امراض الحميات فيه واراد بذلك ان الاناء كان مشتملا على بعض اعمال
الطلسمات لوبائه وانه ذهب سره بذهابه فرجع الى العفن والوباء وهذه
الحكاية من مذاهب العامة ومناحيهم الركيكة والبكري لم يكن من متانة العلم
واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا او يتبين خرفه فنقله كما سمعه والذي
يكشف الحق في ذلك ان هذه الاهوية العفنة اكثر ما يهيئها لتعفين الاجسام وامراض

الحميات ركودها فاذا تخللتها الريح وتفشت وذهب بها يمينا وشمالا خف
شان العفن والمرض المتأذى منه الحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت
حركات اهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخلل للهواء الراكد ويكون ذلك
معينا له على الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته
وتموجه فيبقى راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عند
ما كانت افريقية مستبحرة العمران كثيرة الساكن تموج باهلها موجا فكان ذلك
معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن
ولا مرض وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر
العفن والمرض هذا وجهه لا غير ذلك وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت
ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت اولا قليلة الساكن فكانت امراضها
كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا
العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك وقد
ذهب لهذا العهد القريب فساد الهواء من قابس وزال عفنها لما حاصرها
سلطان تونس وقطع الغابة من النخل التي كانت محيطة بها فانفتح جانب منها
وتموج الهواء المحيط بها وتخللته الرياح فذهب منه العفن والله مصرف الامور
واما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه امور منها الماء بان يكون البلد على
او بازائها عيون عذبة ثرة فان وجود الماء قريبا من البلد مسهل على الساكن
حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عامة ومما يراعى
من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن
الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فان كان قريبا طيبا
كان ذلك ارفق لهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى ايضا المزارع
فان الزرع هو القوت فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان اسهل
في اتخاذه واقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب
مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والخشب ايضا ضروري
لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضروراتهم وقد يراعى ايضا قربها من البحر
لتسهيل الحاجات القصية من البلاد النائية الا ان ذلك ليس بمثابة الاول
وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجة وما تدعو اليه ضرورة الساكن وقد يكون

الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي وانما يراعي ما هو اهم على نفسه او قومه
ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق
والحجاز وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا المهم عندهم من مراعي الابل وما يصلح
لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا المراعي السائمة
من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وسجلماسة وامثالها
ولهذا كانت اقرب الى الخراب لما لم تراع فيها الامور الطبيعية

فصل

ومما يراعى
في البلاد الساحلية التي على البحر ان تكون في جبل او تكون بين امة من الامم
موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك
ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل اهل العصبيات
ولا موضعها في متوعر من الجبال كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في
الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر
المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذا كالاسكندرية
من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصبيات
موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير وكانت متوعرة المسالك على من
يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى اسنمتها كان لها بذلك منعة
من العدو ويئسون من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة
صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في اختصاص
الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع ان الدعوة كانت من
من ورائها ببرقة وافريقية وانما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة
وضعها ولذلك والله اعلم كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس
في الملة مرات متعددة

فصل في المساجد والبيوت المعظمة في العالم

اعلم ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها
مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور واخبرنا بذلك على
السنة رسله وانبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم وكانت المساجد
الثلثة هي افضل بقاع الارض فيما علمناه حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة و
المدينة وبيت المقدس فمكة بيت ابراهيم صلوات الله عليه امره الله ببنائه وان
يؤذن في الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما قصه القرآن وقام بما امره الله

فيه وسكن اسمعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى ان قبضهما الله ودفنا بالحجر منها وبيت المقدس هو بيت داود وسليمان عليهما السلام امرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الانبيآء من ولد اسحق عليهم السلام حواليه والمدينة مهاجر نبينا صلوات الله عليه امره الله بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها ومنها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلثة قرة عين المسلمين ومهوى افئدتهم وعصمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلوة فيها كثير معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن اولية هذه المساجد الثلثة وكيف تدرجت احوالها الى ان كمل ظهورها في العالم فاما مكة فاوليتها فيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه صحيح يعول عليه وانما اقتبسوه من محتمل الاية في قوله واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت ثم بعث الله ابرهيم وكان من شانه وشان زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف فاوحى الله اليه ان يفارق هاجر وينفيها مع ابنها اسمعيل الى فاران وهي جبال مكة ما وراء الشام وايلة فانتهيا الى هنالك ولحقت بمكان البيت وادركهما العطش وكيف انعم الله لهما من اللطف في نبع ماء من زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ اسمعيل بموضع الكعبة بيتا ياوي اليه وادار عليه سياجا من الدوم وجعله زربا لغنمه وجآء ابرهيم صلوات الله عليه مرارا لزيارته من الشام امر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعى الناس الى حجه وبقي اسمعيل ساكنا به ولما قبضت امه هاجر دفنها فيه ولم يزل قايما بخدمته الى ان قبضه الله الحق ودفن مع امه هاجر وقام بنوه بعده بامر البيت مع اخوالهم من جرهم ثم العمالقة من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل جانب من جميع اهل الخليقة لا من بني اسمعيل ولا من غيرهم ممن دنى او نأى فقد نقل ان التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وان تبع الذي يسمى تبان اسعد ابا كرب كساها الملا والوصايل وامر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا ونقل ايضا ان الفرس كانت تحجه وتقرب اليه وان غزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب

حين

حين احتفر زمزم كان من قرابينهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه بعد بني اسمعيل ومن قبل خؤلتهم حتى اخرجتهم خزاعة واقاموا بها بعدهم ما شاء الله ثم كثر ولد اسمعيل وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على امره واخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل قال الاعشى

	حلفت بثوبي راهب والتي بناها	٭	قصي وحده وابن جرهم	

ثم اصاب البيت سيل في ولايتهم ويقال حريق وتهدم فاعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا اخشابها للسقف وكانت جدرانه فوق القامة وجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة اذرع وشبرا اداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت الى هذا البناء الى ان تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معوية مع الحصين بن نمير السكوني سنة اربع وستين فاصابه حريق يقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير فتصدعت حيطانه فهدمه ابن الزبير واعاد بناءه احسن ما كان بعد ان اختلف عليه الصحابة في بنائه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعايشة لولا قومك حديثوا عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابرهيم ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا فهدمه وكشف عن اساس ابرهيم عليه السلام وجمع الوجوه والاكابر حتى عاينوه واشار اليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فادار على الاساس الخشب ونصب من فوقها الستور حفظا للقبلة وبعث الى صنعآء في الفضة والكلس فحملها وسال عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج اليه ثم شرع في البنآء على اساس ابرهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالارض كما روى في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفايح الابواب من الذهب ثم جاء الحجاج لحصاره ايام عبد الملك ورمى على المسجد بمنجنيقا الى ان تصدعت حيطانه ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فبناه وزاده في البيت فامره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال انه ندم على ذلك حين علم صحة رواية

ابن الزبير لحديث عايشة وقال وددت اني كنت حملت ابا خبيب من امر البيت
وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها سبعة اذرع وشبرا مكان الحجر وبناها على اساس
قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي وترك
سايرها لم يغير منه شيئا فكل بناء فيها اليوم بناء ابن الزبير وبين بنائه وبناء الحجاج
في الحايط صلة ظاهرة للعيان لحمة بين البنائين والبناء متميز عن البناء بمقدار
اصبع شبه الصدع وقد لحم ويعرض هنا اشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء
في امر الطواف وتحرز الطايف ان يمس على الشاذروان الداير باساس الجدر
من اسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على ان الجدران انما قام على بعض الاساس
وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الاسود لا بد من
رجوع الطايف من التقبيل حتى يستوي قايما لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت
واذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو انما بنى على اساس ابراهيم فكيف
يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من ذلك الا باحد امرين اما ان يكون الحجاج هدمه
جميعه واعاده وقد نقل ذلك جماعة الا ان العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين
البنائين وتميز احد الشقين من اعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك
واما ان يكون ابن الزبير لم يرد البيت على اساس ابرهيم من جميع جهاته وانما
فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست
على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا محيص عن هذين والله اعلم ثم ان ساحة البيت
وهو المسجد كان فضاء للطايفين ولم يكن عليه جدار ايام النبي صلى الله عليه وسلم
وابي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر دورا هدمها وزادها في المسجد
وادار عليه جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد
ابن عبد الملك وبناه بعمد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده
ووقفت الزيادة واستقر على ذلك لعهدنا وتشريف الله لهذا البيت وعنايته
اعظم من ان يحاط به وكفى من ذلك ان جعله مهبطا للوحي والملايكة ومكانا
وفرض فيه شعاير الحج ومناسكه واوجب لحرمه من ساير نواحيه من حقوق التعظيم
والحق ما يوجبه لغيره فمنع كل من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم
واوجب على داخله ان يتجرد من المخيط الا ازارا يستره وحمى العايذ به والراتع
في مسارحه من مواقع الافات فلا يراع فيه خايف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب

والذي يظهر ان ابن الزبير بناه على اساس قريش ولم يبلغ به اساس ابراهيم فتنبه في كلام الفقهاء فانه مخالف لما تقدم

شجر وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة اميال الى التنعيم
ومن طريق العراق سبعة اميال الى ثنية جبل المنقطع ومن طريق الجعرانة تسعة
اميال الى الشعب ومن طريق الطايف تسعة اميال الى بطن نمرة ومن طريق جدة
عشرة اميال الى منقطع العشاير هذا شأن مكة وخبرها وتسمى ام القرى وتسمى
لعلوها من اسم الكعب ويقال لها ايضا بكة قال الاصمعي لان الناس يبك بعضهم
بعضا اليها اي يدفع وقال مجاهد انما هي بار بكة ابدلوها ميما كما قالوا لازم
ولازب لقرب المخرجين وقال النخعي بل بالباء للبيت وبالميم للبلد وقال
الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وكانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه
والملوك تبعث اليه بالاموال والذخاير ككسرى وغيره وقصة الاسياف
وغزالي الذهب التي وجدها عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد
وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان
فيها سبعين الفا وقية من الذهب مما كان الملوك تهدي الى البيت
قيمتها الفا الف دينار اثنان مكرره مرتين بمايتي قنطار وزنا وقال له
علي بن ابي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك
فلم يفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الازرقي وفي البخاري بسنده
الى ابي وايل قال جلست الى شيبة بن عثمان وقال جلس الي عمر بن الخطاب
فقال هممت ان لا ادع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت
ما انت بفاعل قال لم قلت لم يفعل صاحباك قال هما المرآن يقتدى بهما
وخرجه ابو داود وابن ماجه واقام ذلك المال الى ان كانت فتنة الافطس
وهو الحسين بن الحسن بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة
حين غلب على مكة عمد الى الكعبة فاخذ ما في خزاينها وقال ما تصنع الكعبة
بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن احق به نستعين به على حربنا واخرجه
وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة يوميذ واما بيت المقدس وهو المسجد
الاقصى فكان اول امره ايام الصابية موضعا لهيكل الزهرة وكانوا يقربون اليه
الزيت فيما يقربونه ويصبونه على الصخرة التي هنالك ثم درس ذلك الهيكل
واتخذها بنو اسراييل حين ملكوها قبلة لصلواتهم وذلك ان موسى صلوات
الله عليه لما خرج ببني اسراييل من مصر ليملكهم بيت المقدس كما وعد الله اباهم

اسرائيل واباه اسحق ويعقوب من قبله واقاموا بارض التيه امره الله باتخاذ
قبة من خشب السنط عيّن بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها
وان يكون فيها تابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وان يصنع
مذبحا للقربان ووصف ذلك كله في التورية اكمل وصف فصنع القبة ووضع
فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الالواح المصنوعة عوضا من
الالواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد الله
الى موسى بان يكون هرون صاحب القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامهم
في التيه يصلون اليها ويتقربون في المذبح امامها ويتعرضون للوحي عندها
ولما ملكوا ارض الشام انزلوها بكلكال من بلاد الارض المقدسة ما بين قسم
بني يامين وبني افرايم وبقيت هنالك اربع عشرة سنة سبعا مدة الحرب
وسبعا بعد الفتح ايام القسمة للبلاد ولما توفي يوشع عليه السلام نقلوها الى بلد
شيلو قريبا واتخذوا لها الحوائط واقامت على ذلك ثلثمائة سنة حتى ملكها
بنو فلسطين من ايديهم كما مر وتغلبوا عليهم ثم ردوها ونقلوها بعد وفات
عالي الكوهن الى نوف ثم نقلت ايام طالوت الى كبعون في بلاد بني يامين
ولما ولي داود عليه السلام نقل القبة والتابوت الى بيت المقدس وجعل لها
خباء خاصا ووضعها على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به الى ابنه
سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام
واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشي ابوابه وحيطانه
بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله واوعيته ومنارته ومفاتحه من الذهب
وجعل ظهره مقبوا ليودع فيه تابوت العهد وجاء به من صهيون بلد ابيه
داود نقله اليها ايام عمارة المسجد فجيء به تحمله الاسباط والكهنونية
حتى وضع في القبو ووضعت القبة والاوعية والمذبح كل حيث اعد له من
المسجد واقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه
واحرق التورية والعصاة وسبك الهياكل ونثر الاحجار ثم لما اعادهم ملوك
الفرس بناه عزير نبي الله اسرائيل لعهده باعانة بهمن ملك الفرس الذي
كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من سبي بختنصر وحد لهم في بنائه حدودا
دون بناء سليمان عليه السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس

والروم واستقر الملك لبني اسرائيل كهنونيتهم هذه المدة ولبني حشمناي
ثم لصهرهم هيردوس ولابنه من بعدهم وبنا هيردوس بيت المقدس على حدود
سليمان عليه السلام وتانق فيه حتى اكمله في ست سنين فلما جاء طيطش
من ملوك الروم وغلبهم وملك امرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وامر ان
يزرع مكانه ثم اخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف
حال ملوك الروم في الاخذ بدين النصرانية تارة وتركه اخرى الى ان جاء
قسطنطين وتنصرت امه هلانه وارتحلت الى القدس في طلب الخشبة التي
صلب عليها المسيح بزعمهم فاخبرها القمامة بانه رمي بخشبته على الارض
والقي عليه القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان
تلك القمامات كنيسة القمامة كانها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من
عمارة البيت وامرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي
مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه في قبر المسيح ثم بنوا ازاء القمامة بيت لحم
وهو البيت الذي ولد فيه عيسى صلوات الله عليه وبقي الامر كذلك الى
ان جاء الاسلام والفتح وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسال عن الصخرة
فاري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق
البداوة وعظم من شانه ما اذن الله في تعظيمه وما سبق في ام الكتاب من فضله
حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام
بما شاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم
بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد والزم ملك الروم
ان يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وان ينمقوها بالفسيفساء
فاطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ثم لما ضعف امر الخلافة اعوام الخمسمائة
من الهجرة وفي آخرها وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة
واختل امرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام
وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى اذا
استقل صلاح الدين بن ايوب الكردي بملك مصر والشام ومحا اثر العبيديين
وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على البيت
المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة

وهدم تلك الكنيسة واظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه لهذا العهد
ولا يعرضن لك الاشكال المعروف في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم
سئل عن اول بيت وضع فقال مكة قيل ثم اي قال بيت المقدس قيل فكم بينهما
قال اربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابرهيم
وسليمان لان سليمان بانيها وهو ينيف على الالف بكثير واعلم ان المراد بالوضع
ليس البناء وانما المراد اول بيت عين للعبادة ولا يبعد ان يكون بيت المقدس
عين للعبادة قبل سليمان بمثل هذه المدة وقد نقل ان الصابية بنوا على الصخرة
هيكل الزهرة فلعل ذلك لانها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية تضع
الاصنام والتماثيل حوال الكعبة وفي جوفها والصابية الذين بنوا هيكل
الزهرة كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا يبعد مدة الاربعين سنة
بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وان لم يكن هناك بناء كما هو المعروف
وان اول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه ففيه حل هذا الاشكال
واما المدينة وهي المسماة يثرب فهي من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة
وبه سميت وملكها بنو اسرائيل من ايديهم فيما ملكوه من ارض الحجاز ثم جاورهم
ابناء قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها ثم امر النبي صلى الله عليه وسلم
بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله بها فهاجر اليها ومعه ابو بكر وتبعه اصحابه
ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد اعده لذلك
وشرفه في سابق ازله وآواه ابناء قيلة ونصروه وبذلك سموا الانصار
وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة
وملكها وظن الانصار انه يتحول عنهم الى بلده فاهمهم ذلك فخطبهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم واخبرهم انه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم
كان ملحده الشريف بها وجاء في فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا خفاء به
ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة وقال به مالك رحمه الله لما ثبت
عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال المدينة خير من مكة نقل ذلك عبد الوهاب في المعونة الى احاديث اخرى
تدل بظاهرها على ذلك وخالف ابو حنيفة والشافعي واصبحت على كل حال ثانية
المسجد الحرام وجنح اليها الامم بافئدتهم من كل اوب فانظر كيف تدرجت الفضيلة

في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله في الكون وتدريجه
على ترتيب محكم في امور الدين والدنيا **واما** غير هذه المساجد الثلثة فلا نعلمه
في الارض الا ما يقال في مسجد آدم بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء
يعول عليه وقد كانت للامم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم
منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي امر النبي
بهدمها في غزواته وقد ذكر المسعودي منها بيوتا لسنا من ذكرها في شيء اذ هي
غير مشروعة ولا هي على طريق ديني فلا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها ويكفي في ذلك
ما وقع في التواريخ فمن اراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء

فصل في ان الامصار والمدن بافريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام
وكان عمرانها كله بدويا ولم يستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل احوالها والدول
التي ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل امد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها
فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا اليها اقرب فلم تكثر مبانيهم وايضا
فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم اعرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة
وانما تتم المباني بها فلا بد من الحذق في تعلمها ولما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم
تشوف الى المباني فضلا عن المدن وايضا فهم اهل عصبيات وانساب لا يخلو
عن ذلك جمع منهم والانساب والعصبية اجنح الى البدو وانما يدعو الى المدن الدعة
والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد اهل البدو لذلك يستنكفون
من سكنى المدينة او المقامة بها ولا يدعوهم لذلك الا الترف والغنى وقليل ما هو
في الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله او اكثره بدويا اهل خيام وظواعن
وقياطن وكنن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله او اكثره قرى وامصارا
ورساتيق في بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وامثالها لان العجم
في الغالب ليسوا باهل انساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتها والتحامها
الا في الاقل واكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحمة النسب اقرب
واشد فيكون عصبيته كذلك وتنزع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافي عن المصر
الذي يذهب بالبسالة ويصير عيالا على غيره فافهمه وقس عليه **فصل**
في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرها ومن كان قبلها

من الدول والسبب في ذلك ما ذكرناه مثله في البربر بعينه اذ العرب ايضاً اعرق
في البدو وابعد عن الصنايع وايضاً فكانوا اجانب من الممالك التي استولوا
عليها قبل الاسلام ولما تملكوها لم ينفسح الامر حتى تستوفي رسوم الحضارة مع انهم
استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وايضاً وكان الدين اول الامر مانعاً من
المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استاذنوه
في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل
فقال افعلوا ولا يزيدن احد على ثلثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا
السنة يلزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس ان لا يرفعوا بنياناً فوق
القدر قالوا وما القدر قال لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد العهد
بالدين والتحرج في امثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم
العرب امة الفرس واخذوا عنهم الصنايع والمباني ودعتهم اليها احوال الدعة
والترف وحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريباً بانقراض
الدولة ولم تنفسح الامد لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا
وليس كذلك غيرهم من الامم فالفرس طالت مدتهم آلافاً من السنين وكذلك القبط
والنبط والروم وكذلك العرب الاولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة
طالت آمادهم ورسخت الصنايع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم اكثر عدداً وابقاً
على الايام اثراً واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها
فصل في ان المباني التي تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
والسبب في ذلك شان البداوة والبعد عن الصنايع كما قدمناه فلا تكون المباني
وثيقة في تشييدها وله والله اعلم وجه آخر وهو امس به وذلك قلة مراعاتهم
لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه من المكان وطيب الهواء والمياه
والمزارع والمراعي فان بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته
من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعي ابلهم خاصة
لا يبالون بالماء طاب او خبث ولا قل ام كثر ولا يسألون عن زكي المزارع والمنابت
والاهوية لانتقالهم في الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد واما الرياح فالقفر
مختلف للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تخبث مع القرار
والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان

كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعي ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك
الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها
من بعدهم كما قدمناه انه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير
طبيعية للقرار ولم يكن في وسط الامم فيعمرها الناس فلاول وهلة من انحلال
امرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها اتى عليها الخراب والانحلال
كان لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه **فصل** في مبادي الخراب في الامصار
اعلم ان الامصار اذا اختطت اولاً تكون قليلة المساكن وقليلة الات البناء
من الحجر والكلس وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التانق كالزليج والرخام والفسيفساء
والسبج والصدف والزجاج فيكون بناؤها يومئذ بدوياً والاتها فاسدة
فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الاتها بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة
الصناع الى ان تبلغ غايتها من ذلك كما سبق في شانها فاذا تراجع عمرانها
وقل ساكنها قلت الصنايع لاجل ذلك ففقدت الاجادة في البناء والاحكام
والمغالاة عليه بالتنميق ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الالات
من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الالات التي
في مبانيهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور والمنازل
بقلة العمران وقصوره عما كان اولاً ثم لا تزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار
الى دار الى ان يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة في البناء واتخاذ
الطوب عوضاً من الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية فيعود بناء المدينة
مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عليها ميسم البداوة ثم تمر في التناقص
الى غايتها في الخراب ان قدر لها به سنة الله في خلقه **فصل** في ان تفاضل
الامصار والمدن في كثرة الرفه ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها
في الكثرة والقلة والسبب في ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر
غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وانهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك
والحاجة التي تحصل بتعاون طايفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافاً
فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله
الستة او العشرة من حداد ونجار للالات وقايم على البقر واثارة الارض وحصاد
السنبل وساير مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم

ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع
زايدة على حاجات العاملين وضروراتهم واهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم
كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت
الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه
غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمته فيكون لهم بذلك حظ من الغنى
وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق ان المكاسب انما
هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة
ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التانق في المساكن والملابس
واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها اعمال تستدعي
بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق اسواق الاعمال والصنائع
ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل اعمالهم ومتى زاد العمران
زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته
واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك
ثانية ونفقت سوق الاعمال بها اكثر من الاول وكذا في الزيادة الثانية
والثالثة لان الاعمال الزايدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية
التي تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل المصر بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه
وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر
كان حال اهله في الترف ابلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الاصناف
القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي
والامير مع الامير والشرطي مع الشرطي واعتبر ذلك في المغرب مثلا بحال فاس
مع غيرها من امصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة
ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس اوسع من حال القاضي بتلمسان وكذا كل
صنف مع اهل صنفه وكذا ايضا حال تلمسان مع وهران او الجزاير وحال وهران
والجزاير مع ما دونهما الى ان ينتهي الى المداشر الذين اعمالهم في ضرورات معاشهم
فقط او يقصرون عنها وما ذلك الا لتفاوت الاعمال فيها فكانها كلها اسواق
للاعمال والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضي
بتلمسان وحيث الدخل والخرج اكثر تكون الاحوال اعظم واوسع وهما بفاس اكثر

لنفاق سوق الاعمال بما تدعو اليه الترف فالاحوال اضخم ثم بعدها وهران وقسنطينة
والجزاير وبسكرة حتى ينتهي كما قلناه الى الامصار التي لا تفي اعمالها بضروراتها
ولا تعد في الامصار اذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد اهل هذه
الامصار الصغيرة ضعفاء الاحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما ان اعمالهم
لا تفي بضروراتهم ولا يفضل لهم عنها ما يتاثلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم فهم لذلك
مساكين محاويج الا في الاقل النادر واعتبر ذلك حتى في احوال الفقراء والسوال
فان السائل بفاس احسن حالا من السائل بتلمسان او وهران ولقد شاهدت بفاس
السوال يسالون ايام الاضاحي اثمان ضحاياهم ورايتهم يسالون كثيرا من احوال
الترف واقتراح الماكل مثل سوال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون
كالغربال والآنية ولو سال السائل مثل هذا بتلمسان او وهران لاستنكر
وعنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن احوال اهل القاهرة ومصر من الترف والغنى
في عوائدهم ما يقضى منه العجب حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون الى النقلة الى مصر
لذلك ولما يبلغهم من ان شان الرفه بمصر اعظم من غيرها وتعتقد العامة من الناس
ان ذلك لزيادة الاموال في تلك الآفاق وان الاموال مختزنة لديهم وانهم اكثر
صدقة وايثارا من جميع اهل الامصار وليس كذلك وانما هو لما تعرفه من ان
عمران مصر والقاهرة اكثر من عمران هذه الامصار التي لديك فعظمت لذلك
احوالهم واما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج
وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر كل شي يبلغك
من هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي تسهل
بسببها البذل والايثار على مبتغيه ومثله بشان الحيوانات العجم مع بيوت المدينة
الواحدة وكيف تختلف احوالها في هجرانها او غشيانها فان بيوت اهل النعم
والثروة والموائد الخصيبة منها تكثر بساحاتها وافنيتها نثير الحبوب وسواقط
الفتات فتزدحم عليها غواشي النمل والخشاش وتحلق فوقها عصائب الطيور
حتى تروح بطانا وتمتلي شبعا وريا وبيوت اهل الخصاصة والفقر الكاسدة
ارزاقهم لا يسري بساحتها دبيب ولا يحلق بجوهم طاير ولا تاوي الى اسراب
بيوتهم فارة ولا هر كما قال • تسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء
فتامل سر الله في ذلك واعتبر غاشية الاناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات

وتمكسه في اسرابها الجردان وتاوي اليها
السنانير صح

الموايد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها فى الاكثر بوجود امثالها لديهم واعلم ان اتساع الاحوال وكثرة النعم فى العمران تابع لكثرته والله غنى عن العالمين

فصل فى اسعار المدن اعلم ان الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضرورى وهو الاقوات من الحنطة والشعير وما فى معناهما كالباقلاء والحمص والجلبان وساير حبوب الاقوات ومصلحاتها كالبصل والثوم واشباهه ومنها الحاجى والكمالى من الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وساير الصنايع والمبانى واذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضرورى من القوت وما فى معناه وغلت اسعار الكمالى من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس من ذلك والسبب فى ذلك ان الحبوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعى على اتخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره او سنة فيعم اتخاذها اهل المصر اجمع او الاكثر منهم فى ذلك المصر او فيما قرب منه لابد من ذلك وكل متخذ لقوته فتفضل عنه وعن اهل بيته فضلة كبيرة تسد خلة كثيرين من اهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن اهل المصر من غير شك فترخص اسعارها فى الغالب الا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران واما ساير المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها اعمال اهل المصر اجمعين ولا الكثير منهم ثم ان المصر اذا كان مستبحرا موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت الدواعى على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهى قليلة فى نفسها فتزدحم الاغراض ويبذل اهل الرفه والترف اثمانها باسراف فى الغلاء لحاجتهم اليها اكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه واما الصنايع والاعمال ايضا فى الامصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها امور ثلثة الاول كثرة الحاجة لمكان الترف فى المصر بكثرة عمرانه والثانى اعتزاز اهل الاعمال لخدمتهم وامتهان انفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة اقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصناع فى مهنهم فيبذلون فى ذلك لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة فى الاستيثار بها فيعتز الفعلة والصناع

واهل الحرف وتغلو اعمالهم وتكثر نفقات اهل المصر فى ذلك واما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه بايديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه واما مرافقهم فلا تدعو اليها ايضا حاجة لقلة الساكن وضعف الاحوال فلا ينفق لديهم سوقه فيختص بالرخص فى سعره وقد يدخل فى قيمة الاقوات ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان فى الاسواق وابواب المصر وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم ولذلك كانت الاسعار فى الامصار اغلى من اسعار البادية اذ المكوس والمغارم والفرايض قليلة لديهم او معدومة والامصار على العكس سيما آخر الدولة وقد يدخل ايضا فى قيمة الاقوات قيمة علاجها فى الفلح ويحافظ على ذلك فى اسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك انهم لما الجاهم النصارى الى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والفدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت فى فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها فى سعرهم واختص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار فى قطرهم انها لقلة الاقوات والحبوب بارضهم وليس كذلك فهم اكثر اهل المعمور فلحا فيما علمناه واقوم عليه وقل ان يخلو منهم سلطان او سوقة عن فدان او مزرعة او فلح الا قليلا من اهل الصناعات والمهن او الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان فى عطائهم بالعولة وهى اقواتهم وعلوفتهم من الزرع وانما السبب فى غلاء السعر عندهم فى الحبوب ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك فى زكاء منابتهم وطيب ارضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة فى الفلح مع كثرته وعمومه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار

فصل فى قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران والسبب فى ذلك ان المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من اهل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير الاعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من اجل الترف وللمغارم

السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات وتعظم فيها الغلاء
في المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنيه كثرة بالغة على نسبة
عمرانه فيعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات
عيشهم وساير مؤنهم والبدوي لم يكن دخله كثيرا اذ كان ساكنا بمكان كاسد
الاسواق في الاعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأثل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من
اجل ذلك سكنى المصر الكبير لاجل غلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدوه يسد خلته
باقل الاعمال لانه قليل عوايد الترف في معاشه وساير مؤنه فلا يضطر الى المال
وكل من يتشوف الى المصر وسكناه من اهل البادية فسريعا ما يظهر عجزه فيفتضح الا من يقدم
منهم تأثل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري الى الغاية الطبيعية لاهل العمران
من الدعة والترف فحينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع احوال اهله في عوايدهم
وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شيء محيط **فصل** في ان الاقطار
في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار اعلم ان ما توفر عمرانه من الاقطار
وتعددت الامم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم
وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما سياتي
ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات
الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتأثلونه
حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيتزيد الرفه لذلك
وتتسع الاحوال ويجيء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق فيكثر
مالها ويشمخ سلطانها ويتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد
الامصار واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين
وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال
فيهم وعظمت دولهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم فالذي
نشاهده لهذا العهد من احوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب
في رفههم واتساع احوالهم اكثر من ان يحيط به الوصف وكذا تجار اهل المشرق
وما يبلغنا عن احوالهم وابلغ منها احوال المشرق الاقصى من عراق العجم والهند
والصين فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه احوال غرايب تسير الركبان
بحديثها وربما تتلقى بالانكار في غالب الامر ويحسب من يسمعها من العامة ان

ذلك لزيادة اموالهم او لان المعادن الذهبية والفضية اكثر بارضهم
او لان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا بها دون غيرهم وليس كذلك فمعدن
الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو ببلاد السودان وهي الى المغرب
اقرب وجميع ما في ارضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان
المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضايعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال
ولاستغنوا عن اموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون لما راوا من ذلك
واستغربوا ما في المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور اموالها فقالوا ان
عطايا الكواكب والسهام في مواليد اهل المشرق اكثر منها حصصا في مواليد
اهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية
كما قلناه وهم انما اعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم ان يعطوا السبب
الارضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بارض المشرق واقطاره
وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص
المشرق بالرفه من بين الافاق لا ان ذلك لمجرد الاثر النجومي فقد فهمت مما اشرنا لك
اولا انه لا يستقل بذلك وان المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها امر لا بد منه
واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف ساكنها وتناقص
عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت
جباياتها فقلت اموال دولها بعد ان كان دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من
الرفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال في نفقاتهم واعطياتهم حتى لقد كانت الاموال
ترفع من القيروان الى صاحب مصر في غالب الاوقات وكانت اموال الدولة بحيث
حمل جوهر الكاتب في سفره الى فتح مصر الف حمل من المال يستعدها لارزاق الجنود
واعطياتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن
بالقليل في ذلك وكانت احواله في دولة الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو
لهذا العهد قد اقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران
البربر فيه اكثره ونقص عن معهوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد ان يلحق في احواله
بمثل احوال افريقية بعد ان كان عمرانه متصلا من البحر الرومي الى بلاد السودان
في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهي اليوم كلها او اكثرها قفار وخلاء وصحاري
الا ما هو منها بسيف البحر او ما يقاربه من التلول والله وارث الارض ومن عليها

وهو خير الوارثين **فصل** في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها اعلم ان تأثل العقار والضياع الكثيرة لاهل المدن والامصار لايكون دفعة ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي يخرج قيمها عن الحد ولو بلغت احوالهم في الرفه ما عسى ان تبلغ وانما يكون ملكهم لها وتأثلهم تدريجا اما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى املاك الكثيرين منهم الى الواحد واكثر لذلك او يكون بحوالة الاسواق فان العقار في اواخر الدولة واول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الاحوال فترخص قيمها وتتملك بالاثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث الى ملك آخر وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له احوال حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالكها من اغنى اهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك واما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف واسبابه وانما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان ان القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعاف ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بانفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه او آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه واما التمول منه واجراء احوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل او النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر الا ان ذلك اذا حصل فربما امتدت اليه اعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب او ارادوه على بيعه منهم ونالت اصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على امره **فصل** في حاجة المتمولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة وذلك ان الحضري اذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله واصبح اغنى اهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت احواله في الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوا به ولما في طباع البشر من العدوان تمتد اعينهم الى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك

بكل ممكن حتى يحصلوه في ربقة حكم سلطاني وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله واكثر الاحكام السلطانية جائرة في الغالب اذ العدل المحض انما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك او خالصة له او عصبية يتحاماها السلطان فيستظل هو بظلها ويرتع في امنها من طوارق التعدي وان لم يكن ذلك اصبح نهبا بوجوه التحيلات واسباب الحكام والله يحكم لا معقب لحكمه **فصل** في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها والسبب في ذلك ان الحضارة هي احوال عادية زائدة على الضروري من احوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الامم في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر وتقع فيها عند كثرة التفنن في انواعها واصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها الى القومة عليه المهرة فيه وبقدر ما يتزيد من اصنافها تتزيد اهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك الصناعات حذق اولئك الصناع في صناعاتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح امدها وتكرر امثالها تزيدها استحكاما ورسوخا واكثر ما يكون ذلك في الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في اهلها وذلك كله انما يجيء من قبل الدولة لان الدولة تجمع اموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع احوالهم بالجاه اكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في اهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من اهل المصر وهم الاكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها احوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذلك الا لمجاورة لهم وفيض اموالهم فيهم كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الارض الى ان ينتهي الى الجفوف على البعد وقد قدمنا ان السلطان والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر

لما طال ملكهم بالشام نحوا من الف واربعماية سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في احوال
المعاش وعوايده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وساير احوال المنزل
حتى انها لتوخذ عنهم في الغالب الى اليوم ورسخت الحضارة ايضا وعوايدها في الشام
منهم ومن دول الروم بعدهم ستماية سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك ايضا
القبط دام ملكهم في الخليقة ثلاثة الاف سنة فرسخت عوايد الحضارة في بلدهم
مصر واعقبهم بها ملك اليونانيين والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل فلم تزل عوايد
الحضارة بها متصلة وكذلك ايضا رسخت عوايد الحضارة باليمن لاتصال دولة
العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافا من السنين واعقبهم ملك مضر وكذا
الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكينية
والكسروية والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد
احضر من اهل الشام والعراق ومصر وكذلك ايضا رسخت عوايد الحضارة بالاندلس
لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما اعقبها من ملك بني امية آلافا من السنين
وكلا الدولتين عظيم فاتصلت فيها عوايد الحضارة واستحكمت واما افريقيه
والمغرب فلم يكن فيها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الروم والافرنجة الى افريقيه
البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر اهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا
على قلعة واوفاز واهل المغرب لم تجاورهم دولة وانما كانوا يبعثون بطاعتهم
الى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب افريقية والمغرب لم يلبث
فيهم ملك العرب الا قليلا اول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة
ومن استقر منهم بافريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه اذ كانوا
برابر منغمسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى لاقرب العهود على يد
ميسرة المطغري ايام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا امر العرب بعد واستقلوا
بامر انفسهم وان بايعوا لادريس فلا تعد دولته فيهم عربية لان البرابرة هم الذين
تولوها ولم يكن من العرب فيها كبير عدد وبقيت افريقية للاغالبة ومن اليهم
من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك
ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم
وذلك كله قليل لم يبلغ اربعماية سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة
الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي

اثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يونس فيمن سلف له
بالقلعة او القيروان او المهدية سلف فتجد له من احوال الحضارة في شؤون منزله
وعوايد احواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في اكثر امصار
افريقية وليس ذلك في المغرب وامصاره لرسوخ الدولة بافريقية اكثر امدا منذ
عهد الاغالبة والشيعة وصنهاجة واما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين
من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوايدها بما كان لدولتهم من
الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من اهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من
اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها
من اهل الاندلس ثم انتقل اهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقيه
فابقوا بها وبامصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر
وما ينقله المسافرون من عوايدها فكانت بذلك للمغرب وافريقية حظ من الحضارة
صالح عفا عليه الخلاء ورجع على اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة
والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بافريقية اكثر منها بالمغرب وامصاره لما
تداول فيها من الدول السالفة اكثر من المغرب ولقرب عوايدهم من عوايد اهل
مصر بكثرة المترددين بينهم فتفطن لهذا السر فانه خفي عن الناس واعلم انها
امور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الامة او الجيل
وعظم المدينة او المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك ان الدولة والملك
صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والامصار وساير الاحوال
واموال الجباية عايدة عليهم ويسارهم في الغالب من اسواقهم ومتاجرهم واذا
افاض السلطان عطاءه واموالة في اهلها انبثت فيهم ورجعت اليه ثم اليهم منه فهي
ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عايدة عليهم في العطاء فعلى نسبة مال الدولة واصل
يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم مال الدولة واصله كله العمران
وكثرته فاعتبره وتامله في الدول تجده والله يحكم لا معقب لحكمه **فصل** في ان الحضارة
غاية للعمران ونهاية لعمره وانها موذنة بفساده قد بينا لك فيما سلف
ان الملك والدول غاية للعصبية وان الحضارة غاية للبداوة وان العمران
كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما ان للشخص الواحد
من اشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في المعقول والمنقول ان الاربعين

للانسان غاية في تزايد قواه ونموها وانه اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة
عن اثر النشو والنمو برهة ثم تاخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم ان الحضارة
في العمران ايضا كذلك لانه غاية لا مزيد وراءها وذلك ان الترف والنعمة
اذا حصل لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها
والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة احواله والكلف بالصنائع
التي تؤنق من اصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهيئة للمطابخ او الملابس
او المباني او الفرش او الانية ولسائر احوال المنزل وللتانق في كل واحد
من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداوة وعدم التانق فيها واذا
بلغ التانق في هذه الاحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس
من تلك العوائد بالوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها اما دينها
فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها واما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات
التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها وبيانه ان المصر بالتفنن
في الحضارة تعظم نفقات اهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران
فمتى كان العمران اكثر كانت الحضارة اكمل وقد كنا قدمنا ان المصر
الكثير العمران يختص بالغلاء في اسواقه واسعار حاجاته ثم تزيدها المكوس
غلاء لان كمال الحضارة انما يكون عند نهاية الدولة في استفحالها وهو
زمن وضع المكوس في الدول لان السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم
وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤونة انفسهم فيكون المكس لذلك داخلا
في قيم المبيعات واثمانها فتعظم نفقات اهل الحضارة وتخرج عن القصد
الى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من اثر العوائد وطاعتها
وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الاملاق والخصاصة
ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الاسواق ويفسد
حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدتها
في المدينة على العموم في الاسواق والعمران واما فساد اهلها في ذاتهم واحدا
واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بالوان
الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر
من الوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل

المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفكر في ذلك والغوص
عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم اجرياء على الكذب والمقامرة والغش
والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات ثم تجدهم لكثرة الشهوات
والملاذ الناشئة عن الترف ابصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به
وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوي المحارم
الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الاقذاع بذلك وتجدهم ايضا ابصر بالمكر
والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب
على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقا لاكثرهم الا من عصمه الله ويموج
بحر المدينة بالسفلة من اهل الخلق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة
وولدانهم ممن اهمل عن التاديب واهملته الدولة من عدادها وغلب عليه خلق
الجوار والصحاب وان كانوا اهل انساب وابوات وذلك ان الناس
بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب
فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة باي وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه
زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من اعقاب البيوت وذوي الاحساب
والاصالة واهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنية في معاشهم
بما فسد من اخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة واذا كثر ذلك
في المدينة او الامة تاذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله واذا اردنا
ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا
ووجهه ان مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها
فلا تستقيم احوالهم واذا فسد احوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام
المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها
غرس النارنج تاذنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج
بالدور ويتطير به وليس المراد ذلك ولا انه طيرة في النارنج وانما معناه ان
البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم ان النارنج والليم والسرو
وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غايات الحضارة اذ لا يقصد بها
في البساتين الا اشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التفنن في مذاهب الترف
وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك

في الدغلا وهو من هذا الباب او الدغلا لا يقصد بها الا تلون البساتين موزها
ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب الترف فصل ومفاسد الحضارة ايضا
الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات
البطن من الماكل وملاذها والمشارب وطيبها ويتبع ذلك التفنن في شهوات
الفرج بانواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك الى فساد النوع اما بواسطة
اختلاط الانساب كما في الزنا فيجهل كل احد ابنه اذ هو لغير رشده ولان المياه
مختلطة في الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون
ويؤدي ذلك الى انقطاع النوع او يكون فساد النوع بغير واسطة كما في
اللواط المؤدي الى عدم النسل راسا وهو اشد في فساد النوع اذ هو يؤدي
الى ان لا يوجد النوع والزنا يؤدي الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب
مالك رحمه الله في اللواط اظهر من مذهب غيره ودل على انه ابصر بمقاصد الشريعة
واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هي الحضارة والترف
وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد واخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوان
بل نقول ان الخلق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لان
لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره
واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته
اما عجزا لما حصل له من الدعة او ترفعا لما حصل من المربا في النعيم والترف
وكلا الامرين ذميم وكذلك لا يقدر على دفع المضار لما فقده من خلق الباس
بالترف والمربا في قهر التاديب والتعليم فهو لذلك عيال على الحامية التي
تدافع عنه ثم هو فاسد ايضا في دينه غالبا لما افسدت منه العوائد وطاعتها
وما تلونت به النفس من ملكاتها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد
الانسان في قدرته ثم في اخلاقه ودينه فقد فسد انسانيته وصار مسخا
على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتقربون من جند السلطان الى البداوة
والخشونة انفع من الذين يربون على الحضارة وخلقها وهذا موجود في كل دولة
فقد تبين ان الحضارة سن الوقوف لعمر العالم والدول والله الواحد القهار

فصل في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا في العمران ان الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذي
يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد
ذلك يتخلف والسبب فيه امور الاول ان الدولة لا بد في اولها من البداوة
المقتضية للتجافي عن اموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف
الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف
فاذا صار المصر الذي صار كرسيا للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة
ونقصت احوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت ايديها من اهل المصر لان
الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا لما في طباع البشر من
تقليد متبوعهم او كرها لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف
في جميع الاحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة
المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقوله من خراب
المصر الامر الثاني ان الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب
وانما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين اهل
الدولتين وتكبر احدهما على الاخرى في العوائد والاحوال وغلب احد المتنافيين
يذهب بالمنافي الاخر فتكون احوال الدولة السابقة منكرة عند اهل الدولة الجديدة
ومستبشعة وقبيحة وخصوصا احوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها
حتى تنشا لهم بالتدريج عوائد اخرى من الترف فيكون عنها حضارة مستانفة
وفيما بين ذلك قصور الحضارة الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران
في المصر الامر الثالث ان كل امة لا بد لهم من وطن هو منشاؤهم ومنه اولية
ملكهم واذا ملكوا وطنا آخر صار تبعا للاول وامصاره تابعة لامصار الاول و
اتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة
لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الاول وتهوي افئدة الناس
اليه من اجل الدولة والسلطان فينتقل اليه العمران ويخف من مصر الكرسي الاول والحضارة
انما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته ومدنيته وهو معنى اختلاله وهذا كما
وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان وللعرب قبلهم في العدول
عن المداين الى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق الى بغداد ولبني
مرين بالمغرب في العدول عن مراكش الى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر
يخل بعمران الكرسي الاول الامر الرابع ان الدولة المتجددة اذا غلبت على الدولة

السابقة لابد فيها من تتبع الدولة السابقة واشياعها بتحويلهم الى قطر آخر يومن فيه
غايلتهم على الدولة واكثر اهل المصر الكرسى اشياع للدولة على طبقاتهم وتنوع اصنافهم
بل اكثرهم ناشئ فى الدولة فهم شيعة لها وان لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل
والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فتنقلهم من مصر
الكرسى الى وطنها المتمكن فى ملكتها فبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدى
الى النفرة حتى لا يبقى فى المصر الكرسى الا الباعة والهمل من اهل الفلح والعيارة
وسواد العامة وتنزل مكانهم من حاميتها واشياعها من تشتد به المصر واذا ذهب
من المصر اعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لابد له ان يستجد
عمرانا آخر فى ظل الدولة الجديدة ويحصل فيه حضارة اخرى على قدر الدولة وانما ذلك
بمثابة من يملك بيتا داخله البلى الكثير من اوضاعه فى بيوته ومرافقه لا توافق
مقترحه وله قدرة على تغيير تلك الاوضاع واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب
ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانياً وقد وقع كثير من ذلك فى الامصار التى هى كراسى
للملك وشاهدناه وعلمناه والله مقدر الليل والنهار والسبب الطبيعى الاول
فى ذلك على الجملة ان الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل
الحافظ لوجودها وقد تقرر فى علوم الحكمة انه لا يمكن انفكاك احدهما عن الآخر
فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما وقع فى
طباع البشر من العدوان الداعى الى الوازع فيتعين السياسة لذلك اما الشرعية
او الملكية وهو معنى الدولة واذا كانا لا ينفكان فاختلال احدهما مؤثر فى اختلال
الآخر كما كان عدمه مؤثراً فى عدمه والخلل العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل
دولة الفرس والروم او العرب على العموم او بنى امية او بنى العباس كذلك واما
الدول الشخصية مثل دولة انوشروان او هرقل او عبد الملك بن مروان او الرشيد
فاشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها
من بعض فلا يؤثر كثير اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاعلة فى مادة العمران
انما هى للعصبية والشوكة وهى مستمرة مع اشخاص الدول فاذا ذهبت تلك العصبية
ودفعتها عصبية اخرى مؤثرة فى العمران ذهبت اهل الشوكة باجمعهم وعظم
الخلل كما قررناه اولا والله قادر على ما يشاء ان يشأ يذهبكم ويأت
بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز **فصل** فى اختصاص بعض الامصار

اما من الحامية الذين نزلوا به اول الدولة او من
اعيان المصر لان لهم فى الغالب مخالطة للدولة
صح

ببعض الصنايع دون بعض وذلك انه من البين ان اعمال اهل المصر يستدعى بعضها
بعضا لما فى طبيعة العمران من التعاون وما يستدعى من الاعمال يختص ببعض اهل
المصر فيقومون عليه ويستبصرون فى صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم
فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به فى المصر والحاجة اليه وما لا يستدعى فى المصر يكون غفلا
اذ لا فائدة لمنتحله فى الاحتراف به وما يستدعى من ذلك لضرورة المعاش
فيوجد فى كل مصر كالخياط والحداد والنجار وامثالها وما يستدعى لعوائد الترف
واحواله فانما يوجد فى المدن المستبحرة فى العمارة الآخذة فى عوائد الترف والحضارة
مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والهراس والدباج
وامثال هذه وهى متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعى احوال الترف
تحدث صنائع لذلك النوع فيوجد لذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات
لانها انما توجد فى الامصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى
من التنعم ولذلك لا تكون فى المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليه
فيختطها ويجرى احوالها الا انها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان
ما تهجر وتخرب وينفر عنها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط
فصل فى وجود العصبية فى الامصار وتغلب بعضهم على بعض من البين ان
الالتحام والاتصال موجود فى طباع البشر وان لم يكونوا اهل نسب الا انه كما قدمناه
ما يكون بالنسب وانه يحصل به العصبية بعضاً مما يحصل بالنسب واهل الامصار
كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى ان يكونوا لحماً لحماً وقرابة قرابة وتجد
بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون
شيعاً وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص الملك عن القاصية احتاج اهل
امصارها الى القيام على امرهم والنظر فى حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى وتميز
العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة الى الغلب والرياسة فتطمح المشيخة
لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل صاحبه
ويستوصلون بالاتباع من الموالى والشيع والاحلاف فيبذلون ما فى ايديهم للاوغاد
والاوشاب فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على اكفائه ليقص
من اعنتهم ويتتبعهم بالقتل او التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم
الاظفار الخادشة ويستبد بمصره اجمع ويرى انه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث

في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم
وربما يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم اصحاب القبايل والعشاير
والعصبيات والزحوف والحروب والاقطار والممالك فينتحلون من الجلوس
على السرير واتخاذ الآلة واعداد المواكب للسير في اقطار البلد والتختم والتحية
والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد احوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي
ليسوا لها باهل انما دفعهم الى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صار
عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذاهب السذاجة فرارا من التعرض
بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بافريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية
لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب
وما الى ذلك سموا الى مثلها عند تقلص الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا
على امصارهم واستبدوا بامرها على الدولة في الاحكام والجباية واعطوا طاعة معروفة
وصفقة ممرضة واقطعوها جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه
واورثوا ذلك اعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث
لاعقاب الملوك وخلفهم ونظموا انفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة
وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بامصار الجريد اهلها
واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المومن بن علي
ونقلهم كلهم من امارتهم بها الى المغرب ومحى من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في اخباره
وكذلك وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المومن وهذا التغلب يكون غالبا في اهل
السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في المصر وقد يحدث التغلب
لبعض السفلة من الدهماء والغوغاء اذا حصلت له العصبية والالتحام بالاوغاد
لاسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا فاقدين للعصابة
والله غالب على امره **فصل** في لغات اهل الامصار اعلم ان لغات اهل الامصار
انما تكون بلسان الامة او الجيل الغالبين عليها او المختطين لها ولذلك كانت لغات
اهل الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وان كان اللسان
العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية
من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود وللملك وكلها مواد له والصورة
مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي

صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الالسن في جميع
ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة الاعاجم وقال انها خب
يعني مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية
عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال
اللسان العربي من شعاير الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم والسنتهم
في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في
جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسن الاعجمية دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان
العربي بمخالطتها في بعض احكامه وتغير اواخره وان كان بقي في الدلالات على اصله
وسمي لسانا حضريا في جميع امصار الاسلام وايضا فاكثر اهل الامصار في الملة
لهذا العهد من اعقاب العرب المالكين لها الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها
وورثوا ارضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب
على حيال لغة الآباء وان فسدت احكامها بمخالطة الاعاجم شيئا فشيئا وسميت
لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو فانها كانت اعرق
في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر
وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك
وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ
الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة المضرية بالامصار عربية فلما ملك التطر والمغل
بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية
على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد
فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت
اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين
المتدارسة من علوم العرب لمن يسره الله لذلك وربما بقيت اللغة العربية الحضرية
بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طالبا لها فانحفظت بعض الشيء
واما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له اثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت
تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله مقدر الليل
والنهار

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم تسليما

الفصل الخامس من الكتاب الاول فى المعاش و وجوهه من الكسب والصنايع وما يعرض
فى ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل **فصل** فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما
وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته
ويمونه فى حالاته واطواره من لدن نشوءه الى اشده الى كبره والله الغنى وانتم الفقرا
والله سبحانه خلق جميع ما فى العالم للانسان وامتن به فى غير ما آية من كتابه فقال خلق
لكم ما فى السموات جميعا منه وسخر لكم الشمس والقمر وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم
الانعام وكثير من شواهده ويد الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من
الاستخلاف وايدى البشر منتشرة فهى مشتركة فى ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع
عن الآخر الا بعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى فى
اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض
عنها قال الله فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمطر المصلح
للزراعة وامثاله الا انها انما تكون معينة ولابد من سعيه معها كما ياتى فتكون له تلك
المكاسب معاشاً ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا ومتمولا ان زادت
على ذلك ثم ان ذلك الحاصل او المقتنى ان عادت منفعته على العبد وحصلت له
ثمرته من انفاقه فى مصالحه وحاجاته سمى رزقا قال صلى الله عليه وسلم انما لك
من مالك ما اكلت فافنيت او لبست فابليت او تصدقت فامضيت وان لم ينتفع به
فى شئ من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى رزقاً والمتملك منه حينئذ بسعى العبد وقدرته يسمى
كسبا وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى الهالك كسبا ولا يسمى رزقا اذ لم يحصل له
منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا ان يكون بحيث يصح تملكه وما
لا يتملك عندهم فلا يسمى رزقا واخرجوا المغصوبات والحرام كله عن ان يسمى شئ منها
رزقاً والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمومن والكافر ويختص برحمته من يشاء
ولهم فى ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها ثم اعلم ان الكسب انما يكون بالسعى فى الاقتناء
والقصد الى التحصيل فلا بد فى الرزق من سعى وعمل ولو فى تناوله وابتغائه من وجهه
قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعى اليه انما يكون باقدار الله تعالى والهامه فالكل
من عند الله فلا بد من الاعمال الانسانية فى كل مكسوب ومتمول لانه ان كان عملا بنفسه
مثل الصنايع فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان او النبات او المعدن فلا بد فيه

هذا حقيقة مسمى الرزق عند اهل السنة وقد اشترط المعتزلة
فى تسميته رزقا ح

من العمل الانسانى كما تراه والا لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله سبحانه خلق
الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول وهى الذخيرة والقنية
لاهل العالم فى الغالب وان اقتنى سواهما فى بعض الاحيان فانما هو فيما حصل
بما يقع فى غيرهما من حوالة الاسواق التى هما عنها بمعزل فهما اصل الكسب والقنية
والذخيرة واذا تقرر هذا كله فاعلم ان ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات
ان كان من الصنايع فالمفاد المقتنى منه عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هناك
الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية وقد يكون مع الصنايع فى بعضها غيرها
مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل الا ان العمل فيهما اكثر فقيمته اكثر وان
كان من غير الصنائع فلا بد فى قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذى
حصلت به العمل اذ لولا العمل لم يحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة فى الكثير
منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت او صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى اسعار
الاقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظة فى اسعار
الحبوب كما قدمناه لكنه خفى فى الاقطار التى علاج الفلح فيها ومؤنته يسيره
فلا يشعر به الا القليل من اهل الفلح فقد تبين ان المفادات والمكتسبات كلها
او اكثرها انما هى قيم الاعمال الانسانية وتبين مسمى الرزق وانه المنتفع به فقد بان
معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما واعلم انه اذا فقدت الاعمال او قلت
بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب الا ترى الى الامصار القليلة الساكن
كيف يقل الرزق والكسب فيها او يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك
الامصار التى تكون اعمالها اكثر يكون اهلها اوسع احوالاً واشد رفاهية كما قدمناه
قبل ومن هذا الباب تقول العامة فى البلدان اذا تناقص عمرانها انها قد ذهب
رزقها حتى ان العيون والانهار ينقطع جريها فى القفر لما ان فور العيون
انما يكون بالانباط والامتراء الذى هو عمل الانسانى كالحال فى ضروع الانعام
فما لم يكن امتراء ولا انباط نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع اذا ترك
امتراؤه وانظره فى البلاد التى تعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم يأتى عليها الخراب
كيف تغور مياهها جملة كأن لم تكن والله يقدر الليل والنهار **فصل**
فى وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه اعلم ان المعاش هو عبارة عن ابتغاء
الرزق والسعى فى تحصيله وهو مفعل من العيش كانه لما كان العيش الذى هو الحياة

هو قيمة ه

لاتحصيل الا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم تحصيل الرزق وكسبه اما ان يكون
باخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباية
واما ان يكون من الحيوان الوحشي باقتراسه واخذه برمته من البر او البحر ويسمى
اصطياداً واما ان يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفة بين الناس
في منافعهم كاللبن من الانعام والحرير من دوده والعسل من نحله او يكون من النبات
في الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحاً واما
ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما في مواد معينة ويسمى الصنائع من كتابة
ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وامثال ذلك او في غير مواد معينة وهي جميع
الامتهانات والتصرفات واما ان يكون الكسب من البضائع واعدادها للاعواض
اما بالتقلب بها في البلاد او احتكارها وارتقاب حوالة الاسواق فيها ويسمى
هذا تجارة فهذه وجوه المعاش واصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من اهل
الادب والحكمة كالحريري وغيره فقالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة
فاما الامارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شيء
من احوال الجبايات السلطانية واهلها في الفصل الثاني واما الفلاحة والصناعة
والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش اما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها
بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية وفطرية لاتحتاج الى نظر ولا علم ولهذا تنسب
في الخليقة الى آدم ابو البشر وانه معلمها والقايم عليها اشارة الى انها اقدم
وجوه المعاش وانسبها الى الطبيعة واما الصنايع فهي ثانيتها ومتاخرة عنها
لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لاتوجد غالبا الا في اهل
الحضر الذي هو متاخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت الى ادريس الاب
الثاني للخليقة وانه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى واما التجارة
وان كانت طبيعية في الكسب فالاكثر من طرقها ومذاهبها انما هي تحيلات في الحصول
على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة ولذلك
اباح الشرع فيه المكايسة لما انه من باب المقامرة الا انه ليس اخذاً للمال من الغير
فلهذا اختص بالمشروعية والله اعلم **فصل** في ان الخدمة ليست من المعاش
الطبيعي اما السلطان فلا بد له من اتخاذ الخدمة في ساير ابواب الامارة والملك
الذي هو بسبيله من الجندي والشرطي والكاتب ويستكفي في كل باب بمن يعلم

غناءه فيه ويتكفل بارزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الامارة ومعاشها
اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم واما
ما دون ذلك من الخدمة فسببها ان اكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته او يكون
عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه
عليه اجراً من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة
بكل احد عجز ولانها تزيد في الوظايف والخرج وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي
في مذاهب الرجولية التنزه عنها الا ان العوايد تقلب طباع الانسان الى مالوفها
فهو ابن عوايده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود
اذ الخديم القايم بذلك لايعدو اربع حالات اما مضطلع بامره موثوق في ما يحصل
بيده واما بالعكس في احدهما فقط مثل ان يكون مضطلعا غير موثوق او موثوقا
غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق به فلا يمكن احد استعماله بوجه اذ هو
باضطلاعه وثقته غني عن اهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الاجر من الخدمة لاقتداره
على اكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء اهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه واما
الصنف الثاني وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي لعاقل استعماله لانه يجحف
بمخدومه في الامرين معا فيضيع عليه لعدم الاضطلاع تارة ويذهب ماله بالخيانة
اخرى فهو كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع احد في استعمالهما ولم يبق الا استعمال
الصنفين الاخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما
مذهبان ولكل من الترجيحين وجه الا ان المضطلع ولو كان غير موثوق ارجح لانه
يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة واما المضيع ولو كان
مأموناً فضرره بالتضييع اكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستكفاء
بالخدمة والله قادر على ما يشاء **فصل** في ان ابتغاء الاموال من الدفاين
والكنوز ليس بمعاش طبيعي اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرصون على
استخراج الاموال من تحت الارض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون ان اموال
الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها بطلاسم سحرية لا يفض
ختامها ذلك الا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان فاهل
الامصار بافريقية يرون ان الافرنجة الذين كانوا بها قبل الاسلام دفنوا اموالهم
كذلك واودعوها في الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها واهل

الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في امم القبط والروم والفرس ويتناقلون
ذلك في احاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين الى حفر
موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خلوا او معمورا بالديدان او يشاهد
الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم او تميد به الارض
حتى يظنه خسفا او مثل ذلك من الهذر ونجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب العاجزين
عن المعاش الطبيعي واسبابه يتقربون الى اهل الدنيا بالاوراق المتخرمة الحواشي
اما بخطوط عجمية او بما ترجم بزعمهم منها من خطوط اهل الدفائن باعطاء الامارات
عليها في اماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون
عليهم بانه انما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات
وربما تكون عند بعضهم نادرة او غريبة من الاعمال السحرية يموه بها على تصديق
ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فيولع الكثير من ضعفاء العقول بجمع الايدي
على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون اهل الدول فاذا
لم يعثروا على شيء ردوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال
يخادعون به انفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة
على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة
والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير الوجه الطبيعي من هذا وامثاله
عجزا عن السعي في المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله
واكتسابه ولا يعلمون انهم يوقعون انفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب
وجهد شديد اشد من الاول ويعرضون انفسهم مع ذلك لمنال العقوبات وربما يحمل
في الاكثر على ذلك زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها
وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها فاذا عجز له الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد
وليجة في نفسه الا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد
التي حصل في اسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا اكثر من تراهم
يحرصون على ذلك هم المترفون من اهل الدول ومن سكان الامصار الكثيرة الترف
المتسعة الاحوال مثل مصر وما في معناها تجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله
ومسائلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيميا هكذا يبلغنا عن اهل مصر
في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين او كنز ويزيدون

الى ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون ان غالب هذه الاموال الدفينة كلها
في مجاري النيل وانه اعظم ما يستر دفينا او مختزنا في تلك الافاق ويموه عليهم
اصحاب تلك الدفاتر المستفعلة في الاعتذار عن الوصول اليها بجرية النيل تسترا
بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء
بالاعمال السحرية لتحصيل ما ابتغاه من بعده كلفا بشان السحر متوارثا في ذلك
القطر عن اوليهم فعلومهم السحرية وآثارها باقية بارضهم في البرابي وغيرها وقصة سحرة
فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل اهل المغرب قصيدة ينسبونها
الى حكماء المشرق تعطي فيها كيفية العمل في التغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي

يا طالبا للسر في التغوير اسمع … كلام الصدق من خبير
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم … من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي … ان كنت ممن لا يرى بالزور
فاذا اردت تغور البئر التي … حارت لها الافهام في التدبير
صور كصورتك التي اوقفتها … والراس راس الشبل في التقوير
ويداه ماسكتان للحبل الذي … في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها … عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطا على الطاآت غير ملامس … مشي اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط داير … تربيعه اولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به … واقصد عقيب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة … والقسط والبسه بثوب حرير
من احمر او اصفر لا ازرقا … ولا اخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف ابيض … او احمر من خالص التحمير
والطالع الاسد الذي قد بينوا … ويكون بدر الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد … في يوم سبت ساعة التدبير

يعني تكون الطاآت بين قدميه كانه يمشي عليها وعندي ان هذه القصيدة
من تمويهات المتخرفين ولهم في ذلك احوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهي التخرفة
والكذب بهم الى ان يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون

الحفر ويضعون فيها المطابق والشواهد التي يكتبونها في صحايف كذبهم ثم يقصدون
ضعفاء العقول بامثال هذه الصحايف ويبعثونه على الكراء ذلك المنزل وسكناه
ويوهمونه ان به دفينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبونه بالمال لاشترا العقاقير
والبخورات لحل الطلاسم ويعدونه بظهور الشواهد التي قد اعدوها هنالك بانفسهم
ومن فعلهم فينبعث بما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر
وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم لتخفى عنهم لمحاورتهم فيما يتناولونه
من حفر وبخور وذبح حيوان وامثال ذلك واما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا اصل له
في علم ولا خبر واعلم ان الكنوز وان كانت توجد لكنها في حكم النادر وعلى وجه
الاتفاق لا على وجه القصد اليها وليس ذلك بامر تعم به البلوى حتى يدخر الناس
غالبا اموالهم تحت الارض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث
والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفن الجاهلية انما يوجد
بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وايضا فمن اختزن ماله وختم عليه
بالاعمال السحرية فقد بالغ في اخفائه فكيف ينصب عليه الادلة والامارات لمن
يبتغيه ويكتب ذلك في الصحايف حتى يطلع على ذخيرته اهل الاعصار والافاق
هذا يناقض قصد الاخفاء وايضا فافعال العقلاء لا بد ان تكون لغرض مقصود
في الانتفاع ومن اختزن المال فانما يختزنه لولده او قريبه او من يؤثره به واما
ان يقصد اخفاءه بالكلية عن كل احد وانما هو للبلى والهلاك او لمن لا يعرفه
بالكلية ممن سياتي من الامم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه واما قولهم
اين اموال الامم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم ان الاموال من
الذهب والفضة والجواهر والامتعة انما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس
والرصاص وساير العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية
ويزيد فيها او ينقصها وما يوجد منها بايدي الناس فهي متناقلة متوارثة وربما
انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى اخرى بحسب اغراضه والعمران الذي
يستدعيه فان نقص المال في المغرب وافريقية فلم ينقص في الصقالبة والافرنجة
وان نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين وانما هي الآلات والمكاسب
والعمران يوفرها او ينقصها مع ان المعادن يدركها البلاء كما يدرك ساير
الموجودات ويسرع الى اللؤلؤ والجوهر اعظم مما يسرع الى غيره وكذا الذهب

والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالهما من البلاء والفناء
ما يذهب باعيانها لاقرب وقت واما ما وقع في مصر من امر المطالب والكنوز
فسببه ان مصر كانت في ملكة القبط منذ الفين او يزيد من السنين
وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلي على
مذهب من تقدم من اهل الدول فلما انقرضت دولة القبط وملك الفرس
بلادهم نقروا عن ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فاخذوا من قبورهم ما لا يوصف
كالاهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت
قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها في كثير من الاوقات
اما ما يدفنونه من اموالهم او ما يكرمون به موتاهم في الدفن من اوعية وتوابيت
من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين
مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني اهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك
فيها واستخراجها حتى انهم حين ضربت المكوس على الاصناف آخر الدول ضربت
على اهل المطالب وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين
فوجد بذلك المتعاطون له من اهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والزعم
باستخراجه وما حصلوا الا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج
من وقع له شيء من هذا الوسواس او ابتلي به ان يتعوذ بالله من العجز والكسل
في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ويصرف عن طرق
الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات
والله يرزق من يشاء بغير حساب **فصل** في ان الجاه مفيد للمال
وذلك انا نجد صاحب الجاه والحظوة في جميع اصناف المعاش اكثر يسارا وثروة
من فاقد الجاه والسبب في ذلك ان صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقرب بها اليه
في سبيل التزلف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له باعمالهم في جميع حاجاته من
ضروري او حاجي او كمالي فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شانه
ان تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك
الاعمال عليه فهو بين قيم للاعمال يكتسبها وقيم اخرى تدعوه الضرورة الى اخراجها
فتتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لاقرب وقت ويزداد مع الايام
يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة احد اسباب المعاش كما قدمناه

وفقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى
نسبة سعيه وهولاء هم اكثر التجار ولهذا تجد اهل الجاه منهم يكونون ايسر بكثير ومما
يشهد لذلك انا نجد كثيرا من الفقهاء واهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم
واعتقد الجمهور معاملة الله في ارفادهم فاخلص الناس في اعانتهم على احوال
دنياهم والاعتمال في مصالحهم اسرعت اليهم الثروة واصبحوا مياسير من غير مال
مقتنى الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم
راينا من ذلك اعدادا في الامصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح
والتجر وهو قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينموا ماله ويعظم كسبه ويتاثل الغنى
من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته واسباب غناه ويساره
والله يرزق من يشاء بغير حساب **فصل** في ان السعادة والكسب انما يحصل غالبا
لاهل الخضوع والملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة قد سبق لنا فيما سلف
ان الكسب الذي يستفيده البشر انما هو قيم اعمالهم ولو قدر احد عاطلا عن العمل
جملة لكان فاقدا للكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال وحاجة الناس اليه
يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه او نقصانه وقد بينا آنفا ان الجاه يفيد
المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه باعمالهم واموالهم في دفع المضار
وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل او مال عوضا عما يحصلون عليه بسبب الجاه
من كثير الاغراض في صالح او طالح وتصير تلك الاعمال في كسبه وقيمها اموالا وثروة له
فيستفيد الغنى واليسار لاقرب وقت ثم ان الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم
طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد غالبة وفي السفل
الى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين ابناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة
من الله في خليقته بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم لان النوع
الانساني لما كان لا يتم وجوده وانه وان ندر ذلك في صورة مفروضة فلا يصح
بقاؤه ثم ان هذا التعاون لا يحصل الا بالاكراه عليه لجهلهم في الاكثر بمصالح النوع
ولما جعل لهم من الاختيار وان افعالهم انما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع
فقد يمتنع من المعاونة فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره ابناء النوع على مصالحهم
لتتم الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات
ليتخذ بعضكم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون فقد تبين ان معنى الجاه هو

القدرة الحاصلة للبشر على التصرف فيمن تحت ايديهم من ابناء جنسهم
بالاذن والمنع والتسلط فيهم بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب
منافعهم في العدل باحكام الشرائع والسياسة وعلى اغراضه فيما سوى ذلك
لكن الاول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر
الشرور الداخلة في القضاء الالهي لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير
من اجل المواد فلا يفوت الخير لذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير وهذا معنى
وقوع الظلم في الخليقة فتفهم ثم ان طبقة من طباق اهل العمران من مدينة
او اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد
بذا الجاه من اهل الطبقة التي فوقه ويزداد كاسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر
ما يستفيد منه والجاه مع ذلك داخل على الناس في جميع ابواب المعاش ويتسع
ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه متسعا كان الكسب
الناشي عنه كذلك وان كان ضيقا وقليلا فمثله وفاقد الجاه ولو كان له مال
فلا يكون يساره الا بمقدار عمله او ماله وعلى نسبة سعيه ذاهبا وجائيا في تنميته
كاكثر التجار واهل الفلاحة في الغالب واهل الصنائع لذلك اذا فقدوا الجاه
واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة في الاكثر ولا تسرع
اليهم ثروة وانما يرمقون العيش ترميقا ويدفعون ضرورة الفقر مدافعة واذا
تقرر ذلك وان الجاه متوزع وان السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت ان بذله
وافادته من اعظم النعم واجلها وان باذله من اجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت
يده فيكون بذله بيد عالية وعن عزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وملق كما
يسال اهل العز والملوك والا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتملق
من اسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان اكثر اهل الثروة
والسعادة بهذا التخلق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض
من الجاه فيقتصرون في التكسب على اعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة واعلم
ان هذا الكبر والترفع من الاخلاق المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وان الناس
يحتاجون الى بضاعته من علم او صناعة كالعالم المتبحر في علمه والكاتب المجيد
في كتابته والشاعر البليغ في شعره وكل محسن في صناعته يتوهم ان الناس
محتاجون الى ما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذلك يتوهم اهل الانساب

ممن كان في آبائه ملك او عالم مشهور او كامل في طور يعتزون بما رأوه او سمعوه
من حال آبائهم في المدينة ويتوهمون انهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم اليهم ووراثتهم
عنهم فهم متمسكون في الحاضر بالامر المعدوم اذ الكمال لا يورث وكذلك اهل
الحنكة والتجارب والبصر بالامور قد يتوهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجا اليه
وتجد هولاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب جاه ولا يتملقون لمن
هو اعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف
احدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهوانا وسفها ويحاسب
الناس في معاملتهم اياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء
مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه
ويستمر في عناء عظيم من ايجاب الحق لنفسه واباية الناس له من ذلك ويحصل له
المقت في الناس لما في طباع البشر من التأله فلما يسلم احد منهم لاحد في الكمال
والترفع عليه الا ان يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا
كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك
مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم ففقد الجاه لذلك
من اهل الطبقة التي هي اعلى منه لاجل المقت وما يحصل بذلك من القعود
عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر او فوق
ذلك بقليل واما الثروة فلا تحصل له اصلاً ومن هذا اشتهر بين الناس
ان الكامل في المعرفة محروم من الحظ وانه قد حوسب بما رزق من المعرفة
واقتطع ذلك له من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشيء يسر له والله المقدر
لا رب سواه ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من اجل هذا الخلق
ويرتفع فيها كثيرا من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك ان الدول
اذا بلغت غايتها من التغلب والاستيلاء وانفرد منها منبت الملك بملكهم و
سلطانهم ويئس سواهم من ذلك وانما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك
وتحت يد السلطان وكانهم خول له فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى
حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى الى خدمته وتقرب اليه بنصيحة واصطنعه
السلطان لغنائه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب
من السلطان بجده ونصحه ويتزلف اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك

بتعظيم

بتعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته واهل نسبه حتى ترسخ قدمه معهم وينظمه
السلطان في جملته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عداد
اهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من ابناء قومها الذين ذللوا صعابها
ومهدوا اكنافها مغترون بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار لتشمخ به
نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره ويجرون في مضمار الدالة بسببه
فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم ويميل الى هولاء المصطنعين الذين لا يعتدون
بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفع وانما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال
في غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف اليهم الوجوه
والخواطر بما يحصل لهم من ميل السلطان والمكانة عنده ويبقى ناشئة الدولة
فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعدا من السلطان
ومقتا وايثارا لهولاء المصطنعين عليهم الى ان ينقرض الدولة وهذا امر طبيعي
في الدول ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب والله فعال لما يريد

فصل

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة
والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب والسبب في ذلك ان
الكسب كما قدمناه قيمة الاعمال وانها متفاوتة بحسب الحاجة اليها فاذا كانت
ضرورية في العمران عامة البلوى فيه كانت قيمتها اعظم وكانت الحاجة
اليها اشد واهل هذه الصنائع الدينية لا يضطر اليهم عامة الخلق وانما يحتاج
الى ما عندهم الخواص ممن اقبل على دينه وان احتيج الى الفتيا والقضاء في الخصومات
فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هولاء في الاكثر وانما يهتم
بهم وباقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح فيقسم لهم حظا
من الرزق على نسبة على النحو الذي قررناه لا يساويهم باهل الشوكة ولا باهل
الصنائع الضرورية وان كانت بضاعتهم اشرف من حيث الدين والمراسم
الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة اهل العمران فلا يصح في قسمتهم
الا القليل وهم ايضا لشرف بضائعهم اعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون
لاهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل فلا تفرغ اوقاتهم
لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على الفكر والبدن
بل ولا يسعهم ابتذال انفسهم لاهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك

فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء فنكر ذلك
على فوقع بيدي اوراق مخرمة من حسبانات الدواوين بدار المامون تشتمل
على كثير من الدخل والخرج يومئذ وكان فيما طالعت فيه ارزاق القضاة والائمة
والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب
من اسرار الله في خليقته وحكمته في عوالمه والله الخالق المقدر فصل
في ان الفلاحة من معاش المستضعفين واهل العافية من البدو وذلك لانه
اصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه ولهذا لا تجده ينتحله احد من اهل الحضر في الغالب
ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة
ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخله الذل وحمله البخاري
على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع
او تجاوز الحد الذي امر به والسبب فيه والله اعلم ما يتبعها من المغرم المفضي
الى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلا بائسا بما تتناوله ايدي القهر
والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما
اشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور
ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغارم
للملوك والدول والله قادر على ما يشاء فصل في معنى التجارة ومذاهبها
واصنافها اعلم ان معنى التجارة محاولة الكسب بتنمية المال في شراء السلعة
بالرخص وبيعها بالغلاء ما كانت السلعة من رقيق او زرع او حيوان او سلاح
او قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحا والمحاولة لذلك الربح اما بان تختزن
السلعة ويتحين بها حوالة السوق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه
واما بان ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذي اشتراها
فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف
عن حقيقة التجارة انا اعلمكها في كلمتين اشتر الرخيص وبع الغالي وقد
حصلت التجارة اشار له بذلك الى المعنى الذي قررناه والله الرزاق
ذو القوة المتين فصل في نقل التاجر للسلع التاجر البصير بالتجارة
لا ينقل من السلع الا ما تعم الحاجة اليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة
اذ في ذلك نفاق سلعته واما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط

فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء على ذلك البعض لعارض
من العوارض فتكسد سوقه وتفسد ارباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج
اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالي من كل صنف من السلع انما يختص
باهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة في الحاجة
الى الوسط من كل صنف فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته او كسادها
وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة او في شدة الخطر في الطرقات يكون
اكثر فائدة للتجار واعظم ارباحا واكفل بحوالة الاسواق لان السلع المنقولة
حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها او شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها
ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلت اثمانها واما اذا كان البلد قريب المسافة
والطريق سهل السابلة بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص اثمانها ولهذا
تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان ارفه الناس واكثرهم اموالا
لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش
لا يوجد فيها الماء الا في اماكن معلومة يهتدي اليها ادلاء الركاب فلا يرتكب
خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا
فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع اليهم
الغنى والثروة من اجل ذلك وكذا المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعد الشقة
ايضا واما المترددون في الافق الواحد ما بين امصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة
وارباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها والله الرزاق ذو القوة المتين فصل
في الاحتكار ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الامصار ان احتكار الزرع لتحين
اوقات الغلاء به مشؤوم وانه يعود على فائدته بالتلف والخسران وسببه
والله اعلم ان الناس لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يبذلون فيها من المال
اضطرارا فتبقى النفوس متعلقة به وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وباله على من
ياخذه ولعله الذي اعتبره الشارع في اخذ اموال الناس بالباطل وهذا وان
لم يكن مجانا فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره
وما عدا الاقوات والماكولات من المبيعات لا اضطرار للناس اليها وانما يبعثهم
عليها التفنن في الشهوات فلا يبذلون اموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبقى
لهم تعلق بما اعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته

بما يأخذ من أموالهم فيفسد ربحه والله أعلم وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة
عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلي قال حضرت عند القاضي
بفاس لعهد السلطان أبو سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلي وقد عرض عليه أن
يختار بعض الألقاب المخزنية لجرايته قال فأطرق مليا ثم قال لهم من مكس الخمر
فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك فقال إذا
كانت الجبايات كلها حراما فأختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه والخمر قل أن
أن يبذل أحد فيها ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه ولا متعلق به
وهذه ملاحظة غريبة والله تعالى أعلم **فصل** في أن رخص الأسعار مضر
بالمحترفين بالرخيص وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع
أو التجارة وهي شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة الأسواق بالزيادة
في أثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائما فإذا استديم
الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر
حوالة الأسواق فيه فسد الربح والنماء بطول المدة وكسدت سوق ذلك الصنف ولم يحصل
التاجر إلا على العناء فيقعد التجار عن السعي فيها وتفسد رؤوس أموالهم واعتبر ذلك
مثلا بالزرع إذا استديم رخصه كيف تفسد أحوال المحترفين به في سائر أطواره من الفلح
والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه
على قلة ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر
والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق
بالزرع من الحرف من لدن زراعته إلى مصيره مأكولا وكذا يفسد حال الجند
إذا كانت أرزاقهم من السلطان عند أهل الفلح زرعا بالإقطاع فإنهم تقل جبايتهم
من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها ويرزقون من السلطان عليها
فيقطع عنهم الرزق وتفسد أحوالهم وكذا إذا استديم الرخص في السكر والعسل فسد جميع
ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا حال الملبوسات إذا استديم فيها
الرخص أيضا فإذن الرخص المفرط مجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص
وكذا الغلاء المفرط أيضا وربما يكون في النادر سببا لنماء المال بسبب احتكاره وعظيم
فائدته وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق
ومعرفة ذلك ترجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران وإنما يحمد الرخص في الزرع

من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني
والفقير والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب
القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين
فصل في أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم ينبغي له تركها قد تقدم لنا
أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء
إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى أو بيعها بالغلاء
على الآجال وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال نزر يسير إلا أن المال إن كان كثيرا
عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية الذي هو الربح من
حصول هذا المال في أيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها وتقاضي أثمانها
وأهل النصفة منهم قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل
في الأثمان المجحف بالربح لتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه ومن الجحود
والإنكار المسحت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغناء الحكام
في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك أحوالا صعبة
ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظيم العناء والمشقة أو لا يحصل
أو يتلاشى رأس ماله فإن كان جريئا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما
على الحكام كان ذلك أقرب له إلى النصفة منهم بجرأته ومماحكته وإلا فلا بد له من جاه
يدرع به فيوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من غرمائه فيحصل له بذلك
النصفة واستخلاص ماله منهم طوعا في الأول وكرها في الثاني وأما من كان فاقدا
للجراءة والإقدام من نفسه وفاقدا للجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب التجارة لأنه
يعرض ماله للذهاب والضيعة ويصيره مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم
لأن الناس في الغالب متطلعون إلى ما في أيدي الناس ولولا وازع الحكام ما سلم لأحد
شيء مما في يده وخصوصا الباعة وسفلة الناس ورعاعهم ولولا دفاع الله الناس
بعضهم لبعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين **فصل** في أن خلق
التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة قد قدمنا في الفصل قبله أن
التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح ولا بد في ذلك
من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهي عوارض
هذه الحرفة وهذه الأوصاف تغض من الزكاء والمروءة وتجرح فيها لأن الأفعال

لا بد من عود آثارها على النفس فافعال الخير تعود باثار الخير والزكاء وافعال الشر
والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ ان سبقت وتكررت وتنقص من خلال
الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شان الملكات الناشئة
عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت اصناف التجار في اطوارهم فمن كان
منهم سافل الطور محالطاً لشرار الباعة اهل الغش والخلابة والفجور في الايمان
على البياعات والاثمان اقراراً وانكاراً كانت رداءة تلك الخلق عنده
اشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة والا
فلا بد له من تاثير المكايسة والمماحكة في مروءته وفقدان ذلك فيهم بالجملة
قليل ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله انهم يدرعون
بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر واقل من النادر وذلك ان يكون
المال قد توفر عنده دفعة بنوع غريب او ورثه عن احد من اهل بيته فحصلت له
ثروة تعينه على الاتصال باهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين اهل عصره
فيترفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه
ويسهل لهم الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره واتحافه فيبعدون
عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الافعال المقتضية لها كما مر فيكون مروءاتهم
ارسخ وابعد عن المحاجات الا ما يسري من آثار تلك الافعال من وراء الحجاب
فانهم يضطرون الى مشارفة احوال اولئك الوكلاء ووفاقهم او خلافهم
فيما يأتون او يذرون من ذلك الا انه قليل ولا يكاد يظهر اثره والله
خلقكم وما تعملون **فصل** في ان الصنايع لا بد لها من المعلم اعلم ان الصناعة
هي ملكة في امر عملي فكري وبكونه عملياً هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية
المحسوسة فنقلها بالمباشرة اوعب لها واكمل لان المباشرة في الاحوال
الجسمانية المحسوسة اتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال
ذلك الفعل وتكرره مرة بعد اخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون
الملكة ونقل المعاينة اوعب واتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه
اكمل وارسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم
يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنايع منها البسيط
ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون

للكماليات

للكماليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته اولا ولانه مختص بالضروري
الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك
ناقصاً ولا يزال الفكر يخرج اصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط
شيئاً فشيئاً على التدريج حتى يكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في ازمان واجيال
اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الامور الصناعية
فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنايع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد
منها الا البسيط فاذا تزيدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال
الصنايع خرجت من القوة الى الفعل والله اعلم **فصل** في ان الصنايع
انما يكمل بكمال العمران الحضري وكثرته والسبب في ذلك ان الناس ما لم يستوف
العمران الحضري وتمدن المدينة انما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل
الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تمدنت المدينة وتزيدت فيها الاعمال ووفت
بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ على الكمالات من المعاش ثم ان
الصنايع والعلوم انما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات
والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم
والصنايع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة
الصنايع للتأنق فيها حينئذ وجودة ما يطلب منها بحيث تدعو اليه دواعي الترف والثروة
واما العمران البدوي او القليل فلا يحتاج من الصنايع الا البسيط خاصة المستعمل
في الضروريات من نجار او حداد او خياط او جزار او حايك واذا وجدت هذه
بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها
وسايل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيها الكمالات
كان من جملتها التأنق في الصنايع واستجادتها فكملت بجميع متماتها وتزيدت صنايع
اخرى معها مما تدعو اليه عوايد الترف واحواله من خراز ودباغ وجزار وصايغ وامثال
ذلك وقد ينتهي هذه الاصناف اذا استبحر العمران ان يوجد منها كثير من الكمالات
ويتأنق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من اعظم
فوايد الاعمال لما تدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ
والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين
الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة

انما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وامثال ذلك
وقد تخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما يبلغنا عن اهل مصر
ان فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الانسية ويخيل اشياء من العجايب بايهام قلب
الاعيان وتعليم الحدآء والرقص والمشي على الخيوط في الهوآء ورفع الاثقال من الحيوانات
والحجارة وغير ذلك من الصنايع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران امصاره
لم يبلغ عمران مصر والقاهرة والله الحكيم العليم **فصل** في ان رسوخ الصنايع
في الامصار برسوخ الحضارة وطول امدها والسبب في ذلك ظاهر وهو ان هذه
كلها عوايد للعمران والوان والعوايد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد
فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها
ولهذا فانا نجد الامصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها
وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنايع ليست في غيرها من الامصار
المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك الا لان احوال
تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها
وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد فانا نجد فيها رسوم
الصنايع قايمة واحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوايد امصارها
كالمباني والطبخ واصناف الغناء واللهو من الالات والاوتار والرقص وتنضيد
الفرش في القصور وحسن الترتيب والاوضاع في البناء وصوغ الانية من المعادن
والخزف وجميع المواعين واقامة الولايم والاعراس وساير الصنايع التي يدعو اليها الترف
وعوايده فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ونجد صنايعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة
من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار وان كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي
عمران غيرها من بلاد العدوة وما ذلك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم
برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوايف
الى هلم فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في الا ما ينقل عن العراق
والشام ومصر ايضا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنايع
وكملت جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك
العمران لا تفارقه الى ان ينتقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب وكذا
ايضا حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم

وما استكمل لها ذلك من الصنايع في ساير الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس
الا انه متضاعف برسوم منها تنتقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد
المسافرين من قطرها الى قطر مصر في كل سنة وربما سكن اهلها هناك عصورا فينقلون
من عوايد ترفهم ومحكم صنايعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت احوالها في ذلك
متشابهة من احوال مصر لما ذكرناه ومن احوال الاندلس لما ان اكثر ساكنها من شرق
الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك احوال وان كان عمرانها
ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الا ان الصبغة اذا استحكمت فقليلا ما تحول الا
بزوال محلها وكذلك نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد اثرا باقيا من ذلك
وان كانت هذه كلها اليوم خرابا او في حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس
فنجد من هذه الصنايع اثارة تدله على ما كان بها كاثر الخط الممحو في الكتاب والله الخلاق العليم
فصل في ان الصنايع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها والسبب في ذلك
ان الانسان لا يسمح بعمله ان يقع مجانا لانه كسبه ومنه معاشه اذ لا فايدة له في جميع عمره
في شيء مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع واذا كانت الصناعة
مطلوبة وتوجه اليها النفاق كانت الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها
وتجلب للبيع فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا
لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا توجه قصد الى تعلمها فاختصت بالترك
وفقدت للاهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى ان
صناعته هي قيمته اي قيمة عمله الذي هو معاشه وايضا فهنا سر آخر وهو ان الصنايع
واجادتها انما تطلبها الدولة وانما يطلبه غيرها من اهل المصر فليس على نسبتها لان
الدولة هي السوق الاعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة
واحدة فما نفق فيها كان اكثريا ضرورة والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم
بعام ولا سوقهم بنافقة والله قادر على ما يشاء **فصل** في ان الامصار اذا
اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنايع وذلك لما بيناه من الصنايع انما
تستجاد اذا احتيج اليها وكثر طالبها فاذا ضعفت احوال المصر واخذ في الهرم
بانتقاص عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري
من احوالهم فتقل الصنايع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها ح لا يصح له بها
معاش فيفر الى غيرها او يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنايع

جملة كما يذهب النقاشون والصواغون والكتاب والنساخ وامثالهم من الصناع
لحاجات الترف ولا تزال الصناعات في تناقص ما دام المصر في تناقص الى
ان يضمحل والله الخلاق العليم **فصل** في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع
والسبب في ذلك انهم اعرق في البدو وابعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه
من الصنائع وغيرها والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومي
اقوم الناس عليها لانهم اعرق في العمران الحضري وابعد عن البدو وعمرانه حتى ان
الابل التي اعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم
ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولهذا تجد اوطان العرب وما ملكوه
في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم
من الصين والهند وارض الترك وامم النصرانية كيف استكثرت فيه الصنائع
واستجلبها الامم من عندهم وعجم المغرب من البربر بمثابة العرب في ذلك
لرسوخهم في البداوة منذ احقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار
بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان
من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا
بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين اغلب السلع في قطرهم لما هم عليه
من حال البداوة واما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين
من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم احقابا متطاولة
ورسخت فيهم احوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها
واما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكها العرب الا انهم تداولوا ملكه آلافا
من السنين في امم كثيرين منهم واختطوا امصاره ومدنه وبلغوا المبالغ
من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة
والاذواء فطال امد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع
ورسخت فلم تبل ببلى الدولة كما قلناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت
بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها
والله وارث الارض ومن عليها **فصل** في ان من حصلت له ملكة في
صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكة في اخرى ومثال ذلك الخياط اذا اجاد
ملكة الخياطة واحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة

او البناء الا ان تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك
ان الملكات صفات للنفس والوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة
كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة
خرجت عن الفطرة وضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان
قبولها للملكة الاخرى اضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل ان تجد صاحب
صناعة يحكمها ويحكم بعدها اخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة
حتى ان اهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم
من العلوم واجادها في الغاية فقل ان يجيد ملكة علم آخر على نسبته بل يكون مقصرا
فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبنى سببه على ما ذكرناه من الاستعداد
وتلوينه بكون الملكة الحاصلة في النفس والله اعلم **فصل** في الاشارة
الى امهات الصنائع اعلم ان الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة
في العمران فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد الا ان منها ما هو ضروري
في العمران او شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها فاما الضروري
فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة واما الشريفة بالموضوع
فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية
في العمران وعامة البلوى اذ بها تحصل حياة المولود وتتم غالبا وموضوعها
مع ذلك المولودون وامهاتهم واما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع
المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان واما الكتابة
وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان
ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم في الصحف
ورافعة رتب الوجود للمعاني واما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع
وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم في خلواتهم ومجالس
انسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك فتابعة وممتهنة
في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله الخلاق العليم
فصل في صناعة الفلاحة هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب
بالقيام على اثارة الارض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية
الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل

اسبابه ودواعيه وهي اقدم الصنايع لما انه محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان
غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الا من دون القوت ولهذا اختصت
هذه الصناعة بالبدو اذ قدمنا انه اقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه
الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها لان احوالهم كلها
ثانية عن البداوة فصنايعهم ثانية عن صنايعها وتابعة لها والله الخلاق العليم
في صناعة البناء هذه اول صنايع العمران الحضري واقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ
البيوت والمنازل للكن والماوي وذلك ان الانسان لما جبل عليه من الفكر
في عواقب احواله لا بد له ان يفكر في موانع اذاية الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت
ذوات الحيطان والسقف الحائلة دون ذلك من جهاته والبشر مختلفون في هذه
الجبلة الفكرية التي هي معنى الانسانية فالمعتدلون فيها ولو على التفاوت يتخذون
ذلك كاهل الاقليم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس واما اهل الاول
والسابع فيبعدون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور افكارهم في كيفية العمل في الصنايع
الانسانية فيأوون الى الغيران (جمع غار) والكهوف كما يتناولون الاغذية من غير علاج ولا نضج
ثم المعتدلون المتخذون البيوت للماوي قد يتكاثرون فيكثر بيوتهم في البسيط الواحد
بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشى من طروق بعضهم بعضا بياتا فيحتاجون
الى حفظ مجتمعهم بادارة سياج الاسوار التي تحوطهم ويصير جميعها مدينة ومصرا
واحدا يحوطهم فيه الحكام بدفاع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الاعتصام من العدو
فيتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت ايديهم وهولاء مثل الملوك من الامراء
وكبار القبايل ثم تختلف احوال البناء في المدن كل مدينة على ما يتعارفونه ويصطلحون
عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم في الغنى والفقر وكذا حال
اهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة
على عدة الدور والبيوت والغرف لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس
جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالاصبغة والجص ويبالغ في
كل ذلك بالتنجيد والتنميق اظهارا للبسطة في العناية بشان المأوى ويهيئ مع ذلك
الاسراب والمطامير لاختزان اقواته والاصطبلات لربط مقرباته ان كان من اهل
الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة
والبويت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره

على الكن

على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد تحتاج الى هذه الصناعة
ايضا عند تاسيس الملوك واهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون
في اتقان الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه
الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك كله واكثر ما تكون هذه الصناعة
في الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حوله اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانما
يتخذون البيوت حظاير من القصب والطين واهل هذه الصناعة القائمون عليها
متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع انواعا كثيرة فمنها
البناء بالحجارة المنجدة وبالآجر يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين
والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كانها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة
تقام منه الحيطان بان يتخذ له لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف
العادات في التقدير واوسطه اربعة اذرع في ذراعين فينصبان على اساس
وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الاساس ويوصل بينهما باذرع
من الخشب يربط عليها بالحبال والجدل ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك
الفضاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مختلطا بالكلس
ويركز بالمراكز المعدة لذلك حتى ينعم ركزه ويختلط اجزاؤه بالكلس ثم يزاد
التراب ثانيا وثالثا الى ان يمتلئ ذلك الفضاء بين اللوحين وقد تداخلت
اجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة
الاولى ويركز كذلك الى ان يتم وتنتظم الالواح كلها سطرا من فوق سطر
الى ان ينتظم الحائط كله ملتحما كانه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه
الطواب ومن صنايع البناء ايضا ان تجلل الحيطان بالكلس بعد ان يحل
بالماء ويخمر اسبوعا او اسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية
المفسدة للالحام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط و
دلكه الى ان يلتحم ومن صنايع البناء عمل السقف بان تمد الخشب المحكمة
النجارة او الساذجة على حائط البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة
بالدساتر ويصب عليها التراب والكلس ويبلط بالمراكز حتى تتداخل اجزاؤها
وتلتحم ويعالى عليه الكلس كما يعالى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع الى
التنميق والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسمة من الجص يعقد بالماء

ثم يرجع مجددا وفيه بقية البلل فيتشكل على التناسب تخريما بمثاقب الحديد
الى ان يبقى له رونق ورواء وربما عولى على الحيطان ايضا بقطع الرخام
او الآجر او الخزف او الصدف او الزجاج يفصل اجزاء متجانسة
او مختلفة ويوضع في الكلس على نسب واوضاع مقدرة عندهم يبدو
الحائط للعيان كانه قطع الرياض المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج
لسيح الماء بعد ان تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة
الخرط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري الى الصهريج يجلب اليها من خارج
في القنوات المفضية به الى البيوت. وامثال ذلك من انواع البناء وتختلف
الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران المدينة
ويتسع فيكثرون وربما يرجع الحكام الى نظر هولاء فيما هم ابصر به من احوال
البناء وذلك ان الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون
حتى في الفضاء والهواء للاعلى والاسفل وفي الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع
معه حصول الضرر في الحيطان فيمتنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق و
يختلفون ايضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات
المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه او علوه او قناته
لتضايق الجوار او يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه وخشية سقوطه
ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه او يحتاج
الى قسمة دار او عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار و
لا اهمال لمنفعتها وامثال ذلك ويخفى جميع ذلك الا على اهل البصر
بالبناء العارفين باحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب
وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة اوضاعها ومنافعها
وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومدفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه
من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست
لغيرهم وهم مع يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول
وقوتها فانا قدمنا ان الصنائع وكمالها انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة
الطالب لها فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في اول امرها تفتقر في امر
البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد ابن عبد الملك حين اجمع بناء مسجد المدينة

والقدس ومسجده بالشام فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة
المهرة في البناء فبعث اليه منهم من كمل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف
صاحب هذه الصناعة اشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن
واجراء المياه باخذ الارتفاع وامثال ذلك فيحتاج الى البصر بشيء من
مسائله وكذلك جر الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت
بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة الى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة
قوة الحبل بادخاله في المعالق من اثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير
الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا وتسمى الآلة لذلك بالمخال فيتم المراد من
ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم باصول هندسية معروفة متداولة بين البشر
وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس انها من
بناء الجاهلية وان ابدانهم كانت على نسبتها في عظم الجثمان وليس كذلك
وانما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء

فصل في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضرورات العمران ومادتها الخشب وذلك ان الله سبحانه
وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته او حاجاته
وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل احد ومن
منافعها اتخاذها خشبا اذا يبست واول منافع الخشب ان يكون وقودا للنيران
في معاشهم وعصيا للاتكاء والذود وغيرهما من ضروراتهم ودعائم لما يخشى
ميله من اثقالهم ثم بعد ذلك منافع اخرى لاهل البدو والحضر فاما اهل البدو
فيتخذون منها العمد والاوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي
والسهام لسلاحهم واما اهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لابوابهم
والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشب مادة لها ولا تصير الى الصورة
الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها
هي النجارة على اختلاف رتبتها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب اولا اما
بخشب اصغر منه او بالواح ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصورة المطلوبة فهو في
كل ذلك يحاول بصنعته اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى ان تصير اعضاء
لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران

ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل
صنف من سقف او باب او كرسي او ماعون حدث التأنق في صناعة
ذلك واستجادته بغرايب من الصنعة كمالية ليست من الضروري في شيء
مثل التخطيط في الابواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط
يحكم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتير فتبدو لمرأى العين
ملتحمة وقد اخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب يصنع هذا في كل شكل
يتخذ من الخشب فيجيء آنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج اليه من الالات المتخذة
من الخشب من اى نوع كانت وكذلك قد يحتاج الى هذه الصناعة في انشاء
السفن البحرية ذوات الالواح والدسر وهي اجرام هندسية صنعت على قالب
الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون هذا الشكل اعون لها
في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح
وربما اعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل وهذه الصناعة من
اصلها محتاجة الى جزء كبير من الهندسة في جميع اصنافها لان اخراج
الصور من القوة الى الفعل على وجه الاحكام محتاج الى معرفة التناسب في
المقادير اما عموما او خصوصا وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع الى المهندس
ولهذا كانت ائمة الهندسة اليونانيين كلهم ائمة في هذه الصناعة
فكان اوقليدس صاحب كتاب الاصول في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك
ابلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال ان معلم هذه الصناعة
في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها انشأ سفينة النجاة التي بها كانت
معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وان كان ممكنا اعني كونه نجارا الا ان كونه اول
من عملها لا دليل يقوم عليه لبعد الآماد وانما معناه الاشارة الى قدم النجارة
لانه لم تصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كانه اول من تعلمها فتفهم
اسرار الصنايع في الخليقة والله الخلاق العليم فصل في صناعة الحياكة والخياطة
اعلم ان المعتدلين من البشر في معنى الانسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء
كالفكر في الكن ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد ولا بد لذلك
من الحام الغزل حتى يصير ثوبا واحدا وهو النسج والحياكة فان كانوا بادية اقتصروا
عليه وان مالوا الى الحضارة فصلوا تلك الثياب المنسوجة قطعا يقدرون منها ثوبا

على البدن بشكله وتعدد اعضائه واختلاف نواحيها ثم يلائمون تلك القطع بالوصائل
حتى يصير ثوبا واحدا مقدرا على البدن ويلبسونها والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة
هي الخياطة وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الدفء
فالاولى لنسج الغزل من الصوف والقطن سدى في الطول والحاما في العرض واحكاما
لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الاكسية من الصوف
للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات
على اختلاف الاشكال والعوايد تفصل اولا بالمقراض قطعا مناسبة للاعضاء
البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا او حبكا او تنبيتا او تفتيحا على حسب
نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما ان اهل البدو يستغنون عنها
وانما يشتملون الاثواب اشتمالا وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة
للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم المخيط في الحج لما ان مشروعية
الحج مشتملة على نبذ العلايق الدنيوية كلها والرجوع الى الله كما خلقنا اول مرة حتى لا يعلق
العبد قلبه بشيء من عوايد ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا يتعرض لصيد
ولا لشيء من عوايده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع انه يفقدها بالموت ضرورة
وانما يجيء كانه وارد على المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربه وكان جزاؤه ان تم له
اخلاصه في ذلك ان يخرج من ذنوبه كيوم ولدته امه سبحانك ما ارفقك بعبادك
وارحمك بهم في طلب هدايتهم اليك وهاتان الصناعتان قديمتان في الخليقة
لما ان الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل واما المنحرف الى الحر فلا يحتاج
اهله الى دفء ولهذا يبلغنا عن اهل الاقليم الاول من السودان انهم عراة
في الغالب ولقدم هذه الصناعة تنسبها العامة الى ادريس عليه السلام وهو
اقدم الانبياء وربما ينسبونها الى هرمس وقد يقال ان هرمس هو ادريس والله
الخلاق العليم فصل في صناعة التوليد وهي صناعة يعرف بها العمل في
استخراج المولود الآدمي من بطن امه من الرفق في اخراجه من رحمها وتهيئة اسباب
ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الامر لما انهن
الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القابلة على ذلك مشتق القابلة استعير
فيه معنى الاعطاء والقبول كان النفساء تعطيها الجنين وكانها تقبله وذلك
ان الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم واطواره وبلغ الى غايته والمدة التي قدر الله له

المكث وهو تسعة اشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله فيه من النزوع الى ذلك
ويتضايق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع
ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع
وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين
وما يحاذي الرحم من الاسافل تساوق بذلك فعل الدافعة في اخراج الجنين وتسهيل
ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي الى معرفة عسره ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه
وبين الرحم الوصلة التي كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه وتلك الوصلة
عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا يتعدى مكان
الفضلة ولا يضير بمعاه ولا برحم امه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي او بما تراه
من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو رطب
العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما اشكال اعضائه واوضاعها لقرب تتغير
التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله
الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها
بالغمز والملاينة لخروج اغشية الجنين لانه ربما تبطئ عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك
ان تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهي فضلات فتتعفن
ويسري عفنها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في اعانة الدفع
الى ان تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتمرخ اعضاءه
بالادهان والذرور القابضة لتشدها وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته
وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها
عن الالتصاق ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي اصابها بالطلق وما
لحق رحمها من ألم الانفصال اذ المولود وان لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين
في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم
القطع وتداوي مع ذلك ما يلحق الفرج من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج
وهذه كلها ادواء نجد هؤلاء القوابل ابصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة
الرضاع من ادواء في بدنه الى حين الفصال نجدهن ابصر بها من الطبيب الماهر
وما ذلك الا لان بدن الانسان في تلك الحالة انما هو بدن انساني بالقوة فقط
فاذا جاوز الفصال صار بدنا انسانيا بالفعل فكانت حاجته الى الطبيب اشد

فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع الانساني لا يتم كون اشخاصه
في الغالب دونها وقد يعرض لبعض اشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة
اما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما في حق الانبياء صلوات الله عليهم او
بالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة
فاما شان المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم
ولد مختونا مسرورا واضعا يديه على الارض شاخصا ببصره الى السماء وكذلك شان
عيسى في المهد وغير ذلك واما شان الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم
تختص بغرايب من الالهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالانسان المفضل عليها وخصوصا
بمن اختص بكرامة الله ثم الالهام العام للمولودين في الاقبال على الثدي من اوضح شاهد
على وجود الالهام لهم فشان العناية الالهية اعظم من ان يحاط به ومن هنا يفهم بطلان
رأي الفارابي وحكماء الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع
المكونات وخصوصا في النوع الانساني وقالوا لو انقطعت اشخاصه لاستحال
وجودها بعد ذلك لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان
الا بها اذ لو قدرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها الى حين الانفصال لم يتم
بقاؤه اصلا ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لانها ثمرته وتابعة له وتكلف
ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته اياه وذهابه الى انقطاع الانواع وخراب
عالم التكوين ثم عوده ثانية لاقتضاآت فلكية واوضاع غريبة تندر في الاحقاب
بزعمه فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقيض له
حيوان يخلق فيه الهام لتربيته والحنو عليه الى ان يتم وجوده وفصاله واطنب في بيان
ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كنا
نوافقه على انقطاع الانواع لكن من غير ما استدل به فان دليله مبني على اسناد
الافعال الى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل يرده عليه ولا واسطة على القول
بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة الى هذا التكلف ثم
لو سلمناه جدلا فغاية ما بنى عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الالهام في تربيته
في الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق في الحيوان
الاعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه اولا وخلق الالهام في شخص
لمصالح نفسه اقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على انفسهما

بالبطلان في مناحيهما لما قررته لك والله الخلاق العليم

فصل في صناعة الطب

وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية هذه الصناعة ضرورية
في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للاصحا ودفع المرض
عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البر من ادوائهم واعلم ان اصل الامراض كلها
انما هو من الاغذية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب مما
يتفق بين اهل الصناعة وان طعن فيه العلماء وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية
راس الدواء واصل كل داء البردة فاما قوله بيت الداء فظاهر واما قوله الحمية
راس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء
العظيم الذي هو اصل الادوية واما قوله اصل كل داء البردة فمعنى البردة
ادخال الطعام على الطعام في قبل ان يتم هضم الاول وشرح هذا ان الله سبحانه
خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وتنفذ فيه القوى الهاضمة
والغاذية الى ان يصير دما ملايما لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تاخذه
النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد
طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل في الفم ولاكته
الاشداق اثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشي كما تراه
في اللقمة اذا تناولتها طعاما ثم اجدتها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام
ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى ان يصير كيموسا وهو صفو ذلك
المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه في المعا ثفلا ينفذ الى المخرجين
ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى ان يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من
الطبخ هي الصفراء وترسب منه اجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض
الشي عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول
وياخذ طبخ الحار الغريزي هنالك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح
الروح الحيواني وتاخذ النامية ماخذها في الدم فيكون لحما ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن
ما يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع
هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما ثم ان اصل الامراض ومعظمها
هي الحميات وسببها ان الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من
هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون اغلب
على الحار الغريزي او ادخال الطعام على المعدة قبل ان يستوفي طبخ الاول فيشتغل به

الحار الغريزي ويترك الاول بحاله او يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله
المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد ايضا على انضاجه وربما بقي في
الكبد من الغذاء السابق فضلة غير ناضجة فترسل الكبد جميع ذلك الى العروق
غير ناضج كما هو فاذا اخذ البدن حاجته الملايمة ارسله مع الفضلات الاخرى
من العرق والدمع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه
فيبقى في العروق والكبد والمعدة ويتزايد مع الايام وكل ذي رطوبة من الممتزجات
اذا لم ياخذه النضج والنضج تعفن فيتعفن ذلك الغذا غير الناضج وهو المسمى
الخلط وكل متعفن ففيه الحرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الانسان
بالحمى واعتبر ذلك في الطعام اذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل اذا تعفن كيف تنبعث
فيه الحرارة وتاخذ ماخذها فهذا معنى الحميات في الابدان وهي راس الامراض واصلها
كما وقع في الحديث ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض اسابيع
معلومة ثم يناوله الاغذية الملايمة حتى يتم برؤه وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ
من هذا المرض وغيره وقد يكون ذلك التعفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض
في ذلك العضو او تحدث جراحات في البدن اما في الاعضاء الرئيسة او في غيرها
وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الامراض
واصلها في الغالب من الاغذية وهذا كله مدفوع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض
في اهل الحضر والامصار اكثر لخصب عيشهم وكثرة ماكلهم وقلة اقتصارهم على نوع
واحد من الاغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالاغذية من التوابل
والبقول والفواكه رطبا ويابسا في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على
نوع ولا انواع فربما عددنا في اللون الواحد من الوان الطبخ اربعين نوعا من
النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون بعيدا عن ملايمة البدن
واجزائه ثم ان الاهوية في الامصار تفسد بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات
والاهوية منشطة للارواح ومقوية بنشاطها لاثر الحار الغريزي في الهضم
ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار اذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تاخذ
منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم اثرا فكان وقوع الامراض كثيرا في المدن و
الامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة فاما اهل البدو
فماكلهم قليل في الغالب والجوع اغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك

وربما يظن انها جبلة لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم او مفقودة بالجملة
وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة التي هم عنه بمعزل
فيتناولون اغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملايمة البدن
واما اهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا اهلين
او لاختلاف الاهوية ان كانوا ظواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم من كثرة
الحركة في ركض الخيل او الصيد او طلب الحاجات او مهنة انفسهم في حاجاتهم
فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون امزجتهم
اصلح وابعد عن الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية
بوجه وما ذلك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك في البدو
معاش يدعوه الى سكناه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

فصل

في ان الخط والكتابة من عداد الصنايع الانسانية وهو رسوم واشكال حرفية
تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية
وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي يميز بها عن الحيوان وايضا
فهي تطلع على ما في الضماير وتتادى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضى الحاجات
وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين
وما كتبوه من علومهم واخبارهم فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع وخروجها
في الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران
والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة
الصنايع وقد قدمنا ان هذا شانها وانها تابعة للعمران ولهذا نجد اكثر البدو
اميين لا يقرؤن ولا يكتبون ومن قرا منهم او كتب فيكون خطه قاصرا وقراءته
غير نافذة ونجد تعليم الخط في الامصار الخارج عمرانها عن الحد ابلغ واحسن واسهل
طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وان بها معلمين منتصبين
لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين واحكاما في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك
المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتاتي ملكته على
اتم الوجوه وانما اتى هذا من كمال الصنايع ووفورها بكثرة العمران وانفساخ
الاعمال وليس الشان في تعلم الخط بالاندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده
على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم وانما يتعلم بمحاكاة الخط في كتابة الكلمات جملة

ويكون

ويكون ذلك من المتعلم مع مطالعة المعلم له الى ان يحصل الاجادة ويتمكن في نهاية
الملكة فتسمى مجيدا وقد كان الخط العربي بالغا مبالغه من الاحكام والاتقان والجودة
في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل
منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين
لملك العرب بارض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة
لقصور ما بين الدولتين فكانت الحضارة وتوابعها من الصنايع وغيرها قاصرة
عن ذلك ومن الحيرة لقنه اهل الطايف وقريش فيما ذكر يقال ان الذي تعلم
الكتابة من الحيرة هو سفيان بن امية ويقال حرب بن امية واخذها من اسلم
ابن سدرة وهو قول ممكن واقرب ممن ذهب الى انهم تعلموها من اياد اهل العراق لقول
شاعرهم • قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والخط والقلم •
وهو قول بعيد لان ايادا وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شانهم من البداوة
والخط من الصنايع الحضرية وانما معنى قول الشاعر انهم اقرب الى الخط والقلم
من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بان اهل
الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها اهل الحيرة من التبابعة هو الاليق من الاقوال
ورايت في كتاب التكملة لابن الابار عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفارسي
الاندلسي من اصحاب واسمه عبد الله بن فروخ فقال ابن فروخ عن عبد الرحمن
ابن زياد بن انعم عن ابيه قال قلت لعبد الله بن عباس يا معشر قريش خبروني
عن هذا الكتاب العربي هل كنتم تكتبونه قبل ان يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم
تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الالف واللام والميم والنون
قال نعم قلت وممن اخذتموه قال من حرب بن امية قلت وممن اخذه حرب قال
من عبد الله بن جدعان قلت وممن اخذه ابن جدعان قال من اهل الانبار قلت
وممن اخذه اهل الانبار قال من طاري طرا عليهم من اهل اليمن قلت وممن اخذه
ذلك الطاري قال من الخلجان بن القسم كاتب الوحي لهود النبي صلوات الله عليه
وهو الذي يقول • افي كل عام سنة تحدثونها • ورأي على غير الطريق يعبر • وللموت
خير من حيات تسبنا • بها جرهم فيمن تسب وحمير • انتهى ما نقله ابن الابار في كتاب
التكملة وزاد آخره حدثني بذلك ابو بكر بن ابي جمرة في كتابه عن ابي بحر بن
العاص عن ابن الوليد الوقشي عن ابي عمر الطلمنكي عن ابي عبد الله بن مفرج

ومن خطه نقلته عن ابي سعد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن
محمد بن خشيش عن عمر بن ايوب المعافري التونسي عن بهلول بن عبيده الحجبي عن عبد الله
ابن فروخ انتهى وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون
من تعليمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية الا انهم لم يكونوا
مجيدين لها شان الصنايع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب و
لا مايلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء
البدو عنها في الاكثر فكانت كتابة العرب بدوية مثل او قريبا من كتابتهم
لهذا العهد او نقول ان كتابتهم لهذا العهد احسن صناعة لان هولاء اقرب
الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول واما مضر فكانوا اعرق في البدو
وابعد عن الحضر من اهل اليمن واهل العراق واهل الشام ومصر فكان الخط العربي
لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان ولا الى التوسط
التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنايع وانظر
ما وقع لاجل ذلك في رسم المصحف حيث كتبه الصحابة بخطوطهم وكانت
غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته اقيسة رسوم
صناعة الخط عند اهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه
اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه
من كتاب وكلامه كما يقتفي لهذا العهد خط ولي او عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ
او صوابا واين نسبة ذلك من الصحابة وما كتبوه فاتبع ذلك واثبت رسما
ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين
من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط وان ما يتخيل من مخالطة خطوطهم لاصول الرسم
ليس كما يتخيل بل لكلها وجه ويقولون في مثل زيادة الالف في لااذبحنه انه تنبيه
على ان الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد انه تنبيه على كمال القدرة الربانية
وامثال ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط وحسبوا
ان ذلك الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل
ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح واعلم ان الخط ليس بكمال في حقهم
اذ الخط من جملة الصنايع المدنية المعاشية كما رايته فيما مر والكمال في الصنايع
اضافي وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وانما

مما لا اصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم
ان في ذلك صح

يعود

يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالته على ما
في النفوس وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم اميا وكان ذلك كمالا في حقه
وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنايع العملية التي هي اسباب المعاش
والعمران كلها وليست الامية كمالا في حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون
على الحيوة الدنيا شان الصنايع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه
هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا
الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا الخط
وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة
والبصرة رتبة من الاتقان الا انها كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف
الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس
واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران
وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط الافريقي المعروف رسمه
القديم لهذا العهد يقرب من اوضاع الخط المشرقي وتحيز ملك الاندلس بالامويين
فتميزوا باحوالهم من الحضارة والصنايع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي
كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية
في كل قطر وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم وانتسخت الكتب واجيد كتبها
وتجليدها وملئت بها القصور والخزاين الملوكية بما لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار
في ذلك وتنازعوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص
ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شانها من الخط
والكتاب بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل اسواقه بها نافقة لهذا العهد
وللخط بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها واشكالها متعارفة
بينهم فلا يلبث المتعلم ان يحكم اشكال تلك الحروف على تلك الاوضاع وقد
لقنها حسا وحذق فيها دربة وكتابا واخذها قوانين علمية فتجيء احسن ما يكون
واما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم
من البربر وتغلبت عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن
الدولة اللمتونية الى هذا العهد وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنايع وتعلقوا
باذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفا عليه ونسي خط القيروان و

وخالفت اوضاع الخط ببغداد اوضاعه بالكوفة في الميل
الى اجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء واستحكمت
هذه المخالفة في الاعصار الى ان رفع رايتها ببغداد
علي بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب ووقف سند تعليمها
عليه في المائة الثالثة وما بعدها وتعددت رسوم الخط
البغدادي واوضاعه عن الكوفي حتى انتهى الى المباينة ثم
ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في احكام
رسومه واوضاعه حتى انتهى الى المتاخرين مثل ياقوت
المستعصمي والولي علي العجمي ووقف سند تعليم الخط
عليهم وانتقل الملك الى مصر وخالفت طريقة العراق
بعض الشيء ولقنها العجم هنالك فظهرت مخالفة لخط
اهل مصر او مباينة صح

والمهدية بنسيان عوايدهما وصنايعهما وصارت خطوط اهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم اذ انما كانوا يفدون على دار الملك بتونس فصار خط افريقية من جنس خطوط اهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من ان الصنايع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين بعد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم ساير الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كانه لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب ان انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في ساير الصنايع بنقص الحضارة وفساد الدول والله يحكم لا معقب لحكمه وللاستاذ ابي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب قصيدة في بحر البسيط على روي الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها من احسن ما كتب في ذلك رايت اثباتها في هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة واولها .

يا من يريد اجادة التحرير * ويروم حسن الخط والتصوير
ان كان عزمك في الكتابة صادقا * فارغب الى مولاك في التيسير
اعدد من الاقلام كل مثقف * صلب يصوغ صناعة التحبير
واذا عمدت لبريه فتوخه * عند القياس بوسط التقدير
انظر الى طرفيه فاجعل بريه * من جانب التدقيق والتحضير
واجعل لجلفته قواما عادلا * يخلو عن التطويل والتقصير
والشق وسطه ليبقى بريه * من جانبيه مشاكل التقدير

حتى اذا اتقنت ذلك كله * اتقان طب بالمراد خبير * فاصرف لراي القط
عزمك كله * فالقط فيه جملة التدبير * لا تطمعن في ان ابوح بسره
اني اضن بسره المستور * لكن جملة ما اقول بانه * ما بين تحريف الى تدوير
والق دواتك بالدخان مدبرا * بالخل او بالحصرم المعصور * واضف اليه مغرة قد صولت
مع اصفر الزرنيخ والكافور * حتى اذا ما خمرت فاعمد الى * الورق النقي الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصار * كي ينأى عن التشعيث والتغيير * ثم اجعل التمثيل دابك صابرا
ما ادرك المامول مثل صبور * ابدا به في اللوح منتصبا له * عما تجرده من التشمير
لا تخجلن من الردي تخطه * في اول التمثيل والتسطير * فالامر يصعب ثم يرجع هينا
ولرب سهل جاء بعد عسير * حتى اذا ادركت ما املته * اضحيت رب مسرة وحبور
فاشكر الهك واتبع رضوانه * ان الاله يحب كل شكور * وارغب لكفك ان تخط بنانها
خيرا تخلفه بدار غرور * فجميع فعل المرء يلقاه غدا * عند التقاء كتابه المنشور

واعلم ان الخط بيان عن القول والكلام كما ان القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني فلا بد لكل منهما ان يكون واضح الدلالة قال الله تعالى خلق الانسان علمه البيان وهو يشمل بيان الادلة كلها فالخط المجود كماله ان تكون دلالته واضحة بابانة حروفه المتواضعة واجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدته متميز عن الآخر الا ما اصطلح عليه الكتاب من ايصال حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض سوى حروف اصطلحوا على قطعها مثل الالف المتقدمة في الكلمة وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها بخلاف ما اذا كانت متاخرة وهكذا الى آخرها ثم ان المتاخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم لا يعرفها الا اهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهولاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة فانهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد الكتاب عليهم وشهرة كتابتهم واحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم فان كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم في ذلك فينبغي ان يعدلوا عن ذلك ويتعمدوا البيان ما استطاعوه والا كان بمثابة الخط الاعجمي لانهما بمنزلة واحدة في عدم التواضع عليه وليس يعذر في هذا القدر الا كتاب الاعمال السلطانية في الاموال والجيوش لانهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس فانه من الاسرار السلطانية التي يجب اخفاؤها فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم ويصير بمثابة المعمى وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من اسماء الطيب او الفواكه او الطيور او الازاهر او وضع اشكال

اخرى غير اشكال الحروف المتعارفة ويصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم
بالكتابة وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك وان لم يضعوه اولا قوانين بمقاييس
استخرجوها لذلك بمداركهم يسمونها فك المعمى وللناس فيها دواوين مشهورة والله
العليم الحكيم **فصل** في صناعة الوراقة كانت العناية قديما بالدواوين العلمية
والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع
من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدول
وتناقص العمران بعد ان كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والاندلس
اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدول ونفاق اسواق ذلك لديهما فكثرت
التواليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والاعصار فانتسخت
وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وساير
امور الكتب والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات
اولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في
الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التواليف صدر الملة كما نذكره
وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفا
في المكتوبات وميلا بها الى الصحة والاتقان ثم طما بحر التواليف والتدوين وكثر
ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فاشار الفضل بن يحيى بصناعة
الكاغذ وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفا
لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية
اهل العلوم وهمم اهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة
الى مؤلفها وواضعيها لانه الشأن الاهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند
الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن
تصحيح المتون باسنادها الى مدونها فلا يصح اسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان
شأن اهل العلم وحملته في العصور والاجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة
فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من معرفة
صحيح الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها
قد ذهبت وتمخضت زبدة ذلك في الامهات المتلقاة بالقبول عند الامة وصار
القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم يبق ثمرة الرواية والاشتغال بها الا في

تصحيح تلك الامهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من
الدواوين والتواليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد
اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والاندلس معبدة الطرق واضحة المسالك
ولقد نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في اقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام
والصحة ومنها لهذا العهد على ايدي الناس في العالم اصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية
لهم في ذلك واهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدون عليها يد الضنانة
ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب واهله لانقطاع صناعة الخط
والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة اهله وصارت الامهات
تنتسخ بالخطوط البدوية ينسخها طلبة البربر صحايف مستعجمة برداءة الخط
وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة الا
في الاقل النادر وايضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فان غالب الاقوال
المعزوة غير مروية عن ائمة المذهب وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي
عليه وتبع ذلك ايضا ما يتصدى اليه بعض ائمتهم من التاليف لقلة بصرهم
بصناعته وعدم الصناعة الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم
اثارة بالاندلس خفية بالامحاء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم ان ينقطع
بالكلية من المغرب والله غالب على امره ويبلغنا لهذا العهد ان صناعة الرواية
قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق
اسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد الا ان الخط الذي بقي من الاجادة
في الانتساخ هنالك انما هو للعجم وفي خطوطهم واما النسخ بمصر فقد
كما فسد بالمغرب واشد والله غالب على امره **فصل** في صناعة الغنا
هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب
منتظمة معروفة توقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف
تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك
التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات وذلك انه تبين
في علم الموسيقى ان الاصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع آخر
وخمس آخر وجزءا من احد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تاديتها الى
السمع يخرجها عن البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السمع

عند السمع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها اهل علم الموسيقى وتكلموا عليها
كما هو مذكور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية
بتقطيع اصوات اخرى من الجمادات اما بالقرع او النفخ في الآلات
تتخذ لذلك فتزيدها لذة عند السمع فمنها لهذا العهد بالمغرب اصناف
منها المزمار ويسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بانحاش في جوانبها معدودة
ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداده من تلك الانحاش
ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الانحاش وضعا
متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة
فيلتذ السمع بادراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة آلة الزمر
التي تسمى الزلامي وهي شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير
تدوير لاجل ائتلافها من قطعتين منفوذة كذلك بانحاش معدودة ينفخ فيها
بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها اليها فتصوت بنغمة حادة
ويجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك الانحاش بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة
ومن احسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من النحاس اجوف في مقدار
الذراع يتسع الى ان يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف على شكل بري القلم
وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم اليه فيخرج الصوت ثخينا دويا
وفيه انحاش ايضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب
فيكون ملذوذا ومنها آلات الاوتار وهي جوفاء كلها اما على شكل قطعة من
الكرة كالبربط والرباب او على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار على بسائطها
مشدودة في راسها الى دساتر جائلة ليتأتى رخوها عند الحاجة اليه بادارتها
ثم تقرع الاوتار اما بعود آخر او بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد ان
يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره او نقله
من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الاوتار توقع باصابعها
على اطراف الاوتار فيما يقرع او يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة
ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان او في الاعواد بعضها ببعض
على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب في اللذة
الناشئة عن الغناء وذلك ان اللذة كما تقرر في موضعه هي ادراك الملائم

والمحسوس

والمحسوس انما تدرك منه كيفية فاذا كانت متناسبة للمدرك وملائمة كانت
ملذوذة واذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم
ما ناسب كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفي الروائح
ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لانه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا
كانت الرياحين والازهار العطريات احسن رائحة واشد ملائمة للروح لغلبة
الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي واما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها
تناسب الاوضاع في اشكالها وكيفياتها فهو انسب عند النفس واشد ملائمة لها
فاذا كان المرئي متناسبا في اشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما
تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال
والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بادراك
ملائمها ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم
بامتزاج ارواحهم بروح المحبوب ومعناه من وجه آخر ان الوجود يشترك بين الموجودات
كما تقوله الحكماء فتود ان تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به ولما كان انسب
الاشياء الى الانسان واقربها الى ان يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله
الانساني فكان ادراكه للجمال والحسن في تخاطيطه واصواته من المدارك
التي هي اقرب الى فطرته فيلهج كل انسان بالحسن بالمرئي او المسموع بمقتضى
الفطرة والحسن في المسموع ان تكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك
ان الاصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة
والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فاولا
ان لا يخرج من الصوت الى ضده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وكذا الى
المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من استقباح اهل
اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة او المتقاربة المخارج فانه من بابه
وثانيا تناسبها في الاجزاء كما مر اول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه او ثلثه
او جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسبا على ما حصره اهل صناعة
الموسيقى فاذا كانت الاصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره اهل تلك
الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون
الكثير من الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما نجد

المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وامثال ذلك وتسمى العامة
هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤن القران
فيجيدون في تلاحين اصواتهم كانها المزامير فيطربون بحسن مساقهم
وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس
يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها بالعمل به اذا علم
وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم
وقد انكر مالك رضي الله عنه القراءة بالتلاحين واجازها الشافعي رح
وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فانه لا ينبغي ان يختلف في حظره اذ صناعة
الغناء مباينة للقران لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار من الصوت
يتعين اداء الحروف به من حيث اشباع الحركات في مواضعها ومقدار
المد عند من يطيله او يقصره وامثال ذلك والتلحين ايضا يتعين له مقدار من
الصوت لا يتم الا به من اجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين واعتبار
احدهما قد يخل بالآخر اذا تعارضا وتقديم التلاوة متعين فرارا من تغيير
الرواية المنقولة في القران فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر في القران
بوجه وانما المراد في اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي اليه صاحب المضمار
بطبعه كما قدمناه فيردد اصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره
هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القران عن هذا كما ذهب اليه الامام
رحمه الله لان القران هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذ
بادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة كما في اخبارهم
فاما قوله صلى الله عليه وسلم لقد اوتي مزمارا من مزامير آل داود فليس المراد
الترديد والتلحين وانما معناه حسن الصوت واداء القراءة والابانة
في مخارج الحروف والنطق بها واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم انه يحدث في العمران
اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فيه فتحدث
هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ عن جميع حاجاته الضرورية والمهمة
من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم تفننا في مذاهب
الملذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في امصارهم ومدنهم
وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل

باهل هذه الصناعة ولهم مكان من دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم
ويغنون فيها وهذا شان العجم لهذا العهد في كل افق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم
واما العرب فكان لهم اولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب
بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلا
يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم
الطبع بالتجزئة اولا ثم بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادي ثم بتادية المعنى المقصود
وتطبيق الكلام عليه فلهجوا به وامتازوا من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره
لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكا
لقرائحهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب
الذي من اجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب
الاصوات كما هو معروف في كتاب الموسيقى الا انهم لم يشعروا بما سواه لانهم
حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة اغلب نحلهم ثم تغنى
الحداة منهم في حداء ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا
وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل ونوع القراءة
تغبيرا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها ابو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر
وهو الباقي اي باحوال الآخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة
كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان اكثر ما يكون
منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم
وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من اوائلها ولا يبعد
ان تتفطن له الطباع من غير تعليم شان البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا
شان العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا
وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال
التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع في دين
ولا معاش فهجروا ذلك شيئا ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم
بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم
من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ
وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب

وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم الاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسايب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه واجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم اخذ عنهم معبد وطبقته وابن شريح وانظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت ايام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث به وبمجالسه لهذا العهد وامعنوا في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات اخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكون بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وامثال ذلك من اللعب المعدة للولايم والاعراس وايام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وامصار العراق وانتشر منها فيما سواها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب اخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة به فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل امير الاندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه واسنى له الجوايز والاقطاعات والجرايات واحله من دولته وندمانه بمكان فاورث في الاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم الى امصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنايع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظايف الا وظيفة الفراغ والفرح وهي ايضاً اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه والله الخلاق العليم

فصل في ان الصنايع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات من المحسوسات اولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى ان يصير ادراكاً بالفعل وعقلاً محضاً فيكون ذاتاً روحانية وتستكمل حينئذ وجودها فوجب كذلك ان يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلاً فريداً والصنايع ابداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون

علمي مستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً والملكات الصناعية تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً لانها مجتمعة من صنايع في شان تدبير المنزل ومعاشرة ابناء الجنس وتحصيل الاداب في مخالطتهم ثم القيام بامور الدين واعتبار آدابها وشرايطها وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنايع اكثر افادة لذلك لانها تشتمل على علوم وانظار بخلاف الصنايع وبيانه ان في الكتابة انتقالاً من صور الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال الى المعاني التي في النفس فهو ينتقل ابداً من دليل الى دليل ما دام ملتبساً بالكتابة وتتعود النفس ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الادلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فتكتسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به مزيد فطنة وكيس في الامور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما راهم بتلك الفطنة والكيس ديوانه اي شياطين وجنون قالوا وذلك اصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج الى استدلال كبير فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله اجمعين

الفصل السادس من الكتاب الاول في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض لذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق **فالمقدمة** في الفكر الانساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه من ابناء جنسه والنظر في معبوده وما جاءت به الرسل من عنده فصار جميع الحيوانات في طاعته وملكت قدرته وفضله به على كثير من خلقه

فصل في الفكر الانساني اعلم ان الله سبحانه ميز البشر عن ساير الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكاينات وشرفه وذلك ان الادراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوان فقط من بين ساير الكاينات والموجودات فالحيوانات تشعر

بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة السمع والبصر
والشم والذوق واللمس ويزيد الانسان من بينها انه يدرك الخارج عن
ذاته بالفكر الذي وراء حسه وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه ينتزع
بها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صورا اخرى والفكر
هو التصرف في تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع
والتركيب وهو معنى الافئدة جمع فؤاد وهو هنا الفكر وهو على مراتب الاولى
تعقل الامور المترتبة في الخارج ترتيبا طبيعيا او وضعيا ليقصد ايقاعها بقدرته
وهذا الفكر اكثره تصورات وهو العقل التمييزي الذي به يحصل منافعه ومعاشه
ويدفع مضاره الثانية الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة ابناء
جنسه وسياستهم واكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئا فشيئا الى ان تتم الفائدة
منها وهذا هو المسمى بالعقل التجربي الثالثة الفكر الذي يفيد العلم او الظن
بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل وهذا هو العقل النظري وهو تصورات
وتصديقات تنتظم انتظاما خاصا على شروط خاصة فتفيد معلوما آخر
من جنسها في التصور او التصديق ثم تنتظم مع غيره فتفيد معلوما آخر كذلك
وغاية افادته تصور الوجود على ما هو عليه باجناسه وفصوله واسبابه
وعلله فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلا محضا ونفسا مدركة وهو
معنى الحقيقة الانسانية **فصل** في ان عوالم الحوادث الفعلية انما تتم
بالفكر اعلم ان عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر وآثارها
والمكونات الثلاثة عنها التي هي المعدن والنبات والحيوان وهذه كلها
متعلقات القدرة الالهية وعلى احوال صادرة عن الحيوانات واقعة بمقصودها
متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها فمنها منتظم وهي الافعال
البشرية ومنها غير منتظم ولا مترتب وهي افعال الحيوانات غير البشر وذلك
ان الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع او الوضع فاذا قصد
ايجاد شيء من الاشياء فلاجل الترتيب بين الحوادث لا بد من التفطن بسببه
او علته او شرطه وهو على الجملة مباديه اذ لا يوجد الا ثانيا عنها ولا يمكن ايقاع
المتقدم متأخرا ولا المتأخر متقدما وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر
من تلك المبادي لا يوجد الا متأخرا عنه وقد يرتقي ذلك او ينتهي فاذا انتهى

الى آخر المبادي في مرتبتين او ثلاث او ازيد وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك
الشيء بدأ بالمبدأ الاخير الذي انتهى اليه الفكر فكان اول عمله ثم تابع ما بعده
الى آخر المسببات التي كانت اول فكرته مثلا لو فكر في ايجاد سقف يكنه انتقل
بذهنه الى الحائط الذي يدعمه ثم الى الاساس الذي يقف عليه الحائط وهو آخر
الفكرة ثم يبدأ في العمل بالاساس ثم بالحائط ثم بالسقف وهو آخر العمل وهذا
معنى قولهم اول العمل آخر الفكرة واول الفكرة آخر العمل فلا يتم فعل الانسان
في الخارج الا بالفكر في هذه المرتبات لتوقف بعضها على بعض ثم يشرع
في فعلها واول هذا الفكر هو المسبب الاخير وهو آخرها في العمل واولها في
العمل هو السبب الاول وهو آخرها في الفكر ولاجل العثور على هذا الترتيب
يحصل الانتظام في الافعال البشرية واما الافعال الحيوانية لغير البشر فليس
فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل اذ الحيوانات
انما تدرك بالحواس ومدركاتها متفرقة خلية من الربط لانه لا يكون الا
بالفكر ولما كانت الحوادث المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة
وغير المنتظمة انما هي تبع لها اندرجت حينئذ افعال الحيوانات فيها فكانت
مسخرة للبشر واستولت افعال البشر على عالم الحوادث بما فيه فكان كله
وتسخيره وهذا معنى الاستخلاف المشار اليه في قوله تع اني جاعل في الارض
خليفة فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من
الحيوان وعلى قدر حصول الاسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون
انسانيته فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين او ثلاث ومنهم
من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهي الى خمس او ست فتكون انسانيته اعلى
واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج فان في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات
والخمس الذي ترتيبها وضعي ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه وان كان
هذا المثال غير مطابق لان لعب الشطرنج بالملكة ومعرفة الاسباب
والمسببات بالطبع لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه
من القواعد والله خلق الانسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا
فصل في العقل التجربي وكيفية حدوثه انك تسمع في كتب الحكماء قولهم
الانسان مدني بالطبع يذكرونه في اثبات النبوات وغيرها والنسبة فيه

الى المدنية وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري ومعنى هذا القول
انه لا يمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتم وجوده الا باجتماع مع ابناء جنسه
وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته فهو محتاج الى المعاونة
في جميع حاجاته ابدا بطبعه وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة اولا ثم
المشاركة وما بعدها وربما تفضي المعاملة عند اتحاد الاغراض الى المنازعة
والمشاجرة فتنشا المنافرة والمؤالفة والصداقة والعداوة ويؤول الى الحرب
والسلم بين الامم والقبائل وليس ذلك على اي وجه اتفق كما بين الهمل من الحيوانات
بل البشر بما جعل الله فيهم من انتظام الاحوال وترتيبها بالفكر كما تقدم جعل
ذلك منتظما فيهم ويسر لهم لايقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية
ينكبون فيها عن المفاسد الى المصالح وعن الحسن الى القبيح بعد ان يميزوا القبائح
والمفسدة بما ينشا عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم
فيفارقون الهمل من الحيوان وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الافعال
وبعدها عن الفساد هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد
ولا يتعمق فيها الناظر بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفاد لانها معاني جزئية تتعلق
بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريبا في الواقع فيستفيد طالبها حصول العلم بها
من ذلك ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها مقتنصا له بالتجربة
بين الوقائع في معاملة ابناء جنسه حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلا وتركا وتحصل
بملابسته الملكة في معاملة ابناء جنسه ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور
على كل قضية قضية ولا بد بما تسعه التجربة من الزمن وقد يسهل الله على كثير من البشر
تحصيل ذلك في اقرب من تحصيلها بالتجربة اذا قلد فيها الاباء والمشيخة
والاكابر ولقن عنهم ووعى تعليمهم فيستغني عن طول المعاناة في تتبع الوقائع
واقتناص هذا المعنى من بينها ومن فقد العلم في ذلك والتقليد فيه
او اعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناؤه في التأدب بذلك فيجري
في غير مالوف ويدركها على غير نسبة فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الاوضاع
بادية الخلل ويفسد حاله في معاشه بين ابناء جنسه وهذا معنى القول المشهور
من لم يؤدبه والداه ادبه الزمان اي من لم يلقن الاداب في معاملات البشر
من والديه وفي معناهما المشيخة والاكابر ويتعلم ذلك منهم رجع الى تعلمه

بالطبع من الواقعات على توالي الايام فيكون الزمان معلمه ومؤدبه لضرورة
ذلك بضرورة المعاونة التي في طبعه وهذا هو العقل التجربي
وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الافعال كما قدمناه وبعد هذين مرتبة
العقل النظري الذي تكفل بتفسيره اهل العلوم فلا تحتاج الى تفسيره في هذا الكتاب
والله جعل لكم السمع والافئدة قليلا ما تشكرون فصل في علوم البشر [والابصار]
وعلوم الملائكة انا نشهد في انفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم اولها
عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالادراك
ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم منه وجود النفس الانسانية علما
ضروريا بما بين جنبينا من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس
فنراه عالما آخر فوق عالم الحس ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا
من آثاره التي تلقى في افئدتنا كالارادات والوجهات نحو الحركات
الفعلية فنعلم ان هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم
الارواح والملائكة وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها
من المغايرة وربما يستدل على هذا العالم الاعلى الروحاني وذواته بالرؤيا
وما نجد في النوم ويلقى علينا فيه من الامور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة
وتطابق الواقع في الصحيحة منها فنعلم انها حق ومن عالم الحق واما اضغاث
الاحلام فصور خيالية يخزنها الادراك في الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة
عن الحس ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهانا اوضح من هذا فنعلمه كذلك على
الجملة ولا ندرك له تفصيلا وما يزعمه الحكماء الالهيون في تفصيل ذواته و
ترتيبها المسماة عندهم بالعقول فليس شيء من ذلك بيقيني لاختلال شرط
البرهان النظري فيه كما هو مقرر في كلامهم في المنطق لان من شرطه
ان تكون قضاياه اولية ذاتية وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات
فلا سبيل للبرهان فيها ولا يبقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم الا ما نقتبسه
من الشرعيات التي يوضحها الايمان ويحكمها واعقد هذه العوالم في مدركنا
عالم البشر لانه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية والروحانية ويشترك
في عالم الحس والروحانية ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات وفي عالم
العقل والارواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته وهي ذوات

مجردة عن الجسمانية والمادة وعقل صرف تتحد فيه العقل والعاقل والمعقول
وكانه ذات حقيقتها الادراك والعقل فعلومهم حاصلة دايما مطابقة
بالطبع لمعلوماتها لا يقع فيها خلل البتة وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم
في ذواتهم بعد ان لم تكن حاصلة فهو كله مكتسب والذات التي يحصل فيها
صور المعلومات وهي النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات
الحاصلة فيها شيئا فشيئا حتى تستكمل ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها
فالمطلوبات فيها مترددة بين النفي والاثبات دايما تطلب احدهما بالوسط
الرابط بين الطرفين فاذا حصل وصار معلوما افتقر الى بيان المطابقة
وربما اوضحها البرهان الصناعي لكنه من وراء الحجاب وليس كالمعاينة التي في
علوم الملئكة وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير الى المطابقة بالعيان الادراكي
فقد تبين ان البشر جاهل بالطبع للتردد الذي في علمه وعالم بالكسب والصناعة
لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية وكشف الحجاب الذي اشرنا اليه
انما هو بالرياضة بالاذكار التي افضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
وبالتنزه عن المتناولات المهمة وراسها الصوم وبالوجهة الى الله بجميع قواه
والله علم الانسان ما لم يعلم **فصل** في علوم الانبياء عليهم السلام انا نجد
هذا الصنف من البشر تعتريهم حالة الهية خارجة عن منازع البشر واحوالهم
فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الادراكية والنزوعية من
الشهوة والغضب وساير الاحوال البدنية فتجدهم متنزهين عن الاحوال البشرية
الا في الضرورات منها مقبلين على الاحوال الربانية من العبادة والذكر لله
بما يقتضي معرفتهم به مخبرين عنه بما يوحى اليهم في تلك الحالة من هداية الامة
على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كانه جبلة فطرهم الله عليها
وقد تقدم لنا الكلام في الوحي اول الكتاب في الفصل المدركين للغيب وبينا
هنالك ان الوجود كله وعوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من اعلاها
واسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينخرم وان الذوات التي في آخر كل افق من
العوالم مستعدة لان تنقلب الى الذات التي تجاورها من الاسفل والاعلى
استعدادا طبيعيا كما في العناصر الجسمانية البسيطة وكما هو في النخل والكرم
من آخر افق النبات مع الحلزون والصدف من افق الحيوان وكما في القردة

التي استجمع فيها الكيس والادراك مع الانسان صاحب الفكر والروية وهذا
الاستعداد الذي في جانبي كل افق من العوالم هو معنى الاتصال فيها وفوق
العالم البشري عالم روحاني شهدت لنا به الاثار التي فينا منه بما يعطينا من قوى
الادراك والارادة فذوات ذلك العالم ادراك صرف وتعقل محض وهو
عالم الملائكة فوجب من ذلك كله ان يكون للنفس الانسانية استعداد للانسلاخ
من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملئكة وقتا من الاوقات
وفي لمحة من اللمحات ثم تراجع بشريتها وقد تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه
الى ابناء جنسها من البشر وهذا هو معنى الوحي وخطاب الملئكة والانبياء
كلهم مفطورون عليه كانه جبلة لهم ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة
والغطيط ما هو معروف عنهم وعلومهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان
لا يلحقه الخطاء والزلل ولا يقع فيه الغلط والوهم بل المطابقة فيه ذاتية
لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة وعند مفارقة هذه الحالة
البشرية لا يفارق علمهم الوضوح استصحابا له من تلك الحالة الاولى ولما هم عليه
من الذكاء المفضي بهم اليها يتردد ذلك فيهم دايما الى ان يكمل هداية الامة
التي بعثوا لها كما في قوله انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد
فاستقيموا اليه واستغفروه فافهم ذلك وراجع ما قدمناه لك اول الكتاب
في اصناف المدركين للغيب يتضح لك شرحه وبيانه فقد بسطناه هنالك
بسطا شافيا والله الموفق **فصل** في ان الانسان جاهل بالذات عالم
بالكسب قد بينا اول هذه الفصول ان الانسان من جنس الحيوانات وان الله
ميزه عنها بالفكر الذي جعل له يوقع به افعاله على انتظام وهو العقل
التمييزي او يقتنص به العلم بالاراء والمصالح والمفاسد من ابناء جنسه
وهو العقل التجريبي او يحصل به في تصور الموجودات غايبا وشاهدا على ما هي عليه
وهو العقل النظري وهذا الفكر انما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه ويبدا من
التمييز فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة معدود من الحيوانات لاحق بمبدايه
في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل له
من مدارك الحس والافئدة التي هي الفكر قال الله تعالى في الامتنان علينا وجعل
لكم السمع والابصار والافئدة فهو في الحالة الاولى قبل التمييز هيولا فقط لجهله بجميع المعارف

المعارف ثم يستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بالآلة فيكمل ذاته الانسانية في وجودها
وانظر الى قوله تعالى في مبدا الوحي على نبيه اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان
من علق اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم اي اكسبه من العلم
ما لم يكن حاصلا له بعد ان كان علقة ومضغة فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه
من الجهل الذاتي والعلم الكسبي واشارت اليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان
عليه باول مراتب وجوده وهو الانسانية وحالتاها الفطرية والكسبية في اول التنزيل
ومبدا الوحي وكان الله عليما حكيما **فصل** في ان تعلم العلم من جملة الصنايع و
ذلك ان الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة في
الاحاطة بمباديه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من اصوله
و ما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن حاصلا وهذه الملكة هي
غير الفهم والوعي لانا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد مشتركا بين من شدا
في هذا الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامي الذي لم يحصل علما وبين العالم النحرير
والملكة انما هي للعالم والشادي في الفنون دون من سواهما فدل على ان هذه
الملكة غير الفهم والملكات كلها جسمانية وسواء كانت في البدن او في الدماغ
من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا
كان السند في التعليم في كل علم او صناعة يفتقر الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا
عند اهل كل افق وجيل ويدل ايضا على ان تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات
فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شان الصنايع
كلها فدل على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم اذ لو كان من العلم لكان واحدا
عند جميعهم الا ترى الى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين
والمتاخرين وكذا اصول الفقه وكذا العربية والفقه وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته
تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على انها صناعات في التعليم والعلم
واحد في نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم ان سند العلم لهذا العهد قد كاد ان ينقطع
عن اهل المغرب كلهم باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك
من نقص الصنايع وفقدانها كما مر وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي
المغرب والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنايع اسواق نافقة
وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة

فلما خربتا انقطع التعليم عن المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين
بمراكش مستفادا منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية
في اولها وقرب عهد انقراضها بمبدايها فلم تتصل احوال الحضارة فيها الا في الاقل
وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى المشرق من افريقية القاضي ابو القاسم بن
زيتون لعهد اواسط المائة السابعة فادرك تلميذ الامام ابن الخطيب ولقن تعليمهم
وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على اثره
من المشرق ابو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب فاخذ عن
مشيخة مصر ورجع الى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فاخذ عنهما اهل تونس
واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام
شارح ابن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان في ابن الامام وتلميذه
فانه قرا مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس باعيانها وتلميذ ابن
عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا انهم من القلة بحيث يخشى
انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين
المشدالي الى المشرق وادرك تلميذ ابي عمرو ابن الحاجب واخذ عنهم ولقن
تعليمهم وقرا مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات
والنقليات الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه
في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه واوطنها
وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقل من القليل
وبقي فاس وساير امصار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم
قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق
في العلوم وايسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل
العلمية فهو الذي يقرب شانها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب
الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون و
عنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم
والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض
او ناظر او علم وما اتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والا فحفظهم
ابلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية

وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي اقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او الياس من تحصيلها فطال امدها في المغرب لهذه العصور لاجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك واما اهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه واما الفقه بينهم فرسم خلو واثر بعد عين واما العقليات فلا اثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعايشهم اكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على امره واما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل اسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد وبصره والكوفة الا ان الله قد ادال منها بامصار اعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما فاهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة اهل المغرب الى المشرق في طلب العلم ان عقولهم على الجملة اكمل من عقول اهل المغرب وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك ولا بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذي فضل به اهل المغرب اهل المشرق فهو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع ونزيده الآن شرحا وتحقيقا وذلك ان الحضر لهم آداب في احوالهم من المعاش والمسكن والبناء وامور الدين والدنيا وكذلك سائر عاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلهم في ذلك آداب يوقف

عندنا في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من اخذ وترك كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الاول منهم ولا شك ان كل صناعة مترتبة يرجع منها الى النفس اثر يكسبها عقلا مزيدا تستعد به لقبول صناعة اخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن اهل مصر غايات لا تدرك مثل انهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز اهل المغرب عن فهمها فضلا عن تعليمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة اذ قدمنا ان النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامي تفاوتا في الحقيقة الانسانية وليس كذلك الا ترى الى الحضر مع اهل البدو كيف تجد الحضري متحليا بالذكاء ممتليا من الكيس حتى ان البدوي ليظنه انه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته من ملكات الصنائع والآداب في العوائد والاحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي فلما امتلا الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها لكمال في عقله وان نفوس اهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد في اهل البدو من هو في اعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته وانما الذي ظهر على اهل الحضر من ذلك فهو رونق الصنائع والتعليم فان لهما آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا اهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع ارسخ رتبة واعلى قدما وكان اهل المغرب اقرب الى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغفلون في بادي الرأي انه لكمال في حقيقة الانسانية اختصوا به عن اهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء

فصل في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قلناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم

التصرف الى ما ورآء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنايع
ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة فلا
يجد فيها التعليم الذى هو صناعى لفقدان الصنايع فى اهل البدو كما قدمناه
ولابد له من الرحلة فى طلبه فى الامصار المستبحرة شأن الصنايع كلها واعتبر
ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصره والكوفه لما كثر عمرانها
صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم
وتفننوا فى اصطلاحات التعليم واصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون
حتى اربوا على المتقدمين وفاتوا المتاخرين ولما تناقص عمرانها وابذعر
سكانها انطوى ذلك البساط جملة بما عليه وفقد العلم بها والتعليم وانتقل
الى غيرها من امصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى ان العلم والتعليم انما هو
بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف
من السنين فاستحكمت فيها الصنايع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم واكد
ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين .
فى دولة الترك من ايام صلاح الدين بن ايوب وهلم جرّاً وذلك ان امرآء
الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم
من الرق او الولآء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا
من بنآء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة
يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليها او نصيب فيها مع ما فيهم غالبًا من الجنوح
الى الخير والتماس الاجور فى المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك
وعظمت الغلات والفوايد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها
وارتحل اليها الناس فى طلب العراق من العراق والمغرب ونفقت
بها اسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء . فصل
فى اصناف العلوم الواقعة فى العمران لهذا العهد اعلم ان العلوم
التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الامصار تحصيلا وتعليمًا
هى على صنفين صنف طبيعى للانسان يهتدى اليه بفكره وصنف
نقلى ياخذه عمن وضعه والاول هى العلوم الحكمية الفلسفية وهى التى
يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية الى

موضوعاتها

الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره
وبحثه على الصواب من الخطاء فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثانى هى العلوم
النقلية الوضعية وهى كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل
الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج
تحت النقل الكلى بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى الا ان هذا
القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الاصل وهو نقلى فرجع هذا القياس الى
النقل لتفرعه عنه واصل هذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب
والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم
التى تهيؤنا للاستفادة منها ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى
هو لسان الملة وبه نزل القران واصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان
المكلف يجب عليه ان يعلم احكام الله المفروضة عليه وعلى ابناء جنسه وهى
ماخوذة من الكتاب والسنة بالنص او بالاجماع او بالالحاق فلابد للنظر
فى الكتاب ببيان الفاظه اولاً وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله و
روايته الى النبى صلى الله عليه وسلم الذى جاء به من عند الله واختلاف
روايات القرآء فى قراءته وهذا هو علم القراآت ثم باسناد السنة الى صاحبها
والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة احوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق
باخبارهم ويعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث
ثم لا بد فى استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانونى يفيدنا
العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو اصول الفقه وبعد هذه تحصل
الثمرة بمعرفة احكام الله فى افعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان
التكاليف منها بدنى ومنها قلبى وهو المختص بالايمان وما يجب ان يعتقد
مما لا يعتقد وهذه هى العقايد الايمانية فى الذات والصفات وامور
الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية
هو علم الكلام ثم النظر فى القران والحديث لا بد ان تتقدمه العلوم
اللسانية لانه متوقف عليها وهى اصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم
البيان وعلم الادب حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم النقلية
كلها مختصة بالملة الاسلامية واهلها وان كانت كل ملة على الجملة

لابد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث انها
علم الشريعة المنزلة من عند الله على صاحب الشريعة المبلغ لها واما
على الخصوص فمباينة لجميع الملل لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل
فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة
غير القرآن وقال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم
وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ورأى صلى الله
عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين
الغضب في وجهه ثم قال الم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى
ما وسعه الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت اسواقها
في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى التي لا فوقها
وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن
والتنميق وكان لكل فن رجال يرجع اليهم فيه واوضاع يستفاد منها التعليم
واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن
عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد اسواق العلم بالمغرب
لتناقص العمران فيه وانقطاع سند التعليم كما قدمناه في الفصل قبله
وما ادري ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال
التعليم في العلوم وفي ساير الصنايع الضرورية والكمالية لكثرة العمران فيه (الحضارة)
ووجود الاعانة لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها
ارزاقهم والله مقدر الليل والنهار علوم القرآن من التفسير والقراءات
القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف
وهو متواتر بين الامة الا ان الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
على طرق مختلفة في بعض الفاظه وكيفيات الحروف في ادائها
وتنوقل ذلك واشتهر الى ان استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها
ايضا بادائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت
هذه القراءات السبع اصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات اخر لحقت
بالسبع الا انها عند ائمة القراءة لا يقوى قوتها في النقل وهذه القراءات السبع
معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لانها عندهم كيفيات

للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن واباه
الاكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الاداء منها كالمد والتسهيل
لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه
القراءات وروايتها الى ان كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم
وصارت صناعة مخصوصة وعلما منفردا وتناقله الناس بالمشرق والاندلس
في جيل الى ان ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنيا بهذا
الفن من بين فنون القرآن لما اخذه به مولاه المنصور بن ابي عامر واجتهد
في تعليمه وعرضه على من كان من ائمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافرا
واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزاير الشرقية فنفقت بها سوق القراءة
بما كان هو من ائمتها وبما كان له من العناية بساير العلوم عموما وبالقراءة خصوصا
فظهر لعهده ابو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت الى
روايته اسانيدها وتعددت تواليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها
واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والاجيال
ابو القاسم بن فيره من اهل شاطبة فعمد الى تهذيب ما دونه ابو عمرو وتلخيصه
فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها اسماء القراء بحروف ابجد على ترتيب احكمه
ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون اسهل للحفظ لاجل نظمها فاستوعب
فيها الفن استيعابا حسنا وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى
العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربما اضيف الى فن القراءات
فن الرسم ايضا وهي اوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية
لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء
في بايد وزيادة الالف في لا اذبحنه ولا اوضعوا والواو في جزاء
الظالمين وحذف الالف في مواضع دون اخرى وما رسم فيه من التاءات
ممدودا والاصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم
المصحفي عند الكلام في الخط فلما جاءت هذه مخالفة لاوضاع الخط وقانونه
احتيج الى حصرها فكتب فيها الناس ايضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب
الى ابي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتبا من اشهرها كتاب المقنع واخذ به
الناس وعولوا عليه ونظمه ابو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي اللام

ووضع الناس لحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف اخرى ذكرها
ابو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو تلميذ ابي عمرو الداني
والمشهور بحمل علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز
من المتاخرين بالمغرب ارجوزة اخرى زاد فيها على المقنع خلافاً وعزاه لناقليه
واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب ابي داود
وابي عمرو والشاطبي في الرسم **واما** التفسير فاعلم ان القران نزل بلغة العرب
وعلى اساليب بلاغتهم وكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه
وكان ينزل جملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب
الوقايع ومنها ما هو في العقايد الايمانية ومنها ما هو في احكام الجوارح ومنها
ما يتقدم ومنها ما يتاخر ويكون ناسخاً له وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو
المبين لذلك كما قال لتبين للناس ما نزل اليهم فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين
المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه اصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات
ومقتضى الحال منها منقولاً عنه كما علم من قوله اذا جاء نصر الله والفتح انها نعي النبي
صلى الله عليه وسلم وامثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم وتداول
ذلك التابعون من بعدهم ونقل عنهم ولم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الاول
والسلف حتى صارت المعارف علوماً ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك
ونقلت الاثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري
والواقدي والثعالبي وامثالهم من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله ان يكتبوه
من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة
واحكام الاعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد
ان كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتنوسي ذلك وصارت
تتلقى من كتب اهل اللسان فاحتيج الى ذلك في تفسير القران لانه بلسان العرب
وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقلي مسند الى الاثار المنقولة
عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ومقاصد الآي
وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك
واوعوا الا ان كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود
والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة

والامية فاذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتشوق اليه النفوس الانسانية في اسباب
المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود فانما يسئلون عنه اهل الكتاب قبلهم
ويستفيدونه منهم وهم اهل التورية من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى واهل
التورية الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه
العامة من اهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين اخذوا بدين اليهودية فلما اسلموا
بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل
اخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وامثال ذلك وهؤلاء
مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وامثالهم فامتلأت
التفاسير من المنقولات عنهم في امثال هذه الاغراض اخباراً موقوفة عليهم
وليست مما يرجع الى الاحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل وتساهل
المفسرون في مثل ذلك وملؤا كتب التفسير بهذه المنقولات واصلها كما قلنا
عن اهل التورية الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه
من ذلك الا انهم بعد صيتهم وعظمت اقدارهم بما كانوا عليه من المقامات
في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص
وجاء ابو محمد بن عطية من المتاخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى
ما هو اقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين اهل المغرب
والاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر
مشهور في المشرق والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع الى اللسان
من معرفة اللغة والبلاغة في تادية المعنى بحسب المقاصد والاساليب وهذا
الصنف من التفسير قل ان ينفرد عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات وانما
جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعات نعم يكون في بعض التفاسير
غالباً ومن احسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير كتاب الكشاف للزمخشري من اهل
خوارزم العراق الا ان مؤلفه من اهل الاعتزال في العقايد فياتي بالحجاج على مذاهبهم
الفاسدة حيث تعرض له في آي القران من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين
من اهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع اقرارهم برسوخ قدمه
فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفاً على المذاهب السنية
محسناً للحجاج عنها فلا جرم انه مامون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه

في اللسان ولقد وصل الينا في هذه العصور تاليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من اهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع الفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال وادلته بزيفها ويبين ان البلاغة انما تقع في الاية على ما يراه اهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فاحسن في ذلك ما شاء مع امتاعه من سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

علوم الحديث

واما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة فان منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من اية او ننسها نات بخير منها او مثلها ومعرفة الناسخ والمنسوخ وان كان عاماً للقران والحديث الا ان الذي في القران منه اندرج في تفاسيره وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً الى علومه فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التاويل وعلم تقدم احدهما تعين ان المتاخر ناسخ وهو من اهم علوم الحديث واصعبها قال الزهري اعيى الفقهاء واعجزهم ان يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها ائمة المحدثين لمعرفة الاسانيد والرواة واسمائهم وكيفية اخذ بعضهم عن بعض واحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بشرط ان يغلب على الظن صدقه فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن وذلك بالنظر في اسانيد الحديث بمعرفة رواته بالعدالة والضبط والاتقان والبراءة من السهو والغفلة بوصف عدول الامة لهم بذلك ثم تفاوت مراتبهم فيه ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض بسماع الراوي من الشيخ او قراءته عليه او سماعه يقرا عليه وكتابة الشيخ له او مناولته او اجازته في الصحة والقبول منقول عنهم واعلى مراتب المقبول عندهم الصحيح ثم الحسن وادونها وادناها الضعيف ويشتمل على المرسل والمنقطع والمعضل والمعلل والشاذ والغريب والمنكر فمنها ما اختلفوا في رده ومنها ما اجمعوا عليه وكذلك شانهم في الصحيح فمنه ما اجمعوا على قبوله وصحته ومنها ما اختلفوا فيه وبينهم في تفسير هذه الالقاب اختلاف كثير ثم اتبعوا ذلك بالكلام في الفاظ تقع في متون الحديث

من غريب او مشكل او تصحيف او مفترق او مختلف ووضعوا لهذه الفصول كلها قانوناً كفيلاً ببيان تلك المراتب والالقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص فيها واول من وضع في هذا القانون من فحول ائمة الحديث ابو عبد الله الحاكم وهو الذي هذبه واظهر محاسنه وتواليفه فيه مشهورة ثم كتب الائمة فيه من بعده واشهر كتاب للمتاخرين فيه كتاب ابي عمرو بن الصلاح كان في اوائل المائة السابعة وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لانه معرفة ما تحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى تتعين قبولها او ردها واعلم ان رواة السنة من الصحابة والتابعين معروفون في امصار الاسلام منهم بالحجاز وبالبصرة وبالكوفة ثم بالشام ومصر مشهورون في اعصارهم وكانت طريقة الحجازيين بينهم اعلى وامتن في الصحة بتجافيهم عن قبول المستورين المجهولة احوالهم وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة ثم اصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي وابن وهب وابن بكير والقعنبي ومحمد ابن الحسن ومن بعدهم الامام احمد في اخرين من امثالهم وكان علم الشريعة في مبدا الامر نقلاً صرفاً لا نظراً ولا رايا ولا تعمقاً في القياس وشمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى اكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطا على طريقة الحجازيين اودعه اصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على ابواب الفقه ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث واسانيدها المختلفة الحجازية والعراقية وغيرهما وقد تجد في بعض الاحاديث وتتعدد ويتكرر الحديث في ابواب الفقه باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري فاوسع نطاق الرواية وخرج احاديث السنة على ابوابها في مسنده الصحيح وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما اجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وتكررت احاديثه في الابواب باختلاف معانيها كما اشرنا اليه فاشتمل كتابه على سبعة الاف حديث ومائتين تكررت منها ثلثة الاف وفرق الطرق والاسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيري فالف مسنده الصحيح اتبع فيه البخاري في نقل المجمع على صحته وحذف المتكرر وجمع الطرق والاسانيد وبوبه على ابواب الفقه وتراجمه واستدرك الناس عليهما في استيعاب الصحيح وجاؤا بما اغفلا عن شرطهما ثم كتب ابو داود السجستاني وابو عيسى الترمذي وابو عبد الرحمن النسوي في السنن

باوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في الاسناد
وهي الصحيح كما هو معروف واما من الذي دونه كالحسن وغيره ليكون ذلك اماما يعمل
بالسنة وهذه المسانيد المعتمدة في الملة وهي امهات كتب الحديث من السنة وألحق
بهذه الخمسة مسانيد اخرى كمسند ابي داود الطيالسي والبزار وعبد بن حميد والدارمي
وابي يعلى الموصلي والامام احمد قاصدين فيها المسندات عن الصحابة من غير ان يكون
محتجا بها هكذا قال ابن الصلاح وفي الرواية عن الامام احمد انه كان يقول لابنه عبد الله
في كتابه المسند وهو يشتمل على احد وثلثين الف حديث وعن جماعة من اصحابه
انهم قالوا قرأ علينا المسند وقال هذا كتاب انتقيته من سبعمائة الف وخمسين
الف حديث فما اختلف فيه المسلمون من الاحاديث النبوية ولم تجدوه فيه
فليس بحجة فهذا يدل على ان جميع ما في مسنده يصح الاحتجاج به عكس ما قاله ابن الصلاح
نقلته من مناقب الامام احمد لابن الجوزي وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث
واستدراكها على المتقدمين اذ العادة تشهد بان هؤلاء الائمة على تعددهم
وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئا من السنة او يتركوه
حتى يعثر عليه المتأخر وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة
وضبطها بالرواية واسنادها الى مؤلفيها لتتصل الاسانيد محكمة من مبدئها
الى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية باكثر من هذه الامهات الخمسة الا في
القليل فاما البخاري وهو اعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه
من اجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من اهل الحجاز والشام
والعراق ومعرفة احوالهم واختلاف الناس فيهم وكذلك يحتاج الى امعان النظر
في التفقه في التراجم لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند او طريق ثم يترجم
اخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب
وكذلك في ترجمة وترجمة الى ان يتكرر الحديث في ابواب متفرقة بحسب معانيه
واختلافها فمن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب
واختلافها فمن قبل ان يستوفي حشو التراجم قد وفي الكتاب كذلك وسمعت من
اصحاب القاضي ابن بكار قاضي غرناطة واستشهد في واقعة طريف سنة
اربعين وسبعمائة وكان قائما على صحيح البخاري انه اراد بالترجمة تفسير الآية
بان ذلك مشروع لا مقدر لان الاشكال انما جاء من تفسير حبشا بقدرنا
واذا كان بمعنى شرعنا لم يكن لبس في تخريب ذي السويقتين اياها وسمعت

وبين الناظر في تراجمه بيان المناسبة بين الترجمة والاحاديث
التي في ضمنها فقد وقع له في كثير من تراجمه خفاء المناسبة
بينها وبين الاحاديث التي في ضمنها وطال كلام
الناس في بيانها كما وقع في كتاب الفتن في الباب
الذي ترجم فيه بقوله باب يخرب البيت ذو السويقتين
من الحبشة ثم قال قال الله تعالى واذ جعلنا البيت
مثابة للناس وامنا ولم يزد على ذلك في الباب
شيئا وخفي على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة
وما في الباب فمنهم من قال كان المصنف رحمه الله
يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الاحاديث في كل
ترجمة بحسب ما يتيسر له وتوفي قبل م

ذلك

ذلك من شيخنا ابي البركات البلفيقي عنه وكان من جلة تلميذه ومن شرح
الكتاب ولم يستوف هذا كله فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب
وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب
البخاري دين على الامة يعنون ان احدا من علماء الامة لم يوف ما وجب له من الشرح
بذلك الاعتبار واما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به واكبوا عليه
واجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري قال ابن الصلاح وانما يفضل على كتاب
البخاري بما وقع فيه من تجريده عما خرج به البخاري كأنه من غير الصحيح مما لم يكتبه
على شرطه واكثر ما وقع في التراجم واملى الامام المازري من فقهاء
المالكية عليه شرحا سماه المعلم بفوائد مسلم واشتمل على عيون من علم الحديث
وفنون من الفقه ثم اكمله القاضي عياض من بعده وتممه سماه اكمال المعلم
وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما وجاء
شرحا وافيا واما كتب السنن الاخرى الثلثة وفيها معظم مآخذ الفقهاء
فاكثر شرحها في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها
واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علوم الحديث وموضوعاتها والمسانيد
التي اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنة واعلم ان الاحاديث قد تميزت
مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها ميزها ائمة الحديث
وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما لم يصح من قبل ولقد كان الائمة
في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها واسانيدها بحيث لو روي حديث بغير
سنده وطريقه تفطنوا الى انه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للامام
محمد بن اسمعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه
عن احاديث قلبوا اسانيدها فقال لا اعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم اتى
بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده فاقروا له بالامامة
واعلم ايضا ان الائمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار من هذه البضاعة والاقلال
فابو حنيفة رحمه الله يقال انه انما بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا او نحوها
الى خمسين ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلثمائة حديث
او نحوها واحمد بن حنبل في مسنده خمسون الف حديث والكل على ما اداه اليه
اجتهادهم في ذلك وقد يقول بعض المتعصبين المتعمقين ان منهم من كان قليل

من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين
عن اصول صحيحة وتتلقى الاحكام عن صاحبها المبلغ لها عن الله وانما اقل منهم من
اقل الرواية لاجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما
والجرح مقدم عند الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض مثل ذلك
فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف الطرق
هذا مع ان اهل الحجاز اكثر رواية للحديث من اهل العراق لان المدينة دار الهجرة
ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد اكثر والامام ابو حنيفة
انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف الحديث اذا عارضه
العقل القطعي واستصعبت وقلت من اجلها روايته فقل حديثه لا انه ترك
رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدلك على انه من كبار المجتهدين في علم الحديث
اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا واما غيره من المحدثين
وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع اصحابه
من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوي فاكثر وكتب مسنده وهو جليل
القدر الا انه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما
مجمع عليها بين الامة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن
المستور الحال وغيره فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر
شرطه عن شروطهم ومن اجل هذا قيل في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة
الاجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا يأخذك ريبة في ذلك
فالقوم احق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم ثم من علوم
تعريف هذا القانون في الكلام على الاحاديث واحدا واحدا في ابوابها وتراجمها
في تفاسير هذه المسانيد كما فعله الحافظ ابو عمر بن عبد البر وابو محمد بن حزم والقاضي
عياض ومحيي الدين النووي وابن العطار ومن بعدهما وكثير من ائمة المغاربة
والمشارقة وان كان في كلامهم على تلك الاحاديث غير ذلك من فقه متونها
ولغتها واعرابها الا ان كلامهم في اسانيدها بصناعة الحديث اوعب واكثر هذه
اصناف علوم الحديث المتداولة بين ائمة الاعصار لهذا العهد والله الهادي
الى الحق والمعين عليه **الفقه** وما يتبعه من الفرائض والفقه هو معرفة احكام الله
في افعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهي متلقاة

من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الادلة فاذا استخرجت
الاحكام من تلك الادلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الادلة
على اختلاف فيما بينهم لا بد من وقوعه ضرورة ان الادلة غالبها من النصوص
وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات الفاظها لكثير من معانيها وخصوصا الاحكام
الشرعية خلاف بينهم معروف وايضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت و
تتعارض في الاكثر احكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف وايضا فالادلة
من غير النصوص مختلف فيها وايضا فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص وما
كان منها غير داخل في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها
اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة
من بعدهم ثم ان الصحابة لم يكونوا كلهم اهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم
وانما كان ذلك مختصا منهم بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه
ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم او ممن سمعه منه
من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء اي الذين يقرؤون الكتاب لان العرب
كانوا امة امية فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ
وبقي الامر كذلك صدر الملة ثم عظمت امصار الاسلام وذهبت الامية عن
العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه واصبح صناعة وعلما
فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين
طريقة اهل الرأي والقياس وهم اهل العراق وطريقة اهل الحديث وهم
اهل الحجاز وكان الحديث قليلا في اهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس
ومهروا فيه فلذلك قيل لهم اهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه
وفي اصحابه الامام ابو حنيفة وامام اهل الحجاز مالك بن انس والشافعي
من بعده ثم انكر القياس طائفة من العلماء وابطلوا العمل به وهم الظاهرية
وجعلوا مدارك الشرع كلها منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس الجلي
والعلة المنصوصة الى النص لان النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها
وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه واصحابهما فكانت هذه المذاهب
الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة وشذ اهل البيت بمذاهب ابتدعوها
وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم

بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل
ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح
فلا يعرف شيء من مذاهبهم ولا تروى كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم
فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة بالمغرب والمشرق واليمن
والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب
أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ولم يبق إلا في الكتب
المجلدة وربما يعكف كثير من البطالين ممن تكلف بانتحال مذهبهم فلا يحلو بطائل
ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة في أهل البدع
بتلقيه العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على
علو رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد
زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فنقم الناس
ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا وتلقوا كتبه بالإغفال والترك
حتى إنه ليحظر بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان ولم يبق إلا مذاهب أهل
الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت
عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل
جلدته وخصوصا مالك والشافعي وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي
إمام دار الهجرة رحمه الله واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة
عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك
متابعون لمن قبلهم وكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين
ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية وظن كثير أن ذلك من
مسائل الإجماع فأنكره لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل
للأمة واعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله
لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة
بجيل بالمشاهدة إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله عليه ضرورة اقتدائهم
بعين ذلك نعم المسألة ذكرت في باب الإجماع لأنه أليق الأبواب بها من حيث
ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن اجتهاد
والرأي والنظر في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة

من قبلهم ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع
الأدلة المختلف فيها مثل شرع من قبلنا ومذهب الصحابي والاستصحاب لكان
أليق بها والله الموفق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس الشافعي المطلبي رحمه
رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة
أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكا رحمه الله في كثير
من مذاهبه وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل وكان من علية المحدثين وقرأ
أصحابه على أصحاب أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر
ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم
وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما
عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله
ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد
هؤلاء كل ومن اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه
من التلاعب ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد
بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا
ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل
الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأربعة فأما ابن حنبل فمقلده قليل وأكثرهم
بالشام والعراق وبغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية للحديث
وميلا بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن وكان لهم ببغداد كثرة وصولة حتى كانوا
يتواقعون مع الشيعة في نواحيها وعظمت الفتنة ببغداد من أجل ذلك عند
استيلاء الططر عليها ولم يراجع وصارت كثرتهم بالشام وأما أبو حنيفة فمقلده
اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلهم لما كان مذهبه
أخص بالعراق ودار الإسلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت
تواليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاءوا منها
بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهو بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل
نقله إليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما وأما الشافعي فمقلده
بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر
وقاسموا الحنفية الفتوى والتدريس في جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم

وتحفت كتب الخلافيات بانواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق
واقطاره وكان الامام محمد بن ادريس لما نزل على بني عبد الحكم بمصر اخذ عنه جماعة
منهم وكان من تلميذه بها البويطي والمزني وغيرهم وكان بها من المالكية جماعة من
بني عبد الحكم واشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه
ثم القاضي ابو اسحق بن شعبان واصحابه ثم انقرض فقه اهل السنة والجماعة من مصر
بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه اهل البيت وكان من سواهم ان يتلاشوا
ويذهبوا وارتحل اليها القاضي عبد الوهاب من بغداد آخر المائة الرابعة على ما علم
من الحاجة والتقلب في المعاش فتاذن خلفاء العبيديين باكرامه واظهار فضله
نعياً على بني العباس في اطراح مثل هذا الامام والاغتباط به فنفقت سوق المالكية بمصر
قليلاً الى ان انقرضت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين ابن
ايوب فذهب منها فقه اهل البيت وعاد فقه الجماعة الى ظهوره بينهم وتوفر
من ذلك فقه الشافعي واصحابه من اهل العراق فعاد الى احسن ما كان ونفق سوقه
وجلب كتاب الرافعي منها الى الشام ومصر واشتهر فيهم محيي الدين النووي من الحلبة التي
ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين بن عبد السلام ثم ابن الرفعة
بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي من بعدهما الى ان انتهى ذلك
الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو كبير الشافعية بها
لا بل كبير العلماء من اهل العصر واما ملك فاختص مذهبه باهل المغرب والاندلس
وان كان يوجد في غيرهم الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم
غالباً كانت الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج
الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم
يومئذ وامامهم ملك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه اهل المغرب
والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليه طريقته وايضاً فالبداوة
كانت غالبة على اهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل
العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي
غضاً عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما
صار مذهب كل امام علماً مخصوصاً عند اهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد
والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد

الى الاصول المتقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة
يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير والتفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا
وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد واهل المغرب جميعاً مقلدون لملك رضي الله عنه
وقد كان تلميذه افترقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته
مثل ابن خويز منداد وابن المنتاب والقاضي ابو بكر الابهري والقاضي ابو الحسن
ابن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم واشهب
وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الاندلس يحيى بن يحيى الليثي
ولقي ملكاً وروى عنه كتاب الموطأ وكان من جملة اصحابه ورحل بعده عبد الملك
ابن حبيب فاخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب ملك بالاندلس ودون
فيه كتاب الواضحة ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من افريقية
اسد بن الفرات فكتب عن اصحاب ابي حنيفة اولاً ثم انتقل الى مذهب ملك
وكتب عن ابن القاسم في ساير ابواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمي
الاسدية نسبة الى اسد بن الفرات فقرأها سحنون على اسد ثم ارتحل الى المشرق
ولقي ابن القاسم واخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها
وكتب سحنون مسائلها ودونها واثبت ما رجع عنه منها وكتب معه ابن القاسم
الى اسد ان يمحو من اسديته ما رجع عنه وان يأخذ بكتاب سحنون فانف
من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط
المسائل في الابواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف اهل القيروان
على هذه المدونة واهل الاندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن ابي زيد
المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه ايضاً ابو سعيد البراذعي
من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من اهل افريقية
واخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد اهل الاندلس كتاب العتبية وهجروا
الواضحة وما سواها ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح
والايضاح والجمع فكتب اهل افريقية على المدونة ما شاء الله ان يكتبوه مثل ابن رشد
وامثاله وجمع ابن ابي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال
في كتاب النوادر فاشتمل على جميع اقوال المذهب وفرّع الامهات كلها في هذا
الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين

مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز والتونسي وابن بشير وامثالهم
وكتب اهل الاندلس على العتبية ما شاء الله ان يكتبوه
مثل
صح

الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بها اهل المغرب بعد ذلك وتميزت
للمذهب المالكي ثلث طرق للقرويين وكبيرهم سحنون الآخذ عن ابن القاسم وللقرطبيين
وكبيرهم ابن حبيب الآخذ عن ملك ومطرف وابن الماجشون واصبغ وللعراقيين
وكبيرهم القاضي اسمعيل واصحابه وكانت طريقة المصريين تابعة للعراقيين وان
القاضي عبد الوهاب انتقل اليها انتقل اليها من بغداد آخر المائة الرابعة واخذها
عنه وكانت الطريقة المالكية بمصر من لدن الحرث بن مسكين وابن ميسر وابن
اللهيب وابن رشيق وكانت خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه اهل البيت واما
طريقة العراقيين فكانت مهجورة عند اهل القيروان والاندلس لبعدها عنهم وخفاء
مداركها وقلة اطلاعهم على ماخذهم فيها والقوم اهل اجتهاد وان كان خاصا لا يرون
التقليد ولا يرضونه طريقا ولذلك تجد اهل المغرب والاندلس لا ياخذون براي
العراقيين فيما لا يجدون فيه رواية عن الامام او احد من اصحابه ثم امتزجت الطرق
بعد ذلك ورحل ابو بكر الطرطوشي من الاندلس في المائة السادسة ونزل البيت
المقدس واوطنه واخذ عنه اهل مصر والاسكندرية ومزجوا طريقة الاندلسية بطريقتهم
المصرية وكان من جملة اصحابه الفقيه سند صاحب الطراز واصحابه واخذ عنهم
جماعة كان منهم بنو عوف واصحابهم واخذ عنهم جماعة كان منهم بنو عوف واصحابهم
واخذ عنهم ابو عمرو وابن الحاجب وبعده شهاب القرافي واتصل ذلك في تلك الاعصار
وكان فقه الشافعية ايضا قد انقرض بمصر منذ دولة العبيديين اهل البيت فظهر
بعدهم من الفقهاء الذين جددوه كتاب الرافعي فقيه اهل خراسان منهم وظهر بالشام
محيي الدين النووي من تلك الحلبة ثم امتزجت طريقة المغاربة من المالكية ايضا
بطريقة العراقيين من لدن الشرمساحي كان بالاسكندرية ظاهرا في الطريقة
المغربية والمصرية فبنى المستنصر العباسي ابو المستعصم وابن الظاهر مدرسته
ببغداد واستدعاه لها من خلفاء العبيديين الذين كانوا يومئذ بالقاهرة
فاذنوا له في الرحيل اليه فلما قدم بغداد ولاه تدريس المستنصرية واقام هنالك
الى ان استولى هلاكو على بغداد سنة ست وخمسين من المائة السابعة وخلص
من تيار تلك النكبة وخلى سبيله فعاش هنالك الى ان مات في ايام ابنه احمد ابغا
وتلخصت طرق هولاء المصريين ممتزجة بطرق المغاربة كما ذكرناه في مختصر ابي
عمرو بن الحاجب يذكر فقه الباب في مسائله المفترقة ويذكر الاقوال في كل مسئلة

على تعدادها فجاء كالبرنامج للمذهب ولما ظهر بالمغرب آخر المائة السابعة
عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا اهل بجاية لما كان كبير
مشيختهم ابو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه الى المغرب فانه
كان قرا على اصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك وجاء به فانتشر بقطر
بجاية في تلميذه ومنهم انتقل الى سائر امصار المغرب وطلبة الفقه بالمغرب
لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر
الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن
راشد وابن هارون وكلهم من مشيخة اهل تونس وسابق اهل حلبتهم في الاجادة
في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله
يهدي من يشاء · واما علم الفرائض وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة
مما تصح باعتبار فروضها الاصول او مناسختها وذلك اذا هلك احد الورثة و
انكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حسبان يصحح الفريضة الاولى
حتى يصل اهل الفروض جميعا في الفريضتين الى فروضهم من غير تجزئة وقد تكون
هذه المناسخات اكثر من واحد واثنين وتتعدد وكذلك بعدد اكثر وبقدر ما
تتعدد يحتاج الى الحسبان وكذا اذا كانت الفريضة ذات وجهين مثل ان يقر
بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام
ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من اصل الفريضة وكل ذلك يحتاج الى
الحسبان فافرد وا هذا الباب من ابواب الفقه لما اجتمع فيه الى الفقه من الحسبان
وكان غالبا فيه وجعلوه فنا منفردا وللناس فيه تواليف كثيرة اشهرها
عند المالكية من متاخري الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم
الحوفي ثم الجعدي ومن متاخري افريقية ابن المنمر الطرابلسي وامثالهم ·
واما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تواليف كثيرة واعمال عظيمة
صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصا ابو المعالي رضي
وامثاله من اهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به
الى الحقوق في الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين
وللعلماء من اهل الامصار بها عناية ومن المصنفين من يجنح فيها الى الغلو
في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج في استخراج المجهولات من فنون الحساب

كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وامثال ذلك فيعللون بها كتابهم وهو وان
لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثاتهم لغرابته وقلة
وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول في المتداول على اكمل الوجوه
وقد يحتج الاكثر من اهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن ابي هريرة
ان الفرائض ثلث العلم وانها اول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه ابو نعيم
الحافظ واحتج به اهل الفرائض بناءً على ان المراد بالفرائض فروض الوراثة .
والذي يظهر ان هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هي الفروض التكليفية
في العبادات والعادات والمواريث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية
والثلثية واما فروض الوراثة فهي اقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة
كلها ويعين هذا المراد ان حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص وتخصيصه
بفروض الوراثة انما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات
ولم يكن صدر الاسلام يطلق هذا اللفظ الا على عمومه مشتقا من الفروض
الذي هو لغة التقدير او القطع وما كان المراد به في اطلاقه الا جميع الفروض
كما قلناه وهي حقيقته الشرعية فلا ينبغي ان يحمل الا على ما كان يحمل في عصرهم
وهو الاليق بمرادهم منه والله اعلم

اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

اعلم ان اصول الفقه من اعظم العلوم الشرعية واجلها قدرا
واكثرها فائدة وهو النظر في الادلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الاحكام
والتكاليف واصول الادلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة
المبينة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الاحكام تتلقى منه بما يوحى اليه
من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج الى نقل ولا الى نظر
وقياس ومن بعده صلوات الله عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن
بالتواتر واما السنة فاجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب العمل بما يصل
الينا منها قولاً وفعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة
الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم تنزل الاجماع منزلتهما لاجماع الصحابة
على النكير على مخالفيهم ولا يكون مثل ذلك الا عن مستند لان مثلهم لا يتفقون
عن غير دليل ثابت مع شهادة الادلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلا ثابتا
في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة

فاذا هم يقايسون الاشباه بالاشباه ويناظرون الامثال بالامثال باجماع منهم
وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فان كثيرا من الواقعات بعده صلوات الله عليه
لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت والحقوها بما نص عليه بشروط
في ذلك الالحاق يصحح تلك المساواة بين الشبيهين او المثلين حتى يغلب
على الظن ان حكم الله فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعيا باجماعهم عليه وهو
القياس وهو رابع الادلة واتفق جمهور العلماء ان هذه اصول الادلة وان خالف
بعضهم في الاجماع والقياس الا انه شذوذ والحق بعضهم بهذه الادلة الاربعة
ادلة اخرى لا حاجة بنا الى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول بها فكان
من اول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه ادلة فاما الكتاب فدليله
المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق مجال للاحتمال واما السنة وما
نقل الينا منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قدمناه معتضداً بما كان
عليه العمل في حياته صلى الله عليه وسلم من انفاذ الكتب والرسل الى النواحي
بالاحكام والشرائع آمراً وناهياً واما الاجماع فلاتفاقهم رضوان الله عليهم على انكار
مخالفتهم مع العصمة الثابتة للامة واما القياس فباجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه
كما قدمناه هذه اصول الادلة ثم ان المنقول من السنة يحتاج الى تصحيح الخبر
بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه
التي هي مناط وجوب العمل بالخبر وهذه ايضا من قواعد الفن ويلحق بذلك عند
التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من
فصوله ايضا وابوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالات الالفاظ وذلك ان استفادة
المعاني على الاطلاق من تراكيب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات
الوضعية مفردةً ومركبةً والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف
والبيان وحين كان اللسان ملكةً لاهله لم تكن هذه علوما ولا قوانين ولم يكن الفقيه
حينئذ يحتاج اليها لانها جبلية وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها
الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوما
يحتاج اليها الفقيه في معرفة احكام الله ثم ان هنا استفادة اخرى خاصة
من تراكيب الكلام وهي استفادة الاحكام الشرعية بين المعاني من ادلتها الخاصة
من بين تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق

بل لابد من معرفة امور اخرى تتوقف عليها تلك الدلالة الخاصة وبها
تستفاد الاحكام بحسب ما اصّل اهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه
قوانين لهذه الاستفادة مثل ان اللغة لا تثبت قياسًا والمشترك
لا يراد به معنياه معًا والواو لا تقتضي الترتيب والعام اذا اخرجت
افراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب او الندب وللفور
او التراخي والنهي يقتضي الفساد او الصحة والمطلق هل يحمل على المقيد
والنص على العلة كافٍ في التعدي اولا وامثال ذلك فكانت كلها
من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم ان النظر
في القياس من اعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع
فيما يقايس ويماثل من الاحكام وتنقيح الوصف الذي يغلب على الظن ان
الحكم علق به في الاصل من بين اوصاف ذلك المحل ووجود ذلك الوصف
في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه الى مسائل اخرى من توابع
ذلك كلها قواعد لهذا الفن واعلم ان هذا الفن من الفنون المستحدثة
في الملة وكان السلف في غنية عنه بما ان استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج
فيها الى ازيد مما عندهم من الملكة اللسانية واما القوانين التي يحتاج اليها
في استفادة الاحكام خصوصا فعنهم اخذ معظمها واما الاسانيد فلم يكونوا
يحتاجون الى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض
السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت العلوم كلها صناعية كما قررناه
من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد
لاستفادة الاحكام من الادلة فكتبوها فنًا قائمًا برأسه سموه اصول الفقه
وكان من كتب فيه الشافعي رضي الله عنه املى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها
في الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس
ثم كتب فقهاء الحنفية فيها وكتب المتكلمون ايضا كذلك الا ان كتابة
الفقهاء فيها امس بالفقه واليق بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد
وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل
عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي ما امكن لانه غالب فنونهم
ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت

الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما امكن وجاء ابو زيد الدبوسي
من ائمتهم فكتب في القياس باوسع من جميعهم وتمم الابحاث والشروط التي
يحتاج اليها فيه فكملت صناعة اصول الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت
قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من احسن ما كتب فيه
المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الاشعرية
وكتاب العمد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابي الحسين البصري وهما من المعتزلة
وكانت الاربعة قواعد هذا الفن واركانه ثم لخص هذه الكتب الاربعة فحلان
من المتكلمين المتاخرين وهما الامام فخر الدين ابن الخطيب في كتاب المحصول وسيف
الدين الآمدي في كتاب الاحكام واختلفت طرقهما في الفن بين التحقيق
والحجاج فابن الخطيب اميل الى الاستكثار من الادلة والاحتجاج
والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل فاما كتاب المحصول فاختصره
تلميذ الامام مثل سراج الدين الارموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الارموي
في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في
كتاب صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني
المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس واما كتاب الاحكام للآمدي
وهو اكثر تحقيقا في المسائل فلخصه ابو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر
الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني اهل المشرق والمغرب
به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات
واما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من احسن كتابة المتقدمين فيها تاليف
ابي زيد الدبوسي واحسن تواليف المتاخرين تواليف سيف الاسلام البزدوي
من ائمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب
الاحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبديع فجاء من احسن
الاوضاع وابدعها وائمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وولع كثير
من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين
موضوعاته وتعديد التواليف المشهورة لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا
من اهله بمنه واما الخلافيات فاعلم ان هذا الفقه المستنبط من الادلة الشرعية
كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وانظارهم خلافا لابد

من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين ان يقلدوا
من شاؤا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الائمة الاربعة من علماء الامصار وكانوا بمكان
من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنع من تقليد من سواهم لذهاب
الاجتهاد بصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقاد
من يقوم على سوى هذه المذاهب الاربعة فاقيمت هذه المذاهب الاربعة اصول الملة
واجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين باحكامها مجرى الخلاف في النصوص
الشرعية والاصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل مذهب امامه
تجري على اصول صحيحة وطرائق قويمة ويحتج بها كل على صحة مذهبه الذي قلده
وتمسك به واجريت في المسائل الشرعية كلها وفي كل باب من ابواب الفقه فتارة
يكون بين الشافعي ومالك وابو حنيفة وافق احدهما وتارة بين الشافعي وابي حنيفة
ومالك يوافق احدهما وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الائمة ومثارات
اختلافهم ومواقع اجتهادهم وكان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولابد لصاحبه
من معرفة القواعد التي يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد
الا ان المجتهد يحتاج اليها للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج لحفظ تلك المسائل
المستنبطة من ان يهدمها المخالف بادلته وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة
مآخذ الائمة وادلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه
وتآليف الحنفية فيه والشافعية اكثر من تآليف المالكية لان القياس عند
الحنفية اصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك اهل النظر والبحث
واما المالكية فالاثر اكثر معتمدهم وليسوا باهل نظر وايضا فاكثرهم اهل المغرب
وهم بادية غفل من الصنائع الا في الاقل وللغزالي فيه كتاب المآخذ ولابي بكر
ابن العربي من المالكية كتاب التلخيص جلبه من المشرق ولابي زيد الدبوسي
كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الادلة وقد جمع
ابن الساعاتي في مختصره في اصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه الخلافي مدرجا
في كل مسئلة منه ما ينبني عليها من الخلافيات واما الجدل وهو معرفة آداب
المناظرة التي تجري بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة
في الرد والقبول متسعا وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه
في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الائمة الى ان يضعوا آدابا

واحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل
والمجيب وحيث يسوغ له ان يكون مستدلا وكيف يكون مخصوما منقطعا ومحل اعتراضه
ومعارضته واين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه انه
معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها الى حفظ رأي
او هدمه كان ذلك الرأي من الفقه او غيره وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي
خاصة بالادلة الشرعية من النص والاجماع والاستدلال وطريقة العميدي وهي
عامة في كل دليل يستدل به من اي علم كان واكثره استدلال وهو من المناحي
الحسنة والمغالطات فيه في نفس الامر كثيرة واذا اعتبر بالنظر المنطقي كان في الغالب اشبه
بالقياس المغالطي والسوفسطائي الا ان صور الادلة والاقيسة فيه محفوظة مراعاة
يتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدي هو اول من كتب فيها ونسبت
الطريقة اليه ووضع كتابه المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين
كالنسفي وغيره جاؤا على اثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التآليف وهي
لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الامصار الاسلامية وهي مع ذلك
كمالية وليست ضرورية والله غالب على امره **علم الكلام** هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد
الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب
السلف واهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة
في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على اقرب الطرق والمآخذ ثم نرجع الى تحقيق
علم الكلام وفيما ينظر ونشير الى حدوثه في الملة وما دعا الى وضعه فنقول
اعلم ان الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات او من الافعال
البشرية او الحيوانية فلابد لها من اسباب بهذا المعنى متقدمة عليه بها يقع
مستقر العادة وعنها يتم كونه وكل واحد من تلك الاسباب حادث ايضا
فلابد له من اسباب اخرى ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهي الى مسبب
الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الاسباب في ارتقائها
تتضاعف فتنفسح طولا وعرضا ويحار العقل في ادراكها وتعديدها فاذن
لا يحصرها الا العالم المحيط سيما الافعال البشرية والحيوانية فان من جملة اسبابها
في الشاهد القصود والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بارادته والقصد اليه
والقصود والارادات هي اسباب قصد الفعل وقد تكون اسباب تلك

التصورات بتصورات اخرى وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه
اذ لا يطلع احد على مبادي الامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هي اشيا يلقيها الله
في الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مباديها وغاياتها وانما
يحيط علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة وتقع في مداركنا على نظام
وترتيب لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها واما التصورات فنطاقها
اوسع من النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تكاد النفس تدرك الكثير منها
فضلا عن الاحاطة وتامل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر الى الاسباب
والوقوف معها فانه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطايل ولا يظفر بحقيقة
قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه
فزلت قدمه واصبح في الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران
المبين ولا تحسبن ان هذا الوقوف او الرجوع في قدرتك او اختيارك بل هو
لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الاسباب على نسبة لا نعلمها
اذ لو علمناها لتحرزنا عن ذلك منها فليتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة
وايضا فوجه تاثير هذه الاسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لانها انما يوقف
عليها بالعادة وقضية الاقتران الشاهد بالاستناد في الظاهر وحقيقة التاثير
وكيفيته مجهولة وما اوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك امرنا بقطع النظر عنها
والغائها جملة والتوجه الى مسبب الاسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صبغة
التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو اعرف بمصالح ديننا وطرق
سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد
ان لا اله الا الله دخل الجنة فان وقف عند تلك الاسباب فقد انقطع وحقت
عليه كلمة الكفر وان سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن اسبابها وتاثيراتها واحدا
بعد واحد فانا الضامن له ان لا يعود الا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر
الى الاسباب وامرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا احد ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من انه مقتدر على الاحاطة
بالكاينات واسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رايه في ذلك
واعلم ان الوجود عند كل مدرك في بادي رايه انه منحصر في مداركه لا يعدوها
والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه الا ترى الاصم كيف ينحصر

الوجود

الوجود في المحسوسات الاربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف
المسموعات وكذلك الاعمى الاكمه ايضا يسقط من الوجود عنده صنف المرئيات
ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الاباء والمشيخة من اهل عصرهم والكافة لما اقروا به
لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم
ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه منكرا صنف المعقولات وساقطة لديه
بالكلية واذا علمت ذلك فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا مخلوقة محدثة
وخلق الله اكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود اوسع نطاقا من ذلك
والله من ورائهم محيط فاتهم ادراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما امرك الشارع
به في اعتقادك وعملك فهو احرص على سعادتك واعلم بما ينفعك لانه من طور
فوق ادراكك ومن نطاق اوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح في
العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح واحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع
ان تزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقايق الصفات الالهية
وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل راى الميزان
الذي يوزن به الذهب فطمع ان يزن به الجبال وهذا لا يدل على ان الميزان في احكامه
غير صادق لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له ان يحيط بالله
وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن من هذا الغلط
من يقدم العقل على السمع وامثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال
رايه فقد تبين لك الحق من ذلك واذا تبين ذلك فلعل الاسباب اذا تجاوزت
في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت عن ان تكون مدركة فيضل
العقل في بيداء الاوهام ويحار وينقطع فاذن التوحيد هو العجز عن ادراك
الاسباب وكيفيات تاثيراتها وتفويض ذلك الى خالقها المحيط بها اذ لا فاعل
غيره وكلها ترتقي اليه وترجع الى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث صدورنا عنه
لا غير وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الادراك ادراك
ثم ان المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكمي
فان ذلك من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس
كما ان المطلوب من الاعمال والعبادات ايضا حصول ملكة الطاعة والانقياد
وتفريغ القلب من شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا

والفرق بين الحال والعلم في العقايد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه ان كثيراً من
الناس يعلم ان رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف
ويذكره ماخذه من الشريعة وهو لو راى يتيما او مسكينا من ابناء المستضعفين لفر عنه واستنكف
ان يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة
فهذا انما يحصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من
يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بان رحمة المسكين قربة الى الله مقام آخر اعلى من الاول
وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فمتى راى يتيما او مسكينا بادر اليه ومسح عليه والتمس الثواب
في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده
وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة وهو اوثق
مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل
ويتكرر مراراً غير منحصرة وترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني
النافع في الاخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم اكثر
النظار والمطلوب انما هو العلم الحالي الناشي عن العبادة واعلم ان الكمال عند الشارع في كل
ما كلف به انما هو في هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف
وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها ثم ان الاقبال على
العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في راس
العبادات جعلت قرة عيني في الصلوة فان الصلوة صارت له صفة وحالا يجد فيها منتهى
لذته وقرة عينه واين هذه من صلات الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم
ساهون اللهم ارزقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين امين فقد تبين لك من جميع ما قررناه ان المطلوب في التكاليف كلها حصول
ملكة راسخة في النفس ينشاء عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية
وهو الذي تحصل به السعادة وان ذلك سواء في التكاليف القلبية او البدنية وتتفهم منه
ان الايمان الذي هو اصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة وانه ذو مراتب اولها
التصديق القلبي الموافق للسان واعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه
من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط
الافعال كلها في طاعة التصديق الايماني الكامل الذي لا يقارف المومن معه كبيرة ولا صغيرة
اذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجها طرفة عين قال صلى الله عليه

لا يزني الزاني حين يزني وهو مومن وفي حديث هرقل لما سال ابا سفين بن حرب
عن النبي صلى الله عليه وسلم واحواله فقال في اصحابه هل يرتد احد منهم سخطة لدينه بعد ان
يدخل فيه قال لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه ان ملكة
الايمان اذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شان الملكات اذا استقرت فانها تحصل
بمثابة الجبلة والفطرة وهذه هي الرتبة العالية من الايمان وهي في الرتبة الثانية
من العصمة لان العصمة واجبة للانبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة للمومنين حصولاً
تابعا لاعمالهم وتصديقهم فبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان الذي يتلى
عليك من اقاويل السلف وفي تراجم البخاري في باب الايمان كثير منه مثل ان الايمان
وان تطوع رمضان من الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان
الكامل الذي اشرنا اليه والى حصول ملكته وهو فعلي واما التصديق الذي هو اول مراتبه
فلا تفاوت فيه فمن اعتبر اوايل الاسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال ائمة
المتكلمين ومن اعتبر اواخر الاسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان هي الايمان الكامل
ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الاولى التي هي التصديق اذ التصديق
موجود في جميع رتبه لانه اقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو المخلص من عهدة الكفر
والفيصل بين الكافر والمومن فلا يجزي اقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة
لا تتفاوت وانما التفاوت في الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه فافهمه واعلم ان الشارع
وصف لنا هذا الايمان الذي في الرتبة الاولى الذي هو تصديق وعين امور المخصوصة
كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في انفسنا مع الاقرار بها بالسنتنا وهي العقايد
العقايد التي تقررت في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال
ان تومن بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتومن بالقدر خيره وشره
وهذه هي العقايد الايمانية المقررة في علم الكلام ولنشر اليها مجملة ليتبين لك
حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول اعلم ان الشارع لما امرنا بالايمان بهذا
الخالق الذي رد الافعال كلها اليه وافرده بها كما قدمناه وعرفنا ان في
هذا الايمان نجاتنا اذا حضرنا عند الموت لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق
المعبود اذ ذلك متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا اولاً اعتقاد
تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين والا لما صح انه خالق لهم لعدم الفارق على ذلك
التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والا لشابه المخلوقين ثم توحيده بالالوهية

والالم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد انه عالم قادر فبذلك تتم الافعال شاهدا قضيته لكمال
الايجاد والخلق ومريد والالم يتخصص شي من المخلوقات ومقدر لكل كاين والا
فالارادة حادثة وانه يعيدنا بعد الموت تكميلا لعنايته بالايجاد الاول ولو كان للفنا
الصرف كان عبثا فهو للبقا السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقا
هذا المعاد لاختلاف احواله بالشقا والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الانبا
بذلك وبيان الطريقين وان الجنة للنعيم وجهنم للعذاب فهذه امهات العقايد الايمانية
معللة بادلتها العقلية وادلتها من الكتاب والسنة كثير وعن تلك الادلة اخذها السلف
وارشد اليها العلما وحققها الايمة الا انه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه
العقايد اكثر مثار ها من الاي المتشابهة فدعى ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال
بالعقل زيادة على النقل فحدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمل
وذلك ان القران ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير
تاويل في اي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الايمان بها ووقع في كلام
الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت
في القران اي اخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات واخرى في الصفات فاما السلف
فغلبوا ادلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بان الايات
من كلام الله فامنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تاويل وهذا معنى قول الكثير منهم
اقروها كما جاءت اي امنوا بانها من عند الله ولا تتعرضوا لتاويلها ولا تفسيرها لجواز ان تكون
ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الايات
فيفرنوع شبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت في ذلك
فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة اي التنزيه لان معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار
وتغليب ايات السلوب في التنزيه المطلق التي هي اكثر موارد واوضح دلالة اولى من
التعلق بظواهر هذه التي لنا غنية عنها وجمع بين الدليلين بتاويلها ثم يفرون
من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالاجسام وليس ذلك بدافع عنهم لانه قول متناقض
وجمع بين نفي واثبات ان كانا لمعقولية واحدة من الجسم وان خالفا بينهما ونفيا
المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق الا جعلهم لفظ الجسم اسما
من اسمائه ويتوقف مثله على الاذن وفريق منهم ذهبوا الى التشبيه في الصفات كاثبات
الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وامثال ذلك وال قولهم الى التجسيم فزعموا

مثل الاولين الى قولهم صوت لا كالاصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول
يعنون من الاجسام واندفع ذلك بما دفع الاول ولم يبق في هذه الظواهر الا اعتقادات
السلف ومذاهبهم والايمان بها كما هي لئلا يكر النفي لمعانيها على نفيها مع انها صحيحة ثابتة
والى هذا ينظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن ابي زيد وكتاب المختصر له وفي كتب
الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فانهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القراين الدالة
على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنايع وولع الناس بالتدوين والبحث
في ساير الانحا والف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه
في اي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة زايدة
على احكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بان الصفات ليست
نفس الذات ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الاجسام وهو مردود
لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وانما هو ادراك للمسموع او المبصر وقضوا
بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا
بان القران مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء
عن بعض ايمتهم فحمل عليها الناس وخالفهم ايمة الدين فاستباح بخلافهم ابشار كثير منهم
ودماهم وكان ذلك سببا لانتهاض اهل السنة بالادلة العقلية على هذه العقايد
دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ ابو الحسن الاشعري امام المتكلمين فتوسط
بين الطرق ونفى التشبيه واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه
السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه فاثبت الصفات الاربع المعنوية
والسمع والبصر والكلام القايم بالنفس بطريق العقل والنقل ورد على المبتدعة
في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلح
والتحسين والتقبيح وكمل العقايد في البعثة واحوال المعاد والجنة والنار والثواب
والعقاب والحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينيذ من بدعة الامامية في قولهم
انها من عقايد الايمان وانها يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة فيها لمن هي له
وكذلك على الامة وقصارى امر الامامة انها قضية مصلحية اجماعية ولا تلحق بالعقايد
فلذلك الحقوها بمسايل هذا الفن وسموا مجموعه علم الكلام اما لما فيه من المناظرة على البدع
وهي كلام صرف وليست براجعة الى عمل واما لان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم
في اثبات الكلام النفسي وكثر اتباع الشيخ ابي الحسن الاشعري واقتفى طريقته من بعده

تلميذه كابن مجاهد وغيره واخذ عنهم القاضي ابو بكر الباقلاني فتصدر للامامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وان العرض لا يقوم بالعرض وانه لا يبقى زمنين وامثال ذلك مما تتوقف عليه ادلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقايد الايمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الادلة عليها وان بطلان الدليل يوذن ببطلان المدلول فكملت هذه الطريقة وجاءت من احسن الفنون النظرية والعلوم الدينية الا ان صور الادلة فيها بعض الاحيان على غير الوجه الصناعي لسذاجة القوم ولان صناعة المنطق التي تسبر بها الادلة وتعتبر بها الاقيسة لم يكن حينئذ ظاهرة في الملة ولو ظهر منها بعض الشيء لم ياخذ بها المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة لعقايد الشرع بالجملة فكانت عندهم مهجورة لذلك ثم جاء بعد القاضي ابو بكر من ايمة الاشعرية امام الحرمين ابو المعالي فاملى في الطريقة كتاب الشامل واوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب الارشاد واتخذه الناس اماما لعقايدهم ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق في الملة وقراه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بانه قانون ومعيار للادلة فقط تسبر به الادلة منها كما تسبر من سواها ثم نظروا في تلك القواعد المقدمات في فن الكلام للاقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي ادتهم الى ذلك وربما ان كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بالمعيار المنطقي ردهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلولات من بطلان دليله كما صار اليه القاضي فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مباينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتاخرين وربما ادخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقايد الايمانية وجعلوهم من خصوم العقايد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم واول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي وتبعه الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا اثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتاخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شان الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسايل فيهما واعلم ان المتكلمين لما كانوا يستدلون في اكثر احوالهم بالكاينات واحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات هو بعض من هذه الكاينات الا ان نظره فيها مخالف لنظر المتكلم هو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على

على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الالهيات انما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الموجود من حيث يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند اهله انما هو العقايد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن ان يستدل عليها بالادلة العقلية فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقايد واذا تاملت حال الفن في حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقايد صحيحة ويستنهض الحجج والادلة علمت حينئذ صحة ما قررناه لك في موضوع الفن وانه لا يعدوه ولقد اختلطت الطريقتان عند هولاء المتاخرين والتبست مسايل الكلام بمسايل الفلسفة بحيث لا يتميز احد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تواليفهم الا ان هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها واما محاذاة طريقة السلف بعقايد علم الكلام فانما هي في الطريقة القديمة للمتكلمين واصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه ومن اراد ادخال الرد على الفلاسفة في عقايده فعليه بكتب الغزالي والامام ابن الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة الاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسايل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هولاء المتاخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي ان تعلم ان هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم اذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والايمة من اهل السنة كفونا شانهم فيما دونوا وكتبوا والادلة العقلية انما احتيج اليها لما دافعوا ونصروا واما الآن فلم يبق منها الا كلام ننزه الباري عن الكثير من ايهاماته واطلاقاته ولقد سئل الجنيد عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هولاء فقيل قوم ينزهون الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته في احاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجاج النظرية على عقايدها والله ولي المومنين

فصل في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة وما حدث لاجل ذلك من طوايف السنية والمبتدعة في الاعتقادات

اعلم ان الله سبحانه بعث الينا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يدعونا الى الفوز والنجاة بالنعيم وانزل عليه كتابه الكريم باللسان العربي المبين يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا الى ذلك وكان في خلال هذا الخطاب ومن ضروراته ذكر صفاته سبحانه واسمائه ليعرفنا بذاته وذكر الروح المتعلقة بنا وذكر الوحي والملائكة الوسايط بينه وبين رسله

البناء وذكر لنا يوم البعث وانذاراته ولم يعين لنا الوقت في شيء وبث في هذا
القرآن الكريم حروف من الهجاء مقطعة في اوايل بعض سوره لا سبيل لنا الى فهم المراد بها
وسمى هذه الانواع كلها من الكتاب متشابهة وذم على اتباعها فقال تعالى هو الذي
انزل الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم
زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله الا الله
والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب
وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على ان المحكمات هي المبينات
الثابتة الاحكام ولذلك قال الفقهاء في اصطلاحهم المحكم المتضح المعنى واما
المتشابهات فلهم فيها عبارات فقيل هي التي يفتقر الى نظر وتفسير يصحح معناها
لتعارضها مع اية اخرى او مع العقل فتخفى دلالتها وتشتبه وعلى هذا قال ابن عباس
المتشابه يؤمن به ولا يعمل به وقال مجاهد وعكرمة كل ما سوى آيات الاحكام والقصص
متشابه وعليه القاضي ابو بكر وامام الحرمين وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء
السلف المتشابه ما لم يكن سبيل الى علمه كشروط الساعة واوقات الانذارات وحروف
الهجاء في اوايل السور وقوله في الاية هن ام الكتاب اي معظمه وغالبه والمتشابه اقله
وقد يرد الى المحكم ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتاويل او بحملها على معاني لا تفهم منها في لسان العرب
الذي خوطبنا به وسماهم اهل زيغ اي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة
اهل البدع وان فعلهم ذلك قصدًا للفتنة التي هي الشرك واللبس على المومنين
او قصدًا لتاويلها بما يشتهونه فيقتدون به في بدعتهم ثم اخبر سبحانه بانه استاثر
بتاويلها ولا يعلمه الا هو فقال وما يعلم تاويله الا الله ثم اثنى على العلماء بالايمان بها
فقط فقال والراسخون في العلم يقولون امنا به ولهذا جعل السلف والراسخون مستانفا
ورجحوه على العطف لان الايمان بالغيب ابلغ في الثناء ومع عطفه انما يكون ايمانا
بالشاهد لانهم يعلمون التاويل حينئذ فلا يكون غيبا ويعضد ذلك قوله كل من عند ربنا
ويدل على ان التاويل فيها غير معلوم للبشر اذ الالفاظ اللغوية انما يفهم منها
المعاني التي وضعها العرب لها فاذا استحال اسناد الخبر الى مخبر عنه جهلنا مدلول
الكلام حينئذ وان جاءنا من عند الله فوضنا علمه اليه ولا نشتغل انفسنا بمدلول
نلتمسه فلا سبيل لنا الى ذلك وقد قالت عايشة رضي الله عنها اذا رايتم الذين يجادلون
في القرآن فهم الذين عنى الله فاحذروهم هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة وجاء

في السنة الفاظ مثل ذلك محملها عندهم محمل الآيات لان المنبع واحد واذا تقررت اصناف
المتشابهات على ما قلناه فلنرجع الى اختلاف الناس فيها فاما ما يرجع منها على ما ذكروه
الى الساعة واشراطها واوقات الانذارات وعدد الزبانية وامثال ذلك فليس هذا
والله اعلم من المتشابه لانه لم يرد فيه لفظ محتمل ولا غيره وانما هي ازمنة لحادثات
استاثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى لسان نبيه وقال انما علمها عند الله والعجب من
عدها في المتشابه واما الحروف المقطعة اوايل السور فحقيقتها حروف الهجاء وليس
ببعيد ان تكون مرادة وقد قال الزمخشري فيها اشارة الى بعد الغاية في الاعجاز لان
القرآن المنزل مؤلف منها والبشر فيها سواء والتفاوت موجود في دلالتها بعد التاليف
وان عدل عن هذا الوجه الذي يتضمن الدلالة على الحقيقة فانما يكون بنقل صحيح كقولهم
كقولهم في طه انه نداء من طاهر وهادي وامثال ذلك والنقل الصحيح متعذر فيجيء
التشابه من هذا الوجه واما الوحي والملكة والروح والجن فاشتباهها من خفاء دلالتها
الحقيقية لانها غير متعارفة فجاء التشابه فيها من اجل ذلك وقد الحق بعض الناس بها
كل ما في معناها من احوال القيامة والجنة والنار والدجال والفتن والشروط وما هو
بخلاف العوايد المالوفة وهو غير بعيد الا ان الجمهور لا يوافقونهم عليه وسيما المتكلمون
فقد عينوا محاملها على ما تراه في كتبهم ولم يبق من المتشابه الا الصفات التي وصف
الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه مما يوهم ظاهره نقصًا او تعجيزا وقد اختلف الناس
في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا مذهبهم وتنازعوا وتطرقت البدع الى
العقايد فلنشر الى بيان مذاهبهم وايثار الصحيح منها على الفاسد فنقول وما توفيق
الا بالله اعلم ان الله سبحانه وصف نفسه في كتابه بانه عالم قادر مريد حي سميع بصير
متكلم جليل كريم جواد منعم عزيز عظيم وكذلك اثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه
والقدم والساق الى غير ذلك من الصفات فمنها ما يقتضي صحة الالوهية مثل العلم
والقدرة والارادة ثم الحياة التي هي شرط جميعها ومنها ما هي صفة كمال كالسمع
والبصر والكلام ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والمجيء وكالوجه واليدين
والعينين التي هي صفات المحدثات ثم اخبر انا نرى ربنا يوم القيمة كالقمر ليلة البدر
لا نضام في رؤيته فاما السلف الصحابة والتابعين فاثبتوا له صفات الالوهية
والكمال وفوضوا اليه ما يوهم النقص ساكتين عن مدلوله ثم اختلف الناس
من بعدهم وجاء المعتزلة فاثبتوا هذه الصفات احكاما ذهنية مجردة ولم يثبتوا

صفةٌ تقوم بذاته وسموا ذلك توحيدا وجعلوا الانسان خالقاً لافعاله ولاتتعلق بها
قدرة الله سيما الشرور والمعاصي منها ويمتنع على الحكيم فعلها وجعلوا رعاية الاصلح
للعباد واجبةً عليه وسموا ذلك عدلا بعد ان كانوا اولا يقولون بنفي القدر
وان الامر كله مستانف بعلم حادث وقدرة وارادة كذلك كما في رد في الصحيح
وان عبد الله بن عمر تبرأ من معبد الجهني واصحابه القايلين بذلك وانتهى نفي
القدر الى واصل بن عطا الغزال منهم تلميذ الحسن البصري لعهد عبد الملك
ابن مروان ثم اخراً الى معمر السلمي ورجعوا عن القول به وكان منهم ابو الهذيل العلاف
وهو شيخ المعتزلة اخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل وكان من نفاة القدر
واتبع راي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور مذاهبهم يومئذ ثم جاء ابراهيم
النظام وقال بالقدر واتبعوه وطالع كتب الفلاسفة وشدد في نفي الصفات
وقرر قواعد الاعتزال ثم جاء الجاحظ والكعبي والجبائية وكان طريقهم تسمى علم الكلام
اما لما فيها من الحجاج والجدال وهو الذي يسمى كلاما واما لان اصل طريقهم نفي صفة
الكلام ولهذا كان الشافعي يقول في حقهم ان يضربوا بالجريد ويطاف بهم وقرر هولاء
واثبتوا منها ورد والى ان ظهر الشيخ ابو الحسن الاشعري وناظر بعض مشيختهم في مسائل
الصلاح والاصلح فرفض طريقتهم وكان على راي عبد الله بن سعيد بن كلاب وابي
العباس القلانسي والحرث بن اسد المحاسبي فايد مقالاتهم بالحجج الكلامية واثبت
الصفات القايمة بذات الله تعالى من العلم والقدرة والارادة والحياة التي بها
يتم دليل دليل التمانع وتصح المعجزات للانبيا وكان من مذهبهم اثبات الكلام
والسمع والبصر لانها وان اوهم ظاهرها النقص بالصوت والحرف الجسمانيين
فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحرف والصوت وهو ما يدور
في الخلد والكلام حقيقة فيه دون الاول فاثبتوه لله تعالى وانتفى ايهام النقص
واثبتوا هذه الصفة قديمة عامة التعلق شان الصفات الاخرى وصار القرآن
اسما مشتركا بين القديم القايم بالذات وهو الكلام النفسي والمحدث الذي
هو الحروف المولفة المؤداة بالاصوات فاذا قيل قديم فالمراد الاول
واذا قيل مقرو ومسموع فلدلالة القراءة والكتابة عليه وتورع الامام احمد من
اطلاق لفظ الحدوث عليه لانه لم يسمع من السلف قبله لا انه يقول ان المصاحف
المكتوبة قديمة ولا ان القراءة الجارية على الالسنة قديمة وهو يشاهدها محدثة

وانما منعه من ذلك الورع الذي كان عليه واما غيره فالكار للضروريات
وحاشاه منه واما السمع والبصر وان كان يوهم ادراك الجارحة فهو يدل ايضا
لغة على ادراك المسموع والمبصر وينتفي ايهام النقص حينئذ لانه حقيقة لغوية
فيهما واما لفظ الاستواء والمجي والنزول والوجه واليدين والعينين وامثال
ذلك فعدلوا عن حقايقها اللغوية لما فيها من ايهام النقص بالتشبيه الى مجازاتها
على طريقة العرب حيث يتعذر حقايق الالفاظ فيرجعون الى المجاز كما في قوله تعالى
يريد ان ينقض وامثاله طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة وحملهم على هذا
التاويل وان كان مخالفا لمذهب السلف في التفويض ان جماعة من اتباع السلف
وهم المحدثون والمتاخرون من الحنابلة ارتكبوا في محمل هذه الصفات فحملوها على صفات
ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية فيقولون في استوى على العرش نثبت له استواء بحيث مدلول
اللفظ فرارا من تعطيله ولا نقول بكيفيته فرارا من القول بالتشبيه الذي تنفيه ايات
السلوب من قوله ليس كمثله شي سبحان الله عما يصفون تعالى الله عما يقول الظالمون
لم يلد ولم يولد ولا يعلمون مع ذلك انهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم باثبات
استواء والاستواء عند اهل اللغة انما موضوعه الاستقرار والتمكن وهو جسماني
واما التعطيل الذي يشنعون بالزامه وهو تعطيل اللفظ فلا محذور فيه وانما المحذور
في تعطيل الالهة وكذلك يشنعون بالزام التكليف بما لا يطاق وهو تمويه لانه
لم يقع في التكاليف ثم يدعون ان هذا هو مذهب السلف وحاشا لله من ذلك
وانما مذهب السلف ما قررناه اولا من تفويض المراد بها الى الله والسكوت عن فهمها
وقد يحتجون لاثبات الاستواء لله بقول مالك الاستواء معلوم والكيفية مجهول ولم يرد
مالك ان الاستواء معلوم الثبوت لله تعالى وحاشاه من ذلك لانه يعلم مدلول الاستواء
وانما اراد ان الاستواء معلوم من اللغة وهو الجسماني وكيفيته اي حقيقته لان
حقايق الصفات كلها كيفيات وهي مجهولة الثبوت لله وكذلك يحتجون على اثبات
المكان بحديث السوداء وانها لما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم اين الله قالت
في السماء فقال اعتقها فانها مومنة والنبي صلى الله عليه وسلم يثبت لها الايمان
باثباتها المكان لله بل لانها آمنت بما جاء به من ظاهر ان الله في السماء فدخلت
في الراسخين الذين يومنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه والقطع بنفي المكان حاصل
من دليل العقل النافي للافتقار ومن ادلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل ليس كمثله شي

وانما منعه

والتشابه ومن قوله وهو الله في السماوات وفي الارض اذ الموجود لا يكون في مكانين
مليت في هنا للمكان قطعا والمراد غيره ثم طردوا ذلك المجمل الذي ابتدعوه في ظواهر
الوجه والعينين واليدين والمجيء والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها
مدلولات اعم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني منها وهذا شيء لا يعرف في اللغة
وقد درج على ذلك الاول والآخر منهم ونافرهم اهل السنة من المتكلمين الاشعرية
والحنفية ورفضوا عقايدهم في ذلك ووقع بين متكلمي الحنفية بنجارا وبين الامام
محمد بن اسمعيل البخاري ما هو معروف واما المجسمة ففصلوا مثل ذلك في اثبات الجسمية
لله وانها لا كالاجسام ولفظ الجسم لم يثبت في منقول الشرعيات وانما جراهم
عليه اثبات هذه الظواهر فلم يقتصروا عليها بل توغلوا واثبتوا الجسمية
يزعمون فيها مثل ذلك وينزهونه بقول متناقض سفساف وهو قولهم جسم لا كالاجسام
والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التفسير من انه القايم بالذات
او المركب من الجواهر وغير ذلك فاصطلاحات للمتكلمين يريدون بها غير المدلول
اللغوي فلهذا كان المجسمة اوغل في البدعة بل في الكفر حيث اثبتوا لله وصفا
موهما يوهم النقص لم يرد في كلامه ولا كلام نبيه فقد تبين لك الفرق بين مذاهب
السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسمة بما اطلعناك
عليه وفي المحدثين غلاة يسمون المشبهة لتصريحهم بالتشبيه حتى انه يحكى عن بعضهم
انه قال اعفوني من اللحية والفرج وسلوا عما لكم من سواهما وان لم يتاول ذلك
لهم بانهم يريدون حصرها ورد من هذه الظواهر الموهمة وحملها على ذلك المحمل
الذي لايمتهم والا فهو كفر صريح والعياذ بالله تعالى وكتب اهل السنة مشحونة بالحجاج
على هذه البدع وبسط الرد عليهم بالادلة الصحيحة وانما اومأنا الى ذلك ايماء
يتميز به فصول المقالات وجملها والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان
هدانا الله واما الظواهر الخفية الدلالة كالوحي والملئكة والروح والجن والبرزخ
واحوال القيامة والدجال والفتن والشروط وساير ما هو متعذر على الفهم او
مخالف للعاديات فان حملناه على ما يذهب اليه الاشعرية في تفصيله وهم اهل السنة
فلا تشابه وان قلنا فيه بالتشابه فلنوضح القول في كشف الحجاب عنه فنقول اعلم
ان العالم البشري اشرف العوالم من الموجودات وارفعها وهو وان اتحدت
حقيقة الانسانية فيه فله اطوار يخالف كل واحد منها الآخر باحوال تختص به حتى

كان الحقائق

كان الحقائق فيها مختلفة فالطور الاول عالمه الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاشي وساير
تصرفاته التي اعطاه اياها وجوده الحاضر الطور الثاني عالم النوم وهو تصور الخيالي
بانفاد تصوراته جايلة في باطنه فيدرك منها بحواسه الظاهرة مجردة عن الازمنة
والامكنة وساير الاحوال الجسمانية ويشاهدها في مكان ليس هو فيه ويحدث له الصالح
منها البشرى بما يترقب من مسراته الدنيوية والاخروية كما وعده الصادق صلوات
الله عليه وهذان الطوران عامان في جميع اشخاص البشر وهما مختلفان في المدارك
كما تراه الطور الثالث طور النبوة وهو خاص باشراف صنف البشر وهما مختلفان
في المدارك كما تراه الى ما خصهم الله به من معرفته وتوحيده وتنزل ملايكته عليهم
بوحيه وتكليفهم باصلاح البشر في احوال كلها مغايرة للاحوال البشرية الظاهرة الطور
الرابع طور الموت الذي يفارق اشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة الى وجود قبل
القيامة يسمى البرزخ يتنعمون فيه ويعذبون على حسب اعمالهم ثم يفضون الى يوم
القيمة الكبرى وهي دار الجزاء الاكبر نعيما وعذابا في الجنة او في النار والطوران الاولان
شاهدهما وجداني والطور الثالث النبوي شاهده المعجزة والاحوال المختصة
بالانبياء والطور الرابع شاهده ما نزل على الانبياء من وحي الله في المعاد واحوال
البرزخ والقيامة مع ان العقل يقضي به كما نبهنا الله عليه في كثير من آيات البعثة
ومن اوضح الادلة على صحتها ان اشخاص الانسان لو لم يكن له وجود آخر بعد الموت
غير هذا المشاهد يتلقى فيه احوالا يليق به لكان ايجاده الاول عبثا اذ الموت اذا كان
عدما كان مآل الشخص الى العدم فلا يكون لوجوده الاول حكمة والعبث على الحكيم
محال واذا تقررت هذه الاطوار الاربعة فلناخذ في بيان مدارك الانسان
فيها كيف تختلف اختلافا بينا يكشف لك غور المتشابه فاما مداركه في الطور الاول
فواضحة جلية قال تعالى والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم [الابصار]
السمع والافئدة فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة
الانسانية ويوفي حق العبادة المفضية به الى النجاة واما مداركه في الطور الثاني
وهو طور النوم فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها لكن ليست في الجوارح كما هي
في اليقظة لكن الرائي يتيقن كل شيء ادركه في نومه لا يشك فيه ولا يرتاب
مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها والناس في حقيقة هذه الحالة فريقان
الحكماء يزعمون ان الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر الى الحس المشترك

الذي هو الفصل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن فتصور محسوسا بالظاهر في الحواس كلها ويشكل عليهم هذا بان المرائي الصادقة التي هي من الله او من الملك ارسخ واثبت في الادراك من المرائي الخيالية الشيطانية مع ان الخيال فيهما على ما قرروه واحد الفريق الثاني المتكلمون اجملوا فيها القول وقالوا هو ادراك يخلقه الله في الحاسة فيقع كما يقع في اليقظة وهذا اليق وان كنا لا نتصور كيفيته وهذا الادراك النومي اوضح شاهد على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الاطوار واما الطور الثالث وهو طور الانبياء فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية عندنا وجدانية عندهم باوضح من اليقين فيرى النبي الله والملائكة ويسمع كلام الله او من الملائكة ويرى الجنة والنار والعرش والكرسي ويخرق السموات السبع في اسرائه ويركب البراق فيها ويلقى النبيين هنالك ويصلي بهم ويدرك انواع المدارك الحسية كما يدرك في طوره الجسماني والنومي بعلم ضروري يخلقه الله له لا بالادراك العادي للبشر في الخوارج ولا تلتفت في ذلك الى ما يقوله ابن سينا من تنزيله امر النبوة على امر النوم في دفع الخيال صوره الى الحس المشترك فان الكلام عليهم هنا اشد من الكلام في النوم لان هذا التنزل طبيعة واحدة كما قررناه فيكون على هذا حقيقة الوحي والرؤيا من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها وليست كذلك على ما علمته من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ستة اشهر وانها كانت بدء الوحي ومقدمته ويشعر ذلك بانها دونه في الحقيقة وكذلك حال الوحي في نفسه فقد كان يصعب عليه ويقاسي منه شدة كما في الصحيح حتى كان القران يتنزل آيات مقطعة وبعد ذلك نزلت عليه سورة براءة في غزوة تبوك جملة واحدة وهو يسير على ناقته فلو كان ذلك من تنزل الفكر الى الخيال فقط ومن الخيال الى الحس المشترك لم يكن بين هذه الحالات فرق واما الطور الرابع وهو طور الاموات في برزخهم الذي اوله القبر وهم مجردون عن البدن او في بعثهم عندما يرجعون الى الاجسام فمداركهم الحسية موجودة لهم فيرى الميت في قبره الملكين يسايلانه ويرى مقعده من الجنة او النار بعيني رأسه ويرى شهود الجنازة ويسمع كلامهم وخفق نعالهم في الانصراف عنه ويسمع ما يذكرونه من التوحيد او من تقرير الشهادتين وغير ذلك وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر وفيه قتلى المشركين من قريش وناداهم باسمائهم فقال عمر يا رسول الله اتكلم هؤلاء الجيف فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ما انتم باسمع منهم لما اقول ثم في البعثة ويوم القيمة يعاينون باسماعهم وابصارهم كما كانوا يعاينون في الحياة من نعيم الجنة على مراتبه وعذاب النار على مراتبه ويرون الملائكة ويرون ربهم كما ورد في الصحيح انكم ترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته وهذه المدارك لم تكن لهم في الحيوة الدنيا وهي حسية مثلها وتقع في الجوارح بالعلم الضروري الذي يخلقه الله كما قلناه وسر هذا ان تعلم ان النفس الانسانية هي تنشأ بالبدن ومداركه فاذا فارقت البدن بنوم او موت او صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية الى المدارك الملكية فقد استصحبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح فيدرك بها في ذلك الطور اي ادراك شاءت منها ارفع من ادراكها في الجسد قاله الغزالي وزاد على ذلك ان للنفس الانسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة فيها العينان والاذنان وساير الجوارح المدركة امثالا لما كان في البدن وصورا وانا اقول انما يشير بذلك الى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادة على الادراك فاذا تفطنت لهذا كله علمت ان هذه المدارك موجودة في الاطوار الاربعة لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا وانما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الاحوال ويشير المتكلمون الى هذا اشارة مجملة بان الله تعالى يخلق فيها علما ضروريا بذلك المدرك اي مدرك كان ونعني به هذا القدر الذي اوضحناه وهذه نبذة اومانا بها الى ما يوضح القول في المتشابه ولو اوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه فلنضرع الى الله في الهداية والفهم عن انبيائه وكتابه بما يحصل به الحق في توحيدنا والظفر بنجاتنا والله يهدي من يشاء

علم التصوف

هذا العلم من علوم الشرعية الحادثة في الملة واصله ان طريقة هولاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة قال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس انه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا او من الصفة او من الصف فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في

لانهم لم يختصوا بلبسه قلت والاظهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف

في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هولاء بمذهب الزهد والانفراد
عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بمواجد مدركة لهم وذلك ان الانسان
بما هو انسان انما يتميز عن ساير الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم و
المعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك للاحوال القايمة به
من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضى والغضب والصبر والشكر وامثال ذلك
فالمعنى العاقل والمتصرف في البدن ينشا من ادراكات وارادات واحوال وهي
التي تميز بها الانسان كما قلناه وبعضها ينشا عن بعض كما ينشا العلم عن الادلة
والفرح او الحزن عن ادراك المولم والمتلذذ به والنشاط عن الجمام والكسل عن الاعياء
وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد ان ينشا له عن كل مجاهدة حال هي نتيجة لتلك
المجاهدة وتلك الحال اما ان تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد واما ان لا تكون
عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من فرح او سرور او نشاط او كسل او غير
ذلك والمقامات لا يزال المريد يترقى فيها من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد
والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد
ان لا اله الا الله دخل الجنة فالمريد لابد له من الترقي في هذه الاطوار واصلها كلها
الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشا عنها الاحوال والصفات
نتايج وثمرات ثم تنشا عنها اخرى واخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا
وقع تقصير في النتيجة او خلل فيعلم انه انما اتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك
في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه في
ساير اعماله وينظر في خفاياها لان حصول النتايج عن الاعمال ضروري وقصورها
من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على اسبابه ولا يشاركهم
في ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كانها شاملة وغاية اهل
العبادات اذا لم ينتهوا الى هذا النوع انهم ياتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الاجزاء
والامتثال وهولاء يبحثون عن نتايجها بالاذواق والمواجد ليطلعوا على انه
خالصة من التقصير اولا فظهر ان اصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الافعال
والتروك والكلام في هذه الاذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر
للمريد مقاما ويترقى منها الى غيرها ثم لهم مع ذلك اداب مخصوصة لهم واصطلاحات
في الفاظ تدور في التعليم بينهم اذ الاوضاع اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة فاذا عرض

من

من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا
اختص هولاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد لغيرهم من اهل الشريعة
الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء واهل الفتيا
وهي الاحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص
بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الاذواق
والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي فيها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات
التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت والف الفقهاء في الفقه واصوله
والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من اهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب
في احكام الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعله المحاسبي
في كتاب الرعاية له ومنهم من كتب في آداب الطريقة واذواق اهلها ومواجدهم
في الاحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف
المعارف وامثالهم وجمع الغزالي بين الامرين في كتاب الاحياء فدون فيه احكام الورع
والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم في شرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم
التصوف في الملة علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت احكامها
انما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في ساير العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير
والحديث والفقه والاصول وغير ذلك ثم ان هذه المجاهدة والذكر يتبعها غالبا كشف
حجاب الحس والاطلاع على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها والروح
من تلك العوالم وسبب هذا الكشف ان الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن
ضعفت احوال الحس وقويت احوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه واعان على ذلك
الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد الى ان يصير شهودا بعد ان كان
علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس التي لها من ذاتها وهو عين الادراك
فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته
في تحقق حقيقتها من الافق الاعلى افق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة
فيدركون من حقايق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات
قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم
فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا التصرف ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يومروا
بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منها اذا هاجمهم وكانت

وقد كانت الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات
اوفر الحظوظ لكنهم لم تقع لهم بها عناية وفي فضايل ابي بكر رضي الله عنه كثير منها وتبعهم (وعمر وعلي)
في ذلك اهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن طريقتهم من بعدهم
ثم ان قوماً من المتاخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والكلام في المدارك
التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عندهم في ذلك باختلاف تعليمهم في اماتة
القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها
بتمام نشوها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا ان الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ
وانهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقايقه كلها من العرش الى الطش هكذا قال الغزالي
في كتاب الاحياء بعد ان ذكر صورة الرياضة ثم هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم
الا اذا كان ناشياً عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الجلوة والجوع وان
لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا الا الكشف
الناشي عن الاستقامة ومثاله ان المرآة الصقيلة اذا كانت محدبة او مقعرة وحوذي
جهة المرئي فانه يتشكل فيها معوجاً على غير صورته واذا كانت مسطحة تشكل فيها المرئي
صحيحاً فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الاحوال ولما عني
المتاخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقايق الموجودات العلوية والسفلية
وحقايق الملك والروح والعرش والكرسي وامثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم
في طريقهم عن فهم اذواقهم ومواجدهم في ذلك فاهل الفتيا منكر عليهم ومسلم لهم وليس
البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً اذ هي من قبيل الوجدانيات

فصل في تحقيق يقع كثيراً في كلام اهل العقايد من علماء الحديث والفقه ان الله تعالى
مباين لمخلوقاته ويقع للمتكلمين انه لا مباين ولا متصل ويقع للفلاسفة انه
لا داخل العالم ولا خارجه ويقع من المتاخرين من المتصوفة انه متحد بالمخلوقات
اما بمعنى الحلول فيها او بمعنى انه هو نفسها وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلا
فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها حتى تتضح معانيها
فنقول ان المباينة يقال لمعنيين احدهما المباينة في الحيز والجهة ويقابله الاتصال
وتشعر هذه المقالة على هذا التقدير بالمكان اما صريحاً وهو تجسيم او لزوماً
وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح
بهذه المباينة فيحتمل غير هذا المعنى ومن اجل ذلك انكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا

لا يقال في الباري انه مباين لمخلوقاته ولا متصل بها لان ذلك انما يكون في
المتحيزات وما يقال من ان المحل لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده فهو مشروط
بصحة الاتصاف اولاً واما مع امتناعه فلا بل يجوز الخلو عن المعنى وضده كما يقال
في الجماد لا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا مدرك ولا موف وصحة الاتصاف
بهذه المثابة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها والباري سبحانه
منزه عن ذلك ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لامام الحرمين وقال ولا يقال في الباري
مباين للعالم ولا متصل به ولا داخل فيه ولا خارج عنه وهو معنى ما يقوله الفلاسفة
انه لا داخل العالم ولا خارجه بناء على وجود الجواهر غير المتحيزة وانكرها المتكلمون لما يلزم
من مساواتها للباري في اخص الصفات وهو مبسوط في علم الكلام واما المعنى الآخر
للمباينة فهو المغايرة والمخالفة فيقال الباري مباين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده
وصفاته ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط وهذه المباينة هي مذهب اهل الحق كلهم
من جمهور السلف وعلماء اهل الشرايع والمتكلمين والمتصوفة الاقدمين كاهل الرسالة
ومن نحا منحاهم وذهب جماعة من المتصوفة المتاخرين الذين صيروا المدارك
الوجدانية علمية نظرية الى ان الباري تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته
وربما زعموا انه مذهب الفلاسفة قبل ارسطو مثل افلاطون وسقراط وهو
الذي يعنيه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام ويحاولون الرد عليه لانه ذاتان
تنتفي احديهما او تندرج اندراج الجزء فان تلك المغايرة صريحة ولا يقولون بذلك
وهذا الاتحاد هو الحلول الذي يدعيه النصارى في المسيح وهو اغرب لانه حلول قديم في
محدث او اتحاد به وهو ايضاً غير ما تقوله الامامية من الشيعة في الائمة وتقرير
هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين الاول ان ذات القديم كامنة في المحدثات محسوسها
ومعقولها متحدة بها في التصورين وهي كلها مظاهر له وهو القايم عليها اي المقوم
لوجودها بمعنى انها لولاه كانت عدماً وهي راي اهل الحلول الثانية طريق اهل الوحدة
المطلقة وكانهم استشعروا من تقرير اهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد فنفوها
بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات وغالطوا في غيرية المظاهر
المدركة بالحس والعقل بان ذلك من المدارك البشرية وهي اوهام ولا يريدون الوهم
الذي هو قسيم العلم والظن والشك وانما يريدون انها كلها عدم في الحقيقة ووجود
في المدرك البشري فقط ولا وجود بالحقيقة الا للقديم لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره

بعد بحسب الامكان والتعويل فى نقل ذلك على النظر والاستدلال كما فى المدارك البشرية
غير مفيد لان ذلك انما ينقل من المدارك الملكية وانما هى حاصلة للانبيا بالفطرة
ومن بعدهم للاولياء بهدايتهم وقصد من يقصد المعول عليها بالطريقة العلمية ضلال
وربما قصد بعض المصنفين ذلك فى كشف الوجود وترتيب حقايقه على طريق
اهل المظاهر فاتى بالاغمض فالاغمض بالنسبة الى اهل النظر والاصطلاحات
والعلوم كما فعل الفرغانى شارح قصيدة ابن الفارض فى الديباجة التى كتب فى صدر
ذلك الشرح فانه ذكر فى صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه ان الوجود كله صادر
عن صفة الوحدانية التى هى مظهر الاحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة
التى هى عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلى واول مراتب التجليات
عندهم تجلى الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الايجاد والظهور لقوله فى الحديث
الذى يتناقلونه كنت كنزاً مخفيا فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق ليعرفونى
وهذا الكمال فى الايجاد المتنزل فى الوجود وتفصيل الحقايق وهو عندهم عالم المعانى
والحضرة العمائية والحقيقة المحمدية وفيها حقايق الصفات واللوح والقلم
وحقايق الانبياء والرسل اجمعين والكمل من اهل الامة المحمدية وهذا كله تفصيل
الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقايق حقايق اخرى فى الحضرة الهبائية وهى مرتبة
المثال ثم عنها العرش ثم الكرسى ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا فى عالم
الرتق فاذا تجلت فهى فى عالم الفتق انتهى ويسمى هذا المذهب مذهب اهل التجلى
والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر اهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه
وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما انكر بظاهر الشرع
هذا الترتيب فانه لا يعرف فى شىء من نواحيه وكذلك ذهب آخرون منهم الى القول بالوحدة
المطلقة وهو رأى اغرب من الاول فى تعقله وتفاريعه يزعمون فيه ان الوجود كله قوى
فى تفاصيله بها كانت حقايق الموجودات وصورها وموادها والعناصر انما كانت
بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها فى نفسها قوة بها كان وجودها ثم ان المركبات
فيها تلك القوى متضمنة فى القوة التى كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها
قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة
المعدنية وزيادة قوتها فى نفسها وكذا القوة الانسانية مع الحيوانية ثم الفلك
يتضمن القوة الانسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل

من غير تفصيل هى القوة الالهية فهى التى انبثت فى جميع الموجودات كلية وجزئية
وجمعتها واحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفآء ولا من
جهة الصورة ولا من جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهى فى
الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع الحيوانية
الا ترى انها مندرجة فيها وكاينة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع
فى كل موجود كما ذكرناه وتارةً بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم فى هذا كله
يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وانما اوجبها عندهم الوهم والخيال
والذى يظهر من كلام ابن دهاق فى تقرير هذا المذهب ان حقيقة ما يقولونه فى الوحدة
شبيه بما يقوله الحكماء فى الالوان من ان وجودها مشروط بالضوء فاذا عدم الضوء
لم تكن الالوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروط بوجود
بوجود المدرك الحسى بل والموجودات المعقولة والمتوهمة ايضا مشروطة بوجود
المدرك العقلى فاذا الوجود المفصل كله مشروط بالمدرك البشرى فلو فرضنا عدم
المدرك البشرى جملة لم يكن هناك تفصيل فى الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد
والصلابة واللين بل والارض والمآء والنار والسمآء والكواكب انما وجدت
لوجود الحواس المدركة لها لما جعل فى المدرك من التفصيل الذى ليس فى الوجود وانما
هو فى المدارك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل انما هو ادراك
واحد وهو انا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النايم فانه اذا نام وفقد الحس الظاهر
فقد كل محسوس وهو فى تلك الحالة الا ما يفصله له الخيال قالوا فكذلك اليقظان
انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشرى ولو قد فقد مدركه
فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الوهم لا الوهم الذى هو من جملة المدارك البشرية
هذا ملخص رايهم على ما يفهم من كلام ابن دهاق وهو فى غاية السقوط لانا نقطع بوجود
البلد الذى نحن مسافرون عنه واليه يقيناً مع غيبته عن اعيننا وبوجود السماء
المظلة والكواكب وساير الاشياء الغايبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر
احد نفسه فى اليقين مع ان المحققين من المتصوفة المتاخرين يقولون ان المراد عند
الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى
عنه الى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف
المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهى عقبة صعبة لانه يخشى على المريد من وقوفه

عندها مختصر صفقة فقد تبينت مراتب اهل هذه الطريقة

فصل

ثم ان هؤلا المتاخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك وذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما اشرنا اليه وملؤا الصحف منه مثل الهروى فى كتاب المقامات وابن الفارض والنجم الاسرائيلى فى قصايدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتاخرين من الرافضة الدائنين ايضا بالحلول والاهية الائمة مذهبا لم يعرف لاوليهم فاشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقايدهم وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن ان يساويه احد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من اهل العرفان وقد اشار الى ذلك ابن سينا فى كتاب الاشارات فى فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق ان يكون شرعة لكل وارد او يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا الكلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعى انما هو من انواع الخطابة وهو بعينه ما يقوله الرافضة من توارث الائمة عندهم فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأى من الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قال الشيعة فى النقباء حتى انهم لما اسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه اصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه الى على رضى الله عنه وهو من هذا المعنى ايضا والا فعلى رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة فى لبوس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضى الله عنهما ازهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم واكثرهم عبادة ولم يختص احد منهم فى الدين بشئ يؤثر عنه على الخصوص بل كان الصحابة كلهم اسوة فى الدين والورع والزهد والمجاهدة تشهد بذلك سيرهم واخبارهم نعم ان الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص على بالفضايل دون من سواه من الصحابة ذهابا مع عقايد التشيع المعروفة لهم والذى يظهر ان المتصوفة بالعراق لما ظهرت الاسماعيلية من الشيعة وظهر من كلامهم فى الامامة وما يرجع من ذلك معروف فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن وجعلوا الامام الخلق فى الانقياد الى الشرع بذلك ان لا يقع اختلاف كما تقرر فى الشرع ثم جعلوا هذا القطب ليعلم المعرفة بالله لانه رأس العارفين وافردوه بذلك تشبيها بالامام فى الظاهر من ان يكون على وراثة وانما سموه قطبا لمدار المعرفة عليه وجعلوا الابدال كالنقباء مبالغة فى التشبيه فتأمل ذلك من كلام هؤلاء المتصوفة فى

امر الفاطمى وما شحنوا به كتبهم من ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفى ولا اثبات وانما هو ماخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم فى كتبهم والله يهدى الى الحق

تذييل

وقد رأيت ان اجلب هنا فصلا من كلام شيخنا العارف كبير الاولياء بالاندلس ابى مهدى عيسى بن الزيات كان يقع له اكثر الاوقات على ابيات الهروى التى وقعت له فى كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة او تكاد تصرح بها وهى قوله

ما وحد الواحد من واحد * اذ كل من وحده جاحد *
توحيد من ينطق عن نعته * تثنية ابطلها الواحد *
توحيده اياه توحيده * ونعت من ينعته لاحد *

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه استشكل الناس اطلاق لفظ الجحود على من وحد الواحد ولفظ الالحاد على من نعته ووصفه واستبشعوا هذه الابيات وحملوا على قائلها واستخفوه ونحن نقول على رأى هذه الطايفة ان معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القدم وان الوجود كله حقيقة واحدة وانية واحدة وقد قال ابو سعيد الخراز من كبار القوم الحق عين ما ظهر وعين ما بطن ويرون ان وقوع التعدد فى تلك الحقيقة ووجود الاثنينية وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الظلال والصدا وصور المرئى وان كل ما سوى عين القدم اذا استتبع فهو عدم وهذا معنى كان الله ولا شئ معه وهو الآن على ما كان عليه عندهم ومعنى قول لبيد الذى صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله صح الا كل شئ ما خلا الله باطل قالوا فمن وحد ونعت فقد قال بموحد محدث هو نفسه وتوحيد محدث هو فعله وموحد قديم هو معبوده وقد تقدم ان معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث وعين الحدوث الآن ثابتة بل متعددة والتوحيد مجحود والدعوى كاذبة كمن يقول لغيره وهو معه فى بيت ليس فى البيت غيرك فيقول الآخر بلسان حاله لا يصح هذا الا لو عدمت انت وقد قال بعض المحققين فى قولهم خلق الزمان بهذه الالفاظ تناقض اصولها لان خلق الزمان متقدم على الزمان وهو فعل لا بد من وقوعه فى الزمان وانما حمل على ذلك ضيق العبارة عن الحقايق وعجز اللغات عن تادية الحق فيها وبيانها فاذا تحقق ان الموحد هو الموحد وعدم ما سواه جملة صح التوحيد حقيقة وهذا معنى قولهم لا يعرف الله الا الله ولا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم والآثار وانما هو من باب حسنات الابرار سيئات المقربين لان ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية ومن ترقى الى مقام الجمع كان فى حقه نقصا مع علمه بمرتبته وانه ملتبس مستكرهه العبودية وبرفعه الشهود ويتطهر من دنس حدوثه عين الجمع واعرق الاصناف فى هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة

ومدار المعرفة تكل اعتبار على الانتهاء الى الوجد والمتصدر لهذا القول من الناطم على سبيل التعريض والتنبيه والتفطين لمقام اعلى ترتفع فيه الشفعية وتحصيل التوحيد المطلق عينا لا خطابا وعبارة فمن سلم استراح ومن نازعته حقيقته الليس بقوله كنت سمعه وبصره واذا عرفت المعنى لا مشاحة في الالفاظ والذي يعنيه هذا كله تحقق امر فوق هذا الطور لا نطق فيه ولا خبر عنه وهذا المقدار من الاشارة كاف والتعمق في مثل هذا حجاب وهو الذي اوقع في المقالات المعروفة انتهى كلام الشيخ ابي مهدي نقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي الفه في المحبة وسماه التعريف بالحب الشريف وقد سمعته من شيخنا ابي مهدي مرارا الا اني رايت رسوم الكتاب اوعى له لطول عهدي به والله الموفق

فصل

ثم ان كثيرا من الفقهاء واهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتاخرين في هذه المقالات وامثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق ان الكلام معهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع احدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصيل تلك الاذواق التي تصير مقاما ويترقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقائق المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب او شاهد وتركيب الاكوان في صدورها عن موجدها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والاكوان بانواع الكرامات ورابعها الفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من ائمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحاتهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتاول فاما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في اسبابها فامر لا مدفع فيه لاحد واذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة واما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فامر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ ابو اسحق الاسفرايني من الائمة الاشعرية على انكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من اهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة النفس وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة واكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور واما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات

فالكلام

واكثر كلامهم فيه من نوع المتشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان بمعزل عن اذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعارف واكثره من المحسوسات فينبغي ان لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فاكرم بها سعادة واما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها اهل الشرع فاعلم ان الانصاف في شان القوم انهم اهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وامثاله وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابي يزيد البسطامي وامثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تاويل كلامه واما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ ايضا ولهذا افتى الفقهاء واكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله اعلم وسلف المتصوفة من اهل الرسالة اعلام الملة الذين اشرنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله اوسع وخلقه اكبر وشريعته بالهداية املك فلم ينطقوا بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من اصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويامرون اصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي ان يكون حال المريد والله الموفق

علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها واما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف وربما كان في الملل والامم من قبل الا انه لم يصل الينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من اهل الاسلام والا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها ولقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القران وكذا ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل او ترى له

واول ما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم اذا الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل
فلق الصبح وكان صلى الله عليه وسلم اذا انفتل من صلوة الغداة يقول لاصحابه
هل رأى احد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما يقع من ذلك مما فيه ظهور
الدين واعزازه واما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو ان الروح القلبي وهو
البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في
ساير البدن وبه تكمل افعال القوى الحيوانية واحساسها فاذا ادركه الملال بكثرة التصرف
في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل
انخنس الروح من ساير اقطار البدن الى مركزه القلبي يستجم بذلك لمعاودة فعله
فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في اول الكتاب ثم ان
هذا الروح القلبي مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم
الامر بذاته اذ حقيقته وذاته انه عين الادراك وانما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية
ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد
عنه لرجع الى حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغله
فلا بد له من ادراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت عنه شواغل
الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة به
من عالمه واذا ادرك ما يدرك من عوالمه رجع به الى بدنه اذ هو ما دام في بدنه جسماني
لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية لتعلم انما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال
فانه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها له الى وقت الحاجة
اليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صورا اخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد
من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة بينهما وكذلك اذا ادركت النفس من عالمها ما تدركه القته
الى الخيال فيصوره بالصور المناسبة له ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النايم كانه محسوس
فيتنزل هذا المدرك من الروح العقلي الى الحس والخيال ايضا واسطة هذا حقيقة الرؤيا
ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصادقة واضغاث الاحلام الكاذبة فانها كلها
صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك
فهي رؤيا وان كانت ماخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال اودعها اياها
منذ اليقظة فهي اضغاث احلام واعلم ان للرؤيا الصادقة علامات تؤذن
بصدقها وتشهد بصحتها فيستشعر الرائي البشارة من الله بما القي اليه في نومه

منها سرعة انتباه الرائي عند ما يدرك الرؤيا كانه يعاجل الرجوع الى الحس باليقظة
ولو كان مستغرقا في نومه لثقل ما القي عليه من ذلك الادراك فيفر من تلك الحالة
الى حالة الحس التي تبقى النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه ومنها ثبوت ذلك
الادراك ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه فلا يتخللها سهو ولا نسيان
ولا يحتاج الى احضارها بالفكر والتذكر بل تبقى متصورة في ذهنه اذا انتبه ولا يغيب
عنه منها شيء لان الادراك النفساني ليس بزماني ولا يلحقه ترتيب بل يدركه دفعة
في زمن فرد واضغاث الاحلام زمانية لانها في القوى الدماغية يستخرجها الخيال
من الحافظة الى الحس المشترك كما قلناه وافعال البدن كلها زمانية فيلحقها الترتيب
في الادراك والمتقدم والمتاخر ويعرض النسيان العارض للقوى الدماغية
وليس كذلك مدارك النفس الناطقة اذ ليست بزمانية ولا ترتيب فيها وما ينطبع
فيها من الادراكات فينطبع دفعة واحدة في اقرب من لمح البصر وقد تبقى الرؤيا
بعد الانتباه حاضرة في الحفظ اياما من العمر لا تشذ بالغفلة عن الفكر بوجه اذا كان
الادراك الاول قويا واذا كان انما يتذكر الرؤيا بعد الانتباه من النوم باعمال الفكر
والوجهة اليها او تنسى الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا صادقة وانما هي
من اضغاث الاحلام وهذه العلامات من خواص الوحي قال الله تعالى لنبيه لا تحرك به
لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرانه فاذا قراناه فاتبع قرانه ثم ان علينا بيانه
والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في الصحيح قال صلى الله عليه وسلم الرؤيا
جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة فلخواصها ايضا نسبة الى خواص النبوة
بذلك القدر فلا تستبعد ذلك فهذا وجهه والله الخالق لما يشاء واما معنى التعبير
فاعلم ان الروح العقلي اذا ادرك مدركه والقاه الى الخيال فصوره فانما يصوره
في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاعظم فيصوره
الخيال بصورة البحر او يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية فاذا استيقظ
وهو لم يعلم من امره الا انه رأى البحر او الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد ان يتيقن
ان البحر صورة محسوسة وان المدرك وراءها ويهتدي بقراين اخرى تعين له
المدرك فيقول مثلا هو السلطان لان البحر خلق عظيم يناسب ان يشبه به
السلطان وكذا الحية يناسب ان تشبه بالعدو لعظيم ضررها وكذا الاواني
تشبه بالنساء لانهن اوعية وامثال ذلك ومن المرائي ما يكون صريحا

لاتفتقر الى تعبير لجلائها و وضوحها او قرب الشبه فيها بين المدرك و شبهه ولذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث واعلم ايضا ان الخيال اذا القي اليه الروح مدركه فانما يصوره في القوالب المعتادة للحس وما لم يكن الحس ادركه قط من القوالب فلا يصور فيه شيئا فلا يمكن من ولد اعمى ان يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيئا من هذه وانما يصور له الخيال امثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات وليتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يدل على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحية يدل على العدو وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وفي موضع آخر يقولون هو كاتم سر وامثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القراين التي تعين من هذه ما هو أليق بالرؤيا وتلك القراين منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيهم من اشهر العلماء به وكتبت عنه في ذلك قوانين وتناقلها الناس لهذا العهد والف الكرماني فيه من بعده ثم الف المتأخرون واكثروا والمتداول بين اهل المغرب لهذا العهد كتب ابن ابي طالب القيرواني من علماء اهل القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمي من انفع الكتب فيه واخصرها وكذلك كتاب المرقبة العليا لابن راشد من مشيختنا بتونس وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة التي بينهما ولكونها كانت من مدارك الوحي كما ثبت في الصحيح والله علام الغيوب

العلوم العقلية واصنافها

واما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر

فيها

فيها اهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على اربعة علوم الاول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطاء في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطاء من الصواب فيما يلتمسه الناظر في التصورات والتصديقات الذاتية والعرضية ليقف على تحقيق الحق في الكائنات نفيا وثبوتا بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية او النفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو العلم الثاني منها واما ان يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وهو العلم الثالث منها والعلم الرابع وهو النظر في المقادير ويشتمل على اربعة علوم وهي التي تسمى التعاليم اولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الاطلاق اما المنفصلة من حيث كونها معدودة او المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط او ذو بعدين وهو السطح او ذو ابعاد ثلثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها اما من حيث ذاتها او من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقي وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويوجد له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسبة الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر اوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها فهذه اصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المقدم وبعده التعاليم فالارتماطيقي اولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحسابات

حركات الكواكب وتعديلها ليوقف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع
النظر في النجوم علم الاحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدًا بعد واحد الى
آخرها واعلم ان اكثر من عني بها في الاجيال الذين عرفنا اخبارهم الامتان العظيمتان
في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت اسواق العلوم نافقة
لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورًا فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام
وعصره لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وامصارهم وكان للكلدانيين
ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر
والنجامة وما يتبعها من التاثيرات والطلسمات واخذ ذلك عنهم الامم
من فارس ويونان واختص به القبط وطما بحرها فيهم كما وقع في المتلو
من خبر هاروت وماروت وشان السحرة وما نقله اهل العلم من شان
البرابي بصعيد مصر ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه
وبطلت كان لم تكن الا بقايا يتناقلها منتحلوا هذه الصنائع الله اعلم بصحتها مع ان
سيوف الشرع قائمة على ظهورها ومانعة من اختبارها واما الفرس فكان شان هذه
العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة
واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل
الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم الا ان
المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس واصابوا من كتبهم وصحائف علومهم
مالا ياخذه الحصر كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
يستاذنه في شانها وتنفيلها للمسلمين فكتب اليه عمر رضي الله عنه ان اطرحها في الماء
فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله باهدى منه وان يكن ضلالا فقد كفانا الله
فطرحوها في الماء او في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن ان تصل الينا واما
الروم فكانت الدولة منهم ليونان اولا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب
وحملها مشاهير من رجالهم مثل اساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤن
منهم اصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرؤن في رواق
يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون
من لدن لقمان الحكيم في تلميذه الى سقراط الدن ثم الى تلميذه افلاطون
ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافرودسي وثامسطيوس

وغيرهم وكان ارسطو معلمًا للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم
وانتزع الملك من ايديهم وكان ارسخهم في هذه العلوم قدمًا وابعدهم فيها
صيتًا وشهرةً وكان يسمى المعلم الاول فطار له في العالم ذكر ولما انقرض امر
اليونانيين وصار الامر للقياصرة واخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم
كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في
خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله
الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتداء امرهم بالسذاجة
والغفلة عن الصنائع حتى اذا تبحبح السلطان والدولة واخذوا من الحضارة بالحظ
الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم
الحكمية بما سمعوا من الاساقفة والاقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسموا اليه افكار
الانسان فيها فبعث ابو جعفر المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة
فبعث اليه بكتاب اوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقراها المسلمون واطلعوا
على ما فيها وازدادوا حرصًا على الظفر بما بقي منها وجاء المامون بعد ذلك وكانت له في العلم
رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصًا واوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين
وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فاوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار
من اهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية انظارهم فيها وخالفوا كثيرًا من راي المعلم الاول
واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين واربوا على من
تقدمهم في هذه العلوم وكان من اكابرهم في الملة ابو نصر الفارابي وابو علي بن سينا بالمشرق
والقاضي ابو الوليد بن رشد والوزير بن الصائغ بالاندلس الى آخرين بلغوا الغاية في هذه ابو بكر
العلوم واختص هولاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم وما ينضاف اليها
من علم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على جابر بن حيان من اهل المشرق
وعلى مسلمة بن احمد المجريطي من اهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم واهلها داخلة
واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا اليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه
ولو شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت
العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منه الا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت
رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن اهل المشرق ان بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة
وخصوصًا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وانهم على ثبج من العلوم العقلية والنقلية

لتوفر عمرانها واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تواليف في المعقول متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشتهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية وتضلعا بها وقدما عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء وكذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبتها متكثرون والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

العلوم العددية وأولها الأرثماطيقي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الأعداد إذا توالت متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فردا مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة بأن يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها إلى آخرها أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها إلى آخرها فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فردا وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير فيكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث مثلث الضلع الذي قبله فيكون مربعا وتزيد على كل مربع مثلث الذي قبله فيكون مخمسا وهلم جرا وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض ففي عرضه الأعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها ثم المربعات ثم المخمسات إلى آخرها وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغا ما بلغ ويحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقريت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فإن لكل منها خواص تختص به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل

في براهين الحساب وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تواليف وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وغيره والله أعلم

ومن فروع علم العدد **صناعة الحساب** وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع وبالتضعيف أي تضاعف عددا بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون الضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع والعدد الذي يكون مصرحا به يسمى المنطق ومربعه كذلك ولا يحتاج فيه إلى تكلف عمل بالحساب والذي لا يكون مصرحا به يسمى الأصم ومربعه منطق مثل جذر ثلاثة الذي مربعه ثلاثة وأما أصم مثل جذر ثلاثة الذي مربعه جذر ثلاثة وهو الأصم ويحتاج إلى عمل من الحساب فإن تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة الحسابية حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات وألف فيها الناس كثيرا وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضحة وبراهينها منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال إن من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير له ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا ومن أحسن التواليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدي بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك وسادفي فيه المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب لابن منعم والكامل للأحدب ولخص

براهينها وغيرها عن اصطلاح الحروف فيها الى علل معنوية ظاهرة
هي الحروف وزبدتها وهي كلها مستغلقة وانما جاء الاستغلاق من طريق
البرهان شان علوم التعاليم لان مسائلها واعمالها واضحة كلها واذا قصد
شرحها فانما هو اعطاء العلل في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم
ما لا يوجد في اعمال المسائل فتامله والله يهدي بنوره من يشاء **ومن فروعه**
الجبر والمقابلة وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم
المفروض اذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على ان جعلوا
للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب اولها العدد لانه به يتعين
المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول اليه وثانيها الشيء لان كل مجهول
فهو من حيث ابهامه شيء وهو ايضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة
الثانية وثالثها المال وهو مربع مبهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في
المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فيخرج الى معادلة بين مختلفين او اكثر من
هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا
ويحطون المراتب الى اقل الاسوس ان امكن حتى يصير الى الثلثة التي عليها مدار الجبر
عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين
فالمال او الجذر يزول ابهامه بمعادلة العدد وتعين والمال ان عادل الجذور
فيتعين بعدتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين اخرجه العمل الهندسي من طريق
تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل ولا تمكن المعادلة بين
اثنين واثنين واكثر ما انتهت المعادلة عندهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد وجذر
ومال مفردة او مركبة تجيء ستة واول من كتب في هذا الفن ابو عبد الله الخوارزمي وبعده
ابو كامل شجاع بن اسلم وجاء الناس على اثره فيه وكتابه في مسائله الست من احسن
الكتب الموضوعة فيه وشرحه كثير من اهل الاندلس فاجادوا ومن احسن شروحاته
كتاب القرشي وقد بلغنا ان بعض ائمة التعاليم من اهل المشرق انهى المعادلات
الى اكثر من هذه الستة اجناس وبلغها الى فوق العشرين واستخرج لها كلها اعمالا
وثيقة ببراهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء **ومن فروعه** ايضا
المعاملات وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات
والزكاة وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يتصرف في ذلك

صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض
من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكثير العمل حتى ترسخ
الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة الحسابية من اهل الاندلس تواليف فيها
متعددة من اشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وابن ابي مسلم بن خلدون
من تلميذ مسلمة المجريطي وامثالهم **ومن فروعه** ايضا الفرائض وهي صناعة
حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات اذا تعددت وهلك
بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته او زادت الفروض عند
اجتماعها وتزاحمها على كله او كان في الفريضة اقرار وانكار من بعض الورثة دون
البعض فيحتاج في ذلك كله الى عمل يعين به سهام الفريضة الى كم تصح وسهام الورثة
من بطن مصححا حتى يكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة
سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسوره
وجذوره ومعلومه ومجهوله ويترتب على ترتيب ابواب الفرائض الفقهية
ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو احكام الوراثات
في الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها
وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهام باعتبار الحكم الفقهي وهي من اجل العلوم
وقد يورد اهلها احاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم
وانها اول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي ان ظواهر تلك الاحاديث
كلها انما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات فانه اقل من ان
تكون في كميتها ثلث العلم واما الفرائض العينية فكثيرة وقد الف الناس في
هذا الفن قديما وحديثا واوعبوا ومن احسن التواليف فيه على مذهب مالك رحمه الله
كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابو القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي
والصوردي وغيرهم لكن الفضل للحوفي وكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا
ابو عبد الله محمد بن سليمان السطي كبير شيخة فاس فاوضح واوعب وللامام الحرمين
فيها تواليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه
وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء

العلوم الهندسية هذا العلم هو الناظر في المقادير اما المتصلة كالخط والسطح
والجسم او المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل ان كل

كل مثلث فزواياه مثل قايمتين ومثل ان كل خطين متوازيين لا يلتقيان
في جهة ولو خرجا الى غير النهاية ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان
المتقابلتان منهما متساويتان ومثل ان الاربعة المقادير المتناسبة
ضرب الاول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وامثال ذلك والكتاب
المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب اوقليدس ويسمى كتاب الاصول
والاركان وهو ابسط ما وضع فيها للمتعلمين واول ما ترجم من كتب اليونانيين
في الملة ايام ابي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين فمنها لحنين بن اسحق
ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمسة عشرة مقالة اربعة في السطوح
وواحدة في الاقدار المتناسبة واخرى في نسب السطوح بعضها الى بعض وثلاث
في العدد والعاشرة في المنطقات والقوية على المنطقات ومعناه
الجذور وخمس في المجسمات وقد اختصره الناس مختصرات كثيرة
كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء افرد له جزءا منها اختصه به وكذلك
ابن الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو
مبدأ العلوم الهندسية باطلاق واعلم ان الهندسة تفيد صاحبها اضاءة
في عقله واستقامة في فكره لان براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب
لا يكاد الغلط يدخل اقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطاء
وينشا لصاحبها عقل على ذلك المهيع ولقد زعموا انه كان مكتوبا على باب
افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون
ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الاقذار
وينقيه من الاوضار والادران وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه
ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات
اما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاوذوسيوس وميلاوش
في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاوذوسيوس مقدم في التعليم على كتاب
ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منها لمريد الخوض في علم الهيئة
لان براهينها متوقفة عليها فان الكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية
وما يعرض فيها من القطوع والدواير باسباب الحركات كما سنذكره فقد يتوقف
على معرفة الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها واما المخروطات فهو من فروع الهندسة

ايضا وهو علم ينظر فيما يقع في الاجسام المخروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن
على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الاول وفايدتها
تظهر في الصنايع العملية التي موادها الاجسام مثل النجارة والبنا وكيف تصنع التماثيل
الغريبة والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جر الاثقال ونقل الهياكل بالهندام
والمنجال وامثال ذلك وقد افرد بعض المولفين في هذا الفن كتابا في الحيل العملية
يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيب وربما استغلق على الفهوم
لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بايدي الناس ينسبونه لبني شاكر ومن فروع
الهندسة المساحة وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار
ارض معلومة بنسبة شبر او ذراع او غيرهما او نسبة ارض من ارض اذا قويست
بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة
وفي قسمة الحوايط والاراضي بين الشركاء او الورثة وامثال ذلك وللناس فيها
موضوعات حسنة وكثيرة ومن فروع الهندسة المناظر وهو علم يتبين به اسباب
الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على ان ادراك البصر يكون
بمخروط شعاعي راسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب
كبيرا والبعيد صغيرا وكذلك رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام
الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والشعلة دائرة
وامثال ذلك فيتبين في ذلك العلم اسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية
ويتبين به ايضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه
معرفة رؤية الاهلة وحصول الكسوفات وكثير من امثال هذا وقد الف في هذا الفن
كثير من اليونانيين واشهر من الف فيه من الاسلاميين ابن الهيثم ولغيره فيه ايضا
تواليف وهو من هذه العلوم الرياضية وتفاريعها **علم الهيئة** وهو علم
ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحيرة ويستدل بكيفيات تلك الحركات
على اشكال واوضاع للافلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية
كما برهن على ان مركز الارض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال
والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود افلاك صغيرة
حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم وكما برهن على وجود الفلك الثامن
بحركة الكواكب الثابتة وكما برهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعدد

الميول له وامثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفياتها واجناسها
انما هو بالرصد فانا انما علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا ترتيب الافلاك
في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وامثال ذلك وكان اليونانيون يعتنون
بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين
وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبرهان عليه في مطابقة حركتها
لحركة الفلك منقول بايدي الناس واما في الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل
وكان في ايام المأمون شيء منه وصنع هذه الآلة المعروفة بذات الحلق وشرع
في ذلك فلم يتم ولما مات ذهب رسمه واغفل واعتمد من بعده على الارصاد
القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة
الآلة في الرصد لحركة الافلاك والكواكب انما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق فاذا
طال الزمان ظهر تفاوت ذلك التقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست
على ما يفهم في المشهور انها تعطي صور السماوات وترتيب الافلاك بالحقيقة بل انما تعطي
ان هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركات وانت تعلم انه لا يبعد
ان يكون الشيء الواحد لازما لمختلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال
باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على انه علم جليل وهو احد اركان
التعاليم ومن احسن التواليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك
اليونانيين الذين اسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الائمة
من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وادرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد ايضا
من حكماء الاندلس وابن السمح وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولابن الفرغاني
هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم

ومن فروعه علم الازياج وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب
من طريق حركته وما ادى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطوء واستقامة
ورجوع وغير ذلك يعرف بها مواضع الكواكب في افلاكها لاي وقت فرض
من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه
الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ
الماضية واصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول واصناف الحركات
واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى

الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض بهذه الصناعة
تعديلا وتقويما وللناس فيه تواليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني
وابن الكماد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحق
ويزعمون ان ابن اسحاق عول فيه على الرصد وان يهوديا كان بصقلية ماهرا في
الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان يبعث اليه بما يصح له من ذلك من احوال
الكواكب وحركاتها فكان اهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه فيما يزعمون ولخصه
ابن البناء في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وانما يحتاج
الى مواضع الكواكب من الفلك لتبنى عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي
تحدث عنها باوضاعها في عالم الانسان من الملل والدول والمواليد البشرية
والكوائن الحادثة كما نبينه بعد ونوضح فيه ادلتهم ان شاء الله تعالى

علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والحجج
المفيدة للتصديقات وذلك لان الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس
الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره وانما يتميز الانسان
عنها بادراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بان يحصل في الخيال
من الاشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكلي
ثم ينظر الذهن بين تلك الاشخاص المحسوسة المتفقة واشخاص اخرى توافقها
في بعض فيحصل له صورة تنطبق ايضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي
في التجريد الى الكلي الذي لا يجد كليا آخر معه يوافقه فيكون لاجل ذلك بسيطا وهذا
مثل ما يجرد من اشخاص الانسان صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه
وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما ثم بينهما وبين النبات الى ان ينتهي
الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك
عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع
وكان العلم اما تصورا للماهيات ويعني به ادراك ساذج من غير حكم معه واما
تصديق اي حكم بثبوت امر لامر فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات اما بان تجمع
تلك الكليات بعض الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كلية
منطبقة على افراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية
تلك الاشخاص واما بان تحكم على امر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته في

في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل فانما هي معرفة حقايق
الاشياء التي هو مقتضى العلم الحكمي وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح
وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى بها الفكر في تحصيل
المطالب العلمية ليتميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق و
تكلم فيه المتقدمون اول ما تكلموا به جملاً ومفترقا ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله
حتى ظهر في يونان ارسطو فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله اول العلوم
الحكمية وفاتحتها ولذلك يسمى بالمعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى الفص وهو
يشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وخمسة في مادته وذلك ان المطالب
التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب
فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيده وما ينبغي
ان يكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن اي جنس يكون من العلم او الظن وقد ينظر
في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة انتاجه خاصة ويقال للنظر الاول
انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين او ظن
ويقال للنظر الثاني انه من حيث الصورة وانتاج القياس على الاطلاق فكانت لذلك
كتب المنطق ثمانية الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها تجريد المحسوسات
في الذهن وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات والثاني في القضايا
التصديقية واصنافها ويسمى كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة
انتاجه على الاطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة ثم
الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب ان يكون
مقدماته يقينية ويختص بشروط اخرى لافادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها
ذاتية واولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود اذ المطلوب
فيها انما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا يحتمل غيرها فلذلك اختصت
عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع
المشاغب وافحام الخصم وما يجب ان يستعمل فيه من المشهورات ويختص ايضا من
جهة افادته لهذا الغرض بشروط اخرى هي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب تذكر
المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه بتمييز الجامع بين طرفي المطلوب
المسمى بالوسط وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس

الذي

الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد بالغرض والموضوع
وانما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس
المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب ان يستعمل في ذلك من المقالات
والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال
على الشيء او النفرة عنه وما يجب ان يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه كتب
المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم ان حكماء اليونانيين بعد ان تهذبت الصناعة
ورتبت رأوا انه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق
للماهيات في الخارج او لاجزائها او عوارضها وهي الجنس والفصل والنوع والخاصة
والعرض العام فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت
مقالاته تسعا وترجمت كلها في الملة الاسلامية وتداولها فلاسفة الاسلام
بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس
ولابن سينا كتاب الشفا استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون
فغيروا اصطلاح المنطق والحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام
في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لان
نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات والحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس
وان كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكنه من توابع الكلام في القضايا ببعض
الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا
النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة
والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما واغفلوها كان لم تكن
وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه
من حيث انه فن برأسه لا من حيث انه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع
واول من فعل ذلك الامام فخر الدين ابن الخطيب ومن بعده افضل الدين الخونجي
وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار
وهو طويل واختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر اربعة اوراق
اخذ بمجامع الفن واصوله يتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به
وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كان لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق
وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب **فصل** اعلم ان هذا الفن

قد اشتد النكير على انتحاله من متقدمي السلف والمتكلمين وبالغوا في الطعن
عليه والتحذير منه وحظروا تعلمه وتعليمه وجاء المتأخرون من بعدهم
من لدن الغزالي والامام ابن الخطيب فسامحوا في ذلك بعض الشيء واكب
الناس على انتحاله من يومئذ الا قليلا يجنحون فيه الى رأي المتقدمين فينفرون
عنه ويبالغون في انكاره فلنبين لك نكتة القبول والرد في ذلك لتعلم مقاصد
العلماء في مذاهبهم وذلك ان المتكلمين لما وضعوا علم الكلام لنصر
العقايد الايمانية بالحجج العقلية كانت طريقتهم في ذلك بادلة خاصة ذكروها
في كتبهم كالدليل على حدوث العالم باثبات الاعراض وحدوثها وامتناع
خلو الاجسام عنها وما لا يخلو عن الحوادث حادث وكاثباتهم التوحيد بدليل التمانع واثبات
الصفات القديمة بالجوامع الاربعة الحاق الغايب بالشاهد وغير ذلك من
ادلتهم المذكورة في كتبهم ثم قرروا تلك الادلة بتمهيد قواعد واصول هي كالمقدمات لها
مثل اثبات الجوهر الفرد والزمن الفرد والخلا ونفي الطبيعة والتركيب
العقلي للماهيات وان العرض لا يبقى زمنين واثبات الحال وهي صفة لموجود
لا موجودة ولا معدومة وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها ادلتهم الخاصة
ثم ذهب الشيخ ابو الحسن والقاضي ابو بكر والاستاد ابو اسحق الى ان ادلة
العقايد منعكسة بمعنى انها اذا بطلت بطل مدلولها ولهذا رأى القاضي ابو بكر انها
بمثابة العقايد والقدح فيها قدح في العقايد لابتنائها عليها واذا تأملت المنطق وجدته
كله يدور على التركيب العقلي واثبات الكلي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه الكلي الذهني
المنقسم الى الكليات الخمس التي هي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام
وهذا باطل عند المتكلمين والكلي والذاتي عندهم انما هو اعتبار ذهني ليس في الخارج
ما يطابقه او حال عند من يقول بها فتبطل الكليات الخمس والتعريف المبني عليها
والمقولات العشر ويبطل العرض الذاتي فتبطل ببطلانه القضايا الضرورية
الذاتية المشترطة في البرهان عندهم وتبطل العلة العقلية فيبطل كتاب البرهان وتبطل
المواضع التي هي لباب كتاب الجدل وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين
في القياس ولا يبقى الا القياس الصوري ومن التعريفات المساوي في الصادقية
على افراد المحدود لا يكون اعم منها فيدخل غيرها ولا اخص فيخرج بعضها وهو الذي
يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع والمتكلمون بالطرد والعكس وتنهدم اركان المنطق

جملة وان اثبتنا هذه كما في علم المنطق ابطلنا كثيرا من مقدمات المتكلمين فيؤدي
الى ابطال ادلتهم على العقايد كما مر فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على
انتحال المنطق وعدوه بدعة او كفرا على نسبة الدليل الذي يبطل والمتأخرون
من لدن الغزالي لما انكروا انعكاس الادلة ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله
وصح عندهم رأي اهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكلياتها في
الخارج قضوا بان المنطق غير مناف للعقايد الايمانية وان كان منافيا لبعض ادلتها بل قد
يستدلون على ابطال كثير من تلك المقدمات الكلامية كنفي الجوهر الفرد والخلا وبقاء الاعراض
وغيرها ويستبدلون من ادلة المتكلمين على العقايد بادلة اخرى يصححونها بالنظر والقياس
العقلي ولم يقدح ذلك عندهم في العقايد السنية بوجه وهذا رأي الامام والغزالي
وتابعهما لهذا العهد فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء ومأخذهم فيما يذهبون
اليه والله الهادي والموفق للصواب **الطبيعيات** وهو علم يبحث عن
الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الاجسام السماوية
والعنصرية وما يتولد عنها من انسان وحيوان ونبات ومعدن وما يتكون
في الارض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد
والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدا الحركة للاجسام وهو النفس
على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب ارسطو فيه موجودة
بين ايدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة ايام المأمون والف
الناس على حذوها مستتبعين لها بالبيان والشرح واوعب من الف في ذلك ابن سينا
في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب
النجاة وفي كتاب الاشارات وكانه يخالف ارسطو في الكثير من مسائلها ويقول فيها
برايه واما ابن الرشد فلخص كتب ارسطو وشرحها متبعا له غير مخالف والف
الناس في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة
ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللامام ابن الخطيب
عليه شرح حسن وكذا الآمدي وشرح نصير الدين الطوسي المعروف بخواجا من اهل
العراق وبحث مع الامام في كثير من مسائله فاوفى على انظاره وبحوثه وفوق كل ذي
علم عليم **علم الطب** وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض
ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاغذية بعد ان

بعد ان يبين المرض الذى يخص كل عضو من اعضا البدن واسباب تلك الامراض
التى تنشا عنها وما لكل مرض من الادوية مستدلين على ذلك بامزجة الادوية
وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء اولا فى السحنة والفضلات
والنبض محاذين بذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة فى حالتى الصحة والمرض وانما الطبيب
يحاذيها ويعينها بعض الشى بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى
العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما افردوا بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا
كالعين وعللها واكحالها وكذلك الحقوا بالفن منافع الاعضاء ومعناه المنفعة
التى خلق لاجلها كل عضو من اعضاء البدن الحيوانى وان لم يكن ذلك من موضوع
علم الطب الا انهم جعلوه من لواحقه وتوابعه ولجالينوس فى هذا الفن
كتاب جليل عظيم المنفعة وهو امام هذه الصناعة التى ترجمت كتبه فيها
من الاقدمين جالينوس يقال كان معاصر العيسى صلوات الله على نبينا وعليه
ويقال مات بصقلية فى سبيل تقلب ومطاوعة اغتراب وتواليفه
فيها هى الامهات التى اقتدى بها جميع الاطباء من بعده وكان
فى الاسلام فى هذه الصناعة ائمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازى
والمجوسى وابن سينا ومن اهل الاندلس ايضا كثير واشهرهم ابن زهر
وهى لهذا العهد فى المدن الاسلامية كانها نقصت لوقوف العمران
وتناقصه وهى من الصنايع التى لا تستدعيها الا الحضارة والترف كما نبينه
بعد **فصل** وللبادية من اهل العمران طب يبنونه فى غالب
الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص ويتداولونه متوارثا عن
مشايخ الحى وعجايزه وربما يصح منه البعض الا انه ليس على قانون طبيعى
ولا عن موافقته للمزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم
اطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره والطب المنقول فى
النبويات من هذا القبيل وليس من الوحى فى شىء انما هو امر كان
عاديا للعرب ووقع فى ذكر احوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
من نوع ذكر احواله التى هى عادة وجبلة لا من جهة ان ذلك مشروع على
ذلك النحو من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعرفنا الشرائع
ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له فى شان

تلقيح النخل ما وقع فقال انتم اعلم بامور دنياكم فلا ينبغى ان يحمل شى من الطب
الذى وقع فى الاحاديث الصحيحة المنقولة على انه مشروع فليس
هناك ما يدل عليه اللهم الا ان استعمل على جهة التبرك وبصدق
العقد الايمانى فيكون له اثر عظيم فى النفع وليس ذلك من الطب
المزاجى وانما هو من آثار الصدق فى الكلمة الايمانية كما وقع
فى مداواة المبطون بالعسل ونحوه والله الهادى الى الصواب
علم الفلاحة هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهى النظر
فى النبات من حيث تنميته ونشوه بالسقى والعلاج واستجادة
المنبت وصلاحية الفصل وتعاهده بما يصلحه ويتمه من ذلك كله
وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها من جهة غرسه
وتنميته وجهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات
الكواكب والهياكل المستعمل ذلك فى باب السحر فعظمت عنايتهم به
لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية
منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر
اهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا
والنظر فيه محظورا فاقتصروا منه على الكلام فى النبات
من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له فى ذلك وحذفوا الكلام فى
الفن الآخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة
النبطية على هذا المنهاج وبقى الفن الآخر منها مغفلا نقل منه مسلمة
فى كتبه السحرية امهات من مسائله كما نذكر عند الكلام على السحر
ان شاء الله تعالى وكتب المتاخرون فى الفلاحة كثيرة ولا يعدون
فيها الكلام فى الغراس والعلاج وحفظ النبات من جوائحه و
عوائقه وما يعرض فى ذلك كله وهى موجودة **علم الالهيات**
وهو علم ينظر بزعمهم فى الوجود المطلق فاولا فى الامور العامة
للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة
والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر فى مبادى الموجودات
منها وترتيبها ثم فى احوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها

الى المبدا وهو عندهم علم شريف زعمون انه يقفهم على معرفة
الوجود على ما هو عليه وان ذلك عين السعادة زعمهم وسياتي
الرد عليهم بعد وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك
يسمونه علم ما بعد الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجوده
بين ايدي الناس ولخصها ابن سينا في كتاب الشفا و
النجا وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الاندلس ولما
وضع المتاخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم
الغزالي ما رده منها ثم خلط المتاخرون من المتكلمين مسايل
علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث وتشابه
موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها
فصارت كانها فن واحد وغيروا ترتيب الحكماء في
مسائل الطبيعيات والالهيات وخلطوهما فنا واحدا
فقدموا فيه الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات
وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم
كما فعله الامام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع
من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا
بمسايل الحكمة وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعهما
ومسائلهما واحد والتبس ذلك على الناس وهو غير
صواب لان مسايل علم الكلام انما هي عقايد متلقاة
من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى
العقل ولا تعويل عليه بمعنى انه لا تثبت الا به فان العقل
معزول عن الشرع وانظاره وما تحدث فيه المتكلمون من
اقامة الحجج فليس بحثا عن الحق فيها ليعلم بالدليل بعد
ان لم يكن معلوما كما هو شان الفلسفة بل انما هو التماس
حجة عقلية تعضد عقايد الايمان ومذاهب السلف فيها
وتدفع شبه اهل البدع عنها الذين زعموا ان مداركهم
فيها عقلية وذلك بعد ان تفرض صحيحة بالادلة النقلية

كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين
وذلك ان مدارك صاحب الشريعة اوسع لاتساع
نطاقها عن مدارك الانظار العقلية فهي فوقها
ومحيطة بها لاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل
تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها
فاذا هدانا الشارع الى مدرك فينبغي ان نقدمه على
على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدرك
العقل ولو عارضه بل نعتقد اعتقادا وعلما ونسكت
عما لم نفهم من ذلك ونفوضه الى الشارع ونعزل العقل عنه
والمتكلمون انما دعاهم الى ذلك كلام اهل الالحاد في
معارضات العقايد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا الى
الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعاء ذلك الحجج النظرية
فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعاء ذلك
الحجج النظرية ومحاذاة العقايد السلفية بها واما النظر في
مسايل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع
علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز به بين
الفنين فانهما مختلطان عند المتاخرين في الوضع والتاليف والحق مغايرة
كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسايل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب
عند الاستدلال وصار احتجاج اهل الكلام كانه انشاء لطلب الاعتقاد
بالدليل وليس كذلك بل انما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق
معلومه وكذا جاء المتاخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد
ايضا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدا منها
كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك
والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وابعدها من جنس
الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان ويفرون
عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وابحاثها وتوابعها
كما بيناه ونبينه والله الهادي الى الصواب بمنه علوم السحر والطلسمات

وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التاثيرات
في عالم العناصر اما بغير معين او بمعين من الامور السماوية والاول هو
السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع
لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب وغيره كانت كتبها
كالمفقودة بين الناس الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوة
موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين فان جميع من تقدمه من الانبياء
لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالاحكام انما كانت كتبهم مواعظ وتوحيدا
لله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في اهل بابل من
السريانيين والكلدانيين وفي اهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التواليف
ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من
اوضاع اهل بابل فاخذ الناس هذا العلم منها وتفننوا فيه ووضعت
بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم
الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان
كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج
الصناعة وغاص على زبدتها فاستخرجها ووضع فيها عدة من التواليف
واكثر الكلام فيها وفي صناعة الكيميا لانها من توابعها لان احالة الاجسام
النوعية من صورة الى اخرى انما يكون بالقوة النفسانية لا بالصناعة
العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه ثم جاء مسلمة بن احمد المجريطي
امام اهل الاندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها
وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب احد في هذا العلم بعده
ولنقدم هنا مقدمة يتبين لك منها حقيقة السحر وذلك ان النفوس
البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي اصناف
كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الصنف الآخر وصارت
تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الانبياء عليهم السلام
لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام
عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع ذلك من التاثير في الاكوان ونفوس
السحرة لها خاصية التاثير في الاكوان واستجلاب الكواكب للتصرف

بها والتاثير بقوة نفسانية او شيطانية فاما تاثير الانبياء فمدد
الاهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع
على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية
لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلثة ياتي شرحها
فاولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي
يسميه الفلاسفة السحر والثاني بمعين من مزاج الافلاك او العناصر
او خواص الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو اضعف رتبة من الاول
والثالث تاثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التاثير الى القوى
المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها انواعا من
الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس
من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كانها في الخارج وليس
وليس هناك شيء كما يحكى عن بعضهم انه يرى البساتين والانهار والقصور
وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة او الشعبذة
هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شان القوى
البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها انما تكون
بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بانواع
التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله تعالى
وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من
مواده واسبابه كما رايت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره
السابق على فعله او لتصرفه بالافساد وما ينشا عنه من الفساد في الاكوان
والكل حاصل منه ثم لما كانت المرتبتان الاوليان من السحر لها حقيقة في الخارج
والمرتبة الاخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة او انما
هو تخييل فالقائلون بان له حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليين والقائلون
بان لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف
في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله اعلم واعلم
ان وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من اجل التاثير الذي ذكرناه
وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس

السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد
حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء
وزوجه وما هم بضارين من احد الا باذن الله وفي الصحيح ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم سُحِر حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره
في مشطٍ ومُشاقةٍ وجُفّ طَلْعةٍ ودفن في بئر ذروان فانزل الله عز وجل
عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها
فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت واما
وجود السحر في اهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير
نطق به القرآن وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل ومصر زمان
بعثة موسى عليه السلام سوق نافقة ولهذا كانت معجزته من جنس ما يدعون
ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك و
ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص اشياء مقابلة لما نواه و
حاوله موجودة بالمسحور وامثال تلك المعاني من اسماء وصفات في التأليف
والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي اقامها مقام الشخص المسحور عينا
او معنىً ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرار مخارج حروف
ذلك الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب اعده لذلك
تفاؤلاً بالعقد واللزام واخذ العهد على من اشرك به من الجن في نفثه
في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والاسماء
السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من
فيه بالنفث فتنزل عنها ارواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله
الساحر وشاهدنا ايضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير الى كساءٍ
او جلدٍ ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ويشير الى بطون الغنم
كذلك في مراعيها بالبعج فاذا امعاؤها ساقطة من بطونها على الارض
وسمعنا ان بارض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فيتحتت قلبه
ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة
وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا ان بارض السودان
وارض الترك من يسحر السحاب فيمطر الارض المخصوصة وكذلك رأينا

من عمل الطلسمات عجائب في الاعداد المتحابة وهي رک رفد
احد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان واربعة وثمانون
ومعنى المتحابة ان اجزاء كل واحد التي فيه من نصف وربع وسدس
وخمس وامثالها اذا جمع كان مساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لاجل
ذلك المتحابة ونقل اصحاب الطلسمات ان لتلك الاعداد اثراً في
الالفة بين المتحابين واجتماعهما اذا وضع لهما مثالان احدهما بطالع
الزهرة وهي في بيتها او شرفها ناظرة الى القمر نظر مودة وقبول ويجعل
طالع الثاني سابع الاول ويوضع على احد التمثالين احد العددين والآخر
على الآخر ويقصد بالاكثر الذي يراد ائتلافه اعني المحبوب ما ادري الاكثر
كميةً او الاكثر اجزاءً فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك
احدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من ائمة الشان وشهدت له التجربة و
وكذا طابع الاسد ويسمى ايضا طابع الحصى وهو ان يرسم في قالب هند اصبع
صورة اسد شائلاً ذنبه عاضاً على حصاةٍ قد قسمها بنصفين وبين يديه
صورة حيةٍ منسابة من رجليه الى قبالة وجهه فاغرة فاها
الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول
الشمس بالوجه الاول او الثالث من الاسد بشرط صلاح النيرين
وسلامتهما من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت
في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران
محلولاً بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون ان الممسكة
من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه
وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت ايديهم ذكر
ذلك ايضا اهل هذا الشان في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة
وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا انه يوضع عند حلول
الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه
صاحب نظر العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه
ما يكون في مواليد الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء
بعد ان يغمس في الطيب فزعموا ان له اثراً في صحابة الملوك وخدمتهم

ومعاشرتهم وامثال ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة بن احمد المجريطي هو
مدونة هذه الساعة وفيه استيفاوها وكثير مسائلها وذكر لنا ان الامام
الفخر ابن الخطيب وضع كتاباً في ذلك سماه السر المكتوم وانه بالمشرق
يتداوله اهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من ائمة هذا الشان فيما
نظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هولآء المنتحلين
لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت اولا انهم يشيرون
الى الكساء او الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى احدهم
لهذا العهد باسم البعاج لان اكثر ما ينتحل من السحر بعج الانعام يرهب
بذلك اهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفا
على انفسهم من الحكام لقيت منهم جماعةً وشاهدت من افعالهم هذه
واخبروني ان لهم وجهةً ورياضةً خاصةً بدعوات كفرية واشراك
لروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخنزيرية
يتدارسونها وان بهذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه
الافعال وان التاثير الذي لهم انما هو فيما سوى الانسان الحر
من الامتعة والحيوانات والرقيق ويعبرون عن ذلك بما تمشي
فيه الدرهم اي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات
هذا ما زعموه وسألت بعضهم فاخبروني به واما افعالهم
فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة
في ذلك هذا شان السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فاما
الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد ان اثبتوا انهما جميعا
اثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الاثر للنفس الانسانية
بان لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي واسبابه
الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الارواح تارة كالسخونة
الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية
اخرى كالذي يقع من قبل التوهم فان الماشي على حرف حائط
او على حبل منتصب اذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهذا تجد كثيرا
من الناس يعودون انفسهم ذلك بالدربة عليه حتى يذهب عنهم هذا الوهم

هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط
فثبت ان ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من اجل الوهم
واذا كان ذلك اثراً للنفس في بدنها من غير الاسباب الجسمانية الطبيعية فجائز
ان يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنها اذ نسبتها الى الابدان في ذلك النوع من التاثير
واحدة لانها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت انها موثرة في سائر الاجسام
واما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه وصاحب
الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب واسرار الاعداد وخواص الموجودات و
اوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح
بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية بروحانيات
الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره
بل هو مفطور على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التاثير والفرق عندهم بين المعجزة
والسحر ان المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التاثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك
والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبامداد الشياطين في
بعض الاحوال فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الامر وانما نستدل
نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير
وللنفوس المتمحضة للخير والتحدي بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجد في صاحب الشر
وفي افعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الاعداء وامثال ذلك
وللنفوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة
اصحاب الكرامة تاثير ايضا في احوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو
بالامداد الالهي لان نحلتهم وطريقتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي
حظ على قدر حالهم وايمانهم وتمسكهم بكلمة الله واذا اقتدر احد منهم على افعال الشر
فلا ياتيها لانه متقيد فيما ياتيه ويذره للامر الالهي فما لم يقع لهم فيه الاذن لا ياتونه
بوجه ومن اتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة
بامداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شان
سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يافكون وذهب
سحرهم واضمحل كان لم يكن ولذلك لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين
ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرأها على عقدة من العقد

التي سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله تعالى وذكره بالهمة الالهية
وقد نقل المورخون ان درفش كابيان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المئيني
العددي منسوجا بالذهب في طوالع فلكية رصدت لوضع ذلك الوفق فوجدت
الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الارض بعد انهزام اهل فارس
وشتاتهم وهو فيما يزعم اهل الطلسمات والاوفاق مخصوص بالغلب والحروب
وان الراية التي تكون فيها او معها لا تنهزم اصلا الا ان هذا عارضه المدد الالهي
من ايمان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمات الله فانحل معها
كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون واما الشريعة فلم تفرق بين السحر
والطلسمات والشعبذة وجعلته كله بابا واحدا محظورا لان الافعال انما
اباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا او في معاشنا الذي
فيه صلاح دنيانا وما لا يهمنا في شيء منهما فان كان فيه ضرر او نوع ضرر كالسحر الحاصل
ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات فان اثرهما واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر
باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون حينئذ ذلك
الفعل محظورا على نسبته في الضرر وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا اقل من تركه
قربة الى الله فان من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات
والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحريم واما الفرق عندهم
بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلمون انه راجع الى التحدي وهو دعوى وقوعها
على وفق ما ادعاه قالوا ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان
دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق فلو وقعت
مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فاذن لا تقع المعجزة مع الكذب
باطلاق واما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية
الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في اسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه
الشر ولا يستعمل في اسباب الشر وكانهما على طرفي النقيض في الخير والشر في اصل
فطرتهما والله يهدي من يشاء

فصل ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية
الاصابة بالعين وهو تاثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات
او الاحوال ويفرط في استحسانه وينشا عن ذلك الاستحسان حينئذ انه يروم معه سلب ذلك
عمن اتصف به فيؤثر فساده وهو جبلة فطرية اعني هو الاصابة بالعين والفرق
بينها وبين التأثيرات النفسانية ان صدورها فطري جبلي لا يتخلف ولا يرجع
اختيار صاحبه ولا يكتسبه وسائر التأثيرات وان كان منها ما لا يكتسب فصدورها
راجع الى اختيار فاعلها والفطري منها قوة صدورها لا نفس صدورها ولهذا
قالوا القاتل بالسحر او بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذلك الا لانه ليس
مما يريده ويقصده او يتركه وانما هو مجبور في صدوره عنه والله اعلم

علم اسرار الحروف
وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلسمات اليه في اصطلاح
اهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم
في الملة بعد صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف
حجاب الحس وظهور الخوارق على ايديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين
الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه
وزعموا ان الكمال الاسمائي مظاهره ارواح الافلاك والكواكب وان طبائع
الحروف واسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاكوان على هذا
النظام والاكوان من لدن الابداع الاول تنتقل في اطواره وتعرب
عن اسراره فحدث لذلك علم اسرار الحروف وهو من تفاريع علوم السيميا
لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تواليف البوني
وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس
الربانية في عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف
المحيطة بالاسرار السارية في الاكوان ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في
الحروف بما هو فمنهم من جعله للمزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع
الى اربعة اصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع
التصرف في طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون
صناعي يسمونه التكسير الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر
فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي
من الحروف والعناصر الى ان تنفد فتعين لعنصر النار حروف سبعة الالف والهاء
والطاء والميم والفاء والشين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة ايضا الباء والواو
والياء والنون والصاد والتاء والضاد وتعين لعنصر الماء سبعة ايضا الجيم
والزاي والكاف والسين والقاف والثاء والظاء وتعين لعنصر التراب ايضا سبعة

الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والغين فالحروف النارية لدفع الامراض
الباردة ولمضاعفة قوى الحرارة حيث تطلب مضاعفتها اما حسا او حكما كان تضعيف
قوى المريخ فى الحروب والقتل والفتك والمائية ايضا لدفع الامراض الحارة
من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حسا
او حكما كتضعيف قوة القمر وامثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذى فى الحروف
للنسبة العددية فان حروف ابجد دالة على اعدادها المتعارفة وضعا وطبعا
فبينها لاجل تناسب الاعداد تناسب فى نفسها ايضا كما بين الباء والكاف
والراء لدلالتها كلها على اثنين كل فى مرتبته فالباء على الاثنين فى مرتبة الاحاد
والكاف والراء لدلالتها كلها على اثنين فى مرتبته فالباء على اثنين فى مرتبة الاحاد
والكاف على اثنين فى مرتبة العشرات والراء على اثنين فى مرتبة المئين وكالذى
بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الاربعة وبين الاربعة والاثنين
نسبة الضعف وخرج للاسماء اوفاق كما للاعداد يختص كل صنف من الحروف
بصنف من الاوفاق الذى يناسبه من حيث عدد الشكل او عدد الحروف وامتزج
التصرف من السر الحرفى والسر العددى لاجل التناسب الذى بينهما فاما سر هذا التناسب
الذى بين الحروف وامزجة الطبايع او بين الحروف والاعداد فامر عسير على الفهم
اذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وانما مستنده عندهم الذوق والكشف قال
البونى ولا تظنن ان سر الحروف مما تتوصل اليه بالقياس العقلى وانما هو بطريق
المشاهدة والتوفيق الالهى ٥٥٥ التصرف فى عالم الطبيعة بهذه الحروف والاسماء
المركبة وتاثر الاكوان عن ذلك فامر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواترا وقد يظن
ان تصرف هولاء وتصرف اصحاب الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة
الطلسم وتاثيره على ما حققه اهله انه قوى روحانية من جوهر القهر تفعل فيما له ركب
فعل غلبة وقهر باسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبة لروحانية ذلك الطلسم
مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية وهو عندهم
كالخميرة المركبة من ارضية ومائية وهوائية ونارية حاصلة فى جملتها تحيل وتصرف
ما حصلت فيه الى ذاتها وتقلبه الى صورتها وكذلك الاكسير للاجسام المعدنية خميرة تقلب
المعدن الذى تسرى فيه الى نفسها بالاحالة ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد فى جسد
لان الاكسير اجزاؤه كلها جسدانية ويقولون موضوع الطلسم روح فى جسد لانه ربط

الطبايع

الطبايع العلوية بالطبايع السفلية والطبايع السفلية جسد والطبايع العلوية
روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف اهل الطلسمات واهل الاسماء بعد ان تعلم
ان التصرف فى عالم الطبيعة كله انما هو للنفس الانسانية والهمم البشرية لان
النفس الانسانية بالطبيعة حاكمة عليها بالذات لان تصرف اهل الطلسمات
انما هو فى استنزال روحانية الافلاك وربطها بالصور او بالنسب العددية حتى
يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة فيما حصلت فيه
وتصرف اصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور
الالهى والامداد الربانى فيسخر الطبيعة لذلك طايعة غير مستعصية ولا يحتاج الى مدد
من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده اعلى منها ويحتاج اهل الطلسمات الى قليل من
الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الافلاك واهون بها وجهة
ورياضة بخلاف اهل الاسماء فان رياضتهم هى الرياضة الكبرى وليست لقصد التصرف
فى الاكوان اذ هو حجاب وانما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله بهم
فان خلا صاحب الاسماء عن معرفة اسرار الله وحقايق الملكوت الذى هو نتيجة
المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الاسماء وطبايع الحروف والكلمات
وتصرف بها من هذه الحيثية وهولاء هم اهل السيميا فى المشهور كان اذن لا فرق
بينه وبين اصحاب الطلسمات بل صاحب الطلسمات اوثق منه لانه يرجع الى
اصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة واما صاحب اسرار الاسماء اذا فاته الكشف
الذى يطلع به على حقايق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص والوجهة
وليس له فى العلوم الاصطلاحية قانون برهانى يعول عليه فيكون حاله اضعف
رتبة وقد يمزج صاحب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين
لذكر الاسماء او ما تكون من حظوظ الكواكب الذى يناسب ذلك الاسم
كما فعله البونى فى كتابه الذى سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم هى من لدن
الحضرة العمائية وهى برزخية الكمال الاسمائى وانما تتنزل تفصيلها فى الحقايق على
على ما عليه من المناسبة واثبات هذه الكلمات عندهم انما هو بحكم المشاهدة
فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا
كان عمله بمنزلة عمل صاحب الطلسم بل هو اوثق كما قلناه وكذلك قد يمزج ايضا
صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات

المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب الآن مناسبة الكلمات عندهم ليس
كما هي عند اصحاب الاسماء من الاطلاع في حال المشاهدة وانما يرجع الى ما اقتضته
اصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر
واعراض وذوات ومعاني والحروف والاسماء من جملة ما فيه فلكل واحد
من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن
وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في كتاب الغاية والظاهر من حال البوني في انماط
انه اعتبر طريقتهم فان تلك الانماط اذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها
على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التي
فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب اي الدعوة التي
يقام له بها شهد لك ذلك اما بانه من مادتها او بان التناسب الذي كان في اصل الابداع
وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما اوتيتم من العلم الا قليلا وليس كل ما حرمه الشرع من العلوم
بمنكر الثبوت فقد ثبت ان السحر حق مع حظره لكن حسبنا من العلم ما علمنا الله
تحقيق ومكنة هذه السيميا كما تحقق لك انها ضرب من السحر برياضات شرعية وذلك
انا قدمنا ان التصرف في عالم الاكوان لصنفين من البشر هما الانبياء بالقوة الالهية
التي فطرهم الله عليها والسحرة بالقوة النفسانية جبلوا عليها وقد يحصل للاولياء
تصرف يكتسبونه بالكلمة الايمانية وهو من نتائج التجريد ولا يقصدون الى تحصيله
وانما يأتيهم عفواً والمتمكنون منهم اذا عرض لهم اعرضوا عنه واستعاذوا بالله منه
وعدوه محنة كما يحكى عن ابي يزيد البسطامي انه وافى شاطئ دجلة عشاء متحفزاً
فالتقى له طرفا الوادي فاستعاذ بالله وقال لا ابيع حظي من الله بدانق وركب
السفينة عابراً مع الملاحين واما السحر فلا بد للجبلي منه من الرياضة ليخرج من القوة
الى الفعل وقد يحصل غير الجبلي منه بالاكتساب وهو دون الجبلي فتعاناه فيه
الرياضة كما تعاناه في الاول وهذه الرياضة السحرية معروفة وقد ذكر انواعها
وكيفياتها مسلمة المجريطي في كتاب الغاية وجابر بن حيان في رسائله وغيرهما وتعلقها
كثير ممن يعقبه لاكتساب السحر وتعلمه من قوانينها وشروطها الا ان هذه الرياضة
السحرية التي للاولين مشحونة بالكفريات كالتوجهات للكواكب والدعوات
لها الذي يسمونها قيامات باستجلاب روحانيتها وكاعتقاد التأثير من غير الله في ربط الفعل
بالطوالع النجومية وبمناظرة الكواكب في البروج ليحصل الاثر المطلوب فاعتمد

كثير ممن يروم التصرف في عالم الكائنات وقصدوا طريق تحصيله على وجه يتعدّى عن ملابسة
الكفر وانتحاله وقلبوا تلك الرياضات شرعية باذكار وتسبيحات من القرآن والاحاديث
النبوية هداهم الى معرفة المناسب للحاجة ما قدمناه من انقسام العالم بما فيه من ذوات
وصفات وافعال بآثار الكواكب السبعة ويتحرون مع ذلك الايام والساعات
المناسبة لاقتسامها كذلك ويتسترون بتلك الرياضة الشرعية تحرجاً من السحر
المعهود الذي هو كفر او يدعو اليه ويتمسكون بالوجهة الشرعية لعمومها وخلوصها كما فعله
البوني في كتاب الانماط وغيره من كتبه وفعله غيره وسموا هذه الطريقة بالسيميا توغلا
في الفرار من اسم السحر وهم في الحقيقة واقعون في معناه وان كانت الوجهة الشرعية
حاصلة لهم فلم يبعدوا كل البعد عن اعتقاد التأثير لغير الله ثم انهم يقصدون التصرف
في عالم الكائنات وهو محظور عند الشارع وما وقع منه للانبياء من المعجزات فباجر الله
واقراره وما وقع للاولياء فباذن يحصل لهم بخلق العلم الضروري الهاما وغيره
ولا يتعمدون من دون اذن فلا تنتقض بما يموه به هؤلاء في هذه السيميا فانما هي
كما قررته لك من فنون السحر وضروبه والله الهادي الى الحق بمنه **فصل** ومن فروع
علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة من الاسولة بارتباطات بين الكلمات حرفية
يوهمون انها اصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هي
شبه المعاياة والمسائل السيالة ولهم في ذلك كلام كثير من اوعبه واعجبه زايرجة العالم
للسبتي وقد تقدم ذكرها ونبين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزايرجة والشعر
القصيدة المنسوبة للسبتي زعمهم في ذلك وبعدها صفة الزايرجة بدائرتها
وجدولها المكتوب بجوانبها ثم نكشف عن الحق فيها وانها ليست من الغيب وانما هي مطابقة
بين المسألة وجوابها في الافادة وليس عندنا رواية نعوّل عليها في صحة هذه القصيدة ونسبتها
الى السبتي الا انا تحرينا اصح النسخ منها في ظاهر الامر وهي هذه

يقول سبيتي ويحمد ربه … مصلّ على هادي الناس ارسلا
محمد المبعوث خاتم الانبياء … ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
الا هذه زايرجة العالم الذي … تراه بحكم وبالعقل قد جلا
فمن احكم الوضع فيحكم جسمه … ويدرك احكاما توازيها العلا
ومن احكم الربط فيدرك قوة … ويدرك للتقوى وللكل حصلا
وفي عالم الامر تراه محققاً … وهذا مقام من بالاذكار كملا

فهذي سرائر عليكم بكمتها … الهها دوائر وبالحا عدلا
وطاء لها عرش وفيه نقوشها … بنظم ونثر وتراه مجدولا
ولنسب دوائر كنسبة فلكها … وارسم كواكب لادراجها العلا
واخرج لادوائره وارسم … حروفها وكرر تمثيلها على حده خلا
اقم شكل زبرهم وسوّ بيوته … وحقق بهم حيث نورهم جلا
وحصّل علوما للطباع بهمها … وحلّ بهيئات والارباع مثلا
وسوّ لموسيقار علم حروفهم … وعلم بآلة تحقق محصلا
وسوّ دوائر ولنسب حروفها … وعالمها المطلق والاقاليم جدولا
امير لنا يهوى بجاية دولة … زناتية اتت وحكمها جلا
وقطر الاندلس فابن الهود هم … وجار بنو نصر وظفرهم تلا
ملوك وفرسان واهل لحكمة … فان شئت نصحتم فقطرهم جلا
وفهدي موحد بتونس حكمهم … ملوك المشرق بابلا وفاق نزلا
واقسم هل القطر وكن منتقدا … فان شئت بلا لحن مشكلا
ففتش وبرشلون والراحفة … واذنهم ذلك وبالطار كملا
ملوك كناوة وولوا لفاتهم … واعراب قومنا بتر فتق احملا
فهند حباشتي وسند فهرس … وفرس ططري ومابعدهم طلا
فقيصرهم جاء ويزدجرهم … لكاف وقبطهم بلامه طولا
فان شئت تدريبي الملوك … فحتم بيوتا ثم تنسب وجدولا
على حكم قانون الحروف وعلمها … وعلم طبائعها وكله مثلا
فمن علم العلوم يعلم علمنا … ويعلم اسرار الوجود واكملا
فيرسخ علمه ويعرف ربه … وعلم بلا جسم بجسم ففضلا
وحيث اتى الاسم والعدد يشفه … فحكم الحكيم فيه قطعا ليفصلا
واتيتك احرف فسوّ لضربها … واحرف سيبويه ناتيك مفصلا
فكد بتنكير وقابل وعوض … بترتيبك العجائب للاجزاء فخلخلا
وفي العقد والمجذور يوف غالبا … وزدمع وصفيه فوق العقل فلا
واختر المطلع وسوّ بيوته واعكس … بجذره وبالدور عدلا
ابدركها المرء فيبلغ قصده … ويعطي حروفها وفي نظمها انجلا

اذا كان سعد والكواكب سعدت … فحسبك للملك والنيل بها العلا
وايقاع والهم بمرموم به … فنسبت ونا دينا تجد فيه منهلا
واوتار زيرهم فلحا بمهم … ومثانهم المثلث بجميعه قد جلا
وادخل بافلاك وعدل بجدول … وارسم اباجاد وباقيه جملا
وجور شذوذ البحر بحري وشكله … اني في عروض الشعر عن جمله ملا
فاصل لدينا واصل لفقهنا … وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا
فاخض لقسطاط على الوفق جدره … وسبح لاسمه وكبره اهللا
فتخرج ابياتا وفي كل مطلب … بنظم طبيعي وسر من العلا
وبقها مختصرا كذا حكم عددهم … فعلم القوانج ترى فيه سهلا
فتخرج ابياتا وعشرون صنعت … من الالف طبعا فيا صاح جدولا
زايرجة صنايعا من الضرب الكلت … فصح لك المنى وصح لك العلا
وسبح بزبرهم واثن بنقره … الهها دوائر الزبر وجلا
الهها يا وفاق واصل لعددها … من اسرار حرفهم فعدده سهلا

يه ا ك و ك ج و ا ه عسم ے ه سع ك ط ال ع ن ج غ فذ قل مناقره

الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفيتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المميزة بالنسبة الى موضع المعلق من امتزاج طبايع وعلم او صناعة الكيميا

ايا طالبا للطب مع علم جابر … وعالم بمقدار المقادير بالولا
اذا شئت علم الطب لابد نسبة … لاحكام ميزان تضاعف منهلا
فيشفي عليلكم والاكسير محكم … وازواج وصفكم بتصحيح الخلا

الطب الروحاني

ونشئت ابلاوش 8 ۶ 8 هه … ودهنه محلا
لتحليل اوجاع البوار وصحوا … كذلك والتركيب حيث نقلا

كه سع ه ٥ ٥ ٢ ۶ صع ل ى ۶ ى ٧ ص ٨ ×
هه هه ع ى ه فرح سه ما

مطالع الشعاعات في مواليد الملوك وبنيهم

وعلم مطارح الشعاعات مشكل … وضلع قيتها لمنطقة جلا
ولكن شيء في مقام امامنا … ويبدو اذا عرض الكواكب عدلا

بذاك مراكز بين طولها و عرض … فمن ادركه تم موصلا
مواقع تربيع و بيته بسقط … لتسديسهم تثليث البيت الذي تلا
يراد لتربيع و هذا قياسه … يقينا و جذره و بالعين اعملا
ومن نسبة الاربعين ركب … شعاعك بصاد وضعفه و تربيعه انجلا
اخص ه صح ع ٨ سع و … بهذا العمل شابا بالملوك و القانون يطرد عمله
ولم يرعجب منه مقامات الملوک … المقام الاول ل المقام الثانی ٩ ٢

المقام الثالث ع ح ه المقام الرابع دد المقام الخامس لای المقام السادس ٦ ٢

المقام السابع ع ٢ خط الاتصال والانفصال ع ٥ ع ٥ ط ب ع ٤

خط الاتصال ل ح ل ح ٤ خط الانفصال صح و اح د د ٤

الزبر الجميع و تابع الجذر التام ٥ هو ٣٣٣ ك ٤ الاتصال و الانفصال

الواجب التام في الاتصالات ح ٥ ح ٥ ك ٤ ٤ ٥

اقامة الانوار ٣ ٤ س ٥ الجذر المجيب في العمل صح ١ ٣ ٤ ٤ ٥

اقامة السوال عن الملوک ٦ ١ ٥ ٢ ٤ ٤

مقام الاولاد مقام نور ٣ ع ٥ مقام بها ١ ح ٥

الانفعال الروحانی والانفعال الربانی

ايا طالب السر لتهليل ربه … لدی اسمائه الحسنی ليصادف منهلا
نطيعك اخبار الانام بقلبهم … كذاك ربيتهم وفي الشمس اعملا
تری عامة الناس اليك يقتدوا … وما قبله حقا بنی العنبر اهملا
طريقك هذا السبل والسبيل الذی … اقرله غيركم و نصفه كم احفلا
اذا الحيا في الوجود مع التقی … و دينا متينا او يكون موصلا
كذی النون والجنيد مع ستة صيغة … وفي ستة لبسطام اراک مسربلا
وفي العالم العلوی يكون مجدنا … كذا قالت الهند و صوفية الملا
طريق رسول الله بالحق ساطع … وما حكم صنع مثل جبريل انزلا
فبطشک تهليل و قوسک مطلع … و يوم الخميس البدو والاحد انجلا
وفي جمعة ايضا بالاسماء مثله … وفي الاثنين للحسنی يكون مكملا
وفي طائه ستر وفي هائه اذا … اراک بها مع نسبة الكل اعطلا
وساعة سعد شرطهم في نقوشها … و عود و مصطكا بخور تحصلا

ويتلی عليها آخر الحشر دعوة … والاخلاص والسبع المثانی مرتلا

انفصال انوار الكواكب لمعانی لا ه ح ٤ ظ ٤ ش ٢ سع ل صح ه ف لح ق ر ٢

وفي يدک اليمنی حديد و خاتم … وكل براسک وفي دعوة فلا
وآية حشر فاجعل القلب لوحها … واتل اذا نام الانام و رتلا
هي السر في الاكوان لاشيء غيرها … هي الآية العظمی فحقق وحصلا
تكون بها قطبا اذا جدت خدمة … و تدرک اسرارا من العالم العلا
سری بها ناجا و معروف بعده … و باح بها الحلاج جهرا فقتلا
وكان بها الشبلی بداب دلها … الی ان رقی فوق المريدين واعتلا
فصف من الادناس قلبک جاهدا … ولازم لاذكار و صم و تنفلا
فما ان سر القوم الا محقق … عليم باسرار الحروف محصلا

ع صح ٤ ح ٢ ك ٢ ٤ ٤ لح صی م لح ٤ ا ه لا لا ٢ اح د ه ل ص ح ١ ك ل م
مقام المحبة و ميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفنا
الفنا وتوجه ومراقبة وحلة ودائمة الانفعال الطبيعی

لمن حبس شيء المحبة الوفق صرفوا … بعقد ير او نحاس الخلط اعملا
وقيل بفضة صحيحا رأيته فخلک … طالعا خطوطه ما علا
توخ به زيادة النور للقمر … واجعلک للقبول اثمه اصلا
و يومه والبخور عود لهند هم … و وقت لساعة و دعوته الا
و دعوته لغايته فهی اعملت … وعن طيسمان دعوة ولها حلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها … بحر هوا او مطالب اهلا
فنقش احرفا بدال و لامها … و داک وفق للمربع حصلا
اذا لم يكن يهوی هواک ودلالها … فذاک لبيد و واو و زينب معطلا
فخذ لبانه و بانهم الی هواک … و بايقهم قبيلة جملا
ونقش مشاكل بشرط لبعضهم … وما زدت نسبة لفعلک عدلا
ومفتاح مريم وفعلها سواء … فنود و بسطا في سورتها تلا
وجعلک بالعضد و كن متفقدا … ادلة و حشی لنصفه مثلا

فاعكس بيوتا بالف وثيف … بباطنها ستر وفي سرها انجلا

فصل في المقامات للنهاية

لك الغيب صورة من العالم العلا … ويوجدها دارًا وطبها الحلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه … بشر وتزيتيل حقيقة انزلا
وفي يدع طول وفي الغيب ناطق … فيحكي الى عو ويجاذب طبلا
وقد جن بهلول لعشق جمالها … وعند تجليها لبسطام اخذلا
ومات احليه واشرب جهها … جنيد وبصرتي والحيم اهملا
فيطلبه في التهليل غاية ومن … باسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
ومن صاحب الحسنى له الفوز بالبهي … وتشيهم بالزلفى لدى حيرة العلا
وتخبر بالغيب اذا جدت حدمة … تريك عجايبا لمن كان مؤملا
فهذا هو الفوز وحسن نباله
ومنها زيادات لتفسيرها تلا

الوصية والختم والالمام والاسلام والتحريم والاهلية

فهذا قصيدنا وتسعون عده … وما زاد خطبة وختما وحد ولا
عجبت لابيات وتسعون عدها … تولد ابياتًا وما حصرها انجلا
فمن فهم السر فيفهم نفسه ويفهم … تفسيرا متشابهًا اشكلا
حرام وشرعي واظهار سرنا … لناس وان خصوا وكان التاهلا
فان شئت اهله فخذ يمينهم … وتقسم برجلة ودين تطولا
لعلك ان تنجو وسامع سرهم … من القطع بالافشاء فراس بالعلا
فيجل لعباس لسره كاتم فنال … سعادات وتابعة حلا
وقام رسول الله في الناس خاطبا … فمن راس عشرة فذلك اكملا
وقد ركب الارواح اجساد مظهر … فنالت تقتلهم بدق تطولا
الى العالم العلوي يغني فنا ذنا … وتلبس اثواب الوجود في الولا
فقد تم نظمنا وصلى الهنا … على سيدنا ساد الانام وكملا
محمد الهادي الشفيع … على سيدنا ساد الانام وكملا
محمد الهادي الشفيع امامنا … واصحابه اهل المكارم والعلا

رتبة ناشية عن الخلة ش خ اسع ٤ صي ٤ نطسهوطغ ههه

اس د ل ط و و ه اع لوطح الاوتار الكلية ١٢٢٤٤٤٤٤هـهح ود تر
الاول لم ٤٢٢٤٤ ج ٤ ع ٤هـ٤ج٤ ٨ ٤ ع ج ٢٤٤٤٤ ع ٤ مثنى مثلث
كملت الزايرجة **كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايرجة العالم لحول ايه السؤال** له ثلثمائة وستون جوابا عدة الدرج ويختلف الاجوبة عن سوال واحد في طالع مخصوص باختلاف الاسولة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيدة **تنبيه** تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلثة اصول حروف عربية تنقل على هيئاتها وحروف رسم الغبار فهذه تتبدل فمنها ما ينقل على هيئة متى لم تزد الادوار على اربعة فان زادت عن اربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ومنها حروف برشم الزمام كذلك غير ان رشم الزمام يعطى نسبة ثانية فهي بمنزلة واحد الف وبمنزلة عشر ولها نسبة من جهة بالعربي فاستحق البيت من الجدول ان توضع فيه ثلثة حروف في هذا الرشم فاختصروا من الجدول بيوتا خالية فمتى كانت اصول الادوار زايدة على اربعة حسبت في العدد في طول الجدول وان لم تزد على اربعة لم يحسب الا العام منها والعمل في السوال يفتقر الى سبع اصول عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثني عشر هي ثمانية ادوار في الكامل وستة في الناقص ابدًا ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصلي وهو واحد ابدًا وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصلي وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج على ثلثة ادوار مضروبة في اربعة تكون اثني عشر دورًا ونسبة هذه الثلثة الادوار التي هي كل دور من اربعة ثمثة كل نشاة لها ابتدا ثم انها تضرب ادوارا رباعية ايضا ثلاثية ثم انها من ستة في اثنين فكان لها نشاة يظهر ذلك في العمل وتتبع هذه الادوار نتايج وهي الادوار اما ان تكون نتيجة او اكثر الى ستة فاول ذلك نفرض سوال سائل عن الزايرجة هل هي علم محدث ام قديم بطالع اول درج من القوس فوضعنا حروف وتر راس القوس ونظيره من راس الجوزا وثالثة وتر راس الدور الى حد المركز واضفنا اليه حروف السوال ونظرنا عدتها واقل ما تكون ثمانية وثمانين واكثر ما تكون ستة وتسعين وهو جملة دور صحيح فكانت في سوالنا ثلثة وتسعين ويختصر السوال ان زاد على ستة وتسعين كما نسقط

جميع ادواره الاثنى عشرية وتحفظ ما خرج منها وما بقى فكانت فى سوالنا سبعة
ادوار الباقى لتسعة اثبتها فى الحروف مالم يبلغ الطالع اثنى عشر درج فان بلغها
لم تثبت لها عدة ولا دور ثم اثبت اعدادها ايضا ان زاد الطالع عن اربعة وعشرين
فى الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان الطالع وهو اربعة و
الاكبر وهو واحد واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان فى هذا السوال واضرب
ما خرج منها فى سلطان البرج يبلغ ثمانية واضعف السلطان للطالع يكون خمسة تعده
سبعة فما خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر فى سلطان النفوس مالم يبلغ
اثنى عشر فيه تدخل فى ضلع ثمانية من اسفل الجدول صاعدًا وان زاد على اثنا عشر
طرح ادوارًا وتدخل بالباقى فى ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة
من السلطان والطالع يكون المدخل فى ضلع السطح المبسوط الاعلى من الجدول وتعد
متواليًا خمسات اوادوارًا وتحفظها الى يقف العدد فى مقابلة البيوت العامرة
بالعدد من الجدول وان وقف فى مقابلة الخالى من بيوت الجدول على احدهما فلا تعتبر
وتستمر على ادوارك على حرف من اربعة وهو الف او با او جيم او زاى فوقع العدد
فى عملنا على حرف الف وخلف ثلثة ادوار فضربنا ثلثة فى ثلثة كانت تسعة
وهو عدد الدور الاول فاثبته واجمع ما بين الضلعين القايم والمبسوط يكن فى
بيت ثمانية وادخل بعددها فى الدور الاول وذلك تسعة فى صدر الجدول
مما يلى البيت الذى اجتمعا فيه مارًّا الى جهة اليسار وهو ثمانية فوقع على حرف
لام الف ولا يخرج ابدا منها حرف مركب وانما هو اذن حرف تا اربعمايه برسم
الزمام فعلم عليها بعد نقطها من بيت القصيدة واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلثة عشر
ادخل بها فى حرف الاوتار واثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيدة
ومن هذا القانون تدرى كم تدور الحروف فى النظم الطبيعى وذلك ان تجمع حروف
الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو اربعة يبلغ ثلثة عشر اضعفها بمثلها
تكن ستة وعشرين اسقط منه درج الطالع وذلك واحد فى السوال الباقى
خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلثة وعشرون مرتين
ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى ان ينتهى الى الواحد من آخر
البيت المنظوم ولا تقف على اربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد اولا ثم ضع
الدور الثانى وضعف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارج من ضرب الطالع

والدور فى السلطان تكن سبعة عشر الباقى خمسة فاصعد فى ضلع ثمانية عشر
بخمسة من حيث انتهت فى الدور الاول وعلم عليه وادخل فى صدر الجدول بسبعة
ثم بخمسة ولا تعد الخالى والدور عشرى فوجدنا حرف تا خمسمائة وانما هو نون
لان دورنا فى مرتبة العشرات وكانت الخمسمائة بخمسين لان دورها سبعة عشر
فلو يكن سبعة وعشرين لكان ميلينيا فاثبت نون ثم ادخل بخمسة ايضا من اوله
وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحدًا فتعتبر العدد واحدًا يقع على خمسة
اضف لها واحد السطح يكون ستة اثبت واو وعلم عليها من بيت القصيد
اربعة واضعفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور فى السلطان يبلغ اثنى عشر
اضف لها الباقى من الدور الثانى وهو خمسة يبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثانى
فدخلنا بسبعة عشر فى حرف الاوتار فوقع العدد على واحد اثبت الف
وعلم عليها من بيت القصيد واسقط من حروف الاوتار ثلثة حروف
عدة الخارجة من الدور الثانى وضع الدور الثالث واضف خمسة الى ثمانية
يكن ثلثة عشر الباقى واحد انتقل الدور فى ضلع ثمانية بواحد وادخل فى بيت
القصيد بثلثة عشر وخذ ما وقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل
بثلثة عشر فى حروف الاوتار واثبت ما خرج وهو س وعلم عليه من بيت
القصيد ثم ادخل مما يلى السين الخارجة بالباقى من دور ثلثة عشر وذلك واحد
تجد ما يلى حرف سين من الاوتار فكانت ب اثبتها وعلم عليها من بيت القصيد
وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو ان تضعف ثلثة عشر
بمثلها اليها وتضعيف اليها الواحد الباقى من الدور يبلغ سبعة وعشرين وهو
حرف بالمستخرج من الاوتار من بيت القصيد وادخل فى صدر الجدول
بثلثة عشر وانظر ما قابله من السطح واضعفه بمثله وزد عليه الواحد الباقى
من ثلثة عشر وكان حرف جيم فكان الخمسة سبعة فذلك حرف زاى فاثبتناه
وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه ان تضعف سبعة بمثلها وزد عليها
الواحد الباقى من ثلثة عشر يكون خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد
وهذا اخر ادوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة
الباقى من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور فى السلطان وهذا الدور
آخر العمل فى البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد

بتسعه فى ضلع ثمانية وادخل بتسعة من دور الحرف الذى اخذته آخر من بيت
القصيد فالتاسع حرف را فاثبته وعلم عليه وادخل فى صدر الجدول
بتسعة وانظر ما قابلهما من السطح يكون جيم فهو العدد واحد يكون الف
وهو الثانى من حروف الرآ من بيت القصيد فاثبته وعلم عليه وعدتها
يلى الثانى تسعه يكون الف ايضا اثبته وعلم عليه واضرب على حرفين من الاوتار
واضف تسعة لمثلها تبلغ ثمانية عشر وادخل بها فى حروف الاوتار تقف
على حرف را اثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية واربعة وادخل
ثمانية عشر فى حروف الاوتار تقف على سين اثبتها وعلم عليها اثنين وضعف
اثنين الى تسعة تكن احد عشر ادخل فى صدر الجدول الى احد عشر فقابلها من السطح
الف اثبتها وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر التابع خمسه
اصعد بخمسة فى ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الاوتار واضف خمسة مثلها
واضفها الى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون ادخل بها فى حروف
الاوتار فتقع على ت اثبتها وعلم عليها اثنين وثلثين واطرح من سبعة عشر اثنين
التى هى فى اس اثنين وثلثين الباقى خمسة عشر ادخل بها فى حروف الاوتار تقف
على قاف اثبتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخل فى صدر الجدول بستة وعشرين
تقف على اثنين بالغبار وذلك وذلك حرف با اثبته وعلم عليه اربعة وخمسين
واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السادس وعدته ثلثة عشر التابع منه
واحد فتبين اذ ذاك ان دور النظم من خمسة وعشرين وهو الدور فى نظم
البيت فانقل الدور فى ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخلوا فى بيت القصيد ثلثة عشر
كما قدمناه لانه دور ثان من نشاة تركيبه ثانية بل اضعفنا الاربعة التى من اربعة
وخمسين الخارجة على حرف با من بيت القصيد الى الواحد يكون خمسة فضعف
خمسة الى ثلثة عشر التى للدور تبلغ ثمانية عشر ادخل بها فى صدر الجدول بها
وخذ ما قبلها من السطح وهو الف اثبته وعلم عليه من بيت القصيد اثنا عشر
واضرب على حرفين من الاوتار ومن هذا الحد تنظر احرف السوال فما خرج منها
رده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السوال ليكون داخلا
فى العدد فى بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف خرج بعد ذلك مناسبا
لحروف السوال ليكون داخلا فى العدد فى بيت القصيد وكذلك تفعل

بكل

بكل حرف خرج بعد ذلك مناسبا لحروف السوال فما خرج منها رده الى بيت
القصيد من آخره وعلم عليه وكذلك تفعل بكل حرف خرج بعد ذلك
مناسبا لحروف السوال ثم اضعف الى ثمانية عشر ما علمته على حرف الالف
من الاحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين ادخل بها فى حروف الاوتار
تقف على را اثبته وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور
فى الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السابع وهو ابتدا
المخترع تاتى بنيتى من الاختراعين وبهذا الدور من العدد تسعة تضعف لها واحد
يكن عشرين المنشاة الثانية وهذا الواحد تزيده بعد الى اثنى عشر دورا اذا كان
من هذه النسبة او تنقصه من الاصل تبلغ الجملة عشرة فاصعد فى ضلع ثمانية
وتسعين وادخل فى صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة وانما هى خمسون
نون لمضاعفة بمثلها وتلك ق فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين
واسقط من اثنين وخمسين اثنين واسقط تسعة الذى للدور التابع احد
واربعون فادخل بها فى حروف الاوتار تقف على واحد اثبته وكذلك
ادخل بها فى بيت القصيد تجد واحدا فهذا ميزان هذه النشاءة الثانيه تعلم عليه
من بيت القصيد علامتين علامة فى الالف الاخير الميزانى واخرى على الالف
الاولى فقط والثانية اربعة وعشرون واضرب على حرفين من الاوتار وضع
الدور التاسع وعدده سبعة عشر التابع خمسة ادخل فى ضلع ثمانية وخمسين وادخل
فى بيت القصيد بخمسة تقع على ع سبعين اثبتها وعلم عليها وادخل فى الجدول
بخمسة وخذ ما قابلها من السطح وذلك واحد اثبته وعلم عليه من البيت ثمانية
واربعين واسقط واحدا من ثمانية واربعين للاس التابع واضعف لها خمسة الدور
الجملة اثنان وخمسون ادخل بها فى صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية
وهى مرتبة مئينية لتزايد العدد فتكون مائتين وهى حرف را اثبتها وعلم عليها من
بيت القصيد اربعة وعشرين فانتقل الامر من ستة وتسعين الى الابتداء وهو اربعة
وعشرون فضعف الى اربعة وعشرين خمسة الدور واسقط واحدا تكون الجملة
ثمانية وعشرين ادخل بالنصف منها فى بيت القصيد تقف على ثمانية اثبت ح
وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ثلثة عشر الباقى واحد اصعد فى ضلع
ثمانية بواحد وليست نسبة العمل هنا كنسبتها فى الدور السادس لتضاعف العدد

ولانه من النشاة الثانية ولانه اول الثلث الثالث من مربعات البروج
واخر النسبة الرابعة من المثلثات فاضرب ثلثة عشر التى للدور فى اربعة
التى هى مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون ادخل بها
فى صدر الجدول تقف على حرف اثنين عبارية وانما هى مئينية لتجاوزها
فى العدد عن مرتبتى الآحاد والعشرات فاثبته مائتين را وعلم عليها من بيت
القصيد ثمانية واربعين واضف الى ثلثة عشر الدور واحد الاس
وادخل باربعة عشر فى بيت القصيد يبلغ ح فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح
من اربعة عشر سبعة تبقى سبعة اضرب على حرفين من الاوتار وادخل لسبعة تقف
حرف لام اثبته وعلم عليه من البيت وضع الدور العاشر عدده لتسعة وهذا
ابتدار المثلثة الرابعة واصعد فى ضلع ثمانية بتسعة يكون خلا فاصعد بتسعة
ثانية تصير فى السابع من الابتداء اضرب لتسعة فى اربعة لصعودنا بتسعتين
وانما كانت تضرب فى اثنين ادخل فى الجدول لستة وثلثين تقف على اربعة
زمامية وهى عشرية فاخذناها احادية لقلة الادوار فاثبت حرف دال
وان اضفت الى ستة وثلثين واحد الاس كان حدها من بيت القصيد فعلم عليها
ولو دخلت بتسعة لا غير من غير ضرب فى صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح
من ثمانية واربعين الباقى اربعة وهو المقصود ولو دخلت فى صدر الجدول
ثمانية عشر التى هى لتسعة فى اثنين لوقف على واحد زمامى وهو عشرى فاطرح
منه اثنين تكرار التسعة الباقى ثمانية لضعفها المطلوب ولو تدخل فى صدر
الجدول لسبعة وعشرين ضربها فى ثلثة لوقف على عشرة زمامية والعمل واحد
ثم ادخل بتسعة فى بيت القصيد واثبت ما خرج وهو الف ثم اضرب لتسعة
فى ثلثة التى حركب لتسعة الماضية واسقط واحدا وادخل فى صدر الجدول لستة
وعشرين واثبت ما خرج وهو مائتان بحرف را وعلم عليه من بيت القصيد
ستة وتسعين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الحادى عشر
وله سبعة عشر الباقى خمسة اصعد فى ضلع ثمانية بخمسة وتجنب ما تكرر عليه المثنى
فى الدور الاول وادخل فى صدر الجدول باربعة تقف على خال فخذ ما قابله
من السطح وهو واحد فادخل بواحد فى بيت القصيد يكون رس اثبته
وعلم عليه اربعة ولو يكون الوقوف فى الجدول على بيت جام لا تثبتنا الواحد

ثلثة واضعف سبعة عشر بمثلها واسقط واحدها وزد بها اربعة تبلغ سبعة
وثلثين ادخل بها فى الاوتار تقف على ه اثبتها وعلم عليها خمسة واضعفها
بمثلها وادخل فى البيت على آ اثبتها وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين
من الاوتار وضع الدور الثانى عشر وله ثلثة عشر الباقى واحد اصعد فى
ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور اخر الادوار وآخر الاخراجين واخر المربعات
الثلثة واخر المثلثات الرابعة فالواحد فى صدر الجدول يقع على ثمانين
زمامية وانما هى آحاد ثمانية وليس معنا فى الادوار الا وحدة فلو زاد على اربعة
من مربعات اثنى عشر او ثلثة من مثلثات اثنى عشر لكانت ح وانما هى
دال فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها
من السطح يكن خمسة اضعفها بمثلها للاس تبلغ عشرة اثبت وعلم عليها
وانظر فى اى المراتب وقعت وجدنا فى السابعة فدخلنا بسبعة فى حروف
الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفى فكانت ت اثبتها وضف الى السبعة
واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها فى الاوتار تبلغ س اثبتها وعلم عليها
ثمانية واضرب ثمانية فى ثلثة الزائد على عشرة الدور فانها آخر مربعات
الادوار المثلثات تبلغ اربعة وعشرين ادخل بها فى بيت القصيد وعلم
على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون وهو نهاية الدور الثانى عشر
فى الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى لها لتسعة
وهذا العدد يناسب ابدا الباقى من حروف الاوتار بعد طرحها ادوارا وذلك
لتسعة فاضرب لتسعة فى ثلثة التى هى زايدة على تسعين من حروف الاوتار وضعف
لها واحدا الباقى من الدور الثانى يبلغ ثمانية وعشرين فادخل بها فى حروف
الاوتار تبلغ الف اثبته وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت لتسعة التى
هى ادوار الحروف التسعينية فى اربعة وهى الثلثة الزايدة على تسعين
والواحد الباقى من الدور الثانى عشر كذلك واصعد فى ضلع ثمانية بتسعة
وادخل فى الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية واضرب لتسعة فيما ناسب
من السطح وذلك ثلثة واضعف لذلك سبعة عدد الادوار الحرفية
واطرح واحدا الباقى من دور اثنى عشر يبلغ ثلثة وثلثين ادخل بها فى البيت
يبلغ خمسة فاضعفها واضعف لتسعة بمثلها وادخل فى صدر الجدول

بثمانية عشر وخذ ما فی السطوح وهو واحدا ادخل به فی حروف الاوتار وضع النتيجة
ولها سبعة عشر الباقی خمسة فاصعد فی ضلع ثمانية وخمسين واضرب خمسة فی ثلثه
الزائدة علی تسعين تبلغ خمسة عشر اضف لها واحدا الباقی من الدور الثانی عشر
تكن عشرة وادخل بستة عشر فی البيت تبلغ تا اثبته وعلم عليه اربعة وستين
وضف الی خمسة عشر الزائدة علی تسعين وزد واحد الباقی من الدور الثانی عشر
يكن تسعة وثلثين ادخل بها فی صدر الجدول تبلغ ثلثين زماميه وانظر
ما فی السطح تجد واحدًا اثبته وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع ايضا
من البيت وادخل بتسعة فی صدر الجدول تقف علی ثلثة وهو عشرات
فاثبت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلثة عشر الباقی
واحد فانقل فی ضلع ثمانية بواحد وضف الی ثلثة عشر الثلثة الزايده
علی تسعين وواحد الباقی من الدور الثانی عشر يبلغ سبعة عشر وواحد
النتيجة يكن ثمانية عشر ادخل بها فی حروف الاوتار تكن لام انتهی
فهذا آخر العمل المثال فی هذا السوال اب لو اردنا ان نعلم ان هذه الزايرجه
علم محدث ام قديم بطالع اول درج القوس حروف الاوتار ثم حروف
السوال ثم الاصول وهی عدة الحروف ثلثة وتسعون ادوارها سبعة
الباقی منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس اربعة الدور الاكبر واحد درج
الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور فی السلطان ثمانية
اضافة السلطان للطالع خمسة

بيت القصيد

سوآل عظيم الخلق حزت فصن اذا غرايب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الاوتار

ص ط ك ط ه ز ب ك ه م ض ص و ن ث ه ش ا
ب ل م ن ص ع ف ض ق ر س ى ل م ن ص ع ف ق
ر ش ت ث خ ذ ظ ع ش ط ك ن ع ح ص ر و ح ل ص
ن ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ى

السوال

ا ل ز ر ك ا ج ت ع ل ا م ح د ث ا م ق د ى م

Right-hand margin note: تبلغ م اثبته وعلم عليه واضرب علی حرفين من الاوتار

Note at the foot of the right-hand page: الدور

الدور الاول تسعة	الدور العاشر تسعة
الدور الثانی سبعة وعشرون الباقی خمسة	الدور الحادی عشر سبعة عشر الباقی خمسة
الدور الثالث ثلثة عشر واحد	الدور الثانی عشر ثلثة الباقی واحد
الدور الرابع تسعة	النتيجة الاولی تسعة
الدور الخامس سبعة عشر الباقی خمسة	النتيجة الثانية سبعة عشر الباقی خمسة
الدور السادس ثلثة عشر الباقی واحد	النتيجة الثالثة ثلثة عشر الباقی واحد
الدور السابع تسعة	٨ ع ٦ ع
الدور الثامن سبعة عشر الباقی خمسة	
الدور التاسع ثلثة عشر الباقی ١	

Letters in the left-hand margin: س و ا ل ع ظ ى م ا ل خ ل ق ح ز ت ف ص ن ا د ن ع ر ا ى ب ش ك ض ب ط ه ا ل ج د م ث ل ا

ت ون اق س ب زرا ا رس ات ق ب ا ر ق اع ا ر م ح ر ج
ل د ا ر س ه ل ل د ى ف ر ا ه ال ل دورها على حمسة
وعشرين ثم على ثلثة وعشرين مرتين ثم على احد وعشرين مرتين الى ان ينتهى
الواحد من آخر البيت وتنقل الحروف جميعها والله اعلم
ت ر و ح ن ر و ح ال ق د س اب ر ز س ر ه ال ا د ر ى س
ف اس ت ر ق ا ب ه ا م د ت ق ا ل ع ل ا هذا آخر
فى استخراج الاجوبة من زايرجة العالم منظومة وللقوم طريقة آخر من الزايرجة
يستخرجون بها اجوبة المسايل غير منظومة وعندى ان السر فى خروج الجواب
منظوما من الزايرجة انما هو مزجهم بيت ملك بن وهيب وهو سوال
عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه واما الطرق الاخرى
فيخرج منها الجواب غير منظوم فمن طرايقهم فى استخراج الاجوبة ما نقله
قال بعض المحققين منهم **فصل** فى الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات
الحرفية اعلم ارشدنا الله واياك ان هذه الحروف اصل الاسولة فى كل قضية
وانما تستنتج الاجوبة على التجزية بالكلية وهى ثلثة واربعون حرفا كما ترى
ا و ل ا ع ط س ال م خ د ل ز ق ت ا ف ذ ص ر ن غ ش
ر ا ك ك ى ب م ض ب ج ط ل ح د ش ل ث ا
وقد نظمها بعض الفضلاء فى بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين
وسماه القطب سوال عظيم الخلق حزت فصن اذا غرايب شك ضبطه الجد مثلا
فاذا اردت استنتاج المسئلة فاحذف ما تكرر من حروفها واثبت ما فضل منها
ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفا مماثله
واثبت ما فضل منه ثم امزج الفضلتين فى سطر واحد تبدا بالاول من فضلة
الاصل والثانى من فضلة المسئلة وكذلك الى ان تتم الفضلتين او ينفذ احديهما
قبل الاخرى فتضع البقية على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج
موافقا لعدد حروف الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح فخذه تضيف اليها
خمس نونات لتعتدل بها الموازين الموسيقية فتكمل الحروف ثمانية واربعون
حرفا فتعمر بها جدولا فربما يكون آخر ما فى السطر الاول اول ما فى السطر الثانى
وتنقل البقية على حالها وكذلك الى ان تتم عمارة الجدول ويعود السطر الاول

بعينه وتتوالى الحروف فى القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة
وربعه على اعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية
للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازنها الروحانية وغرايزها
النفسانية واسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

ا	القوى	الموازين	الغرائز	الاسوس
ب	١٧ [illegible]	ل [illegible]	٦ ٧	[illegible]
ج	[illegible]	٥ ٢ ٦	[illegible]	س ٤
د	[illegible]	٧ [illegible]	[illegible]	٧ ٦ [illegible]
ه	١ [illegible]	[illegible]	٦ [illegible]	٦ [illegible]
و			ك ٧ ٤	١ [illegible]
ز			[illegible]	٦ ٥

و [illegible]	الموازين	[illegible]
[illegible]	ط	[illegible] ٤

[illegible]

ثم تاخذ وتر كل حرف بعد ضربه فى اسوس اوتاد الفلك الاربعة
واحذر ما يلى الاوتاد وكذلك السواقط فان نسبتها مضطربة وهذا الخارج
هو اول رتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط عنها اسوس المولدات
تبقى اسوس عالم الخلق بعد وضعه للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن
عن المواد وهى عناصر الامداد يخرج افق النفس الاوسط وتطرح اول رتب السريان
من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعالم الاكوان من البسيطة
لا المركبة وتضرب عالم التوسط فى افق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى
فتحمل عليه اول رتب السريان فتضرب مجموع اجزاء العناصر ابدا فى رابع
مرتبة السريان يخرج اول عالم التفصيل والثانى فى الثانى يخرج ثانى عالم التفصيل
والثالث فى الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع فى الرابع يخرج رابع
عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة
فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول فيقسم المتكسر على الافق الاوسط
يخرج الجزء الثانى وما انكسر فهو الثالث فيتعين الرابع هذا فى الرباعى وان شئت
اكثر من الرباعى فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن
الاوفاق بعدد الحروف والله يرشدنا واياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد

على اول رتب السريان خرج الجزء الاول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة
الاخيرة من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين ومن طرق تقيم ايضا في
استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم ايدنا الله واياك بروح منه ان علم
علم جليل يتوصل العالم به لما لا يتصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم
والعمل به بشرايط تلتزم وقد يستخرج العالم به اسرار الحليقة وسراير الطبيعة
فيطلع بذلك على نتيجتي الفلسفة اعني السيميا واختها ويرفع له حجاب المستورات
ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهد جماعة بارض المغرب
ممن اتصل بذلك فاظهر العجايب وخرق العوايد وتصرف في الوجود
بتاييد الله واعلم ان ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر
مفتاح كل خير كما ان الخرق والعجلة راس الحرمان فاقول اذا اردت ان
تعلم قوة كل حرف من حروف القانطوس اعنى ابجد الى آخر العدد
وهذا اول مدخل من علم الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الاعداد
فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحروف هي قوته في الجسمانيات ثم العدد
في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره وهذا في الحروف المنقوطة
لا يتم بل تيم في الغير منقوطة لان المنقوط منها مراتب لمعاني ياتي عليها البيان
فيما بعد واعلم ان لكل شكل في اشكال الحروف شكلا في العالم العلوي اعنى
الكرسي ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في اماكنه
من الجداول الموضوعة في الزايرج واعلم ان قوى الحرف ثلثة اقسام الاول
هو اقلها قوة تظهر بعد كتابتها فيكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف
المرسوم فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف
موثرة في عالم الاجسام الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر
عن تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية
في عالم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن اعنى القوة النفسانية على تكوينه
فيكون قبل النطق به صورة في النفس وبعد النطق به صورة في الحروف
وقوة في النطق واما طبايعها فهي الطبيعيات المنسوبات للمتولدات وهي
الحرارة واليبوسة والحرارة والبرودة والبرودة والرطوبة والبرودة
واليبوسة فهذا سر العدد الثماني والحرارة جامعة للهواء والنار وبها

اه طم ف ش ذ ب زك س ق ث ط والبرودة جامعة للارض والماء
وح ل ع رخ ع ب وى ن ص ت ض والرطوبة جامعة للهواء والنار
بح زك س ق ث ط وح ل ع رخ غ واليبوسة جامعة للنار والارض
اه دم ف ش وب وى ن ص ت ض فهذه نسبة حروف الطبايع
وتداخل اجزاء بعضها في بعض وتداخل اجزاء العالم فيها علويا وسفليا
باسباب الامهات الاول اعنى الطبايع الاربع المفردة فصل فمتى اردت
استخراج مجهول من مسئلة ما فحقق طالع السائل او طالع مسئلته واستنطق حروف
اوتادها الاربعة ا و ع و ح و ه ا مستوية مرتبة واستخرج اعداد القوى
والاوتاد كما سبق واجمل النسبة واستفتح الجواب يخرج لك المطلوب
اما بصريح اللفظ او بالمعنى وكذلك تقع لك بيانه اذا اردت ان تستخرج
قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع اعدادها بالجمل الكبير فكان
فكان الطالع الحمل رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدي وهو
اقوى هذه الاوتاد فاسقط من كل برج من الاعداد المنطقة الموضوعة في
دايرتها واحذف اجزاء الكسير في النسب الاستنطاقية كلها واثبت تحت كل
حرف ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الاربعة وما يخصها كالاول
وارسم كله احرفا ورتب الاوتاد والقوى والعناصر سطرا ممتزجا وكسر واضرب
ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع وافتح الجواب يخرج لك الضمير وجوابه مثال
ذلك افرض ان الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فللحاء من العدد
ثمانية لها النصف والربع والثمن د ب ا الميم لها من العدد اربعون لها
النصف والربع والثمن والعشر ونصف العشر ان اردت التدقيق م ك
ه د ب اللام لها من العدد ثلثون لها النصف والثلثان والثلث والخمس
والسدس والعشر يه ك ى و ه ج وكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم
من كل لفظ يقع لك واما استخراج الاوتار فهو ان تقسم مربع كل حرف
على اعظم جزء يوجد لها مثاله حرف دال له من الاعداد اربعة مربعها
ستة عشر اقسمها على اعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية
ثم تضع كل وتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق
ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول

كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح فصل في الاستدلال على ما في الضماير
الخفية بالقوانين الحرفية وذلك لو سال سائل عن عليل ما لم يعرف مرضه ما علته
وما الموافق لبرئها من الادوية فمر السايل ان يسمي شيئا من الاشيا على اسم العلة المجهولة
لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسايل
واليوم والساعة وافعلت به كما بينت فاقول مثلا سمى السايل فرسا فاثبت الحروف الثلثة
م ر ك ى ح د ثم الراء لها من العدد مايتان ولها ف ق ك ه ك ى ثم السين لها من العدد
ستون ولها م ل ك ى وج فالواو عدد ما له د ج ب والسين مثله لها م ل ك ى
فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصرين متساويين فاحكم لاكثرهما حروفا بالغلبة
على الاخر ثم اجمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك
اسم الطالب واحكم للاكثر والاقوى بالغلبة وصفة استخراج قوى العناصر

نار تراب هوا ما
م م ن ى ن مى ى ى ح ى ى ى ا آ ح ل

فيكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرد واليبوسة طبع السودا فتحكم على المرض
بالسودا فاذا العنت من حرف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريبية خرج موضع
الوجع في الحلق ويوافقه من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليمون هذا
ما خرج من قوى اعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر واما استخراج قوى
العناصر الاربعة على ترتيب الفلك يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد

ومثاله
نار تراب هوا ما
ا ا ا ب ب ب ج ج د د د
م م ن ن ن ز ز ز ى ى ح ح ح
ى ى ى ل ل ل
ن ن ق ع ع ع ر ر ر

فنجد اقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الما لان عدد حروف
عشرون حرفا فجعلت الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وبهذا تفعل لجميع الاسما
حينئذ تضاف الى نارها او للوتر المنسوب للطالع في الزايرجه او لوتر البيت
المنسوب لمالك بن وهيب الذي جعله قاعدة لمزج الاسوالة وهو
سوال عظيم الخلق خزت فصل اذن غايب شك ضبطه الجد الجلا
وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام واصحابه وهو عمل
تام قايم بنفسه في المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور ان ترسمه
مقطعا ممتزجا بالفاظ السوال على قانون صنعة التكسير وعدة حروف هذا

الوتر على البيت ثلثة واربعون حرفا لان كل حرف مشدد من حرفين ثم تحذف
ما يتكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفا بمائة و
تثبت الفضلتين سطرا ممتزجا بعضه ببعض الحروف الاول من فضلة القطب والثاني
من فضلة السوال حتى تتم الفضلتان جميعا فتكون ثلثة واربعين فتضيف اليها
خمس نونات لتكون ثمانية واربعين وتعتدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع
الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الاصلي
قبل الحذف فالعمل صحيح ثم تعمر بما خرجت جدولا مربعا يكون آخر ما في السطر الاول
اول ما في السطر الثاني وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى عايلا
لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية و
موازينها الروحانية ودوايرها النفسانية واسوسها الاصلية من الجدول الموضوع
لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو ان تنظر الحرف الاول من الجدول
ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فان اتفقا فحسن والا فاستخرج بين الحرفين
نسبة وتتبع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقيق ذلك سهل على من عرف
قوانينه كما هي مقررة في دائرتها الموسيقية ثم تاخذ وتر كل حرف بعد ضربه
في اسوس اوتاد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر بابي الاوتاد وكذلك السواقط
لان نسبها مضطربة وهذا الذي يخرج لك هو اول رتب السريان ثم تاخذ مجموع العناصر
وتحط منها اسس المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فيحمل
عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج افق النفس الاوسط وتطرح
اول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعالم الاكوان
البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في افق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى
فتحمل عليه اول رتب السريان ثم تطرح من الرابع اول عناصر الامداد الاصلي يبقى ثالث
رتبة السريان فتضرب مجموع اجزاء العناصر ابدا في رابع رتبة السريان يخرج عالم التفصيل
وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول
ومن هنا يطرد العمل لتمامه وله مقدمات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما
وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة
الالهية والنيرجات الفلسفية واعلم ان هذه الاعمال كلها انما يتوصل بها الى حصول
جواب مطابق للسوال في المعنى فقط لانه يعثر بها على غيب وهي من قبيل الملح كما تقدم

لنا اول الكتاب وكذلك ليست من علم السيميا كما بيناه والله الملهم وبه المستعان وعليه التكلان
وحسبنا الله ونعم الوكيل **علم الكيمياء** وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب
والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك فيتصفحون المكونات
كلها بعد معرفة امزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات
الحيوانية كالعظام والريش والشعر والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن
ثم يشرح الاعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى
اجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامهاء الصلب
بالفهر والصلاية وامثال ذلك وفي زعمهم انه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم
طبيعي يسمونه الاكسير الاعظم وانه يلقى على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب
او الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد ان يحمى
بالنار فيعود ذهبا ابريزا ويكنون عن ذلك بالاكسير اذا الغزوا اصطلاحاتهم بالروح
وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي
الذي يقلب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال
الناس يولعون فيها قديما وحديثا وربما يعزى فيها الكلام الى من ليس من اهلها وامام المدونين
فيها عندهم جابر بن حيان حتى انهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة
كلها شبيهة بالالغاز وزعم انه لا يفتح مقفلها الا من احاط علماً بجميع ما فيها والطغرائي من
حكماء المشرق المتأخرين فيها دواوين ومناظرات مع اهلها وغيرهم من الحكماء وكتب
مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه غاية الحكيم وزعم ان هاتين الصناعتين
هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم
والحكمة اجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم اجمع في تواليفهم هي الغاز يتعذر
فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز
والالغاز ولابن المغيربي من ائمة هذا الشان كلمات شعرية رويها على حروف
المعجم من ابدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الاحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم
وقد ينسبون للغزالي بعض التواليف فيها وليس ذلك بصحيح لان الرجل لم يكن مداركه العالية
لتقف عن خطاء ما يذهبون اليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها
لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالد بن يزيد بن
معاوية ربيب مروان بن الحكم من الجيل العربي والبداوة اليه اقرب فهو بعيد عن العلوم

لكنه اخذ هذا العلم عن راهب بجبلة ذا الانسان عدو لما جهله والله قدير لا رب غيره
دا

والصنا

والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات
وامزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم
اللهم الا ان يكون خالد بن يزيد آخر من اهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن وانا
انقل لك هنا رسالة ابي بكر بن بشرون لابن السمح في هذه الصناعة وكلاهما من
تلميذ مسلمة المجريطي فتستدل من كلامه فيها على ما ذهب اليه في شانها اذا اعطيته
حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات
التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتص جميعها اهل الفلسفة من معرفة
تكوين المعادن وتخلق الاحجار والجواهر وطباع البقاع والاماكن فمنعنا اشتهارها
عن ذكرها ولكن ابين لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فنبدأ بمعرفته فقالوا ينبغي
لطلاب هذا العلم ان يعلموا اولا ثلث خصال اولها هل تكون والثانية من اي شيء
تكون والثالثة كيف تكون فاذا عرفت هذه الثلث واحكمها فقد ظفر بمطلوبه
وبلغ نهايته من هذا العلم فاما البحث عن وجودها والاستدلال على تكونها فقد
كفيناكه بما بعثنا به اليك فاما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها من الكسير
واما من اي شيء تكون فانما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكن العمل وان كان العمل
موجودا من كل شيء بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليها ترجع
انتهاء ولكن من الاشياء ما يكون فيه بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها لاستغراق
بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله
ان تعرف اوفق الاحجار المنفصلة التي يمكن منها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر
من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف
هذه الاصول التي هي عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير ابدا وينبغي لك ان تعلم
هل يمكن ان يستعان عليه بغيره ام يكتفي به وحده وهل هو واحد في الابتداء ام يشاركه
غيره فصار في التدبير واحدا فيسمى حجرا وينبغي ان تعلم كيفية عمله وكميته اوزانه
وازمانه وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها
منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلاي علة وما السبب الموجب لذلك فان هذا
هو المطلوب فافهم واعلم ان الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت انها
المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك ان الجسد
اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره

لانه لاحياة فيه ولانور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصنعة
شبيهة بجسد الانسان الذى تركيبه على الغذاء والغذاء وقوامه وتمامه بالنفس
الحية النورانية التى يفعل بها العظايم والاشياء المتقابلة التى لا يقدر عليها
غيرها بالقوة الحية التى فيها وانما نفس الانسان لاختلاف تركيب طبايعه و
لو اتفقت طبايعه وسلمت من الاعراض والتضاد لم تقدر النفس على الخروج
من جسده ولكان خالدًا باقيا فسبحان مدبر الاشياء، واعلم ان طبايع التى يحدث
عنها هذا العمل كيفية واقعة فى الابتداء فيقينة محتاجة الى الانتهاء وليس لها
اذا صارت فى هذا الجسد ان يستحيل الى ما منه تركبت كما قلناه آنفاً فى الانسان
لان طبايع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا اشبهها
بالنفس فى قوتها وفعلها وبالجسد فى تركيبه وجثته بعد ان كان طبايع
مفردة باعيانها فيا عجبا من افاعيل الطبايع ان القوة للضعيف الذى
يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتمامها فلذلك قلت قوى وضعيف وانما
وقع التغير والفناء فى التركيب الاول للاختلاف وعدم ذلك فى الثانى للاتفاق
وقد قال بعض الاولين التفصيل والتقطيع فى هذا العمل حياة وبقاء والتركيب
موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكيم اراد بقوله حياة وبقاء
بخروجه من العدم الى الوجود لانه ما دام على تركيبه الاول فهو فان لا محالة
فاذا ركب التركيب الثانى عدم الفناء والتركيب الثانى لا يكون الا بعد التفصيل
والتقطيع فان التفصيل والتقطيع فى هذا العمل خاصة فاذا القى الجسد
المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار فى الجسد بمنزلة النفس
التى لا صورة لها وذلك انه لا وزن له وسترى ذلك ان شاء الله تعالى
وقد ينبغى لك ان تعلم ان اختلاط اللطيف باللطيف اهون من اختلاط
الغليظ بالغليظ وانما اريد بذلك التشاكل فى الارواح والاجساد
لان الاشيا تتصل باشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم ان العمل اوفق واليسير
من الطبايع اللطيفة الروحانية منها من الغليظة الجسمانية وقد يتصور
فى العقل ان الاحجار اقوى واصبر على النار من الارواح كما ترى الذهب والحديد
والنحاس اصبر على النار من الكبريت والزيبق وغيرهما من الارواح فاقول
ان الاجساد قد كانت ارواحا فى بدنها فلما اصابها حر الكيان قلبها

اجسادا لزجة غليظة فلم تقدر النار على اكلها لافراط غلظها وتلزجها فاذا افرطت
النار عليها صيرتها ارواحا كما كانت اول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة
ان اصابتها النار ابقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغى ان يعلم ما صير الاجساد
فى هذه الحالة وصير الارواح فى هذه الحال فهو جل ما نعرفه اقول انما ابقت تلك الارواح
واحترقت لاشتعالها ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان النار اذا
احست بالرطوبة تعلق بها لانها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذيها الى ان تفنى
وكذلك اذا ابقت بوصول النار اليها بقلة تلزجها وغلظها وانما صارت تلك
الاجساد لا تشتعل لانها مركبة من ارض وماء صابر على النار بلطيفه متحد
بكثيفه بطول الطبخ اللين الممازج الاشياء وذلك ان كل ما لا يشتعل انما تبلى اشياء
بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه فى بعض على غير التحليل والموافقة
فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن
وما اشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبايع وتقابلها فاذا علمت
ذلك علما شافيا فقد اخذت حظك منها وينبغى لك ان تعلم ان الاخلاط التى اى
طبايع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض متصلة من جوهر واحد يجمعها
نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب فى الجزء منه ولا فى الكل كما قال الفيلسوف
انك ان احكمت تدبير الطبايع وتاليفها ولم تدخل عليها غريبا فقد زاغ عنها ونشع
الخطاء واعلم ان هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من قرابتها على ما ينبغى فى الحل
حتى يشاكلها فى الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيث ما جرى لان الاجساد
ما كانت غليظة جافية لا ينبسط ولا تتزاوج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح
فافهم هداك الله هذا القول واعلم هداك الله ان هذا الحل فى جسد الحيوان هو الحق
الذى لا يضمحل ولا ينتقض وهو الذى يقلب الطبايع ويمسكها ويظهر لها الوانا و
ازهارا عجيبة وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لانه مخالف للحياة
وانما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبايع
عن حالاتها الى ما لها ان تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها
من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ
وكل عمل لا يرى له مصداق فى اوله فلا خير فيه واعلم ان البارد من الطبايع هو
ييبس الاشياء ويعقد رطوبتها والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها

انما افردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعن انفعال
كل واحد منهما لصاحبه تحدث الاجسام وتكون وان كان الحر اكثر فعلاً في ذلك
من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت
علة الكون وهي الحرارة لم يتم منها شيء ابداً كما انه اذا افرطت الحرارة على شيء ولم يكن
ثم برد احرقته واهلكته فمن اجل هذه العلة احتيج الى البارد في هذه الاعمال
ليقوي به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم تحذر الفلاسفة اكثر شيء
الا من النيران المحرقة وامرت بتطهير الطبايع والانفاس واخراج دنسها ورطوبتها
ونفي آفاتها واوساخها عنها على ذلك استقام رايهم وتدبيرهم فان علمهم انما هو مع
النار اولا واليها يصير آخراً فلذلك قالوا اياكم والنيران المحرقات وانما
ارادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون اسرع لهلاكه وكذلك
كل شيء انما يتلاشى ويفسد لتضاد طبايعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يحد
ما يقويه ويعينه الا قهرته الآفة واهلكته واعلم ان الحكماء ذكرت تردادالارواح
على الاجساد مراراً ليكون الزم اليها واقوى على قتال النار اذا هي باشرتها عند
الالفة اعني بذلك النار العنصرية في عمله ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه
العمل على ما ذكرته الفلاسفة وقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم انه في الحيوان
ومنهم من زعم انه في النبات ومنهم من زعم انه في المعادن ومنهم من زعم
انه في الجميع وهذه الدعاوي ليست بنا حاجة الى استقصائها ومناظرة اهلها
عليها لان الكلام يطول جداً وقد ثبت فيما تقدم ان العمل من كل شيء بالقوة لان
الطبايع موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد ان نعلم من اي شيء يكون العمل
بالقوة والفعل فنقصد الى ما قاله الحراني ان الصبغ كله احد صبغين اما صبغ
كالزعفران في الثوب الابيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ
الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه الى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر التراب
الى نفسه وقلب الحيوان النبات الى نفسه حتى يصير التراب نباتا ويصير النبات
ولا يكون الا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الاجرام وقلب الاعيان
فاذا كان هذا هكذا فاقول ان العمل لابد ان يكون اما في الحيوان واما في النبات
وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما فاما النبات فليس فيه
ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه واما الحيوان

فهو آخر الاستحالات الثلث ونهايتها وذلك ان المعدن يستحيل نباتاً
والنبات يستحيل حيواناً والحيوان لا يستحيل الى شيء هو الطف منه الا ان
ينعكس راجعاً الى الغلظ وانه ايضا لا يوجد في العالم شيء تتعلق به الروح الحية
غيره والروح الطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان الا لمشاكلته
اياها فاما الروح التي في النبات فانها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع
ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه
وغلظ روحه والروح المتحركة الطف من الروح الكامنة كثيرا وذلك ان
المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء
وحده ولا تجري اذا قيست بالروح الحية الا كالارض عند الماء كذلك النبات
عند الحيوان فالعمل في الحيوان اعلى وارفع واهون وايسر فينبغي للعاقل
اذا عرف ذلك ان يجرب ما كان سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسرا واعلم ان
الحيوان عند الحكماء ينقسم اقساما من الامهات التي هي الطبايع والحدثية
التي هي المواليد وهذا معروف بيسير الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر
والمواليد اقساما حية واقساما ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً وكل ساكن
مفعولاً ميتا وقسموا ذلك في جميع الاشياء وفي الاجساد الذائبة وفي
العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً وما كان
وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً فاما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها
طبايع اربع حيا وما لم ينفصل سموه ميتا ثم انهم طلبوا جميع الاقسام الحية لوقوع
هذه الصناعة مما لم ينفصل فصولاً اربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر
الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه واخذوه ودبروه فتكيف
لهم منه الذي ارادوا وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد
جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فاما النبات فمنه ما ينفصل ببعض
هذه الفصول مثل الاشنان واما المعادن ففيها اجساد وارواح وانفاس
اذا مزجت ودبرت كان منها ماله تاثير وقد دبرنا كل ذلك وكان الحيوان
منها اعلى وارفع وتدبيره اسهل وايسر فينبغي ان تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان
وطريق وجوده انا بينا ان الحيوان ارفع المواليد وكذلك ما تركب منه
فهو الطف منه كالنبات من الارض انما كان النبات الطف من الارض

لانه انما يكون من جوهره الصافى وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة
والرقة وكذلك هذا الحجر الحيوانى بمنزلة النبات فى التراب وبالجملة انه
ليس فى الحيوان شئ ينفصل طبايع اربع غيره فافهم هذا القول فانه لا يكاد
يخفى الا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد اخبرتك ما هية هذا الحجر
واعلمتك جنسه وانا ابين لك وجوه تدابيره حتى يكمل لك الذى شرطناه
على انفسنا من الانصاف ان شاء الله سبحانه التدبير على بركة الله تعالى خذ الحجر
الكريم فاودعه القرعة والانبيق وفصل طبايعه الاربع هى الماء والهواء
والارض والنار وهى الجسد والروح والنفس والصبغ فاذا عزلت الماء
عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد فى انائه على حدة وخذ الهابط
اسفل الاناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى يذهب عنه سواده ويزول
غلظه وجفاؤه وتبيضه تبييضا محكما وطير عنه فضول الرطوبات السخنة
فيه فانه يصير عند ذلك ماء ابيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد
الى تلك الطبايع الاول الصاعدة منه فطهرها ايضا من السواد والتضاد
وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف وترق وتصفو فاذا فعلت ذلك
فقد فتح الله عليك فابدا بالتركيب الذى هو مدار العمل وذلك ان التركيب
هو مدار العمل وذلك ان التركيب لا يكون الا بالتزويج والتعفين فاما التزويج
فهو اختلاط اللطيف بالغليظ واما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط
بعضه ببعض ويصير شيئا واحدا لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج
بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امساك اللطيف ويقوى الروح على مقابلة
النار ويصير عليها وتقوى النفس على الغوص فى الاجساد والدبيب فيها
وانما وجد ذلك بعد التركيب لان الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه
بجميع اجزائه ودخل بعضها فى بعض لتشاكلها فصارا شيئا واحدا ووجب من ذلك
ان يعرض للروح من الصلاح والفناء والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد
لموضع الامتزاج وكذلك النفس اذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير
اختلطت اجزاؤها بجميع اجزاء الآخرين اعنى الروح والجسد وصارت وهما شيئا
واحدا لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلى الذى سلمت طبايعه واتفقت اجزاؤه
فاذا التقى هذا المركب الجسد المحلول والح عليه النار واظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه

فذاب فى الجسد المحلول ومن شان الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فاذا
ارادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها
فان النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصا وكذلك الماء من شانه النفور
من النار فاذا الحت عليه النار وارادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له
فى جوفه فمنعه من الطيران فكان الجسد علة لامساك الماء والماء علة لبقاء
الدهن والدهن علة لثبات الصبغ وكان الصبغ علة لظهور اللون
واظهار الدهنية فى الاشياء المظلمة التى لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو
الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه البيضة التى سالت عنها وهى التى
سمتها الحكماء بيضة واياها يعنون لا بيضة الدجاجة اعلم ان الحكماء لم تسمها
بهذا الاسم لغير معنى بل اشبهتها ولقد سالت مسلمة عن ذلك يوما وليس عنده
غيرى فقلت له ايها الحكيم الفاضل اخبرنى لاى شئ سمت الحكماء مركب الحيوان
بيضة اختيارا منهم لذلك او لمعنى دعاهم اليه فقال بل لمعنى غامض فقلت
ايها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى
شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه فانه يظهر لك
معناه فبقيت بين يديه متفكرا لا اقدر على الوصول الى معناه فلما راى ما بى
من الفكر وان نفسى قد مضت فيها اخذ بعضدى فهزنى هزة خفيفة
وقال لى يا ابا بكر ذلك للنسبة التى بينهما فى كمية الالوان عند امتزاج الطبايع
وتاليفها فلما قال ذلك انجلى عنى الظلمة واضاء لى نور قلبى وقوى عقلى
على فهمه فنهضت شاكرا لله عليه الى منزلى وانشات عليه شكلا هندسيا يتبرهن
صحة ما قاله مسلمة وانا واضعه لك فى هذا الكتاب مثال ذلك ان المركب
اذا تم وكمل كان طبيعة ما فيه من طبيعة الهواء الى ما فى البيضة من طبيعة
الهواء كنسبة ما فى المركب من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الاخريان
الارض والماء فاقول ان كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان
ومثال ذلك ان نفرض سطح البيضة هـ ز ح فاذا اردنا ذلك
فانا ناخذ اقل الطبايع المركب وهى طبيعة اليبوسة ونضيف اليها مثلها
من طبيعة الرطوبة وندبرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة
الرطوبة وتقبل قوتها وكان فى هذا الكلام رمزا ولكنه لا يخفى عليك ثم تحل

عليهما جميعًا مثليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة امثال ثم تحمل
على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلثة اجزاء
فيكون الجميع تسعة امثال البيوسة بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من هذا
المركب الذي طبيعة محيطة بسطح المركب طبيعتين فتجعل اولاً الضلعين المحيطين
بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا اح ج وسطح الجبد وكذلك
الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهوا ضلعا هـ
وح فاقول ان الجبد يشبه سطح هـ وح طبيعة الهواء التي تسمى نفسا
وكذلك ب ج من سطح المركب والحكماء لم تسم شيئا باسم شيء الا لشبهه
والكلمات التي سالت عن شرحها الارض المقدسة هي المنعقدة من الطبايع
العلوية والسفلية والنحاس هو الذي اخرج سواده وقطع حتى صار هباء
ثم حمر بالزاج حتى صار نحاسا والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الارواح وتخرجه
الطبيعة العلوية التي تسجن فيها الارواح لتقاتل عليها النار والفرفرة
لون احمر قان يحدثه الكيان والرصاص حجر له ثلث قوى مختلفة الشخوص ولكنها
متشاكلة متجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية
نفسانية وهي متحركة حساسة غير انها اغلظ من الاولى ومركزها دون مركز الاولى
والثالثة قوة ارضية حاسية قابضة منعكسة الى مركز الارض لثقلها
وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعًا والمحيطة بهما واما ساير
الباقية فمبتدعة ومخترعة الباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى
عن غيرها فهذا جميع ما سالتني عنه وقد بعثت به اليك مفسرًا ونرجوا بتوفيق الله
ان تبلغ املك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلميذ
مسلمة المجريطي شيخ الاندلس في علم الكيميا والسيميا والسحر في القرن الثالث
وما بعده وانت ترى كيف صرف الفاظهم كلها في الصناعة الى الرمز والالغاز
التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على انها ليست بصناعة طبيعية والذي
يجب ان يعتقد في امر الكيميا وهو الحق الذي يعضده الواقع انها من جنس آثار النفوس
الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة اما من نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة او من
نوع السحر ان كانت شريرة فاجرة فاما الكرامة فظاهرة واما السحر فلان الساحر
كما ثبت في مكان تحقيقه يقلب الاعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك

عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب
او الشعر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون
في الحبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب
انهم يسحرون الجو للامطار وغير ذلك ولما كانت هذه تخليق للذهب
في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من اعلام الحكماء
مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الامم انما نحوا هذا المنحى ولهذا
كان كلامهم فيه الغازا حذرًا عليها من انكار الشرايع على السحر وانواعه لا ان
ذلك يرجع الى الضنانة بها كما هو راي من لم يذهب الى التحقيق في ذلك وانظر
كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم
اشارة الى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لان الغاية اعلى
من الرتبة وكان مسايل الرتبة بعض من مسايل الغاية او تشاركهما في الموضوعات
ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه ونحن نبين بعد هذا غلط من يزعم ان مدارك
هذا الامر بالصناعة الطبيعية والله العليم الخبير فصل في ابطال الفلسفة
وفساد منتحليها هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة في العمران
كثيرة في المدن وضررها في الدين كبير فوجب ان نصدع بشانها ونكشف عن المعتقد
الحق فيها وذلك ان قومًا من عقلاء النوع زعموا ان الوجود كله الحسي منه وما وراء
الحسي تدرك ذواته واحواله باسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية
وان تصحيح العقايد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانها بعض من مدارك
العقل وهؤلاء يسمون بالفلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة
فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على اصابة الغرض ووضعوا قانونا يهتدي به
في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك ان النظر
الذي يفيد تمييز الحق عن الباطل انما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات
الشخصية فيتجرد اولا منها صورة منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على
جميع النقوش التي ترسمها في طين او شمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى
المعقولات الاوايل ثم تجرد من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معان
اخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معان اخرى هي التي اشتركت بها
ثم تجرد ثانيا ان شاركها غيرها وثالثا الى ان ينتهي التجريد الى المعاني البسيطة الكلية

المنطبقة على جميع المشخصات والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الاجناس
العالية وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تاليفها بعضها مع بعض
لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني فاذا نظر الفكر في هذه المعقولات
المجردة وطلب منها تصور الوجود كما هو فلابد للذهن من اضافة بعضها الى بعض
ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود صحيحا مطابقا
اذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر وصنف التصديق الذي هو تلك الاضافة
والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية
والتعليم لان التصور التام عندهم هو غاية الطلب الادراكي وانما التصديق
وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه
فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون ان السعادة
في ادراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك
البراهين وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة ما آلت اليه وهو الذي فرعوا عليه
قضايا انظارهم انهم عثروا اولا على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى
ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم احسوا
من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم السماوي بنحو من
القضاء على امر الذات الانسانية ووجب ان يكون للفلك نفس وعقل كما
للانسان ثم انهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر تسع مفصلة ذواتها
جمل وواحد اول مفرد وهو العاشر ويزعمون ان السعادة في ادراك الوجود على هذا
النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل وان ذلك ممكن للانسان
ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره
وميله الى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وان ذلك اذا حصل للنفس
حصلت لها البهجة واللذة وان الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا
عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة الى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف
من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها
فيما بلغنا في هذه الاحقاب هو ارسطو المقدوني من اهل مقدونية من بلاد الروم
من تلاميذ افلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه المعلم الاول على الاطلاق يعنون
معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهذبة وهو اول من رتب قانونها واستوفى

مسائلها واحسن بسطها ولقد احسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الالهيات
ثم كان من بعده في الاسلام من اخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رايه حذو النعل
بالنعل الا في القليل وذلك ان كتب اولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس
من اللسان اليوناني الى اللسان العربي تصفحها كثير من اهل الملة واخذ من مذاهبهم
من اضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها وكان من
اشهرهم ابو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وابو علي بن سينا
لعهد بني بويه باصبهان وغيرهما واعلم ان هذا الراي الذي ذهبوا اليه باطل
بجميع وجوهه فاما اسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم به في الترقي
الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله فالوجود اوسع نطاقا
من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكانهم في اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة
عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة المعرضين
عن النقل والعقل المعتقدين انه ليس وراء الجسم في حكمة الوجود شيء واما
البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق
وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض اما ما كان منها في الموجودات الجسمانية
ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره ان المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي
تستخرج بالحدود والاقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لان تلك احكام
ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد
ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك
فدليله شهوده لا تلك البراهين فاين اليقين الذي يجدونه فيها وربما يكون
تصرف الذهن ايضا في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور
الخيالية التي تجريدها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينيا بمثابة
المحسوسات اذ المعقولات الاول اقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق
فيها فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك الا انه ينبغي لنا الاعراض عن النظر
فيها اذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا
ولا معاشنا فوجب علينا تركها واما ما كان في الموجودات التي وراء الحس وهي
الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة راسا
ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية

التشخصية انما هو ممكن فيما هو مدرك لنا بالحس فننتزع منه الكليات ونحن لا ندرك
الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات اخرى تحجب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى
لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا ما نجده بين جنبينا
من امر النفس الانسانية واحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا التي هي وجدانية
لكل احد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فامر غامض لا سبيل الى الوقوف عليه
ولقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى ان ما لا مادة له فلا يمكن البرهان عليه
لان مقدمات البرهان من شرطها ان تكون ذاتية وقال كبيرهم افلاطون ان
الالهيات لا يوصل فيها الى يقين وانما يقال فيها بالاخلق والاولى يعني الظن
واذا كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان اولا
فاي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء
الحس من الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم واما قولهم ان السعادة
في ادراك الوجود على ما هو عليه بتلك البراهين فقول مردود وزيف وتفسيره ان الانسان
مركب من جزئين احدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ولكل واحد من الجزئين
مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك
روحانية وتارة مدارك جسمانية الا ان المدارك الروحانية يدركها بذاته
بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس
وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه واعتبره في حال الصبي في اول مداركه الجسمانية
التي هي بواسطة كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك
ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون اشد والذ
فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها
ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم وانما يحصل بكشف
حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا ما يعنون
بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة اماتة القوى
الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها
عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا
الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم فاما
قولهم ان البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه

باطل كما رأيته اذ البراهين والادلة من جملة المدارك الجسمانية لانها
بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ونحن اول شيء نعني به في تحصيل هذا
الادراك اماتة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قادحة فيه وتجد
الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والاشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد
لنص ارسطو
للفص وغيره يبعثر اوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة
فيها ولا يعلم انه يستكثر من ذلك من الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينقلونه
عن ارسطو والفارابي وابن سينا ان من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به
في حياته الدنيا فقد حصل حظه من السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن اول رتبة
ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك
العلمي وقد رأيت فساده وانما يعني ارسطو واصحابه بذلك الاتصال والادراك
ادراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس
واما قولهم ان البهجة الناشئة عن هذا الادراك هي عين السعادة الموعود بها
فباطل ايضا لانا انما تبين لنا بما قرروه ان وراء الحس مدركا آخر للنفس من
غير واسطة وانها تبتهج بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا انه عين
السعادة الاخروية لابد بل ادراك هذه الموجودات على ما هي عليه فضول باطل على ما كنا
قدمناه في فصل التوحيد من الاوهام والاغلاط في ان الوجود عند كل مدرك منحصر في
مداركه وبينا فساد ذلك وان الوجود اوسع من ان يحاط او يستوفى ادراكه بجملته
روحانيا او جسمانيا والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم ان الجزء الروحاني
اذا فارق القوى الجسمانية ادرك ادراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك
وهي الموجودات التي احاط بها علمنا وليس بعام الادراك في الموجودات كلها
اذ لم تنحصر وانه يبتهج بذلك كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في اول نشوه ومن لنا
بعد ذلك بادراك جميع الموجودات او بحصول السعادة التي وعدنا الشارع
ان لم نعمل لها هيهات هيهات لما توعدون واما قولهم ان الانسان مستقل
بتهذيب نفسه واصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فامر مبني
على ان ابتهاج النفس بادراكها الذي من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لان
الرذائل عائقة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية
والوانها وقد بينا ان اثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات الجسمانية

هي من جهة الملاذ التي تتلك السعادة واما قولهم
ان السعادة في صه

والروحانية وهذا التهذيب الذي توصلوا الى معرفته انما نفعه في البهجة الناشئة
عن الادراك الروحاني فقط هو على مقاييس وقوانين واما ما وراء ذلك من
السعادة الذي وعد بها الشارع على امتثال ما امر به من الاعمال والاخلاق
فامر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم ابو علي بن سينا فقال
في كتاب المبدأ والمعاد له ما معناه ان السعادة الروحاني واحواله هو مما يتوصل اليه
بالبراهين العقلية والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة
فلنا في البراهين عليه سعة واما المعاد الجسماني واحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان
لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع
في احواله اليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها
مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمناه الا ثمرة واحدة وهي
شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في
البراهين وذلك ان نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والاتقان
هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية
من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال
البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات
لانها وان كانت غير وافية بمقصودهم فهي اصح ما علمناه من قوانين الانظار
هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب اهل العالم وارائهم
ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر
من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن
احد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل ان يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق
للحق والهادي اليه وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ٥

فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم اصحابها انهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر
قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية
مفردة ومجتمعة فتكون لذلك اوضاع الافلاك والكواكب دالة على
ما سيحدث من نوع نوع من انواع الكائنات فالمتقدمون منهم يرون ان معرفة
قوى الكواكب وتأثيرها بالتجربة وهو امر تقصر الاعمار كلها عن تحصيله لو اجتمعت

اذ التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن
وادوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آماد واحقاب
متطاولة تتقاصر عنها اعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم الى ان معرفة
قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة
ابطاله ومن اوضح الادلة فيه ان تعلم ان الانبياء عليهم السلام ابعد الناس
عن الصنائع وانهم لا يتعرضون للاخبار بالغيب الا ان يكون من الله تعالى
فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشرعون ذلك لمتبعيهم من الخلق
واما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون ان دلالة الكواكب على ذلك دلالة
طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لان فعل
النيرين واثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع احدا جحده مثل فعل الشمس في تبدل
الفصول وامزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات
والماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر افعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما
من الكواكب طريقان الاولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من ائمة الصناعة
الا انه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها الى النير الاعظم
الذي عرفنا طبيعته واثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته
ومزاجه فتعرف موافقته في الطبيعة او ينقص عنها فتعرف مضادته ثم اذا عرفنا
قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها باشكال التثليث والتربيع وغيرهما
ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس ايضا الى النير الاعظم واذا عرفنا
قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء
يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فيصير حالا للبدن المتكون
عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن
من الاحوال لان كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما
قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو ايضا من القضاء الالهي
انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن والقضاء الالهي سابق على كل شيء
هذا محصل كلام بطليموس واصحابه وهو منصوص في كتابه الاربع وغيره ومنه
يتبين ضعف مدارك هذه الصناعة وذلك ان العلم بالكائن او الظن به انما يحصل
عن العلم بجملة اسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه

والقوى النجومية على ما قرروه انما هي فاعلة فقط والعنصر العنصري هو القابل
ثم ان القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملتها بل هناك قوى اخرى فاعلة معها
في الجزء المادي مثل قوة التوليد للاب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة
التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا حصلت على كمالها
وحصل العلم بها انما هي فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم انه يشترط
مع العلم بقوى النجوم وتاثيراتها مزيد حدس وتخمين حينئذ يحصل عنده الظن بوقوع
الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من
اسبابه فاذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت ادراجها عن الظن الى الشك
هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز
لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به اوضاعها ولما ان
اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطلميوس في اثبات القوى
للكواكب الخمسة بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبة
لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل ان يشعر بالزيادة فيها او النقصان
منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم
العناصر بهذه الصناعة ثم ان تاثير الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين في باب التوحيد
ان لا فاعل الا الله بطريق استدلالي كما رأيته واحتج له اهل الكلام بما هو غني عن البيان
من ان اسناد الاسباب الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر
بادي الرأي فلعل اسنادها على غير صورة التاثير المتعارف والقدرة الالهية
رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث
كلها الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات ايضا منكرة
لشأن النجوم وتاثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك من مثل قوله ان الشمس
والقمر لا يخسفان لموت احد ولا لحياته وفي قوله اصبح من عبادي مؤمن بي وكافر
بي فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب واما من
قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان
هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل
مع ما لها من المضار في العمران الانساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد
اذا اتفق الصدق من احكامها في بعض الاحايين اتفاقا لا يرجع الى تعليل و

ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر احكامها
وليس كذلك فيقع في رد الاشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من
توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمتربصين بالدولة
الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي ان تحظر هذه الصناعة
على جميع اهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون
وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان في العالم
موجودتان لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكاليف باسباب حصولهما فيتعين السعي
في اكتساب الخير باسبابه ودفع اسباب الشر والمضار وهذا هو الواجب على من
عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك انها وان كانت صحيحة
في نفسها فلا يمكن احدا من اهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظر فيها ناظر
وظن الاحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الامر فان الشريعة لما حظرت النظر
فيها فقد الاجتماع من اهل العمران لقراءتها والتحقيق لتعلمها وصار المولع بها من الناس
وهم الاقل واقل من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متسترا عن الناس
وتحت رقبة من الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم
فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهلت
مآخذه من الكتاب والسنة المتداولة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد
التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها فانما يحذق فيه الواحد
بعد الواحد في الاعصار والاجيال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه
الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لاصوله
وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر فاين التحصيل والحذق فيه
مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك
لغرابة الفن بين اهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين صحة ما ذهبنا اليه
والله عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا ومما وقع في هذا المعنى لبعض اصحابنا
من اهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان ابي الحسن وحاصروه بالقيروان
وكثر ارجاف الفريقين الاولياء والاعداء فقال في ذلك ابو القاسم الرحوي
من اهل تونس

استغفر الله كل حين ... قد ذهب العيش والهناء
اصبح في تونس وامسي ... والصبح لله والمساء

الحرب والجوع والمنايا … يجتنبها الهرج والوباء
والناس في غربة وحرب … وما عسى ينفع المراء
فاحمدي بري عليا حل به … الهلك والثواء
وآخر قال سوف يأتي … به اليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا … يقضي لعبده ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري … ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم … انكم اليوم املياء
مر خميس على خميس … وجاء سبت واربعاء
ونصف شهر وعشر ثان … وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول … اذاك جهل ام ازدراء
انا الى الله قد علمنا … ان ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي الهاً … حسبكم البدر او ذكاء
ما هذه الانجم السواري … الا عباديد او اماء
يقضي عليها وليس تقضي … وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً … ما شانه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً … يحدثه الماء والهواء
لم تر حلواً ازاء مر … تغذوهما تربة وماء
الله ربي ولست ادري … ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولى التي تنادي … ما لي عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام … ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست ادري ما الكسب الا … ما جلب البيع والشراء
وانما مذهبي وديني … ما كان والناس اولياء
اذ لا فصول ولا اصول … ولا جدال ولا ارتياء
ما تبع الصدر والنقايا … يا حبذا ذلك الاقتفاء
يا اشعري الزمان اني … اشعرني الصيف والشتاء
اني اجزى بالشر شراً … والخير عن مثله جزاء
واني ان اكن مطيعاً … قرت واعصي ولي رجاء

و

وانني تحت حكم بار … اطاعه الوحش والبراء
ليس بابطاركم ولكن … اتاحه الحكم والقضاء
لو حدث الاشعري عمن له … الى رايه انتماء
لقال اخبرهم باني … مما يقولونه براء

فصل في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد من انتحالها ان كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصناعة ويرون انها احد مذاهب المعاش ووجوهه وان اقتناء المال منها ايسر واسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الاموال في النفقات زيادة الى النيل من غرضه والعطب اخراً اذا ظهر على خيبة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً وانما اطمعهم في ذلك انهم راوا المعادن تستحيل وتنقلب بالصنعة بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة ويحسبون انها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسمى عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة او الدم او الشعر او البيض او كذا او كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة ان تمهى بالفهر على حجر صلد املس وتسقى اثناء امهائها بالماء بعد ان يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس بعد السقي او تطبخ بالنار او تصعد او تكلس لاستخراج مائها او ترابها فاذا رضي ذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته اصول صنعته حصل من ذلك تراب او مائع يسمونه الاكسير ويزعمون انه اذا القي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً او النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به في عمله ويزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسير مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج وقوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً الى الغذاء وكذا اكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن

يصرفه اليهما ويقلبه الى صورتهما هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على العلاج
يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون احكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعة
من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف اسرارها اذ هي
في الاكثر تشبه المعمى كتواليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة المجريطي في كتاب
رتبة الحكيم والطغرائي والمغربي في قصائده العريقة في اجادة النظم وامثالها
ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها فاوضت يوما شيخنا ابا البركات البلفيقي
كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التواليف فيها فتصفحه
طويلا ثم رده الي وقال لي وانا الضامن له ان لا يعود الى بيته الا بالخيبة ثم
منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب
او النحاس بالفضة او خلطهما على نسبة جزء او جزءين او ثلثة او الخفية كالقاء
الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزيبق المصعد
فيجيء جسما معدنيا شبيها بالفضة ويخفى الا على النقاد المهرة فيقدر اصحاب
هذا الدلس من دلسهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويها
على الجمهور بالخلاص من الغش وهؤلاء اخس الناس حرفة واسوأهم عاقبة لتلبسهم
بسرقة اموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في الفضة
وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق او اشد من السارق ومعظم
هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين باطراف البقاع ومساكن
الاغمار يأوون الى مساجد البادية ويموهون على الاغنياء منهم بان بايديهم صناعة
الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من
ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة الى ان يظهر
العجز وتقع الفضيحة فيفر الى مكان آخر ويستجد حالا اخرى في استهواء بعض اهل
الدنيا باطماعهم فيما لديه ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام
معهم لانهم بلغوا الغاية من الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم
الا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع ايديهم متى ظهر على شانهم
لان فيه افسادا للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة والسلطان
مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسدها واما من انتحل
هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن افساد

سكة المسلمين ونقودهم وانما يطلب احالة الفضة الى الذهب والرصاص
والنحاس والقصدير الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالاكسير الحاصل عنه
فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم في ذلك مع انا لا نعلم ان احدا
من اهل العالم تم له هذا الغرض او حصل منه على بغية انما تذهب اعمارهم في
التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار
لجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم
ممن تم له الغرض منها او وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها
ولا يستريبون في تصديقها شان الكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به
فاذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة انكروه وقالوا انما سمعنا ولم نر هكذا شانهم في كل
عصر وجيل واعلم ان انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم فيها من المتقدمين
والمتاخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم نتلوه بما يظهر لنا من التحقيق الذي عليه الامر
في نفسه والله الموفق للصواب **فنقول** ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء
على حال المعادن السبعة المتطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير
والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات بالفصول وكلها انواع قائمة
بانفسها او انما مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها اصناف لنوع
واحد وان اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة
فالذي ذهب اليه ابو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الاندلس انها نوع واحد صح
والالوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها اصناف لذلك النوع
الواحد والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق انها مختلفة
بالفصول وانها انواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس
شان سائر الانواع وبنى ابو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع انقلاب بعضها الى بعض
لامكان تبدل الاعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت
صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبنى ابو علي بن سينا على مذهبه في
اختلافها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على ان الفصل لا سبيل بالصناعة
اليه وانما يخلقه خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق
راسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من اكابر
اهل هذه الصنعة في قوله هذا ورد عليه بان التدبير والعلاج ليس
في تخليق الفصل وابداعه وانما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة

والفعل ياتى بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على
الاجسام بالصيقل والاجلاء ولا حاجة بنا فى ذلك الى تصوره ومعرفته
قال واذ كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل
العقرب من التراب والتبن ومثل الحيات المتكونة من الشعر
ومثل ما ذكر اصحاب الفلاحة فى تكوين النحل اذا فقدت من عجاجيل
البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكرا بحشو
القرون بالعسل بين يدى ذلك الفلح للقرون فما المانع اذن من العثور
على مثل ذلك فى المعادن وهذا كله بالصناعة وهى انما موضوعها المادة
فيعدها التدبير والعلاج الى قبول تلك الفصول لا اكثر قال فنحن نحاول مثل
ذلك فى الذهب والفضة فنتخذ مادة نضعها بالتدبير بعد ان يكون فيها استعداد
اول لقبول صورة الذهب والفضة ثم نحاولها بالعلاج الى ان يتم فيها الاستعداد
لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائى بمعناه وهذا الذى ذكره فى الرد على ابن سينا
صحيح لكن لنا فى الرد على اهل هذه الصناعة ماخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها
وبطلان مزعمهم اجمعين لا الطغرائى ولا ابن سينا وذلك ان حاصل علاجهم
انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الاول يجعلونها موضوعاً
ويحاذون فى تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة للجسم فى المعدن حتى احالته فضة او ذهبا
ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم فى زمان اقصر لانه تبين فى موضعه
ان مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين ان الذهب انما يتم كونه
فى معدنه بعد الف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت
القوى والكيفيات بالعلاج كان زمان كونه اقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه
او يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة
فتفعل فى الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة فى احالته واعلم ان كل متكون من
المولدات العنصرية فلابد فيه من اجتماع العناصر الاربعة وعلى نسبة متفاوتة
اذ لو كانت متكافئة فى النسبة لما تم امتزاجها فلابد من الجزء الغالب على الكل
ولابد فى كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هى الفاعلة لكونه الحافظة
لصورته ثم كل متكون فى زمان فلابد من اختلاف اطواره وانتقاله فى زمن التكوين
من طور الى طور حتى ينتهى الى غايته وانظر شأن الانسان فى طور النطفة ثم العلقة

ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم ثم الى نهايته ونسب
الاجزاء فى كل طور تختلف مقاديرها وكيفياتها والا لكان الطور بعينه الاول
هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية فى كل طور مخالفة لها فى الطور الآخر
فانظر الى الذهب ما يكون له فى معدنه من الاطوار منذ الف سنة وثمانين
وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيميا ان يساوق فعل الطبيعة
فى المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى ان يتم ومن شرط الصناعة ابداً
تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الامثال السائرة فى ذلك اول العمل
آخر الفكرة وآخر الفكرة اول العمل فلابد من تصور هذه الحالات
للذهب فى احواله المتعددة ونسبها المتفاوتة فى كل طور وما ينوب عنه
من مقدار قوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذى بذلك كله فعل الطبيعة
فى المعدن او تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل
فى هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم
المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعى حصوله على
الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعى بالصنعة تخليق انسان من المنى ونحن
اذا سلمنا له الاحاطة باجزائه ونسبه واطواره وكيفية تخليقه فى رحمه
وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتى لا يشذ منه شئ عن علمه سلمنا له تخليق هذا
وانى له ذلك ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه **فنقول**
حاصل صناعة الكيميا وما يدعونه بهذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية
بالفعل الصناعى ومحاذاتها به الى ان يتم كون الجسم المعدنى او تخليق
مادة بقوى وافعال وصورة مزاجية تفعل فى الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره
وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعى مسبوق بتصورات احوال الطبيعة
المعدنية التى تقصد مساوقتها ومحاذاتها او فعل المادة ذات القوى
فيها تصوراً مفصلاً واحدة بعد اخرى وتلك الاحوال لا نهاية لها والعلم
البشرى عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان
او حيوان او نبات هذا محصل هذا البرهان وهو اوثق ما علمته وليست
الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة انما هو متعذر
الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر

في الاستحالة من جهة غايته وذلك ان حكمة الله في الحجرين وندورهما انهما قيم
لمكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك
وكثر وجودهما حتى لا يحصل احد من اقتنائهما على شي وله وجه آخر من الاستحالة
ايضا وهو ان الطبيعة لا تترك اقرب الطرق في افعالها وترتكب الاعوص والابعد
فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون انه صحيح وانه اقرب من طريق الطبيعة
في معدنها واقل زمانا لما تركته الطبيعة الى طريقها الذي سلكته في كون
الذهب وتخليقهما واما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات
لا مثال له في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقهما فامر صحيح في
ادى اليه العثور كما زعم واما الكيمياء فلم ينقل عن احد من اهل العالم
انه عثر عليها ولا على طريقها ولا زال منتحلوها يخبطون فيها عشواء الى هلم ولا يظفرون الا
بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لاحد لحفظه عنه ولده او تلميذه او اصحابه
وتنوقل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى ان ينتشر ويبلغ الينا
او الى غيرنا واما قولهم ان الاكسير بمثابة الخميرة وانه مركب يحيل ما حصل فيه ويقلبه
الى ذاته فاعلم ان الخميرة انما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد
في المواد سهل يقع بايسر شي من الافعال والطبايع والمطلوب بالاكسير قلب
المعدن الى ما هو اشرف منه واعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين اصعب
من الفساد فلا يقاس الاكسير على الخميرة وتحقيق الامر في ذلك ان الكيمياء
ان صح وجودها كما زعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان
ومسلمة بن احمد المجريطي وامثالهم فليس من باب الصنايع الطبيعية ولا تتم
بامر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات انما هو من منحى كلامهم
في الامور السحرية وساير الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر
مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم
من هذا المنحى وكذا كلام جابر في رسايله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا
الى شرحه فبالجملة فامرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنايع
فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان فيما عدى مجرى تخليقه كذلك لا يتدبر
ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته الا بارفاد
مما وراء عالم الطبايع وعمل الصنايع فلذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعيا

ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لان نيلها ان كان
صحيحا فهو واقع مما وراء الطبايع والصنايع فهو كالمشي على الماء وامتطاء
الهواء والنفوذ في كثايف الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء
الخارقة للعادة او مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال الله تعالى
واذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وعلى ذلك
فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربما اوتيها الصالح ويؤتيها
غيره فتكون عنده معارة وربما اوتيها الطالح ولا يملك ايثارها فلا تتم
في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين انها انما تقع بتاثيرات
النفس وخوارق العادة اما معجزة او كرامة ولهذا كان كلام الحكماء فيها الغازا
لا يظفر بتحقيقه الا من خاض لجة من علوم السحر واطلع على تصرفات النفس
في عالم الطبيعة وامور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد احد الى تحصيلها
والله بما يعملون محيط واكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو
كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية
كالفلاحة والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم
الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها واكثر
من يعنى بذلك الفقراء من اهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في انكارها
واستحالتها فان ابن سينا القايل باستحالتها كان من علية الوزراء فكان
ذا الثروة والفارابي القايل بامكانها كان من اهل الفقر الذين يعوزهم ادنى بلغة
من المعاش واسبابه وهذه تهمة ظاهرة في انظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها
والله الرزاق ذو القوة المتين **فصل** في ان كثرة التواليف في العلوم
عايقة عن التحصيل اعلم انه مما اضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته
كثرة التواليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة
المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج
المتعلم الى حفظها كلها او اكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في
صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل
ويمثل لذلك من شان الفقه للمذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا
وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس

واللخمي وابن بشير والتنبيها والمقدمات وكذلك كتاب العتبية اخت
والتحصيل الذي كتب عليها وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه
ثم انه يحتاج الى تمييز الطريق القيروانية من القرطبية والبغدادية
والمصرية وطرق المتاخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له
منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب
باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر
المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر دون ذلك بكثير
وكان التعليم سهلا وماخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد
عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل ايضا علم
العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين
والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتاخرين
مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به
المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع احد في الغاية منه الا في القليل النادر
مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تواليف رجل من اهل صناعة العربية
من اهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيه انه استولى على غاية من ملكة تلك
لم تحصل الا لسيبويه وابن جني واهل طبقتهما لعظيم ملكته وما احاط به من اصول ذلك
الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه **فصل** في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتاليف
والغاء ما سواها اعلم ان العلوم البشرية خزانتها النفس الانسانية بما جعل الله فيها
من الادراك الذي يفيدها ذلك بالفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقائق اولا
ثم باثبات العوارض الذاتية لها او نفيها عنها ثانيا اما بغير وسط او بوسط حتى يستنتج
الفكر بذلك مطالبه التي يعنى باثباتها او نفيها فاذا استقرت من ذلك صورة
علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر اما على وجه التعليم او على وجه المفاوضة
تصقل الافكار في تصحيحها وذلك البيان انما يكون بالعبارة وهي الكلام المركب
من الالفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف
وهي كيفيات الاصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر
المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم وهذه رتبة الاول في البيان عما في الضماير
وان كان معظمها واشرفها العلوم فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر

او انشاء على العموم وبعد هذه الرتبة الاولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها
ما في الضمير لمن توارى او غاب شخصه وبعد او لمن ياتي بعده ولم يعاصره
ولا لقيه وهذا البيان منحصر في الكتابة وهي رقوم باليد تدل اشكالها
وصورها بالتواضع على الالفاظ النطقية حروفا بحروف وكلمات بكلمات فصار
البيان فيها على ما في الضماير بواسطة الكلام النطقي فلهذا كانت في الرتبة الثانية
واحد هذا البيان يدل على ما في الضماير من العلوم والمعارف فهو اشرفها
معتنون بايداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الاوراق بهذه
الكتابة لتعم الفائدة بحصوله للغائب والمتاخر وهؤلاء هم المؤلفون والتواليف
بين العوالم البشرية والامم لانه كثيرة ومنتقلة في الاجيال والاعصار وتختلف
باختلاف الشرائع والملل والاخبار عن الامم والدول واما العلوم الفلسفية
فلا اختلاف فيها لانها انما تاتي على نهج واحد فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية
في تصور الموجودات على ما هي عليه جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها ومجردها
وماديها فان هذه العلوم لا تختلف وانما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية
لاختلاف الملل او التاريخية لاختلاف خارج الخبر ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات
في رسومها واشكالها ويسمى ذلك قلما وخطا فمنها الخط الحميري ويسمى المسند
وهو كتابة حمير واهل اليمن الاقدمين وهو يخالف كتابة العرب المتاخرين من مضر
كما يخالف لغتهم وان كان الكل عربيا الا ان ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة
اولئك ولكل منهما قوانين كلية مستقراة من عباراتهم غير قوانين الآخرين وربما
يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة ومنها الخط السرياني وهو كتابة النبط
والكلدانيين وربما يزعم بعض اهل الجهل انه الخط الطبيعي لقدمه فانهم كانوا اقدم الامم
وهذا وهم ومذهب عامي لان الافعال الاختيارية كلها فليس شيء منها بالطبع
وانما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة فيظنها المشاهد طبيعية كما هو
راي كثير من البلداء في اللغة العربية فيقولون العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق
بالطبع وهذا وهم ومنها الخط العبراني الذي هو كتابة بني عابر بن شالخ من بني
اسرائيل وغيرهم ومنها اللطيني خط اللطينيين من الروم ولهم ايضا لسان
مختص بهم ولكل امة من الامم اصطلاح في الكتاب يعزى اليها ويختص بها مثل
الترك والفرنج والهنود وغيرهم وانما وقعت العناية بها لا تقدم الثلاثة

الاول اما السرياني فلقدمه كما ذكرناه والعربي فلتنزل القرآن والتوراة
بها بلسانهما وكان هذان الخطان بيانا لمتلوهما فوقعت العناية بمنظومهما اولا
وانبسطت قوانين لاطراد العبارة في تلك اللغة على اسلوبها لتفهم الشرائع
التكليفية من ذلك الكلام الرباني واما اللطيني فكان الروم وهم اهل ذلك اللسان
لما اخذوا بدين النصرانية وهو كله من التورية كما سبق في اول الكتاب
ترجموا التورية وكتب الانبياء الاسرائيليين الى لغتهم ليقتبسوا منها الاحكام
على اسهل الطرق وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم آكد من سواها واما الخطوط
الاخرى فلم تقع بها عناية وانما هي لكل امة بحسب اصطلاحها ثم ان الناس
حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها والغاء ما سواها فعدوها سبعة
اولها استنباط العلم بموضوعه وتقسيم ابوابه وفصوله وتتبع مسائله او استنباط
مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق ويحرص على ايصاله لغيره لتعم
المنفعة به فيودع ذلك في الكتاب في الصحف لعل المتأخر يظهر على تلك
الفائدة كما وقع في اصول الفقه تكلم الشافعي اولا في الادلة الشرعية اللفظية
ولخصها ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها وانتفع بذلك
من بعدهم الى الآن وثانيها ان يقف على كلام الاولين وتواليفهم فيجدها
مستغلقة على الافهام ويفتح الله في فهمها فيحرص على ابانة ذلك لغيره
ممن عساه يستغلق عليه لتصل الفائدة لمستحقها وهذه طريقة البيان لكتب المعقول
والمنقول وهو فصل شريف وثالثها ان يعثر المتأخر على غلط او خطأ
في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الافادة صيته ويستوثق في ذلك
بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه فيحرص على ايصال ذلك لمن بعده
اذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والاعصار وشهرة
المؤلف ووثوق الناس بمعارفه فيودع ذلك الكتاب ليقف الناظر
على بيان ذلك ورابعها ان يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل
او فصول بحسب انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك ان يتمم ما نقص
من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ولا يبقى للنقص فيه مجال
وخامسها ان يكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في ابوابها ولا منتظمة
فيقصد المطلع على ذلك ان يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسئلة في بابها كما

وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم وفي العتبية في رواية العتبي
عن اصحاب مالك فان مسائل كثيرة من ابواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها
فهذب ابن ابي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة فنجد في كل باب مسائل
من غيره واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن ابي زيد فيها والبرادعي من بعده
وسادسها ان تكون مسائل العلم مفرقة في ابوابها من علوم اخرى فيتنبه بعض
الفضلاء الى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله فيفعل ذلك ويظهر به فن ينظمه في جملة
العلوم التي ينتحلها البشر بافكارهم كما وقع في علم البيان فان عبد القاهر الجرجاني
وابو يوسف السكاكي وجدوا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ
في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده
عن سائر العلوم فكتبا في ذلك تواليفهم المشهورة وصارت اصولا لفن البيان
ولقنها المتأخرون فاربوا فيها على كل متقدم وسابعها ان يكون شيء من التواليف
التي هي امهات للفنون مطولا مسهبا فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار
والايجاز وحذف المكرر ان وقع مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصود المؤلف
الاول فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها في التأليف ومراعاتها وما سوى
ذلك ففعل غير محتاج اليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء
مثل انتحال ما تقدم لغيره من التواليف ان ينسبه الى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الالفاظ
وتقديم المتأخر وعكسه او يحذف ما يحتاج اليه في الفن او يأتي بما لا يحتاج اليه او يبدل
الصواب بالخطأ او يأتي بما لا فائدة فيه فهذا شأن الجهل والقحة ولذلك قال
ارسطو لما عدد هذه المقاصد وانتهى الى آخرها فقال وما سوى ذلك ففضل
او شره يعني بذلك الجهل والقحة نعوذ بالله من العمل فيما لا ينبغي للعاقل سلوكه والله
يهدي للتي هي اقوم وفيه وذلك دل على ان الفضل ليس منحصرا في المتقدمين سيما
مع ما قررناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتواليف ولكن
فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر ان المتعلم
ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة
من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله
يهدي من يشاء

فصل

في ان كثرة الاختصارات الموضوعة في
العلوم مخلة بالتعليم ذهب كثير الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم

يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله و
ادلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك
الفن مخلا بالاعتبار وعسيرا على الفهم وعمدوا الى الكتب المطولة في الفقه
والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه واصول
الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وامثالهم وهو فساد في التعليم
وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لان فيه تخليطا على المبتدي بالقاء الغايات من العلم
عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سياتي ثم فيه مع ذلك
شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني
عليها واستخراج المسائل من بينها لان الالفاظ المختصرات تجدها لذلك
صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك كله فالملكة
الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة
فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة
لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاطالة المفيدين لحصول الملكة التامة
واذا اقتصر عن التكرار قصرت الملكة لقلته كشان هذه الموضوعات المختصرة
فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات
النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له **فصل** في وجه
الصواب اعلم ان تلقين المتعلمين للعلوم انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا
فشيئا وقليلا قليلا يلقي عليه اولا مسائل في كل باب من الفن هي اصول ذلك
الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله
واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له
ملكة في ذلك العلم الا انها جزئية وضعيفة وغايتها انها هيأته لفهم الفن وتحصيل
مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى اعلى منها
ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه
الى ان ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مهما
ولا منغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا
وجه التعليم المفيد وهو كما رايت انما يحصل في ثلث تكرارات وقد يحصل
للبعض في اقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المتعلمين

لهذا العهد الذي ادركنا يجهلون طرق هذا التعليم وافادته ويحضرون المتعلم
في اول تعليمه المسائل المقفلة من العلم يطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون
ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله فيخلطون عليه
بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل ان يستعد لفهمها فان قبول
العلم والاستعدادات لفهمه تنشا تدريجا ويكون المتعلم اول الامر عاجزا
عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال
الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه
والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد
ثم في التحصيل ويحيط بمسائل الفن واذا القيت عليه الغايات في البداية وهو حينئذ
عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من
صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه
وانما اتى في ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم ان يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي
اكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتديا كان او منتهيا
ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من اوله الى آخره ويحصل اغراضه ويستولي منه
على ملكة بها ينفذ في غيره لان المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها
لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولي على غايات
العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانطمس فكره ويئس
من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ان لا يطول على المتعلم
في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها لانه ذريعة
الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها
واذا كانت اوائل العلم واواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت
الملكة ايسر حصولا واحكم ارتباطا واقرب صبغة لان الملكات انما تحصل بتتابع
الفعل وتكرره واذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم
ما لم تكونوا تعلمون **فصل** في تعليم الولدان للقران شعار من شعار الدين
اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق فيه الى القلوب
من رسوخ الايمان وعقايده من آيات القران وبعض متون الاحاديث
وصار القران اصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب

ذلك ان تعليم الصغر اشد رسوخا وهو اصل لما بعده لان السابق
الاول الى القلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس واساليبه يكون
حال ما يبنى عليه واختلفت طرقهم في تعليم القران للولدان باختلافهم في اعتبار ما ينشا
عن ذلك التعليم من الملكات فاما اهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار
على تعليم القران فقط واخذهم اثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة
القران فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث
ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الا ان يحذق في ذلك او ينقطع
فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب اهل الامصار
بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر امم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوزوا
حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القران بعد طائفة
من عمره فهم لذلك اقوم على رسم القران وحفظه من سواهم واما اهل
الاندلس فمذهبهم تعليم القران والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم
الا انه لما كان القران اصل ذلك واسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه اصلا في
التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في
الغالب والترسل واخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص
عنايتهم في التعليم بالقران دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها الى ان يخرج
الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما
وبرز في الخط والكتاب وتعلق باذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم
لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بايديهم
الا ما حصل من ذلك التعليم الاول وفيه كفاية لمن ارشده الله تعالى واستعداد
اذا وجد المعلم واما اهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القران بالحديث
في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا ان عنايتهم
بالقران واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته اكثر
مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقهم في تعليم الولدان
اقرب الى طريقة اهل الاندلس لان سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس
الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعنهم
اخذ ولدانهم بعد ذلك واما اهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا

ولا ادري بم عنايتهم بمدارسة القران وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة
ولا يخلطونه بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده
كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم
الالواح فبخط قاصر عن الاجادة ومن اراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك
من الهمة في طلبه ويبتغيه من اهل صنعته واما اهل افريقية والمغرب فافادهم
الاقتصار على القران القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك ان القران لا ينشا عنه
ملكة لما ان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون كذلك عن الاستعمال
على اساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير اساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في
اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان
اهل افريقية في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القران بعبارات
العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل
بالمثل الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان اكثر محفوظهم عبارات
العلوم النازلة عن البلاغة كما سياتي في فصله واما اهل الاندلس فافادهم التفنن
في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من اول العمر حصول ملكة
صاروا بها اعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة
القران والحديث الذي هو اصل العلوم واساسها فكانوا لذلك اهل خط وادب
بارع او مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا ولقد ذهب
القاضي ابو بكر بن العربي في كتاب رحلته الى غريبة في وجه التعليم واعاد في ذلك
وابدا وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب اهل الاندلس
قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة
فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس
القران فانه يتيسر عليك بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة اهل بلادنا في ان يؤخذ
الطفل بكتاب الله في اول امره يقرا ما لا يفهم وينصب في امر غيره اهم عليه منه
قال ثم ينظر في اصول الدين ثم اصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك
ان يخلط في التعليم علمان الا ان يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الذهن والنشاط
هذا ما اشار اليه القاضي ابو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن
الا ان العوائد لا تساعد عليه وهي املك بالاحوال ووجه ما اختصت به

من تقديم دراسة القرآن ايثار التبرك والثواب وخشية ما يعرض الولد
في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لانه ما دام
في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به
رياح الشبيبة فالقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة
الحكم تحصيل القرآن له لئلا يذهب خلواً منه ولو حصل اليقين باستمراره
في طلب العلم وقبول التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي اولى ما اخذ به
اهل المشرق والمغرب لكن لله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه **فصل** في ان الشدة
على المتعلمين مضرة بهم وذلك ان ارهاف الحد في التاديب مضر بالمتعلم
سيما في اصاغر الولد لانه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر
من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها
وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر
بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له
هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن وهي
الحمية والمدافعة عن نفسه او منزله وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس
عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فارتكس
وعاد في اسفل سافلين وهكذا وقع لكل امة حصلت في قبضة القهر ونال منها
العسف واعتبره في كل من يملك امره عليه ولا يكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد
ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل فيهم بذلك من خلق السوء حتى انهم
يوصفون في كل افق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد
وسببه ما قلناه فلذلك ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ان لا يستبدوا عليهم في
التاديب وقد قال ابو محمد بن زيد في كتابه الذي الفه في حكم المعلمين والمتعلمين فقال
لا ينبغي للمؤدب للصبيان ان يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على ثلثة اسواط
شيئاً ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا ادبه الله حرصاً على صون
النفوس عن مذلة التاديب وعلماً بان المقدار الذي عينه الشرع لذلك املك له
فانه اعلم بمصلحته ومن احسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده قال خلف
الاحمر بعث الي الرشيد لتاديب ولده محمد الامين فقال يا احمر ان امير المؤمنين
قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة

فكن له بحيث وضعك امير المؤمنين اقرأه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار
وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدائه وامنعه من الضحك الا في اوقاته وخذه
بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا
مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير
ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويالفه وقومه ما استطعت
بالقرب والملاينة فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة **فصل** في ان الرحلة
في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك ان البشر
ياخذون معارفهم واخلاقهم وما ينتحلونه من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً
والقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة الا ان حصول الملكات عن المباشرة
والتلقين اشد استحكاماً واقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة
ورسوخها والاصطلاحات ايضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن
كثير منهم انها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق
فيها من المعلمين فلقاء اهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه
من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم انها انحاء تعليم وطرق توصيل
وتنهض قواه الى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها
مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم
وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم
لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء
الى صراط مستقيم **فصل** في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها
والسبب في ذلك انهم معتادون للنظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها
من المحسوسات وتجريدها في الذهن اموراً كلية عامة ليحكم عليها بامر على العموم لا
بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا امة ولا صنف من الناس ويطبقون
من بعد ذلك الكلي على الخارجيات وايضاً يقيسون الامور على اشباهها وامثالها
بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال احكامهم وانظارهم كلها في الذهن
ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر او لا تصير بالجملة
الى مطابقة وانما يتفرع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك كالاحكام الشرعية
فانها فروع عما في المحفوظ من ادلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج

لما عكس الانظار في العلوم العقلية التي يطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج
فهم متعودون في سائر انظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يعرفون
سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها
فانها خفية ولعل ان يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبه او مثال وينافي الكلي الذي
يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شئ من احوال العمران على الآخر اذ كما اشتبها
في امر واحد فلعلهما اختلفا في امور فيكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام
وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا في السياسة افرغوا ذلك
في قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط الكثير او لا يؤمن
عليهم ويلحق بهم اهل الذكاء والكيس من اهل العمران لانهم ينزعون
بثقوب اذهانهم الى شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة
فيقعون في الغلط والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره
عن ذلك وعدم اعتياده اياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف
من الاحوال والاشخاص على ما اختص به ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم
ولا يفارق في اكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسابح لا يفارق
الموج عند البر قال . ولا توغلن اذا ما سبحت . فان السلامة في الساحل
فيكون مأمونا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة ابناء جنسه
فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم
ومن هنا تعلم ان صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع
وبعدها عن المحسوس فانه نظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها
ما يمانع تلك الاحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني واما النظر
في المعقولات الاول وهي التي تجريدها قريب فليست كذلك لانها خيالية
وصور المحسوس حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه

فصل في ان حملة العلم
في الاسلام اكثرهم العجم من الغريب الواقع ان حملة العلم في الملة الاسلامية
اكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل
النادر وان كان منهم العربي في نسبه فهو اعجمي في لغته ومرباه ومشيخته
مع ان الملة عربية وصاحب شريعتها عربي والسبب في ذلك ان
الملة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة

واما

واما كان احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان الرجال
ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا ماخذها من الكتاب والسنة
بما تلقوه من صاحب الشرع والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم
والتأليف والتدوين ولا دعتهم اليه حاجة وجرى الامر على ذلك زمن
الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك القراء اي
الذين يقرؤون القرآن وليسوا اميين لان الامية يومئذ صفة
عامة في الصحابة بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء اشارة
الى هذا فهم قراء الكتاب والسنة المأثورة عن الله لانهم لم يعرفوا
الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له
وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم
بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد
احتيج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج
الى معرفة الاسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الاسناد
وما دونه ثم كثر استخراج الوقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك
اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها
ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا
ان الصنائع من منتحل الحضر وان العرب ابعد عنها فصارت
العلوم لذلك حضرية وبعد العرب عنها وعن سوقها والحضر لذلك
العهد هم العجم او من معناهم من الموالي واهل الحواضر الذين هم يومئذ
تبع للعجم في الحضارة واحوالها من الصنائع والحرف لانهم اقوم
على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب
صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم
عجم في انسابهم وانما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة
العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذلك حملة الحديث الذين
حفظوا عن اهل الاسلام اكثرهم عجم او مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن
بالعراق وما بعده وكان علماء اصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة
علم الكلام وكذا اكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم

في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالادلة لكثرة البدع والالحاد فصارت هذه الامور كلها ذات ملكات

وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم باعناق السماء
لناله قوم من فارس واما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها
وخرجوا اليها من البداوة فشغلتهم الرياسة بالدولة العباسية
وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم
كانوا اهل الدولة وحاميتها واولي سياستها مع ما يلحقهم من الانفة
من انتحال العلم حينئذ لما صار من جملة الصنائع والرؤساء ابدا يستنكفون
عن الصنائع والمهن وما يجر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم
والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون
حملتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم
صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند اهل الملك بما هم عليه من البعد
عن نسبها وامتهن حملتها لما يرون انهم بعداء عنهم مشتغلون بما لا يجدي
عليهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل المراتب الدينية فهذا الذي
قررناه هو السبب في ان كان حملة الشريعة او عامتهم اعجميا واما العلوم
العلوم العقلية ايضا فلم يظهر في الملة الا بعد ان تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر
العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم
يحملها الا المعربون من العجم شان الصنائع كما قلناه اولا ولم يزل ذلك
في الامصار الاسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق
وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة
التي هي سر الله في حصول العلوم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة
لما شملهم من البداوة واختص العلم بالامصار الموفورة الحضارة ولا اوفر
اليوم حضارة من مصر فهي ام العالم وايوان الاسلام وينبوع العلوم
والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هنالك من الحضارة بالدولة
التي فيها فلهم بذلك حصة والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض
علمائهم في تواليف وصلت الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني واما غيره
من العجم فلم نر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول
على نهايته في الاجادة فاعتبر ذلك وتامله ترى عجبا في احوال الخليقة والله
يخلق ما يشاء لا اله الا هو **فصل** في ان العجمة اذا سبقت الى اللسان قصرت

بصاحبها في تحصيل العلوم عن اهل اللسان العربي والسر في ذلك ان مباحث
العلوم كلها انما هي في المعاني الذهنية والخيالية من بين العلوم الشرعية
اكثر مباحثها في الالفاظ وموادها من الاحكام المتلقاة من الكتاب والسنة
ولغاتها المؤدية اليها وهي كلها في الخيال وبين العلوم العقلية وهي
في الذهن واللغات انما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها
بعض الى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم
لتحصيل ملكاتها بطول المران على ذلك والالفاظ واللغات وسائط
وحجب بين الضمائر وروابط وختام على المعاني ولا بد في اقتناص تلك المعاني
من الفاظها بمعرفة دلالاتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها والا
فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص
واذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة بحيث يتبادر المعاني الى ذهنه من تلك
الالفاظ عند استعمالها شان البديهي والجبلي زال ذلك الحجاب بالجملة
بين المعاني والفهم او خف ولم يبق الا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط
هذا كله اذا كان التعليم تلقينا وبالخطاب والعبارة واما ان احتاج المتعلم
الى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين
بمسائل العلم كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب
وبين الالفاظ المقولة في الخيال لان رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الالفاظ
المقولة وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة وان عرفت بملكة
قاصرة كانت معرفتها منها ايضا قاصرة ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك
حجاب آخر بينه وبين مطلوبه من تحصيل ملكات العلوم اعوص من الحجاب الاول
واذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه
وبين المعاني وصار انما يعاني فهم مباحثها فقط هذا شان المعاني مع الالفاظ بالنسبة
الى كل لغة والمتعلمون لذلك في الصغر اشد استحكاما لملكاتهم ثم ان الملة الاسلامية
لما اتسع ملكها واندرجت الامم في طيها ودرست علوم الاولين بنبوتها وكتابها
وكانت امية النزعة والشعار واخذ الملك والعزة وسخرية الامم لهم
بالحضارة والتهذيب وصيروا علومهم الشرعية صناعة بعد ان كانت نقلا فحدثت
فيها الملكات وكثرت الدواوين والتواليف وتشوفوا الى علوم الامم فنقلوها

بالترجمة الى علومهم وافرغوا فى قالب انظارهم وجردوها من تلك اللغات
الاعجمية الى لسانهم واربوا فيها على مداركهم وبقيت تلك الدفاتر التى بلغتهم الاعجمية
نسيا منسيا وطللا مهجورا وهباء منثورا واصبحت العلوم كلها بلغة العرب
ودواوينها المسطرة بخطهم واحتاج القائمون بالعلوم الى معرفة الدلالات اللفظية
والخطية فى لسانهم دون ماسواه من الالسن لدروسها وذهاب العناية بها
وقد تقدم لنا ان اللغة ملكة فى اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها فى اليد
فاذا تقدمت فى اللسان ملكة العجمة صار مقصرا فى اللغة العربية لما قدمناه من
ان الملكة اذا تقدمت فى صناعة بمحل فقل ان يجيد صاحبها ملكة فى صناعة اخرى
وهو ظاهر واذا كان مقصرا فى اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص
عليه فهم المعانى منها كما مر الا ان يكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها
الى العربية كاصاغر ابناء العجم الذين يربون مع العرب قبل ان تستحكم عجمتهم فتكون اللغة
العربية كانها السابقة لهم ولا يكون عندهم تقصير فى فهم المعانى من اللغة العربية
وكذا ايضا شان من سبق له تعلم الخط الاعجمى قبل العربى ولهذا نجد الكثير من علماء
الاعاجم فى دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب الى قراءتها
ظاهرا يخففون بذلك عن انفسهم مؤنة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعانى
وصاحب الملكة فى العبارة والخط مستغن عن ذلك لتمام ملكته وانه صار له فهم
الاقوال من الخط والمعانى من الاقوال كالجبلة الراسخة وارتفعت الحجب بينه وبين
المعانى وربما يكون الدؤب على التعلم والمران على اللغة وممارسة الخط يفضيان
بصاحبهما الى تمكن الملكة كما نجده فى كثير من علماء الاعاجم الا انه فى النادر واذا قرن
بنظيره من علماء العرب واهل طبقته منهم كان
باع العربى اطول وملكته اقوى لما عند
المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التى تؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض من ذلك
بما تقدم من ان علماء الاسلام اكثرهم العجم لان المراد بالعجم هنالك عجم
النسب لتداول الحضارة فيهم التى قررنا انها سبب لانتحال الصنائع و
الملكات ومن جملتها العلوم واما عجمة اللغة فليست من ذلك فهى
المرادة هنا ولا يعترض ذلك ايضا بما كان لليونانيين فى علومهم من رسوخ
القدم فانهم انما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف
بينهم والاعجمى المتعلم للعلم فى الملة الاسلامية ياخذ العلم بغير لسانه
الذى سبق اليه ومن غير خطه الذى يعرف ملكته فلهذا يكون له ذلك حجابا كما

كما قلناه وهذا عام فى جميع اصناف اهل اللسان الاعجمى من الفرس
والروم والترك والبربر والفرنج وساير من ليس من اهل اللسان العربى
وفى ذلك آيات للمتوسمين **فصل** فى علوم اللسان العربى واركانها
اربعة وهى اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفتها ضرورية
على اهل الشريعة اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة
وهما بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلها
من لغتهم فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن اراد علم الشريعة
وتتفاوت فى التاكد بتفاوت مراتبها فى التوفية بمقصود الكلام حسبما
يتبين فى الكلام عليها فنا فنا والذى يتحصل ان الاهم المقدم منها
هو النحو اذ به يتبين اصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول
والمبتدا من الخبر ولولاه لجهل اصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم
لولا ان اكثر الاوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على
الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له اثر فلذلك
علم النحو اهم من اللغة اذ فى جهله الاخلال بالتفاهم جملة وليس كذلك
اللغة والله اعلم **النحو** اعلم ان اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده
وتلك العبارة فعل لسانى ناشئ عن القصد بافادة الكلام فلابد ان تصير
ملكة متقررة فى العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو فى كل امة بحسب اصطلاحهم
وكانت الملكة الحاصلة من ذلك للعرب احسن الملكات واوضحها ابانة
عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى مثل الحركات
التى تعين الفاعل من المفعول من المجرور اعنى المضاف ومثل الحروف
التى تفضى بالافعال اى الحركات الى الذوات من غير تكلف الفاظ اخرى
وليس يوجد ذلك الا فى لغة العرب واما غيرها من اللغات فكل معنى او حال
لابد له من الفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم فى مخاطباتهم
اطول مما نقدره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت جوامع الكلم
واختصر لى الكلام اختصارا فصار للحروف فى لغتهم والحركات والاوضاع اى
الهيئات اعتبار فى الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون

ذلك منها انما هي ملكة في السنتهم ياخذها الآخر من الاول كما ياخذ صبياننا
لهذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في ايدي
الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما القى اليها السمع من المخالفات التي
للمتعربين من العجم والسمع ابو الملكات اللسانية ففسدت بما القي اليها مما يغايرها لجنوحها اليه
باعتياد السمع وخشي اهل العلوم منهم ان تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد
فينغلق القران والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك
الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر انواع الكلام ويلحقون
الاشباه منها بالاشباه مثل ان الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ
مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير هذه الحركات فاصطلحوا على تسميته اعرابا
وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وامثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات
خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة مخصوصة واصطلحوا على تسميتها
بعلم النحو واول من كتب فيها ابو الاسود الدؤلي من بني كنانة ويقال باشارة
علي رضي الله عنه لانه رأى تغير الملكة فاشار عليه بحفظها ففزع الى ضبطها
بالقوانين الحاصرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده الى ان انتهت الى
الخليل بن احمد الفراهيدي ايام الرشيد احوج ما كان الناس اليها لذهاب
تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل ابوابها واخذها عنه سيبويه
فكمل تفاريعها واستكثر من ادلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور
الذي كان اماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع ابو علي الفارسي وابو القاسم
الزجاجي كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام في كتابه ثم طال الكلام
في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين اهلها في الكوفة والبصرة المصرين القديمين
للعرب وكثرت الادلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف
في اعراب كثير من آي القران باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين
وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول
مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وامثاله
واقتصارهم على المبادي للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن
الحاجب في المقدمة وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في الارجوزتين
الكبرى والصغرى وابن معطي في الارجوزة الالفية وبالجملة فالتواليف

في هذا الفن اكثر من ان تحصى او يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة
المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون
والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة ان تؤذن بالذهاب
لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل
الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين بن
هشام من علمائها استوفى فيه احكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على
الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في اكثر
ابوابها وسماه بالمغني في الاعراب واشار الى نكت اعراب القران كلها وضبطها
بابواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره
في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكانه ينحو في طريقته منحى نحاة اهل الموصل
الذين اقتفوا اثر ابن جني واتبعوا مصطلح تدوينه فاتى من ذلك بشيء عجيب دال
على قوة ملكته واضطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء **علم اللغة** وهذا العلم
هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك انه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات
المسماة عند اهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر
الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل
كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم
المخالفة لصريح العربية فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين
خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقران والحديث فشمر كثير من ائمة
اللسان لذلك واملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل
ابن احمد الفراهيدي الف كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي
والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له
حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة وذلك ان جملة الكلمات الثنائية تخرج
من جميع الاعداد على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف
المعجم بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين
فيكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم
الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا
فيكون كلها اعدادا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع

كما هي بحسب المعروف عند اهل الحساب وهو ان تجمع الاول مع الاخير وتضرب
المجموع في نصف العدة ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم والتاخير
بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات
من ضرب عدد الثنائيات فيما يجتمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي
العدد لان كل ثنائية تزيد عليها حرفا من الحروف الباقية وهي ستة
وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد
وتضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة
الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له
التراكيب بهذا الوجه ورتب ابوابه بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج
فبدا بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف
العلة آخرا وهي الحروف الهوائية وبدا من حروف الحلق بالعين لانه الاقصى
منها فلذلك سمي الكتاب بالعين لان المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم
الى مثل هذا وهو تسميته باول ما يقع فيه من الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها
والمستعمل وكان المهمل في الخماسي والرباعي اكثر لقلة استعمال العرب له لثقله
ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي اغلب فكانت
اوضاعه اكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله كتاب العين واستوعبه احسن
استيعاب واوفاه وجاء ابو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالاندلس
في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا
من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ احسن تلخيص والف الجوهري من المشارقة كتاب
الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل
الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس في الاكثر الى
اواخر الكلم فيختص ذلك بابا ثم ياتي بالحروف اول الكلمة على ترتيب حروف
ايضا ويترجم عليها بالفصول الى آخرها وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم الف
فيها من الاندلسيين ابن سيده من اهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم
على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض
لاشتقاقات الكلم وتصريفها فجاء من احسن الدواوين ولخصه محمد بن ابي الحسين
المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح

في اعتبار اواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأمي رحم وسليلي ابوة
ولكراع من ائمة اللغة كتاب المنجد ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الانباري
كتاب الزاهر هذه اصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك مختصرات اخرى
مختصة بصنف من الكلمات ومستوعبة لبعض الابواب او لكلها الا ان
وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رايت ومن
الكتب الموضوعة ايضا في اللغة الزمخشري في المجاز وسماه اساس البلاغة بين فيه
كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب
شريف الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة
الفاظا اخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج
الى فقه في اللغة عزيز الماخذ كما وضع الابيض لكل ما فيه بياض ثم اختص الابيض من الخيل
بالاشهب ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاملح حتى صار استعمال الابيض في هذه
كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب واختص بالتاليف في هذا المعنى الثعالبي وافرده
في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من آكد ما ياخذ به اللغوي نفسه ان يحرف استعمال
العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال
العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الا واكثر ما يحتاج الى ذلك الاديب في فني
نظمه ونثره حذرا عن ان يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها
وهو اشد من اللحن في الاعراب وافحش وكذلك الف بعض المتاخرين في الالفاظ
المشتركة وتكفل بحصرها وان لم يبلغ الى النهاية في ذلك فهو مستوعب للاكثر واما
المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال
لتسهيل حفظها على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب
وغيرهما وبعضها اقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الاهم على الطالب للحفظ والله
الخلاق العليم **فصل** واعلم ان النقل الذي تثبت به اللغة انما هو النقل عن العرب انهم استعملوا
هذه الالفاظ لهذه المعاني لا تقل انهم وضعوها لانه متعذر وبعيد ولم يعرف لاحد منهم
وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم يعرف استعماله على ما عرف استعماله بجامع مع
يشهد باعتباره في الاول شان القياسات الفقهية فيثبت الخمر للنبيذ
باستعماله في العنب باعتبار الاسكار الجامع لان شهادة الاعتبار في باب
القياس انما يدركها الشرع الدال على صحة القياس من اصله وليس لنا مثله في اللغة

الا بالعقل وهو تحكم وعلى هذا جمهور الائمة وان مال الى القياس فيها القاضي وابن سريج
وغيرهم لكن القول بنفيه ارجح ولا تتوهمن ان اثبات اللغة من باب الحدود اللفظية
لان الحد راجع الى المعاني ببيان ان مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور
واللغة اثبات ان لفظ كذا لمعنى كذا والفرق في غاية الظهور علم البيان هذا العلم حادث
في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق بالالفاظ
وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك ان الامور التي يقصد بها
المتكلم افادة السامع من كلامه هي اما تصور مفردات تسند ويسند اليها
ويفضي بعضها الى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال
والحروف واما تمييز المسندات من المسند اليها والازمنة ويدل عليها بتغير الحركات
وهو الاعراب وابنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الامور
المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة احوال المتخاطبين او الفاعلين وما يقتضيه
حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت للمتكلم فقد
بلغ غاية الافادة في كلامه واذا لم تشتمل منها على شي فليس من جنس كلام العرب
فان كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة الا ترى ان
قولهم زيد جاني مغاير لقولهم جاني زيد من قبل ان المتقدم منهما اهم عند المتكلم فمن قال جاني زيد
افاد ان اهتمامه بالمجي قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاني افاد ان اهتمامه بالشخص
قبل المجي المسند وكذا التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة
وكذا تاكيد الاسناد في الجملة كقولهم زيد قايم وان زيدا قايم وان زيدا لقايم متغايرة
كلها في الدلالة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن التاكيد
انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بان يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر فهي
مختلفة وكذلك تقول جاني الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاني رجل اذا قصدت
بذلك التنكير التعظيم وانه رجل لا يعادله احد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون
خبرية وهي التي لها خارج تطابقه اولا وانشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وانواعه
ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محل من الاعراب فينزل بذلك
منزلة التابع المفرد نعتا او توكيدا او بدلا فلا عطف او يتعين العطف اذا لم يكن للثانية
محل من الاعراب ثم قد يقتضي المحل الاطناب والايجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا تريد
منطوقه وتريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيد اسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وانما تريد

شجاعته اللازمة وتسندها الى زيد وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب
الدلالة على ملزومه كما تقول كثير رماد القدر وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى
الضيوف لان كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما وهذه كلها دلالات زائدة على
دلالات الالفاظ المفرد والمركب وانما هي هيئات واحوال للواقعات جعلت
للدلالة عليها احوال وهيئات في الالفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا
العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والاحوال
وجعل على ثلثة اصناف الصنف الاول يبحث عن هذه الهيئات والاحوال التي
يطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة والصنف الثاني يبحث
فيه عن الدلالة على لازم اللفظ او ملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه
ويسمى علم البيان والحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه
بنوع من التنميق اما بسجع يفصله او تجنيس يشابه بين الفاظه او ترصيع يقطع اوزانه
او تورية عن المعنى المقصود بايهام معنى اخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما او طباق
بالتقابل بين الاضداد وامثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع واطلق على الاصناف
الثلثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين
اول ما تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد اخرى وكتب فيها جعفر بن
يحيى والجاحظ وقدامة وامثالهم املاآت غير وافية بها ثم لم تزل مسائل الفن
تكمل شيئا فشيئا الى ان محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب ابوابه على نحو
ما ذكرناه آنفا من الترتيب والف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان
فجعل هذا الفن من بعض اجزائه واخذه المتاخرون من كتابه ولخصوا منه امهات
هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب البيان وابن مالك في كتاب
المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الايضاح وفي كتاب هو اصغر حجما من
الايضاح والعناية لهذا العهد به عند اهل المشرق في الشرح والتعليم منه اكثر من غيره
وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن اقوم من المغاربة وسببه والله اعلم انه كمالي
في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران والمشرق اوفر
عمرانا من المغرب كما ذكرناه او نقول لعناية العجم وهم معظم اهل المشرق بتفسير
الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن بل هو اصله وانما اختص باهل المغرب
من اصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الادب الشعرية وفرعوا له

الالقاب وعددوا ابوابا ونوعوا انواعا زعموا انهم احصوها من لسان العرب وانما
حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وان علم البديع سهل الماخذ وصعبت عليهم
ماخذ البلاغة والبيان لدقة انظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما وممن
الف في البديع من اهل افريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجرى كثير
من اهل افريقية والاندلس على منحاه واعلم ان ثمرة هذا الفن انما هي في فهم
الاعجاز من القران لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال
منطوقة ومفهومة وهي اعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة
وضعها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه وانما يدرك بعض الشي
منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه
فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه اعلى مقاما في ذلك لانهم فرسان
الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود باوفر ما يكون واصحه واحوج ما يكون
الى هذا الفن المفسرون واكثر تفاسير المتقدمين غفل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري
ووضع كتابه في التفسير وتتبع اي القران باحكام هذا الفن بما يبدي البعض من
اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا انه يؤيد عقائد اهل
البدع عند اقتباسها من القران بوجوه البلاغة ولاجل هذا يتحاماه كثير من اهل السنة
مع وفور بضاعته من البلاغة فمن احكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض
المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه او يعلم انها بدعة فيعرض عنها
ولا يضره في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشي من
غرائب الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء
السبيل **علم الادب** هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها وانما
المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب
العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من حفظ كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة
من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثناء
ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر
بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع في اشعارهم منها وكذلك ذكر المهم
من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله ان لا يخفى
على الناظر فيه شي من كلام العرب واساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه

لانه

لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف
عليه فهمه ثم انهم اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ اشعار العرب
واخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان او العلوم
الشرعية من حيث متونها فقط وهي القران والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك
من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتاخرون عند كلفهم بصناعة البديع
من التورية في اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب
هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعنا
من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين
وهي ادب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين
للجاحظ وكتاب النوادر لابي على القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة
فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وقد كان الغناء في الصدر
الاول من اجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وقد كان الكتاب
والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية ياخذون انفسهم به حرصا
على تحصيل اساليب العرب وفنونهم فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة
وكان اهل الحجاز بالمدينة وغيرها ينتحلون ذلك وهم الحجة على من سواهم وقد
الف القاضي ابو الفرج الاصفهاني وهو ما هو كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب
واشعارهم وانسابهم وايامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت
التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتم استيعاب واوفاه
ولعمري انه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن
من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك
فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها وانى له بها
ونحن الان نرجع بالتحقيق على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي
للصواب **فصل** في ان اللغة ملكة صناعية اعلم ان اللغات كلها ملكات
شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها
وقصورها بحسب تمام الملكة او نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما
هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة
للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التاليف الذي يطبق الكلام

على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع
وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع اولا
وتعود منه للذات صفة ثم يتكرر فيكون حالا ومعنى الحال انه صفة غير راسخة ثم يزيد
التكرار فيكون ملكة اى صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة
العربية موجودة فيهم يسمع كلام اهل جيله واساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم
عن مقاصدهم كما يسمع الصبى استعمال المفردات في معانيها فيلقنها اولا ثم يسمع
التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل
متكلم واستعماله يتكرر الى ان يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كاحدهم
وهكذا تصيرت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والاطفال وهذا
معنى ما يقوله العامة من ان لغة العرب بالطبع اى بالملكة الاولى التى اخذت عنهم
ولم ياخذوها من غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم وسبب
فسادها ان الناشى من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات
اخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين
للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب ايضا فاختلط عليه الامر واخذ من هذه
وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربى
ولهذا كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم
من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان
وبنى اسد وبنى تميم واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة
وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة
الاعاجم وعلى نسبة بعدهم عن قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد
عند اهل صناعة العربية والله اعلم **فصل** في ان لغة العرب
لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير وذلك انا نجدها في بيان
المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى ولم يفقد منها الا دلالة
الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتاخير وبقرائن
تدل على خصوصيات المقاصد الا ان البيان والبلاغة في اللسان المضرى
اكثر واعرف لان الالفاظ باعيانها دالة على المعانى باعيانها ويبقى ما تقتضيه
الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وان تكتنفه

احوال تخصه فيجب ان يعتبر تلك الاحوال في تادية المقصود لانها صفاته
وتلك الاحوال في جميع الالسن اكثر ما يدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع واما
في اللسان العربى فانما يدل عليها باحوال وكيفيات في تراكيب وتاليفها
من تقديم او تاخير او حذف او حركة اعراب وقد يدل عليها بالحروف
غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربى بحسب تفاوت
الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربى لذلك اوجز واقل
الفاظا وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت جوامع
الكلم واختصر لى الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر
وقد قال له بعض النحاة انى اجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وان
زيدا قائم وان زيدا لقائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول
افادة لخالى الذهن عن قيام زيد والثانى لمن سمعه فانكره والثالث لمن عرف
بالاصرار على انكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة
والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك الى خرفشة
النحاة اهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون
ان البلاغة لهذا العهد ذهبت وان اللسان العربى فسد اعتبارا بما وقع
اواخر الكلم من فساد الاعراب الذى يتدارسون قوانينه وهى مقالة دسها
التشيع في طباعهم والقاها القصور في افئدتهم والا فنحن نجد اليوم الكثير من
الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه
بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد واساليب اللسان وفنونه
من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم
ومجامعهم والشاعر المفلق على اساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان
بذلك ولم يفقد من احوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في اواخر الكلم فقط
الذى لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الاعراب وهو
بعض من احكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم
الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت
ملكته على غير الصورة التى كانت اولا فانقلب لغة اخرى وكان القرآن منزلا به والحديث
النبوى منقولا بلغته وهما اصل الدين والملة فخشى تناسيهما وانغلاق الافهام

عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به فاحتيج الى تدوين احكامه ووضع مقاييسه
واستنباط قوانينه وصار علماً ذا فصول وابواب ومقدمات ومسائل سماه
اهله بعلم النحو وصناعة العربية واصبح فناً محفوظا وعلما مكتوبا وسلماً
الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافياً ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان
العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية التي
فسدت في دلالتها بامور اخرى وكيفيات موجودة فيه وتكون لها قوانين تخصها
ولعلها يكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر فليست اللغات
وملكاتها مجانا ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري وتصريف كلماته
تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحملهم القصور على انهما لغة واحدة
ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم
بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك
بصحيح ولغة حمير لغة مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها
وحركاتها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الا ان العناية بلسان مضر
من اجل الشريعة كما قلناه حمل على ذلك الاستقراء والاستنباط وليس
عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه ومما وقع في لغة
هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شانهم في النطق
بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند اهل الامصار كما هو
مذكور في الكتب العربية انه من اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى
ولا ينطقون بها ايضاً من مخرج الكاف وان كان اسفل من موضع القاف
وما يليه من الحنك الاعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف
وهذا موجود للجيل اجمع حيث كانوا من غرب او شرق حتى صار ذلك
علامة عليهم من بين الامم والاجيال مختصاً بهم لا يشاركهم فيه غيرهم
حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم
في النطق بها وعندهم انه انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية
او الحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك انه لغة مضر بعينها
فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورياستهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة
ابن حصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن

معاوية

معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد اكثر الامم في المعمور واغلبهم
وهم من اعقاب مضر وسائر الجيل معهم من بني كهلان بهذه القاف اسوة وهذه
اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك
انها لغة مضر الاولين اولعلها لغة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعينها
وقد ادعى ذلك فقهاء اهل البيت وزعموا ان من قرأ في ام القران
الصراط المستقيم بغير القاف الذي لهذا الجيل فقد لحن وافسد صلاته
وما ادري من اين جاء هذا فان لغة اهل الامصار لم يستحدثوها
وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان اكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار
من لدن الفتح واهل الجيل ايضا لم يستحدثوها الا انهم ابعد عن مخالطة
الاعاجم من اهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم انه
من لغة سلفهم هذا مع اتفاق اهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها
وانها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري والظاهر
ان هذه القاف التي ينطق بها اهل الجيل العربي البدوي هو من
مخرج القاف عندا وليهم من اهل اللغة وان مخرج القاف متسع
فاوله من اعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف فالنطق بها من اعلى الحنك
هو لغة الامصار والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي
وبهذا يندفع ما قاله اهل البيت من فساد الصلاة بتركها في ام القران فان
فقهاء الامصار كلهم على خلاف ذلك وبعيد ان يكونوا اهملوا ذلك فوجهه
ما قلناه نعم نقول ان الارجح والاولى ما ينطق به اهل الجيل البدوي
لان تواترها فيهم كما قدمناه شاهد بانها لغة بانها لغة الجيل الاول
من سلفهم وانها لغة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويرجح ذلك ايضا
ادغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين ولو كانت كما ينطق بها
اهل الامصار من اصل الحنك لما كانت قريبة المخرج من الكاف ولم تدغم
ثم ان اهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف وهي التي ينطق بها
اهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد متوسطة بين مخرجي القاف والكاف
على انها حرف مستقل وهو بعيد والظاهر انها من آخر مخرج القاف لاتساعه
كما قلناه ثم انهم يصرحون باستهجانه واستقباحه كانهم لم يصح عندهم انها

لغة الجيل الاول وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها لانهم لما ورثوها من سلفهم
جيلاً بعد جيل وانها شعارهم الخاص بهم دليل على انها لغة هذا الجيل الاول
او لغة النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم ذلك كله وقد يزعم زاعم ان هذه
القاف التي تنطق بها اهل الامصار ليست من هذا الحرف وانها انما جاءت من مخالطتهم
للعجم وانهم ينطقون بها كذلك فليست من لغة العرب لكن الاقيس ما قدمناه من انها
حرف واحد متسع المخرج فتفهم ذلك والله الهادي المبين فصل
في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر اعلم ان
عرف التخاطب في الامصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة اهل
الجيل بل لغة اخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا
وهي لغة مضر ابعد فاما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها
من التغاير الذي يعد عند اهل صناعة النحو لحناً وهي مع ذلك تختلف
باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة اهل المشرق مباينة بعض الشيء
للغة اهل المغرب وكذا اهل الاندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته
الى تادية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان
الاعراب ليس بضاير لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما انها ابعد عن اللسان
الاول من لغة هذا الجيل فلان البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجمة فمن خالط
العجم اكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي ابعد لان الملكة انما تحصل
بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب والملكة
الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون
عن الملكة الاولى واعتبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس و
المشرق اما افريقية والمغرب فخالطت فيها العرب البرابرة من العجم
لوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنها مصر ولا جيل فغلبت على اللسان العربي
الذي كان لهم وصارت لغة اخرى ممتزجة والعجمة فيها اغلب لما
ذكرناه فهي عن اللسان الاول ابعد وكذا المشرق لما غلب العرب على امم
من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الاكرة والفلاحين
والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات واظئاراً ومراضع ففسدت
لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة اخرى وكذا اهل الاندلس

مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار اهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم
اهل لغة اخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر وتخالف ايضا بعضها بعضاً كما نذكره
وكانها لغة اخرى لاستحكام ملكتها في اجيالهم والله يخلق ما يشاء فصل في
تعلم اللسان المضري اعلم ان ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد
ذهبت وفسدت ولغة اهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل
بها القرآن وانما هي لغة اخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه الا ان اللغات
لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكنا شان ساير الملكات ووجه
التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها ان ياخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم
الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات
فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضا في ساير
فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من
نشا بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في
التعبير عما في الضمير على حسب عباراتهم وتاليف كلماتهم وما وعاه وحفظه
من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال
وتزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة وتحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع السليم فيها كما نذكره
بعد وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال يكون جودة المقول المولف
نظما ونثرا ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد
البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي ان يكون تعلمها والله يهدي من يشاء فصل
في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم
والسبب في ذلك ان صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة
ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة
من يعرف صناعة من الصنايع علماً ولا يحكمها عملاً مثل ان يقول بصير بالخياطة
غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض انواعها الخياطة هي ان تدخل الخيط في
خرت الابرة ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين وتخرجها من الآخر بمقدار كذا
ثم تردها الى حيث ابتدات وتخرجها قدام منفذها الاول بمطرح
ما بين الثقبين والتفتيح وساير انواع الخياطة واعمالها واذا طولب
ان يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا وكذلك لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل

الخشب فيقول هو ان تضع المنشار على راس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما واطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية الى ان ينتهى الى اسفل الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل او شى منه لم يحكمه وهكذا هو العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك تجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين اذا سئل فى كتاب سطرين الى اخيه او ذى مودته او شكوى ظلامة او قصد من قصوده اخطأ فيها الصواب واكثر من اللحن ولم يجد تاليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على اساليب اللسان العربى وكذلك نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية فمن هنا ان تلك الملكة هى غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة فى صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقى واكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملأ كتابه من امثال العرب وشواهد اشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج فى محفوظه فى اماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشان الملكة فاستوفى تعليمها فكان ابلغ فى الافادة ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة واما المخالطون لكتب المتاخرين العارية من ذلك الا من القوانين النحوية مجردة عن اشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بامر هذه الملكة او ينتبهون لشانها فتجدهم يحسبون انهم قد حصلوا على رتبة فى لسان العرب وهم ابعد الناس عنه واهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها اقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وامثالهم والتفقه فى الكثير من التراكيب فى مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدى كثير من الملكة اثناء التعليم فتنطبع النفس بها وتستعد الى تحصيلها وقبولها واما من سواهم من اهل المغرب وافريقية وغيرهم فاجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا وقطعوا النظر عن التفقه فى تراكيب كلام العرب

الا ان اعربوا شاهدا او رجحوا مذهبا من جهة الاقتضاء الذهنى لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فاصبحت صناعة العربية كانها من جملة قوانين المنطق العقلية والجدل وبعدت عن مناحى اللسان وملكته وافاد ذلك حملتها فى هذه الآفاق وامصارها البعد عن الملكة بالكلية وكانهم لا ينظرون فى كلام العرب وما ذلك الا لعدولهم عن البحث فى شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز اساليبه وغفلتهم عن المران فى ذلك للمتعلم فهو احسن ما تفيده الملكة فى اللسان وتلك القوانين انما هى وسائل للتعليم لكنهم اجروها على غير ما قصد بها واصاروها علما بحتا وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه فى هذا الباب ان حصول ملكة اللسان العربى انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم فى خياله المنوال الذى نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم فى كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة فى العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الامور

فصل فى تفسير لفظة الذوق فى مصطلح اهل البيان وتحقيق معناها وبيان انها لا تحصل غالبا للمستعربين من العجم اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وانها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى افادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته لذلك بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التركيب حتى لا يكاد يخطئ فيه عن منحى البلاغة التى للعرب وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بادنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كانها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شان الملكات ان الصواب للعرب فى لغتهم اعرابا وبلاغة امر طبيعى ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادى الراى انها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب

وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين
العلمية في ذلك التي استنبطها اهل صناعة البيان فان هذه القوانين
انما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك
واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن
التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه
الملكة حيدا عن هذا السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه
عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده واذا عرض عليه
الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه ومجه وعلم انه
ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع
اهل القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلالي بما حصل من القوانين
المفادة بالاستقراء وهذا امر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير
كواحد منهم ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فانه يتعلم
لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم
القانوني في شيء وانما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل
هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم واشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك
بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين اجيالهم والقوانين
بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه
اهل صناعة البيان والذوق انما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان
محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم
استعير لها اسمه وايضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق
واذا تبين لك ذلك علمت منه ان الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين
عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة اهله كالفرس والروم والترك بالمشرق
وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا
امرها لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة اخرى على لسانهم وهي لغاتهم
ان يعتنوا بما يتداوله اهل المصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون
اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا كما تقدم
وانما لهم في ذلك ملكة اخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف

احكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في
شيء انما حصل احكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد
والتكرر لكلام العرب فان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي
والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة
لهم فاعلم ان اولئك القوم الذين تسمع عنهم انما كانوا عجما في نسبهم فقط
واما المربى والنشأة فكانت بين اهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم
فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكانهم في اول نشأتهم بمنزلة الاصاغر
الذين نشأوا في اجيالهم حتى ادركوا كنه اللغة وصاروا من اهلها فهم
وان كانوا اعجاما في النسب فليسوا باعجام في اللغة والكلام لانهم ادركوا الملة
في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تزل آثار الملكة منها ولا من اهل الامصار
ثم عكفوا على المدارسة والممارسة لكلام العرب بالامصار فاول ما تجد تلك الملكة
المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار وتجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة اخرى
مخالفة لملكة اللسان العربي ثم اذا فرضنا انه اقبل على الممارسة لكلام العرب
واشعارهم بالمدارسة والحفظ ليستفيد تحصيلها فقل ان يحصل له ما قدمناه من
ان الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى في المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة فان فرضنا
اعجميا في النسب سلم من مخالطة اللسان الاعجمي بالكلية فذهب الى تعلم هذه الملكة
بالحفظ والمدارسة فربما حصل له ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك
بما تقرر وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له
بها وهو غلط او مغالطة وانما حصلت له الملكة ان حصلت في تلك القوانين
البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

فصل في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية
التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها عليه
اصعب والسبب في ذلك ما يسبق الى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة
بما سبق اليه من اللسان الحضري الذي افادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته
الاولى الى ملكة اخرى هي لغة الحضر لهذا العهد ولهذا تجد المعلمين يذهبون
الى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة ان هذه المسابقة بصناعتهم
وليس كذلك وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم

صناعة النحو اقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات اهل الامصار اعرق
فى العجمة وابعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها
لتمكن المنافاة حينئذ واعتبر ذلك فى اهل الامصار فاهل افريقيه والمغرب لما كانوا
اعرق فى العجمة وابعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام فى تحصيل ملكته بالتعليم ولقد
نقل ابن الرقيق ان بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا اخى ومن لا عدمت
فقده اعلمنى ابو سعيد كلاما انك كنت ذكرت انك تكون مع الذين تاتى
وعاقنا اليوم فلم يتهيا لنا الخروج واما اهل المنزل الكلاب من امر الشين
فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتابى اليك وانا مشتاق
اليك وهكذا كانت ملكتهم فى اللسان المضرى وسببه ما ذكرناه وكذلك
اشعارهم كانت بعيدة من الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل لذلك ولهذا
العهد وما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن الرشيق وابن شرف
واكثر ما يكون فيها الشعرا طارئين عليها ولم تزل طبقتهم فى البلاغة حتى الآن
مائلة الى القصور واهل الاندلس اقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة
معاناتها وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا وكان فيهم ابن
حيان المورخ امام اهل الصناعة فى هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربه
والقسطلى وامثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت بها بحار
اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانفضاض
والجلا ايام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك شان الصنائع كلها فقصرت
الملكة فيهم عن شانها حتى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف
ومالك بن المرحل من تلميذ الطبقة الاشبيليين بسبتة وكان دولة بنى الاحمر
فى اولها والقت الاندلس افلاذ كبدها من اهل تلك الملكة بالجلاء الى العدوة
من اشبيلية الى سبتة ومن شرق الاندلس الى افريقية ثم لم يلبثوا ان انقرضوا
وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة لعسر قبول اهل العدوة بها وصعوبتها
عليهم لعوج السنتهم ورسوخهم فى العجمة البربرية وهى منافية لما قلناه ثم عادت
الملكة بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب
وطبقتهم ثم ابراهيم الساحلى الطويجن وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من
بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية اعدائه وكان له فى اللسان ملكة لا تدرك

واتبع اثره تلميذه من بعده وبالجملة فشان هذه الملكة بالاندلس اكثر
وتعليمها اسهل وايسر بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم
اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولان اهل
اللسان العجمى الذى تفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم اصلا
للغة الاندلس والبربر فى هذه العدوة هم اهلها ولسانهم لسانها الا فى الامصار فقط
وهم فيها منغمسون فى بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية
بالتعليم بخلاف اهل الاندلس والبربر فى هذه العدوة واما المشرق لعهد الاموية
والعباسية فكان شانه شان الاندلس فى تمام هذه الملكة واجادها لبعدهم لذلك
العهد عن الاعاجم ومخالطتهم الا فى القليل فكان امر هذه الملكة لذلك
العهد اقوم وكان فحول الشعرا والكتاب لعهدهم اوفر لتوفر العرب وابنائهم
بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الاغانى من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب
هو كتاب العرب وديوانهم فيه لغتهم واخبارهم وايامهم وملتهم العربية
وسير نبيهم وآثار خلفائهم وملوكهم واشعارهم وغناؤهم وسائر احوالهم
فلا كتاب اوعب منه لاحوال العرب وبقى امر هذه الملكة مستحكما بالمشرق
فى الدولتين وربما كانت فيهم ابلغ ممن سواهم فى الجاهلية كما نذكره
بعد حتى تلاشى امر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى امرهم
ودولهم وصار الامر للاعاجم والملك فى ايديهم والغلب لهم وذلك
فى دولة الديلم والسلجوقية وخالطوا اهل الامصار وكثروهم فامتلات
الارض بلغاتهم فاستولت العجمة على اهل الامصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان
العربى وملكته وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك لسانهم
لهذا العهد فى فنى النظم والمنثور وان كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء

فصل فى انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر اعلم ان لسان العرب
وكلامهم على فنين فى الشعر والمنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه
الذى تكون اوزانه كلها على روى واحد وهو القافية وفى النثر وهو الكلام
الغير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب فى الكلام فاما
الشعر فمنه المدح والشجاعة والرثا واما النثر فمنه السجع وهو الذى يؤتى به قطعا
قطعا ويلتزم فيه اوزان كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا ومنه المرسل

وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالا من غير تقييد
ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم واما القرآن
وان كان من المنثور الا انه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلا مطلقا
ولا مسجعا بل هو مفصل آيات تنتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها
ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا
ولا قافية وهو معنى قوله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر
منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها
فواصل اذ ليست اسجاعا ولا يلتزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هو ايضا قواف
واطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختص
بام القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع
ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه
واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون الشعرية اساليب تختص به عند اهله
ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء
المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وامثال ذلك وقد استعمل
المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام
التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تاملته
من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب
على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال
في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وتناسوه وهجروا المرسل صح
وخصوصا اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب
الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه وهو غير صواب من جهة
البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب
وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه
المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تباح فيها اللوذعة و
خلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال
وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في
الخطاب والتزام التقفية ايضا من اللوذعة والتزيين وجلال الملك

والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك
ويباينه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسيل هو اطلاق الكلام وارساله
من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير
تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات
مختلفة ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات
او تصريح او اشارة او كناية او استعارة واما اجراء المخاطبات السلطانية
على هذا النحو الذي هو اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء
العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته
لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده في البلاغة وانفساح خطوته
وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى
الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعية
ويغفلون عما وراء ذلك واكثر من اخذ بهذا المذهب وبالغ فيه في سائر
انحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب
في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان معها
فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة
عساها تصادف التجنيس فتامل ذلك وانتقد بما قدمناه لك تقف
على صحة ما ذكرناه والله الموفق **فصل** في انه لا تتفق الاجادة في فني
المنظوم والمنثور معا الا للاقل والسبب في ذلك انه كما بيناه ملكة في اللسان
فاذا سبقت الى محله ملكة اخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة
لان قبول الملكات وحصولها للطباع التي على الفطرة الاولى اسهل وايسر
واذا تقدمتها ملكات اخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة
عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة وهذا موجود
في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهنا عليه في موضعه
بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة
الصناعة وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرا في اللسان
العربي ابدا فالاعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان
العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي

١٩ السلطانية

فقل ان تجد احداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى السنتهم
من ملكة اللسان الآخر حتى ان طالب العلم من اهل هذه الاندلس اذا طلبه
بين اهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل
وما اتى الا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل ان الالسن واللغات
شبيهة بالصنائع وتقدم لك ان الصنائع وملكاتها لا تزدحم وان من سبقت
له اجادة ملكة فقل ان يجيد اخرى او يستولي فيها على الغاية والله خلقكم وما تعملون

فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه هذا الفن من فنون كلام العرب
وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات الا انا انما نتكلم الآن
في الشعر الذي للعرب فان امكن ان تجد اهل الالسن الاخرى مقصودهم
من كلامنا والا فلكل لسان احكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب
غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن
متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه المقطعات
عندهم بيتاً ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روياً وقافية وتسمى جملة الكلام
الى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه حتى كانه كلام
وحده مستقل عما قبله وبعده واذا افرد كان تاماً في بابه في مدح او نسيب او رثاء
فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل به في افادته ثم يستانف في البيت
الآخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود
بان يوطئ المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام
عن التنافر كما يستطرد من النسيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف
او الخيل والطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع
والعزاء في الرثاء الى التأبين وامثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها
في الوزن الواحد حذراً من ان يتساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه
فقد يخفى ذلك من اجل المقاربة على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط واحكام
تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا
الفن وانما هي اوزان مخصوصة تسميها اهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها
في خمسة عشر بحراً بمعنى انهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية
نظماً واعلم ان فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ولذلك

جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم واصلاً
يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شان
ملكاتهم كلها والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والارتياض
في الكلام حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب
المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل
بيت منه بانه كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون ما سواه فيحتاج
من اجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري
في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلاً بنفسه
ثم يأتي ببيت آخر ويستكمل الفنون الوافية المقصودة ثم يناسب بين البيوت
في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة
منحاه وغرابة فنه كان محكاً للقرائح في استجادة اساليبه وشحذ الافكار في تنزيل
الكلام في قوالبه ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه
الى تلطف ومحاولة في رعاية الاساليب التي اختصته العرب بها وباستعمالها فيه
ولنذكر هنا مدلول لفظة الاسلوب عند اهل هذه الصناعة وما يريدون بها
في اطلاقهم فاعلم انها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب
الذي يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته اصل المعنى الذي هو وظيفة
الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة
البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة
العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وانما يرجع الى
صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على كل تركيب خاص
وتلك الصورة ينتزعها الذهن من اعيان التراكيب واشخاصها ويصيرها
الخيال كالقالب او المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار
الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب او النساج
في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على
الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فان لكل فن من الكلام
اساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب
الطلول كقوله ، يا دار مية بالعلياء فالسند ، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف

والسؤال كقوله • قفا نسأل الدار التي خف اهلها • او باستبكاء الصحب على الطلل كقوله
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل • او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله
الم تسأل فتخبرك الرسوم • ومثل تحية الطلول بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله
حيّ الديار بجانب الغزل • او بالدعاء لها بالسقيا كقوله • اسقى طلولهم اجش هزيم
وغدت عليهم نضرة ونعيم • او بسؤال السقيا لها من البرق كقوله
يا برق طالع منزلاً بالابرق • واحد السحاب له حداء الاينق • ومثل التفجع في الرثا
باستدعاء البكاء كقوله • كذا فليجل الخطب وليفدح الامر • وليس لعين لم يفض ماؤها عذر
او باستعظام الحادث كقوله • ارايت من حملوا على الاعواد • ارايت كيف خبا ضياء النادي
او بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله • منابت العشب لا حام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع • او بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية
ايا شجر الخابور مالك مورقاً • كانك لم تجزع على ابن طريف • او تهنئة فريقه
بالراحة من ثقل وطأته كقوله • القى الرماح ربيعة بن نزار • اودى الردى
بقريعك المغوار • وامثال ذلك في ساير فنون الكلام ومذاهبه وتنتظم التراكيب فيه
بالجمل وغير الجمل انشائية وخبرية اسمية او فعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة
على ما هو شان التراكيب في الكلام العربي ومكان كل كلمة من الاخرى يعرفك
ما تستفيده بالارتياض في اشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من
التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام كالبناء
او كالنساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه او المنوال الذي
ينسج عليه فان خرج عن القالب في بنائه او عن المنوال في نسجه كان فاسداً
ولا تقولن ان معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لانا نقول قوانين
البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها
الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية
وهذه الاساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء انما هي هيئة
ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم
صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر
كما قدمناه ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من الاعراب والبيان
لا يفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية

استعمله

استعملوه وانما المستعمل عندهم من ذلك انحاء معروفة يطلع عليها
الحافظون لكلامهم وتندرج صورها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر
في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الاساليب الذهنية التي تصير كالقوالب
كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا
ان المحصل لهذه القوالب في الذهن انما هو حفظ اشعار العرب
وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فان العرب
استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاؤا به مفصلاً في النوعين ففي الشعر
بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي
المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبا وقد يقيدونه بالاسجاع
وقد يرسلونه وقوالب كل واحد من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل
منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم
حتى تتجرد له في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه
في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان فن
تأليف الكلام منفرداً عن النظر النحوي والبياني والعروضي نعم ان
ان مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه
الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر في هذه القوالب التي يسمونها
اساليب ولا يفيده الا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً واذا تقرر معنى
الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حداً او رسماً للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة
هذا الغرض فانا لم نقف لاحد من المتقدمين فيما رايناه وقول العروضيين
في حده انه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له
وصناعتهم انما تنظر في الشعر من اتفاق ابياته في عدد المتحركات والسواكن
على التوالي ومماثلة عروض ابيات الشعر بضربها وذلك نظر في وزن مجرد
عن الالفاظ ودلالتها فناسب ان يكون حداً عندهم ونحن ننظر في الشعر
باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم
ان حدهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه
الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والاوصاف المفصل
باجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله

وبعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة به فقولنا الكلام البليغ كالجنس وقولنا
المبني على الاستعارة والاوصاف فصل له عما يخلو من هذه فانه في الغالب ليس
بشعر وقولنا المفصل باجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي
ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان
للحقيقة لان الشعر لا يكون اياته الا كذلك ولم يفصل به شي وقولنا الجاري على الاساليب
المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على اساليب الشعر المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا
انما هو كلام منظوم لان الشعر له اساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا المنثور اساليب
لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يسمى شعرا
وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون
ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شي لانهما لم يجريا على اساليب العرب
فيه وقولنا في الحد الجاري على اساليب العرب فصل له عن شعر غير العرب من الامم
عند من يرى ان الشعر يوجد للعرب ولغيرهم ومن يرى انه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج
الى ذلك ويقول مكانه الجاري على الاساليب المخصوصة به واذ فرغنا من الكلام
على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية عمله فنقول اعلم ان لعمل الشعر واحكام
صناعته شروطا اولها الحفظ من جنسه اي من جنس شعر العرب حتى تنشا في النفس
ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار
اقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن ابي ربيعة وكثير وذي الرمة
وجرير وابي نواس وحبيب والبحتري والرضي وابي فراس واكثره شعر
كتاب الاغاني لانه جمع شعر اهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر
الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق
والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه او عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم
ساقط واجتناب الشعر اولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من المحفوظ وشحذ
القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال
ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادرة
عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب
فيها كانه منوال يؤخذ في النسج عليه بامثالها من كلمات اخرى ضرورة
ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازاهر

وكذلك

وكذلك من المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور
ثم مع هذا كله فشرطه ان يكون على جمام ونشاط فذلك اجمع له وانشط للقريحة
ان تاتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الاوقات لذلك
اوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر
وفي هواء الحمام وربما قالوا ان من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك
ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة
واعطى حقها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده قالوا فان استصعب عليه
بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت
على القافية من اول صوغه ونسجه يضعها ويبني الكلام عليها الى آخره
لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها
فربما تجيء نافرة قلقة واذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه
الى موضعه الاليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم يبق الا المناسبة فليتخير فيها
كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على
الترك اذا لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون بشعره اذ هو بنات فكره واختراع
قريحته ولا يستعمل فيه الكلام الا الافصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية
اذ هو قصور في الملكة اللسانية فليهجرها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة
وقد حظر ائمة الشان على المولد ارتكاب الضرورة اذ هو في سعة منها بالعدول
عنها الى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب ايضا المعقد من التراكيب جهده
وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق الفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني
في البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت الفاظه
طبقا على معانيه او ادنى منها فان كانت المعاني كثيرة كان حشوا واشتغل
الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر
سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق الفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم
يعيبون شعر ابن خفاجة شاعر شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها
في البيت الواحد كما يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الاساليب العربية
كما مر فكان شعرهما كلام منظوم نازل عن طبقة الشعر والحاكم في ذلك
هو الذوق وليجتنب الشاعر ايضا الحوشي من الالفاظ والمقعر وكذلك

السوقي المبتذل بالتداول في الاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فان الكلام ينزل بها عن البلاغة ايضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الاجادة في الاكثر ولا يحذق فيها الا الفحول وفي القليل على العسر لان معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك. واذا تعذر الشعر بعد هذه كلها فليراوضه ويعاوده فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف ويغرز بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن اراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في امر هذه الصناعة الشعرية وما يجب فيها ومن احسن ما قيل في ذلك واظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهال فيها لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرون المحال معنى صحيحاً ... وخسيس الكلام شيئا ثمينا
يجهلون الصواب منه ولا ... يدرون للجهل انهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامون ... وفي الحق عندنا يعذرونا
انما الشعر ما تناسب في النظم ... وان كان في الصفات فنونا
فاتى بعضه يشاكل بعضاً ... واقامت له الصدور متونا
كل معنى اتاك منه على ما ... تتمنى لو لم يكن ان يكونا
فكان الالفاظ منه وجوه ... والمعاني ركبن فيه عيونا
قايماً في المرام حسب الاماني ... يتحلى بحسنه المنشدونا
فاذا ما مدحت بالشعر حراً ... رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً ... وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتنكبت ما يهجن في السمع ... وان كان لفظه موزونا
واذا ما قرضت بهجاء عبت ... فيه مذاهب المرفثينا
فجعلت التصريح منه دواءً ... وجعلت التعريض داءً دفينا

واذا ما بكيت فيه على الغادين ... يوماً للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذللت ... ما كان من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتباً شبت بالوعد ... وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه حذراً ... آمناً عزيزاً مهينا
واصح القريض ما فات في ... النظم وان كان واضحاً مستبينا
فاذا قيل اطمع الناس طراً ... واذا ريم اعجز المعجزينا

ومن ذلك ايضا قول بعضهم

الشعر ما قومت زيغ صدوره ... وشددت بالتهذيب اس متونه
ورأبت بالاطناب شعب صدوعه ... وفتحت بالايجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده ... ووصلت بين مجمه ومعينه
وعقدت منه لكل امر يقتضي ... شبهاً به فقرينه بقرينه
واذا مدحت به جواداً ماجداً ... وقضيته في الشكر حق ديونه
اصفيته بنفيسه ورصينه ... وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلاً في مساق صنوفه ... ويكون سهلاً في اتفاق فنونه
فاذا بكيت به الديار واهلها ... اجريت للمحزون ماء شؤونه
واذا اردت كناية عن ريبة ... باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعه يشوب شكوكه ... بثباته وظنونه بيقينه
واذا عتبت على اخ في زلة ... ادمجت شدته له في لينه
فتركته مستأنساً بدماثة ... مستأمناً لحزونه وسهوله
واذا نبذت الى التي علقتها ... اذ صارمتك بفاتنات شؤونه
تيمتها بلطيفه ورقيقه ... وشغفتها بخفيه وكمينه
واذا اعتذرت لسقطة اسقطتها ... واشكلت بين مخيله ومبينه
فيحول ذنبك عند من يعتده ... عتباً عليه مطالباً بيمينه

فصل في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي اصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم

والنثر انما يأتى لها فى الالفاظ بحفظ امثالها من كلام العرب ليكثر استعماله
وجريه على لسانه حتى تستقر الملكة فى لسان مضر ويتخلص من العجمة التى
ربى عليها فى جيله ويفرض نفسه مثل وليد نشا فى جيل العرب ويلقن
لغتهم كما يلقنها الصبى حتى يصير كانه واحد منهم فى لسانهم ذلك وذلك
انا قدمنا ان اللسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها
على اللسان حتى تحصل شان الملكات والذى فى اللسان والنطق انما
هو الالفاظ والمعانى فى الضماير وايضا فالمعانى موجودة عند كل احد
وفى طوع كل فكر منها ما يشا ويرضى فلا يحتاج الى تكلف صناعة فى تاليفها
وتاليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلنا وهو بمثابة القوالب
للمعانى فكما ان الاوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب
والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد فى نفسه
وتختلف الجودة فى الاوانى المملوة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء
كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات
الكلام فى تاليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعانى واحدة فى نفسها
وانما الجاهل بتاليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول
العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذى يروم النهوض ولا يستطيعه
لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فصل فى ان
حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ قد قدمنا
انه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربى وعلى قدر جودة
المحفوظ وطبقته فى جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة
عنه للحافظ فمن كان محفوظه من اشعار العرب الاسلاميين او شعر
حبيب او العتابى او ابن المعتز او ابن هانى او الشريف الرضى او رسائل
ابن المقفع او سهل بن هرون او ابن الزيات او البديع او الصابى تكون ملكته
اجود واعلى مقاما ورتبة فى البلاغة ممن يحفظ اشعار المتاخرين مثل شعر
ابن سهل او ابن النبيه او ترسيل البيسانى او العماد الاصفهانى لنزول طبقة
هولاء عن اولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى
مقدار جودة المسموع او المحفوظ تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة

الملكة من بعدها فبارتقاء المحفوظ فى طبقته من الكلام ترتقى الطبقة الحاصلة
لان الطبع انما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها وذلك ان النفس
وان كانت فى جبلتها واحدة بالنوع فهى تختلف فى البشر بالقوة والضعف
فى الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات
والملكات والالوان التى تكيفها من خارج فبهذه يتم وجودها وتخرج
من القوة الى الفعل صورتها والملكات التى تحصل لها انما تحصل على التدريج
كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشا بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاسجاع
والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والادراكات والابحاث والانظار
والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسايل وتفريعها وتخريج الفروع على الاصول
والتصوفية الربانية بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة
بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع الى حسه
الباطن وروحه وينقلب ربانيا وكذا سايرها وللنفس من كل واحدة منها
لون تتكيف به وعلى حسب ما نشات الملكة عليه من جودة او رداءة
تكون تلك الملكة فى نفسها فملكة البلاغة العالية الطبقة فى جنسها
انما تحصل بحفظ العالى فى طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء واهل العلم كلهم قاصرين
فى البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلى به من القوانين العلمية
والعبارات الفقهية الخارجة عن اسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة
لان العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ فيها للبلاغة فاذا سبق ذلك
المحفوظ الى الفكر وكثر وتلونت النفس جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية
القصور وانحرفت عباراته عن اساليب العرب فى كلامهم وكذا تجد شعر
الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لا يمتلى من حفظ النقى الحر
من كلام العرب اخبرنى صاحبنا الفاضل ابو القسم بن رضوان كاتب العلامة
بالدولة المرينية قال ذاكرت يوما صاحبنا ابا العباس بن شعيب كاتب
السلطان ابى الحسن وكان المقدم فى البصر باللسان لعهده فانشدته
مطلع قصيدة ابن النحوى ولم انسبها له وهو
لم ادر حين وقفت بالاطلال • ما الفرق بين جديدها والبالى
فقال لى على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن اين لك ذلك قال من قوله

ما الفرق اذ هي من عبارات الفقهاء ولبست من اساليب كلام العرب فقلت له
لله ابوك انه ابن النحوي الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتحريهم في محفوظهم
ومخالطتهم كلام العرب واساليبهم في الترسيل وانتقائهم له الجيد من الكلام
ذاكرت يوماً اباعبدالله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس وكان الصدر
المقدم في الشعر والكتابة فقلت له اجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته
مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القران والحديث وفنون من كلام
العرب وان كان محفوظي قليلاً وانما اتيت والله اعلم من قبل ما حصل في حفظي
من الاشعار العلمية والقوانين التاليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي
الكبرى والصغرى في القراات والرسم واستظهرتهما وتدارست كتابي ابن
الحاجب في الفقه والاصول وجمل الخونجي في المنطق وكثيرا من القوانين التعليم
في المجالس فامتلا محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها
بالمحفوظ الجيد من القران والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها
فنظر الي ساعة معجباً ثم قال لله انت وهل يقول هذا الا مثلك ويظهر لك
من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في ان كلام الاسلاميين
من العرب اعلى طبقة من البلاغة واذواقها من الجاهلية في منظومهم ومنثورهم
فانا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق
ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب
في الدولة الاموية وصدر من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم
للملوك ارفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير
وعلقمة بن عبده وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم
والطبع السليم والذوق الصحيح والذوق السليم شاهدان للناقد البصير بالبلاغة والسبب في
ذلك ان هولاء الذين ادركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القران
والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشات على اساليبها
نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من
اهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشا عليها فكان كلامهم في نظمهم
ونثرهم احسن ديباجة واصفى رونقا من اولئك وارصف مباني واعدل
تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتامل ذلك يشهد لك

به ذوقك ان كنت من اهل الذوق والبصر بالبلاغة ولقد سالت يوماً شيخنا
اباالقاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة اخذ بسبتة عن
شيخها من تلميذ الشلوبين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء
الغاية فيه فسالته يوماً ما بال العرب الاسلاميين اعلى طبقة من الجاهليين
ولم يكن يستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما ادري فقلت
اعرض لك شيئا ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي
كتبت فسكت معجبا ثم قال يا فقيه هذا كلام من حقه ان يكتب بالذهب وكان
وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة
في العلوم والله خلق الانسان وعلمه البيان فصل في بيان المطبوع من الكلام
والمصنوع وكيف جودة المصنوع او قصوره اعلم ان الكلام الذي هو
العبارة والخطاب انما سره وروحه في افادة المعنى واما اذا كان
مهملاً فهو كالموات الذي لاعبرة به وكمال الافادة هو البلاغة على ما عرفت
في حدها عند اهل البيان لانهم يقولون هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومعرفة
الشروط والاحكام التي تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال هو فن
البلاغة وتلك الشروط والاحكام للتراكيب في المطابقة استقريت
من لغة العرب وكالقوانين فالتراكيب بوضعها يفيد الاسناد بين المسندين
بشروط واحكام هي جل قوانين العربية واحوال هذه التراكيب من تقديم
وتاخير وتعريف وتنكير واضمار واظهار وتقييد واطلاق وغيرها يفيد
الاحوال المكتنفة من خارج بالاسناد وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط
واحكام هي قوانين لفن سموه علم المعاني من فنون البلاغة فتندرج قوانين
العربية لذلك في قوانين علم المعاني لان افادتها للاسناد جزء من افادتها
للاحوال المكتنفة بالاسناد وما قصر من هذه التراكيب عن افادة مقتضى
الحال لخلل في الاعراب او قوانين المعاني كان قاصرا عن المطابقة لمقتضى
الحال ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات ثم يتبع هذه الافادة
لمقتضى الحال التفنن في انتقال الذهن بين المعاني باصناف الدلالات
لان التركيب يدل بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن الى لازمه او ملزومه او شبهه
فيكون فيها مجازا اما باستعارة او كناية كما هو مقرر في مواضعه ويحصيل

للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل من الافادة واشد لان في جميعها
ظفراً بالمدلول من دليله والظفر من اسباب اللذة كما علمت ثم لهذه الانتقالات
ايضا شروط واحكام كالقوانين صيروها صناعة وسموها بالبيان وهي
شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال لانها راجعة الى معاني التراكيب ومدلولاتها
وقوانين علم المعاني راجعة الى احوال التراكيب انفسها من حيث الدلالة
واللفظ والمعنى متلازمان متضايفان كما علمت فاذن علم المعاني وعلم البيان
هما جزأ البلاغة وبهما كمال الافادة والمطابقة لمقتضى الحال فما قصر من هذه
التراكيب عن المطابقة وكمال الافادة فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند
البلغاء باصوات الحيوانات العجم واجدر به ان لا يكون عربيا لان العربي
هو الذي يطابق بافادته مقتضى الحال فالبلاغة على هذا هي اصل الكلام العربي
وسجيته وروحه وطبيعته ثم اعلم انهم اذا قالوا الكلام المطبوع فانهم يعنون به
الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من افادة مدلوله المقصود منه لانه عبارة
وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط بل المتكلم يقصد به ان يفيد سامعه
ما في ضميره افادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه
السجية التي له بالاصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الافادة وكانها
يعطيها رونق الفصاحة من تنميق الاسجاع والموازنة بين جمل الكلام وتقسيمه
بالاقسام المختلفة الاحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه
والموافقة بين المتضادات ليقع التجانس بين الالفاظ او المعاني فيحصل للكلام
رونق ولذة في الاسماع وحلاوة وجمال كلها زائد على الافادة وهذه الصنعة
موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مثل والليل اذا يغشى والنهار
اذا تجلى ومثل فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى الى آخر التقسيم في الاية
وكذا فاما من طغى وآثر الحيوة الدنيا الى آخر الآية وكذلك وهم يحسبون
انهم يحسنون صنعا وامثاله كثيرة وذلك بعد كمال الافادة في اصل هذه
التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها وكذا وقع في كلام الجاهلية منه لكن عفوا
من غير قصد ولا تعمد ويقال انه وقع في شعر زهير واما الاسلاميون فوقع لهم
عفواً وقصداً واتوا منه بالعجائب واول من احكم طريقة حبيب بن اوس
والبحتري ومسلم بن الوليد فقد كانوا مولعين بالصنعة ويأتون منها بالعجب

وقيل ان اول من ذهب الى معاناتها بشار بن برد وابن هرمة وكانا آخر
من يستشهد بشعرهما في اللسان العربي ثم اتبعهما كلثوم بن عمرو العتابي
ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وابو نواس وجاء على اثرهم حبيب
والبحتري ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع والصناعة اجمع ولنذكر مثالا
من المطبوع الخالي عن الصنعة لتفهمه مثل قول قيس بن ذريح

واخرج من بين البيوت لعلني ٭ احدث عنك النفس في السر خاليا

وقول كثير

اني وتهيامي بعزة بعدما ٭ تخليت عما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ٭ تبوأ منها للمقيل اضمحلت

فتأمل هذا المطبوع الفقيد الصنعة في احكام تأليفه وثقافة تراكيبه
فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الاصل زادته حسنا واما المصنوع
فكثير من لدن بشار ثم حبيب وطبقتهما ثم ابن المعتز خاتم الصنعة الذين جرى
بعدهم في ميدانهم ونسجوا على منوالهم وقد تعددت اصناف هذه الصنعة
عند اهلها واختلفت اصطلاحاتهم في القابها وكثير منهم يجعلها مندرجة تحت البلاغة
على انها غير داخلة في الافادة وانما تعطي التحسين والرونق واما المتقدمون
من اهل البديع فهي عندهم خارجة عن البلاغة ولذلك يذكرونها في الفنون الادبية
التي لا موضوع لها وهو رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له وادباء الاندلس وذكروا
في استعمال هذه الصنعة شروطا منها ان تقع من غير تكلف ولا اكتراث فيما يقصد منها
واما العفو فلا كلام فيه لانها اذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان
لان تكلفها ومعاناتها يصير الى الغفلة عن التراكيب الاصلية للكلام فتخل
بالافادة من اصلها وتذهب بالبلاغة رأسا ولا يبقى في الكلام الا تلك التحسينات
وهذا هو الغالب اليوم على اهل العصر واصحاب الاذواق في البلاغة يسخرون
من كلفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواه وسمعت
شيخنا الاستاذ ابا البركات البلفيقي وكان من اهل البصر باللسان
والقريحة في ذوقه يقول ان من اشهى ما تقترحه على نفسي ان اشاهد في بعض
الايام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه او نثره وقد عوقب باشد العقوبة
ونودي عليه يحذر بذلك تلميذه ان يتعاطوا هذه الصنعة فيكلفون
فيها ويتناسون البلاغة ثم من شروط استعمالها عندهم الاقلال منها وان يكون

في بيتين او ثلثة من القصيدة فيكتفى في زينة الشعر ورونقه والاكثار منها
عيب قال ابن رشيق وغيره وكان شيخنا ابو القاسم الشريف السبتى
منفق اللسان العربي بالاندلس لوقته يقول هذه الفنون البديعية اذا وقعت
للشاعر او الكاتب فيقبح ان يكثر منها لانها من محسنات الكلام ومن زيناته
فهى بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها ويقبح بتعدادها
وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية والاسلام كان اولاً
مرسلا معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه شاهدة موازنته بفواصله من غير
التزام سجع ولا اكتراث بصنعة حتى نبغ ابرهيم بن هلال الصابى كاتب بنى بويه
فتعاطى الصنعة والتقفية فاتى من ذلك بالعجب وعاب الناس عليه كلفه
بذلك في المخاطبات السلطانية وانما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد
عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور
المتاخرين ونسى عهد الترسيل وتشابهت السلطانيات بالاخوانيات
والعربيات بالسوقيات واختلط المرعى بالهمل لقلة الاكتراث فيه
باهل البلاغة والحاكم في ذلك الذوق والله خلقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

فصل في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر اعلم ان الشعر كان ديوانا
للعرب فيه علومهم واخبارهم وحكمتهم وكان رؤساء العرب متنافسين فيه
وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول
الشان واهل البصر لتمييز حوكه حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق اشعارهم باركان
البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابيهم ابرهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر
والنابغة الذبيانى وزهير بن ابى سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد
وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع فانه انما كان
يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه
في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك
اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحى وما ادهشهم من اسلوب
القرآن ونظمه فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر
زمانا ثم استقر ذلك واونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى في تحريم
الشعر وحظره بل سمعه النبى صلى الله عليه وسلم واثاب عليه فرجعوا حينئذ

الى ديدنهم منه وكان لعمر بن ابى ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه
عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس رض
فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة
فتقرب اليهم العرب باشعارهم يمتدحونهم بها ويجيزهم الخلفاء باعظم
الجوائز على نسبة الجودة في اشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء
اشعارهم يطلعون منها على الآثار والاخبار واللغة وشرف اللسان
والعرب يطالبون ولدهم بحفظها ولم يزل الشان هذا ايام بنى امية
وصدراً من دولة بنى العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد
للاصمعى في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك
والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والبصر بجيد الكلام ورديه وكثرة محفوظه منه
ثم جاء خلف من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من اجل العجمة وتقصيرها
باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا باشعارهم امراء العجم الذين
ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله
البحترى وحبيب والمتنبى وابن هانى ومن بعدهم الى هلم جرا فصار
غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التى
كانت فيه للاولين كما ذكرناه وانف منه لذلك اهل الهمم والمراتب
من المتاخرين وتغير الحال فيه واصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومذمة
لاهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

فصل في اشعار
العرب واهل الامصار لهذا العهد اعلم ان الشعر لا يختص باللسان العربى
فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في
الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق له
اوميروس الشاعر واثنى عليه وكان في حمير ايضا شعراء متقدمون ولما فسد
لسان مضر ولغتهم التى دونت مقاييسها وقوانين اعرابها واختلفت اللغات
من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت لجيل العرب بانفسهم لغة
خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية
وبناء الكلمات وكذلك الحضر اهل الامصار نشات فيهم لغة اخرى خالفت
لسان مضر في الاعراب واكثر الاوضاع والتصاريف وخالفت ايضا لغة

الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات اهل
الآفاق فلاهل المشرق وامصاره لغة غير لغة اهل المغرب وامصاره
وتخالفهما ايضا لغة اهل الاندلس وامصاره ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع
في اهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن
وتقابلها موجودة في طباع البشر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين
كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين اهل الخليقة بل كل جيل واهل كل
لغة من العرب المستعجمين والحضر اهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله
ورصف بنائه على مهيع كلامهم فاما العرب اهل هذا الجيل المستعجمين عن لغة
سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في ساير الاعاريض على ما كانت عليه
سلفهم المستعربين ويأتون منها بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه
من النسيب والمدح والرثا والهجا ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام
وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم واكثر ابتدائهم في قصايدهم باسم الشاعر
ثم من بعد ذلك ينسبون فاهل المغرب من العرب يسمون ايضا هذا النوع من
الشعر بالبدوي والحوراني والقيسي وربما يلحنون فيه الحانا بسيطة
لا على طريق الصنعة الموسيقارية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم
الحوراني نسبة الى حوران من اطراف الشام وهي من منازل العرب البادية
ومساكنهم الى هذا الآن ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به مغصنا
على اربعة اجزاء يخالف آخرها الثلاثة الاول في رويه ويلتزمون القافية الرابعة
في كل بيت الى آخر القصيدة شبيها بالمربع والمخمس الذي احدثه المولدون
من المتأخرين ولهولاء العرب في هذا الشعر بلاغة فايقة وفيهم الفحول والمتأخرون
عن ذلك والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان
يستنكرون هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا انشد ويعتقد
ان ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا انما
من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له ذوقه وطبعه
ببلاغتها ان كان سليما من الآفات في فطرته ونظره والا فالاعراب
لا مدخل له في البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه
سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول او بالعكس وانما يدل على

هذه القصايد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي
راوية العرب في اشعارهم واهل المشرق
من العرب يسمون
صح

ذلك

ذلك قراين الكلام كما هو في لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه اهل
اهل الملكة فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهرت صحت الدلالة واذا طابقت
تلك الدلالة للمقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة
في ذلك واساليب الشعر وفنونه موجودة في اشعارهم هذه
ما عدا حركات الاعراب في اواخر الكلمات فان غالب كلماتهم موقوفة
ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدا من الخبر بقراين الكلام لا بحركات
فمن اشعارهم على لسان الشريف ابن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان
ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب الشريف ابن هاشم
على الحاظر اكبده تشتكت من زفيرها • تعز للاعلام ابن ما زان خاطر
يرد فلام البدو ويلوي عصيرها • وماذا شكات الروح مما ظرالها
غدات وزايع تلفالله جبيرها قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه
اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل التنقيح والتهذيب
في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعماية ثم
نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به تواريخ الامم كما ذكرته
في اوله وشرطته وما العلم الا من عند الله
العزيز الحكيم الحمد لله على التمام والصلوة
والسلام على رسوله سيد الانام
واصحابه البررة
الكرام

هذه نسخة جامعة لانواع الفوايد المنسوبة الى البليغ الاديب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون
حيث اتى من الدرر المكنون والجوهر المخزون تغمده الله برحمته ورضوانه واسكنه فراديس جنانه
كتبتها برسم خزانة حضرة الصدر الاعظم والدستور الاكرم بحر العلوم النظرية محيط احكام
العلمية الذي استشرف قيمة العلم في زمان دولته الى غاية الغلا واستعلى اصحابه بهمته على
ذروة سنام العلا اعني به حضرة علي باشا يسر الله له ما يشاء اللهم ايده لاعانة المستحقين
وابده لاغاثة المضطرين رحم الله عبدا قال آمين وانا الفقير الى لطفه الخطير محمد الشهير
بموذن زاده اناله الله مراده وذلك لاربع ليال خلون من ربيع الاول لسنة سبع وعشرين وماية والف